



---

10/18

# **أشراق من القرآن الكريم**

## **الجزء الأول**

بقلم

آية الله المجاهد السيد محمود الطالقاني

تقديم وترجمة

الدكتور عباس الترحمان

٢٤٧

طالقانی، محمود، ۱۲۸۶ - ۱۳۵۸.  
اشراق من القرآن الكريم / بقلم محمود الطالقانی، تدریس و ترجمة عباس الترحمان - تهران الهدي. ۱۳۷۹  
ج ۶  
ISBN 964 - 472 - 273 - 6 (دوره) ISBN 964 - 472 - 274 - 4 (ج ۱)  
فهرست نویسی بر اساس اطلاعات فیما  
عربی.  
کتابخانه به صورت زیر نویس  
۱ تفاسیر شیعیه - - فرد ۱۴ الفبا. ترجمان. عباس. مترجم. ب عنوان ح عنوان یرتوی ارقان  
۴۰۴۳ پ ۲ ط / BP ۹۸ ۲۹۷/۱۷۹  
کتابخانه ملی ایران ۱۳۷۹  
م ۷۹ - ۱۰۰۳۱

مؤسسة الهدی للنشر و التوزيع  
ص. ب: ۴۳۶۳ - ۱۴۱۵۵  
تلفون: ۶۴۰۶۲۶۱ فاکس: ۶۴۰۶۲۴۰



الكتاب: اشراق من القرآن الكريم / الجزء الاول  
المؤلف: آية الله السيد محمود الطالقانی  
الناشر: مؤسسة الهدی للنشر و التوزيع  
المترجم: الدكتور عباس الترحمان  
الطبعة: الاولى ۱۴۲۱ هـ - ۲۰۰۰ م  
الكمية: ۲۰۰۰

السعر: ۱۴۰۰ تومان

ISBN 964 - 472 - 274 - 4

جميع الحقوق محفوظة للناشر

## مقدمة المترجم

### هذا التفسير ومفسّره

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الحمد لله ربّ العالمين، والصلاة والسلام على عبده خاتم الأنبياء والمرسلين، سيّدنا أبي القاسم محمّد وآله الطاهرين، والطيّبين من أصحابه أجمعين.

أمامك أيّها القارئ العزيز كتاب اسمه «اشراق من القرآن»، وهو اسمٌ على مسمّى، وستثبت لك الصفحات النيرة القادمة صدق هذه التسمية، وهو نموذج متطوّر من نماذج كتب التفسير الكثيرة، لم يسبق له مثيل في منهجه وموضوعه. واتجاه خاص الى القرآن بكلّ معانيه من المحكمات والمتشابهات، والناسخ والمنسوخ، والقصص والأحكام. عرّج فيه المؤلّف - رضوان الله عليه - بأفكاره المجرّدة عن الدنيا ولذائدها في معارج القرآن الكريم، وتطلّع إلى بعض شهب معانيه البعيدة عن العيون المجرّدة عن التلسكوبات الفكرية، التي تساعد على اكتشافها في سماواتها اللامتناهية، فراح يسطّر لآلته التي اكتسبت نورها ولمعانها من هذه الشهب الزاهرة على هذه الصفحات الناصعة.

وكانت فرصته السانحة التي اغتنمها لتكريس جهوده في هذه المجلدات الستة سجنه من قبل جلاوزة الشاه، خلال السنوات التي قضاها في السجون المتكررة بعيداً عن

١٤- اعتمد على تفاسير الفريقين الخاص والعام على السواء، فأينما وجد ضالته أخذها، ولا سيما على تفسير الصافي للعلامة الشيخ محسن الفيض الكاشاني.

١٥- والاسلوب الطريف في شرحه وتفسيره هذا هو أن يوصل شرحه وكلامه عن الآية السابقة بالآية اللاحقة، ولم يجعل فاصلاً تفسيرياً بين الآيتين أو العبارتين، مما يجعل موضوع التفسير وحدة متكاملة متناسقة مترابطة الحديث.

فهو بحق شرح وتعليق على القرآن الكريم بأسلوب عقلي علمي فني عصري، لم يسبق له مثيل في التحليل والتعليل في عالم التفاسير، يفتح للقارئ نوافذ على آفاق جديدة من معاني هذا السفر الإلهي العظيم.

#### سبب الترجمة:

ولما كان - رحمه الله تعالى - يعيش بين ظهرائي الشعب الإيراني المسلم، كتب كتابه هذا باللغة الفارسية باسم «پرتوی از قرآن»، وبمجرد أن طبع وصدر إلى الأسواق، وغاصت الأفكار في بحار معانيه، وارتوت من فيض أنوار لآله، تلاقته القلوب قبل الأيدي، مما أدى إلى طبعه ثانية وثالثة. فرأينا من الجدير به ألا يقتصر على اللغة الفارسية، وإنما يجب أن ينسج هذا النور على أبناء الضاد من برج اللغة العربية العريقة، فبادرنا إلى ترجمته إلى اللغة العربية بتشجيع وانفاق من مؤسسة «شط» في طهران.

والكتاب - كما قلنا - لا يقتصر على التفسير المجرد الجاف، وإنما يضم بين دفتيه تعليقات وشروح مهمة جداً، هي التي منحت هذا التفسير الحيوية، وأضفت عليه حُلَّةً قشبية جديدة، ساعدت كثيراً على الوصول إلى بعض دقائق معاني هذا الكتاب المعجز المقدس.

ومن المؤسف أن القدر الحتمي لم يمهّل المؤلف لإكمال هذا التفسير الفريد من نوعه، فقد كتب الجزءين الأول والثاني في السجن، تناول فيهما سورتي الفاتحة والبقرة، ثم كتب القسم الثالث والرابع منه في تفسير الجزء الثلاثين من القرآن الكريم في فترة أخرى

من سجن آخر، وكتب القسمين الخامس والسادس في سورة آل عمران وأوليات سورة النساء في خارج السجن في المنفى ثم في السجن.

تأييد قائد الثورة الإسلامية في إيران الإمام الخميني وتوصيته لابنه بمطالعة هذا التفسير:

قال «السيد محمود دعائي» وهو أحد ملازمي الإمام عندما كان في النجف الأشرف حول هذا الموضوع ما ترجمته:

«... قد أشرت في إحدى المقالات إلى أنّ السيد الإمام كان في النجف الأشرف متفرغاً للمطالعة الكثيرة، وكان أكثر ما يطالع الكتب الإسلامية والاجتماعية للمحققين المجددين بشوق وتدقيق. وقلماً يقبل كتاباً بمجموعه أو يحدّ الآخرين على مطالعته. وكما تعلمون أنّ الإمام لم يقرّظ كتاباً إلى الآن، وبهذه النسبة - طبعاً - لم يخطئ كتاباً أو كاتباً أيضاً، إلّا أن يكون فيه خلافاً واضحاً. وما رأيته بنفسه من تأييد الامام المطلق والتأكيد على المطالعة هو حول كتب المحقّقين العالمين الإسلاميين الشهيد مطهري والمرحوم آية الله الطالقاني. وكنت قد قدّمت «پرتوي از قرآن» لحضرته ليطالعه. فبعد مدة سمعت من نجله الشهيد المرحوم الحاج السيد مصطفى أنّ الامام أوصاه وأكد عليه بضرورة مطالعة هذا التفسير، وأن يستلهم منه أسلوب الاستنتاج التفسيري في التفسير الذي كان مشغولاً بكتابته (لأنّ المرحوم الحاج السيد مصطفى كان آن ذاك مشغولاً بكتابة تفسير للقرآن)، إنّ وصيّة الامام بمطالعة هذا التفسير، وتأييده المطلق كان جاداً إلى حدّ أن المرحوم الحاج السيد مصطفى كان متعجباً مع علمه بأنّ الامام يتبع أسلوب الاحتياط بالنسبة للأشخاص وكتاباتهم...» مع الاحترام - محمود دعائي.

أما ما قمْتُ به بالإضافة إلى الترجمة والتقديم فيتلخّص بما يلي:

١- لم يأت المؤلف - رضوان الله عليه - غالباً بالنصّ العربيّ للآيات أو الأحاديث التي يستشهد بها، بل يأتي بترجمتها الفارسية، مما دفعني إلى البحث واستخراج النصّ

- العربي من مظانّه قدر الإمكان، ليكون مطابقاً للأصل.
- ٢- دَوّنت بعض التعليقات للإيضاح أو الإضافة.
- ٣- قمت بشرح المفردات بدلاً من الترجمة الفارسية، لأنّ المؤلف أوردّها بالفارسيّة.
- ٤- ترجمتُ الآيات الفارسيّة من المثنويّ وغيره إلى آيات عربيّة.
- ٥- وضعتُ علامات التنصيص للآيات أو الكلمات أو الحروف التي يريد البحث حولها، ليتبيّن أنّ الكلمة أو الحرف من أصل النصّ القرآني، بينما جاءت درجاً وبدون تعليم وتنصيص في الأصل الفارسيّ.
- ٦- بدأت من أول السطر فيما يلزم الابتداء به من استئناف الجملة أو الموضوع.
- ٧- حرّكت الآيات القرآنية ووضعتها بين علامتي التنصيص.
- ٨- لم أفرط بشدّة أو همزة أو حركة لازمة في الترجمة لإزالة اللبس والاشتباه.
- ٩- وضعت علامات الترقيم من نقاط وفواصل وعلامات استفهام وتعجب وشرح واعتراض وغيرها، ليتّضح معنى الجملة بصورة أكثر.
- ١٠- أضفت الكلمة أو العبارة التي رأيته لازمة، ووضعتها بين خطّين معقوفين [].

### وأما المفسّر:

فهو السيّد محمود بن السيّد أبي الحسن الطالقاني، الفقيه المحدث والمفسّر والمجاهد المحنّك، والسياسيّ الصلب الذي لم يلقُ أمام طواغيت زمانه، وتحمل السجون والتعذيب والنفي في نصر عقيدته الإسلاميّة، واعلاء كلمة الله، وهو بعدُ لولب حركة الثورة الإسلاميّة في إيران.

وُلد يوم السبت الرابع من شهر ربيع الأوّل لسنة ١٣٢٩ هـ ق في قرية (كُلي رُد) من قرى مدينة طالقان.

كان المرحوم والده السيّد ابو الحسن الطالقاني من تلامذة السيّد محمد حسن الشيرازي الكبير نزيل سامراء المقدّسة، فنشأ ولده تحت ظلّ هذا الوالد في العلم



والسياسة. وكان والده يعقد في بيته ندوات سرّية، يحضرها لفيف من المجاهدين المسلمين، منهم السيّد حسن المدرّس، وكانوا يتداولون البحث حول الوقوف بوجه استبداد «رضاخان» قبل أن ينصب نفسه ملكاً على إيران. ينقل المؤلف - رضوان الله تعالى عليه - فيقول: كنتُ في السنّ العاشرة إلى الثانية عشرة عندما كان والدي يعقد هذه الندوات، فكان والدي يوقفني بباب الدار، لكي أخبرهم فيما إذا اقترب البوليس من الدار، وفي أحد الأيام رأيت البوليس قادماً نحونا، فبادرت بسرعة وأخبرت والدي، فسرعان ما حوّل ذلك الاجتماع إلى حالة تضرّع ودعاء، وأخذوا يهتفون بالآية الكريمة ﴿أَمَّنْ يُجِيبُ الْمَضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ السُّوءَ﴾ بصوت عال، ويُداهِمُ البوليس الدار، فيراهم يدعون ويتضرّعون، وكلما ينادي رئيس البوليس أبي، ويقول له: من فضلك، لي معك كلام. لم يعتن به أبي، ويستمرّ في دعائه، ويردّد «أَمَّنْ يُجِيبُ...» وعندما رأى رئيس البوليس وضع الحاضرين وتضرّعهم لله تعالى، اضطر إلى تركهم ومغادرة الدار. وأخيراً أمر رضاخان بغلق هذه الندوة، وكنتُ قد اختفيت مع أبي في بساتين «شميران».

وكان والده - رحمه الله - لا يرتزق من سهم الامام، بل كان يصلّح الساعات، ويأكل من كدّ يمينه.

قضى المؤلف دراسته الأولى والمتوسطة ونال درجة الاجتهاد في المدرسة الرضوية والمدرسة الفيضية في مدينة قم المقدّسة. وكان قد انتقل إليها منذ بداية تأسيس الحوزة العلمية في «قم» من قبل آية الله الفقيه الشيخ عبد الكريم الحائري، حيث قدّمه زوج أخته المرحوم السيد محيّي الطالقاني إلى الشيخ عبد الكريم المذكور، واستمرّ بدراسته حتى نال درجة الاجتهاد على يد المرحوم الشيخ عبد الكريم الحائري. ومن شيوخه المرحوم آية الله السيّد محمد الحجّة، والمرحوم آية الله السيّد محمد تقي السبزواري.

قلنا: إنّه بدأ نشاطه السياسي منذ العاشرة من عمره، وظلّت هذه الروح تتوقد فيه وتشتدّ يوماً بعد يوم. وكان عندما يعود إلى طهران يطلب منه بعض الشبان أن يعقد لهم مجلساً لتفسير القرآن، فاستجاب لهم، وكان يعقد مثل هذه الندوات رغم منع رضاخان

الشديد لمثل هذه الاجتماعات والندوات.

وفي سنة ١٣١٨ هـ ش يرى المؤلف شرطياً يحاول سلب أزار احدى النساء بالقوة، فينبري للدفاع عن المرأة، ويستتبك مع الشرطي، حتى يؤدي موقفه المشرف هذا إلى الحكم عليه بالسجن، بحجة اهانة مأمور الحكومة في حال القيام بواجبه!!

وبعد خروجه من السجن يستمر في عقد مجلس التفسير، وفي عام ١٣٢٠ هـ ش. يؤسس جمعية باسم «كانون اسلام» أي دار الاسلام، وكان يلقي في هذه الجمعية الخطب الحماسية لارشاد الناس، وتوجيههم توجيهاً اسلامياً، وقد أصدرت هذه الجمعية مجلة باسم «دانش آموز» أي التلميذ، وكان من المساهمين في تحرير هذه المجلة وإعدادها المهندس مهدي بازركان أول رئيس للوزراء في الجمهورية الاسلامية في ايران، والدكتور سحابي اللذان بدأت مسيرتهما الجهادية مع السيد الطالقاني من هنا الى نهاية حياته. وبالطبع كانت لهذه الصداقة جذور، فإن أبا المهندس مهدي بازركان، المرحوم الحاج عباس قلي بازركان، والمرحوم أبا السيد الطالقاني كانا يعقدان اجتماعاً في مدرسة «مروي» بطهران، للإرشاد ودعوة أهل الكتاب، والفرقة البهائية الضالة الى الاسلام.

إن الحديث عن نشاط السيد الطالقاني السياسي وجهاده الاسلامي يحتاج الى كتاب خاص به، وعسى أن نوفق في المستقبل لثبت مواقفه الجهادية المشرفة في سبيل الاسلام والمسلمين.

لم ينش عزمه عن مقاومة الطاغوت، ولذا فقد حكم بالسجن لعدة مرات، منها أنه حكم عليه بالسجن لمدة عشر سنوات سنة ١٣٤٢ هـ ش. وهنا عندما قرئ قرار الحكم عليه وعلى المتهمين معه في هذه المحاكمة الصورية الظالمة، التي كانت كلها كذباً وافتراءً، انتفض السيد الطالقاني - رضوان الله تعالى عليه - ونادى رئيس المحكمة ومرافقيه - بلهجة الأمر القوي: وكانوا يحاولون مغادرة قاعة المحكمة: قفوا. فوقفوا جميعاً، فقراً:

### بسم الله الرحمن الرحيم

﴿وَالْفَجْرِ، وَلَيَالٍ عَشْرٍ، وَالشَّفْعِ وَالْوَتْرِ، وَاللَّيْلِ إِذَا يَسْرِ، هَلْ فِي ذَلِكَ قَسَمٌ لِذِي حِجْرٍ، أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ، إِرَمَ ذَاتِ الْعِمَادِ، الَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي الْبِلَادِ، وَثَمُودَ الَّذِينَ جَاءُوا الصَّخَرَ بِالْوَادِ، فَرَعُونَ ذِي الْأَوْتَادِ، الَّذِينَ طَعَوْا فِي الْبِلَادِ، فَاكْثَرُوا فِيهَا الْفَسَادَ، فَصَبَّ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ سَوْطَ عَذَابٍ، إِنَّ رَبَّكَ لِبِالْمِرْصَادِ...﴾.

وبعد تلاوة هذه الآيات، قال لهم: اذهبوا وقلوا لآسيادكم: أنتم المحكومون، لانحن!! وكانت فترة سجنه الأخيرة من أغنى فتراته البنّاءة، فقد حوّل السجن الى جامعة درس وتفسير للقرآن الكريم، فكان له ثلاث ليال في الاسبوع يتحدث فيها لمرافقيه في السجن. وأخيراً يضطر النظام الحاكم بناءً على ضغط الرأي العام الى إطلاق سراحه، ومعه المهندس مهدي بازركان سنة ١٣٤٦ هـ. ش ولكنّه يبادر الى نفيه سنة ١٣٥٠ هـ. ش الى «زابل». وبعد عودته الى طهران يستمرّ في نشاطه الجهادي ضد النظام القائم والصهيونيّة، مما اضطر النظام الى سجنه وتعذيبه، والحكم على ابنته «أعظم» بالسجن المؤبد، لالشيء، سوى أنّهم كانوا يريدون تعجيز أبيها، وجرّء الى هاوية الخنوع والاستكانة، ولكنّه لم يبال ولم يستكن، بل ظلّ يقاومهم بأشدّ ما يمكن من المقاومة.

وبعد أربعين عاماً من السجون والتعذيب والمشاق والنفي، تفتتح أبواب سجن «قصر» بوجهه عشية الثامن من شهر «آبان» لسنة ١٣٥٧ هـ. ش يقول - رحمه الله - عندما أُطلق سراحه تلك العشية، وخرجت من السجن، رأيت بعيني ما كنت أسمعه من ولادة الجماهير من جديد، فشعرت بنفس اللحظة بأنّي أواجه أناسا آخرين، منتفضين، قد نزعوا رداء الغفلة والركود، متجهين نحو الغاية من المبدأ «الله» وفي مسيرة «لا إله إلا الله»، خلف السالك الواعي «روح الله». وكنت قد قصدت ان أذهب في تلك الليلة لزيارة الشيخ

رحمة الله على أبيه العظيم، الذي كان على رأس المتقين، وعلى روحه حيث كان  
عَصَدَ الثورة القويّة. أقدم تعازيّي الى الأُمّة الاسلاميّة، والشعب الايرانيّ، واسرته الكريمة،  
والبقية الباقية من عائلته بهذه الخسارة الفادحة.

رحمة الله عليه وعلى جميع المجاهدين في سبيل الحق. والسلام على عباد الله  
الصالحين.

روح الله الموسوي الخميني

١٨ شوال ١٣٩٩ هـ. ق - ١٩/٦/١٣٥٨ هـ ش

فالحديث عن حياة المغفور له السيّد محمود الطالقاني (قدّس سره) حديث ذو  
شجون، رحمه الله تعالى، وحشره مع أجداده الطاهرين عليهم السلام، والسلام عليه يوم وُلِدَ،  
ويوم مات، ويوم يُبعث حيّاً.

عباس الترجمان

طهران

١٤ رجب / ١٤٠٨ هـ. ق.

## مقدمة المؤلف

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

«الحمد لله الذي أنزل على عبده الكتاب ولم يجعل له عوجاً، قيماً لينذر بأساً شديداً من لدنه ويبشر المؤمنين الذين يعملون الصالحات إن لهم أجراً حسناً». صلوات الله وبركاته على الذي أنزل عليه القرآن ليكون للعالمين نذيراً، وللذين آمنوا وعملوا الصالحات بشيراً، وعلى آله وأهل بيته الذين هم خيرة خلقه وحفظة رسالاته.

### القرآن؟!

نزوله من عالم الملكوت الأعلى، ظهوره في جمال عبارات أسمى من البلاغة، وتأثيره البليغ في الهداية، لهو مما يبهّر العقول ويسحر الأبواب؟! الكتاب الذي نور بهدايته زوايا الروح والفكر والنفسيات وصلات واجبات الجماهير وحقوقها مع بعضها، والكل مع الخالق، والأعمال بالنتائج، وساق النفوس نحو الصلاح والإصلاح، وأيقظ القابليات من سباتها وحركها، وأجرى خيرات الطبيعة مرافقة لإصلاح النفوس واستخدام القابليات وجعلها في متناول الجميع.

استقطب الأفكار، وفتح المجال للنظر، وألهم في القلوب شعلاً من الإيمان، وأزال ظلم الأوهام والرعب والاحقاد، وحطم الأغلال التي قيدت العقول والأفكار والأيدي

طيلة قرون الجاهلية المتمادية التي استعبدت الجماهير لغير الله. وحلَّ عَقْدُ التخلّف، وأزال الحرمان عن الضعفاء، وفتح بوجه الجميع طرق الإلتذاذ المشروع من اللذائذ المادية والمعنوية. وأحدث - بالتطوّر النابع من أعماق النفوس والضمائر - طفرة في الأفكار والأخلاق والآداب، ونسّق العناصر المختلفة غير المتجانسة مع بعضها وقرب الفوارق بينها بإزالة الأوهام والعصبية، ووحّدها، وأقام منها مجتمعاً قوياً متماسكاً تقدّم بخطوات ثابتة، وضمائر يقظة، وألسن يتعالى منها صوت التكبير التحريري، وأيدٍ تحمل دستور الحياة العام، وظلّ الرحمة، وطاقير السعد، وأكفّ فولاذية كانت تحمل سيوف العدل اللامعة، نحو عالمٍ منفصم عن بعضه، وأنظمة وضيعة، ومناطق الظلم والجور.

وألوا - بفترة قصيرة - حجب الشرك السميكة، وأشباح السلطات من أمام أعين الجماهير المظلومة المرعوبة. وانهارت أمامهم قلاع الظلم الطبقي ومتاريسه، وأذاعوا صوت التكبير والتوحيد من على ذروة أمتع قصور الوثنيين ومعابد الأوهام ومراصد الكهنة، فطأوا بصوت الحق والحرية هذا رؤوس الجبابرة، ورفعوا رؤوس الأرقاء وسكنة الأكواخ وحرّموهم.

أزالوا الفوارق من بين الطبقات، فاجتمع سكّان البادية الرُحَّل من الأخبية وزوايا الصحراء ليقودوا سكّان المدن المتمدنين إلى نظام إلهي سام وعدل عام بمشاعل الهدى التي أشعلها في صدورهم هذا الكتاب، ولينقدوا عامة الجماهير من تحت ضغط القوانين البشرية الوضعية التي فُرِضت لصالح الطبقة ضدّ العامة ومن برائن الطبقات الحاكمة الدموية، وإعادة شخصيتهم الإنسانية إليهم، والسموّ بالقيم الإنسانية.

وزال الإفراط والتفريط في الرغبات المعنوية والمادية، والتجاذب والتضاد بين الاحتياجات الروحية والغرائز الجنسية من نفوس حملة هذه الرسالة والعاملين بهذه الشريعة وذلك بتعاليم هذا الكتاب وأحكامه.

وبالنظر إلى الدوافع المتخلفة وإنجاز الطلبات المشروعة بادروا إلى تهذيب الأخلاق،

وتزكية النفس، وتحكيم العقل، وأزالوا الفوارق بين سكنة الأديرة والمستضعفين الزاهدين في الدنيا، وبين عبدة الدنيا والمال والشهوات، وفتحوا العيون للنظر إلى صلة المادة بالمعنى، والدنيا بالآخرة وتلازمهما، وسلكوا الطريق في الصراط المستقيم من إعمار الدنيا والسير نحو الآخرة، وأزالوا عدم التناسق بين الجسم والروح.

إنّ هذا التوحيد في العقيدة والهدف والتفتّح في النظر إلى العالم، هذا التطوّر النفسي والتناسق بين القوى النفسيّة، وبقطة القابليات، وفوران ينابيع الفضائل، وإزالة الفوارق الوهميّة المصطنعة، وإتساع ظلال العدل، والقدرة على البناء والإبداع، كان كلّ من آثار أشعة القرآن المباشرة على زوايا النفوس ونوره الهادي.

فكما أنّ النور والهواء والغذاء من ضروريّات الكائن الحيّ ولوازمه من أجل استمرار الحياة وتربية الجسم، فإنّ استمرار الحياة المعنوية والتكامل في جميع نواحي الحياة، تستلزم الهداية كضرورة لجهاز الانسان المعنويّ، فإنّ القسم المهم من جهاز الانسان الجسميّ يشكّله المخ والمخيخ وشعيرات الأعصاب المتشعبة منه، التي هي بمثابة شبكة استوعبت جميع أنحاء الجسم، وربطته بالمخ. إنّ خلايا المخ والأعصاب أعقد خلايا الجسم وألطفها وأسمّاها، وقدرة نشاطها في كل ناحية غير محدودة ولا تقاس بظروف الحياة الجسميّة.

إنّ هذا الجهاز الجسمي الغامض المتشعّب لا يمكن أن يكون آلة لتأمين الغذاء والشهوة واللذة الجسميّة المحدودة فقط، فهو في المرحلة الأولى الواسطة للصلة مع المحيط الخارجي ومعرفته، ليقوم بتحليل المحسوسات والمدركات وتركيبها عن طريق الحواس والادراك، ومعرفة كل شيء مهما أمكن، ويتقدم في سبيل الاستفادة وفهم فوائد الموجودات وصلاتها ونتائجها. فإن الانسان بمجرد أن يأتي إلى الدنيا يحاول بواسطة هذا الجهاز الجسمي وموهبة العقل والاختيار الفطريّ أن يخلّص نفسه من الجهل بالنسبة لنفسه والمحيط والعالم. ويحاول أيضاً مزامناً مع أوائل حركات الأمواج النوريّة الشفافة، وعمل أجهزة التنفّس، ودوران الدم والحاجة إلى الغذاء - أن يفتح عينه على المحيط، وأن

يتعرّف - مهما أمكنه - على ظواهر ما يحيط به ومميّزاته وحدوده، بالوقت الذي يريد الطفل ان يفتح عينيه، و يصمد بوجه هجوم النور، يريد العقل الفطريّ وجهاز المخ والأعصاب أن يسجّل المنظورات والمسموعات أيضاً، وأن يدرك الحدود الذاتية والواقعية لكل شيء ويدرك آثارها وفوائدها.

عندئذ يريد أن يصل من اللاشعور الى الشعور، ولذا يبحث عن نفسه وعلله الوجودية والغائية، ويريد أن يستخدم كل ما عرفه وسيطر عليه في تحقيق غايته المنشودة. وهذا البحث والتقدم يستمرّ مادامت غرائزه المستيقظة المتحركة وتأثيراته من المحيط لم تنهيه عن ذلك. ولكنّ جميع الناس - سوى عدّة معدودة - تتغلّب عليهم الغرائز والمحيط مع وجود العقل والإختيار، فيختارون دائماً مقاصد من بين الافكار المحدودة المتفاعلة مع المحيط وحركات الغرائز والعقد الخفية، وربّما ربّثوا لها مقدمات على شكل أدلّة وبراهين ليثبتوا صوابها، وفي هذا المحيط الباطني المحدود يسير العقل الحرّ المتحفّز - رضي أم أبى - خلف الغرائز الحيوانية الوضيعة، ويرجع عن الطريق الذي اتخذه نحو الكمال بعد التطوّر، وتجبرّ قوى التفكير ميدان التنازع من الباطن إلى محيط الحياة الخارجية، فيكون الانسان بواسطة الأفكار المجهولة ونوازع الغرائز المضلّة أضلّ من الحيوان: «أولئك كالأنعام بل هم أضلّ سبيلاً»، فلا هو كالحيوان المشدود الى الغرائز يبقى محدوداً، ولا هو كالانسان المؤمن العاقل المتحفّز يجد أمامه طريقاً واضحاً.

وبعبارة أخرى: إنّ الفكرة الحرّة والاختيار في العمل من مميزات الإنسان، يفكر ليفهم، يفكر ليصوّر شكلاً مُجَمَّلاً أو مفصّلاً من غايات أعماله وتنتائجها، ثم يقرّر فيها يعمل فيحصل له العزم على ذلك، ولهذا قيل: «إن الغايات متأخرة في الوجود الخارجي و التحقق، ومتقدمة في التصوير والإثارة وتكون مصدر نشاط الفاعل دائماً»، وكلما كان المحرّك والمثير - الذي هو الفكرة الغائية - أفضل وأوضح كان العزم على العمل أكثر تركيزاً، وأقل قلقاً، ومحيط العمل وانعكاساته أوسع، وآثاره ادموم، لأن ادراك الواقعيات والفوائد والمصالح كما هي وتصورها التام، والانتقياد له الذي هو مصدر العزم والارادة،



خارج عن نطاق العقول المحدودة المحكومة وانطباعاتها، وعليه يجب أن تنعكس على العقول والنفوس أشعة هداية فضلى، لتشمل حدود الموجودات إلى حدّ الامكان، وتوضح غايات الاعمال ونتائجها، لتأخذ بيد الانسان الذي هو ظاهرة مفكرة وحرّة، وتفضّل الشخصية الانسانية، وتسوقه نحو الخير والصالح والبقاء.

وإن لم تشع مثل اشعة الهداية هذه على النفوس، تزول القيم الانسانية التي هي العقل والاختيار والارادة، وتستخدم آثار الموجودات وفوائدها حتى العلوم والآثار العلمية في طريق الفساد والإفساد، ويكون مجال نظرة العقول محدوداً، ولا تظهر قابلياتها كما ينبغي، ولا تحصل طفرة في طريق التكامل، وعليه فإن الهداية الفضلى هي التي تتمكن من قيادة العقول ذات القابلية إلى الغايات المطلقة والنسبية لكل ظاهرة، وتفتح جهاز الانسان وقواه المعقّدة وتنسّقهما، وتدفع العلم والأفكار نحو المحيط والحياة بصورة أفضل، لذا اختير العظماء من الرجال والأنبياء متزامنين مع ظهور العقل المستقل ومن أجل تقدّم القابليات، وأدوا هذه الرسالة الضرورية التي هي كسائر الضروريات الحيوية في مستوى قابلية العقول، وإن كان للعلماء والمصلحين الكبار دور كبير في إعداد النفوس والعقول، لكنهم لما كانوا محكومين لبيئتهم ومحيطهم ومحدودين بالزمان، ومختلفين في فهم الحقوق والواجبات والغايات دائماً لم يتمكنوا من أن يكونوا هداةً، ولا يعرفون أيضاً بهذا اللقب، ويلقبون بالفيلسوف والمحقق والمخترع والمكتشف لا غير<sup>(١)</sup>. وطلعت آيات

(١) يقول الدكتور «الكسيس كارل» في كتاب «الانسان الموجود المجهول»: لا يعلم رجال العلم وسالكو طريقه بصورة مسبقة إلى أين ينجذبون وعلى أية نتيجة يحصلون. فالصدفة والتأمل وربما النظرة الناقية تقودهم، وكأنما كلّ واحد منهم دنياً لوحده، يدار بانظمة خاصة به، تارة تتضح لهم أمور مستعصية تخفى على غيرهم، والاكتشافات بصورة عامة حدثت بدون علم بنتائجها، ولكن هذه النتائج موجودة في العمل والتي عكست صورتها على حضارتنا الحديثة وقد «اخترنا» ما اخترناه من بين الاكتشافات العلمية الكثيرة المكشوفة، ولكننا لم نعتن بهذا الاختيار بصالح الانسانية السامية، بل انحدرنا وراء رغائبنا وشهواتنا فقط، وكان همّنا الوحيد دائماً تحقيق قاعدة «راحة أكثر في مقابل جهد أقل» والسرعة في العمل وتنوّع الحياة المطلوبة وتلوّنها، ولم يسأل أحد نفسه كيف يتحمّل الانسان هذه العجلة وعدم التناسب لتجملات الحياة الناتجة من وسائط الحمل والنقل السريعة والبرق والتلفون والماكنات الكاتبة والحاسبة والتي تؤدّي الأعمال البيئية بسهولة؟! إن الاهتمام العام بالطائرة والسيارة والسينما والتلفون والراديو والتلفزيون

القرآن الأبدية متزامنة مع استعداد نفوس العامة لاستيعاب الهداية المطلقة. الآيات التي تضيء أشعتها المباشرة النواحي النفسية المختلفة والحدود والحقوق والصلوات العامة والغايات الوجودية، وتحلّ المشاكل والالتواءات في كل زمان ومكان، فهذه الهداية الكاملة المطلقة بذاتها هي عنوان القرآن ومعرفه: «هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ»، وهذا هو سرّ الأبدية والخاتمية.

إنّ نور الهداية هذا الذي جاء على شكل آيات وكلمات، سجّله حاملوه وأتباعه في صفحات كتاب ذاكرتهم ورثلوه بصورة مستمرة، واستمر بالتقدّم خلال القرون المتتالية كالأمواج القادمة في صعود وهبوط، وخلال هذه القرون يُتلى ليلَ نهارَ في المجالس والحفلات وعند الصلاة بصورة متتالية (وبواسطة وسائل البثّ والإعلام في عصرنا)، ليأخذ مكانته في مخازن الأفكار والنفوس، وليتصل بالأجيال القادمة عن طريق اسلاك التلاوة الموصلة الرابطة، ويوضّح كل موضوع حيويّ معقّد وكل زاوية من زوايا الحياة بما يتطلّبه الزمان والحاجة.

### نظرة في نزول الآيات، وجمع القرآن وتدوينه وتفسيره:

أوائل الآيات النازلة في غار حراء على الرسول الكريم ﷺ هي الآيات الأولى من سورة «العلق» (واعتبر البعض سورة الفاتحة لوجوب قراءتها في الصلاة)، ثم سورة

= جاء بسبب تلك الرغائب الطبيعية التي كانت تؤدّي إلى تناول المسروبات الروحية (كما يسمونها) في قلب القرون المظلمة. فمكثفات الهواء بالبخار الساخن، والإنارة الكهربائية والمساعد الكهربائية، والمواد الغذائية المصطنعة، والأخلاق البيولوجية المقتصرة على ما تفيد الراحة واللذة، كل هذه الأمور موضع اهتمام العامة، ولكن بدون أن تكون لها نتيجة مؤثرة وحاسمة على الانسان المطلوب.

وموضوع المؤسسات الصناعية وتأثير المعامل على نشاط العمال الجسمي والنفسي بصورة تامة طُرِحَ في سلّة المهملات، وإن الصناعة الحديثة التي تعتمد على قاعدة «زيادة الانتاج في مقابل رأس المال» من أجل إنراء أصحابها اتسعت بدون أن يهتموا بجيلة العمال الذين يسفلون الماكينات، وكذلك بدون أن يفكروا بما لحياة العمال المصطنعة هذه من تأثير على أجسامهم وأجيالهم. ومن جهة أخرى فإنّ بنايات المدن الكبيرة تتعالى أيضا بدون رعاية ما تقتضيه الحال، ويحاولون - في خارطة البنايات - أن يستفيدوا من كل سبر من الأرض، وبهذا الترتيب قاموا ببناء العمارات الضخمة ليتمكنوا من إسكان أكبر عدد ممكن فيها...

«المدثر والمزمل» أو آيات منهما، وبعد انقطاع الوحي لمدة سنوات ثلاث أو سنتين ونصف عكست سورتي «الضحى» «والانشراح» أشعتها، ثم تتالى بعدها نزول السور القصار ببلاغة خاصة ومعان مضغوطة، وبيان قواعد التوحيد، وأسلوب الدعوة وطريقتها وإظهارها قبتها، وإعلان تطوّر العالم العام، وبقاء الانسان، وتبديل النشآت وتكميلها، وظهور جزاء الاعمال والاسرار الباطنية.

كانت هذه الآيات تنفذ إلى قلوب الجماهير القطرية وتحدث فيهم هزة عظيمة وتفتح أعينهم وعقولهم، وتزيل حجب الشرك والأوهام من أمام انظار أبصارهم لينظروا إلى قدرة الله العظيم وظهور آياته في جميع أنحاء العالم، ويعتقدوا - بعكس ما كانوا يتصوّرون - ببقائهم وفناء العالم.

وعندما جاء موضوع الهجرة، واتصل المسلمون ببعضهم، وتمركزوا في يثرب (مدينة الرسول)، نزلت الآيات والسور التي تبيّن الحقوق والواجبات وأصول القوانين والأحكام والعبادات وخطط الجهاد في مناسبات معينة<sup>(١)</sup>.

فالمسلمون الجدد الذين فتحوا أعينهم تَوَّأ بالقرآن كانوا يحفظون كل سورة وآية تنزل بشوق وإقبال، وكان الغالب منهم يسجلها على صفحات ذاكرته، والذين كانوا يعرفون القراءة والكتابة كانوا يكتبونها على الرقّ والجلود والورق والأحجار المستوية وعظام الأكتاف، وكانوا ينظمون الآيات النازلة المتفرقة بأمر من الرسول الكريم ﷺ مع بعضها في السور، وبهذا الترتيب كتب المسلمون الذين كانوا بحضرة النبي الآيات النازلة إلى آخرها حسب امكانياتهم، وحفظوها في ذاكرتهم<sup>(٢)</sup>.

(١) الظاهر من تدبر الآيات والروايات هو أنّ القرآن انعكس في البداية بصورة مجموعة وتامة على قلب الرسول الكريم (ص)، ثم نزل نجوماً بحسب الحوادث الطارئة، وكان نزول القرآن التدريجيّ يجلب انتباه المسلمين دائماً إلى مصدر الوحي، ويهب لهم القوة والحركة شيئاً فشيئاً.

(٢) ذكر المؤرخون المحدثون عدد كتّاب الوحي ورسائل الرسول وأوامره إلى ست وعشرين وحتى اثنين وأربعين كاتباً وذكروا أسماءهم، والمتيقّن المنةورهم: ١- أمير المؤمنين علي عليه السلام - ٢- زيد بن ثابت الانصاري الخزرجي. ٣- عبد الله بن مسعود. ٤- أبو زيد. ٥- أبي بن كعب الانصاري. ٦- عبد الله بن ارقم. ٧- الزبير بن العوام. ٨- حذيفة بن اليمان. ٩- علاء بن عقبة. ١٠- خالد بن سعيد. ١١- معيقب بن

وجاءت فتنة مسيلمة الكذاب بعد وفاة الرسول ﷺ وفي زمان خلافة أبي بكر وقُتِل كثير من القراء وحفظه القرآن في حرب اليمامة الدموية، هذه الحادثة أقلقت المسلمين خشية أن تذهب البقية الباقية من القراء فيذهب بعض الآيات من الذاكرة إلى الأبد.

هذا القلق دفع المجلس الاسلامي الأعلى إلى العزم على جمع القرآن وتدوينه، وبعد المداولة والمشاورة جمعوا حفظه القرآن والقراء الباقين، وجعلوا زيد بن ثابت الانصاري مشرفاً، وآخرين ناظرين ليستوعبوا السور والآيات التي تُتلى أو المكتوبة ومطابقتها مع بعضها ثم تنظيمها، وبهذه الدقة نظموا السور والآيات ودوّنوها على شكل كتاب.

إنّ تقارير حوادث ما بعد وفاة الرسول تشهد على أنّ أمير المؤمنين عليّاً عليه السلام بعد اعتزاله خلال المدة التي اختلى بنفسه بادر إلى جمع القرآن وتدوينه، واحتفظ به لنفسه والأحاديث الواردة عن أهل البيت والأئمة الطاهرين في هذا المجال بلغت حدّ التواتر أيضاً.

فالذا كان القرآن الذي جمعه يختلف - حتى في الكلمات وترتيب الآيات - مع القرآن الذي دوّنه المجلس الاسلامي في الصدر الأول وأمام عينيه فلماذا سكّت ولم يبيّن ذلك؟ مع سابقته وقربه من آيات الوحي وملازمته المستمرة لمربيته ومعلّمه العظيم، فلماذا تمرّد المسلمون عن قوله وكيف وذلك في مثل هذا الأمر الخطير؟!... لم يكن هو عليه السلام مخالفاً مع ترتيب ونظم المجلس الاسلامي بكلمة واحدة، بل كان هو وأهل بيته وأولاده يقرأون آيات القرآن وكلماته بهذا الترتيب الموجود في الصلاة وغيرها ويستندون عليه.

وهنا يطرح هذا السؤال نفسه: ماهي مميّزات المصحف الذي دوّنه أمير المؤمنين عليه السلام عن هذا المصحف؟ لا يمكن أن يقال غير إنّ المصحف الذي جمعه أمير المؤمنين عليه السلام وأودعه عند أهل بيته كان يشتمل على مواضع من المعارف الإلهية، وشأن النزول، والتأويل والتفسير، وبيان المصاديق والرموز حول الآيات. فإنّ اشتياقه عليه السلام وذوقه السليم لاستيعاب الحقائق من منبع الوحي، واهتمام الرسول الكريم ﷺ الخاص بتعليمه

وملازمته الدائمة (إلا في غزوة تبوك، وسفر أمير المؤمنين عليه السلام إلى اليمن)، وسابقة حياته، كل هذه الأمور تؤيد هذه الحقيقة، وهي أن كنوز المعارف وأبواب العلوم وذخائر النبوة التي كان يتباهى بها أمير المؤمنين عليه السلام والرسائل التي ورثها أهل بيته منه في الفقه والفرائض، ما كانت سوى هوامش تدور حول الآيات ولا يمكن أن تكون من مصادر القرآن نفسه.

والمسلمون الآخرون لم يكن لهم هذا الفهم الفياض ولا هذا الولع، ولا تلك الملازمة المستمرة، لأن أكثرهم أسلموا بعد سنوات من بعثة الرسول ﷺ، ولم يلزموه دائماً، وكانوا يعيشون في قلق وعدم استقرار بواسطة الهجرة.

ويتضح من الاختلافات التي حدثت بعد مدة بين المسلمين في ظواهر الأعمال وكيفية العبادات كالوضوء والقراءة أن عامة المسلمين لم يكن لهم ذلك الاهتمام برموز تعاليمه ﷺ العامة وأعماله الواضحة المشهودة أيضاً. ويجب الاعتراف - بهذه الكيفية من الدراسة - أن جميع المعارف الإلهية، ورموز الأحكام، وحقائق الآيات كانت مخزونة في خزانة اسرار صدر علي عليه السلام، وانتقلت إلى أهل بيته على شكل أحاديث وكتابة: «هم لجأ أمره، وكهوف كتبه، وخزائن علمه، ومستودع سره».

وعامة المسلمين التي انبهرت أفكارهم البسيطة الساذجة ببلاغة ظاهر القرآن، وتولّعوا به، وكان جلّ اهتمامهم المحافظة على كيان الاسلام والدفاع عنه وتقديم النظام، ولم يهتموا بفهم المعارف والأصول الاسلامية، بل كانوا يتصورون أنه لا يجوز الاهتمام بغير واجبه اليومي، ولذا فإن أمير المؤمنين عليه السلام طوى لسانه وحديثه وكتبه ونفسه وقال: «إن مجتني الثمرة قبل وقت إيناعها كالزراع بغير أرضه... واندمجت على مكثون علم لو بحث به لاضطربت اضطراب الأرضية في الطوى البعيدة».

بناءً على هذا، إن معارف أمير المؤمنين عليه السلام وكتبه الخاصة لم تكن مفهومة بالنسبة إليهم ولم يهتموا بها، وربما كانوا يتصورون أن انتشار مثل هذه المعارف والانشغال بها يكون مصدر عدم التقدم وسبباً في الاختلاف. كما قالوا: «حسبنا كتاب الله»، وكما وقفوا

بوجه نشر احاديث الرسول ﷺ أيضاً<sup>(١)</sup>.

وعليه يجب ان تكتف هذه المعارف والأصول العلمية الالهية عند أهلها، لكي تزيل الستار عنها شيئاً فشيئاً حاجات الظروف واستعداد القابليات.

وبعد تدوين القرآن وانتشاره ظهرت الاختلافات اللغوية حسب اختلاف لهجات القبائل، وكل قبيلة كانت تروم أن يتلى القرآن بلهجتها، وكاد هذا الاختلاف العصبي أن يضع المسلمين متناحرين، والتقارير التي كانت تصل من هنا وهناك حول هذا الموضوع - ومنها الجيوش التي اتخذت موضعها في أذربيجان - أقلت زعماء المسلمين، فلذا أصدر الخليفة الثالث «عثمان» باقتراح من «حذيفة بن اليمان» بجمع جميع المصاحف الموجودة لدى المسلمين، وكتبوا عدداً من المصاحف على المصحف المدون بلغة قريش وأرسلوها إلى المدن الكبيرة، وأبادوا المصاحف الأخرى. وبعد تدوين القرآن بلغة قريش، لم يجد الاختلاف في القراءة واللهجة واللحن سبيله إلى نص القرآن، وأصبح اختلاف القراء في ألفاظه فقط من قبيل المد والقصر والإمالة والاطلاق<sup>(٢)</sup>.

فنشب - بالاضافة الى الاختلاف في القراءة - البحث النهائي والقول الفصل حول معاني المفردات وشرحها وشأن نزول الآيات، وانفتح طريق الروايات والموضوعات الاسرائيلية الملفقة بين المسلمين مزماناً مع تفتح المسلمين وانتباههم إلى إشارات القرآن حول المواضيع التاريخية، وكيفية التكوين، ومع غلق دار تعليم أهل البيت وتربيته، وأصبح المسلمون الجدد من اليهود وعلمائهم - الذين كانوا يتظاهرون بأنهم المصدر الوحيد لمعرفة تاريخ الأنبياء والأمم السالفة ورموز الخلق - مراجع للمسلمين في تفسير

(١) أمر أبو بكر في أيام خلافته بحرق خمسمائة حديث مكتوب، وعندما استولى عمر على الخلافة منع تدوين الحديث، وأصدر أوامره إلى الولايات أن يحرقوا كل حديث مكتوب، ومنع بسدة من نقل الحديث، ولهذا كان تدوين الحديث ممنوعاً حتى زمان عمر بن عبد العزيز، وهذا الموضوع مذكور في كتب التاريخ والحديث، ومنها كتاب كنز العمال: ٢٣٧/٥.

(٢) كان البحث في عصر الصحابة في القراءة واللهجات، وفي عصر التابعين قلماً كان التفسير يتجاوز حدود شرح المفردات والمعاني. واتسع تفسير القرآن في بداية القرن الثاني، ووجدت مباحث ومعلومات أخرى طريقها إلى تفسير القرآن. وجاء الاختلاف غالباً من حيث «الإمالة» مثل «مالك» و«ملك» و«لا أقسم» و«لأقسم» والتنقيط مثل: «بعد أمة» و«بعدها».

مواضيع القرآن التي كانت من هذا القبيل، فكانوا - من أجل أن ينحرفوا بالمسلمين عن هدي القرآن الواضح، أو من أجل أن يتظاهروا بالقدرة على حل كل معضلة - يأتون بالأوهام والخرافات والمواضيع الملققة التي لم تكن في كتب السابقين أيضا على أنها تفسير للقرآن، وباتساع رقعة الاسلام، واستقرار المسلمين في البلدان المختلفة، والتوقف عن التقدم وتبليغ الرسالة التي كانوا يحملونها، وجدت الأفكار والفلسفات الايرانية والكلدانية والهندية والصينية إلى أذهانهم سبيلا، وترجمت انواع الكتب العلمية والفلسفية اليونانية والرومية الى اللغة العربية في بداية الدولة العباسية، وأشغلت أفكار المسلمين المستعدة بالبحث والدراسة حول هذه المواضيع الجديدة. ونشب الاختلاف - بالاضافة الى الاختلاف المتأصل الذي كان موجوداً حول الإمامة والخلافة - حول صفات المبدأ، وكيفية المعاد، والوحي، والنبوة، والجبر والتفويض، وقدم القرآن وحدوثه، والفقه... إلى حيث ظهرت المذاهب المختلفة، وبرز تدوين علم الكلام، وكانت كل فرقة تتمسك بالقرآن من أجل اثبات صحة رأيها، وتفنيذ الفرق المخالفة، تفسر الآيات وفقا لآرائها.

والمدرسة التي فتحت بابها في خضم هذه التناحرات العقائدية هي طريقة العرفان والتصوف والكشف والشهود. ولم يتقيد أتباع هذه المدرسة بظاهر الألفاظ والتعابير، واتخذوا سبيل التأويل اللامنطقي بناءً على ما يتذوقونه فقط وبدون أي دليل. وفي هذه الاثناء ظهرت فرقة أدارت بوجهها عن الفلسفة وعلم الكلام وتدخل العقل، وتعبدوا فقط بظواهر الحديث والروايات الصحيحة والسقيمة، والمستندة وغير المستندة، والاسلامية والاسرائيلية التي كانت مختلطة ببعضها.

وفي خضم غوغاء الفلسفة والعرفان والتأويل والتفسير بالرأي كان أئمة أهل البيت (عليهم السلام) المترعرعون في مدرسة الوحي والنبوة بصورة مباشرة في معزل، وكانوا يندرون من مغبة التفسير بالرأي. وكان حقد الحاكمين ومستبدّي العصر يصدّون الجماهير العامة من سماع صوت الهداية من قبل أعلام الوحي، ويمنعون من انتشار اسلوب تعليمهم

وتربيتهم عن إطار رقعة محدودة.

وكلما كانت تتسع مباحث القراءة واللغة والإعراب والمواضيع الكلامية والفلسفية حول آيات القرآن كانت أذهان المسلمين تضيق وتحدّد عن هداية القرآن العامة الواسعة. وهذه العلوم والمعارف هي بمثابة الأسرجة ذات النور الضعيف المرتعش في صحراء مظلمة تعصفها الرياح. وإن أضاءت ما حولها قليلا، لكنّها حجبت أشعة الكواكب النيرة، فالظنون التي كانت تطلع رأسها من الأفكار، ثم يُضفى عليها الدليل من القرآن والعقل لإثبات صحتها، أصبحت كالضباب المتراكم المتّسع الذي أحاط بآفاق القرآن، ومنعت من وصول أشعة القرآن المباشرة إلى النفوس.

ولو أطلع المسلمون رؤوسهم من بين هذه السحب والأفكار والظنون، وبالاتّباه والادراك الصحيح لاستنتاجات المحققين المعقولة ذات الأدلّة، واستعادوا تلك البيئة الفطرية النظيفة، فكان من الممكن أن تنعكس على نفوسهم أشعة هداية الآيات، وأن تُثار عقولهم الراقدة التي فقدت شخصيّتها، في سبيل فهم حقائق الوجود وتمييز الخير من الشر. وليس الغرض من العودة إلى البيئة الفطرية الأولى أن نعود إلى تقاليد الحياة والبيت والملابس التي كانت للمسلمين الأوائل، بل هو أن نخلّص أنفسنا من سيادة آراء العصر وأفكاره ومدنيّته التي لم تقم على أساس.

إنّ جملة «هدى للمتقين» عرّفت القرآن باعتباره كتاب هداية، والمتقين باعتبارهم موضوع الهداية، والقصد من التقوى والمتقين ربما يكون أوسع مما هو مألوف لدى الأذهان، لأنّ هذا الإلتقاء «الوقاية» بمعناه الواسع، هو الكف عن المعاصي في العمل، والكف عن طغيان الشهوات والغرائز النفسية في النفس، واحترام الانسان نفسه وتفضيلها عن نفوذ الآراء والعقائد والمعلومات البشرية وتدخلها في شؤونها في العقل، وهذه هي اسمى مراتب التقوى.

إنّ ذلك التطوّر الذي حدث لأولئك الناس البسطاء الفطريين الأوائل، تلك العقّد التي انحلت، تلك الحركة العقلية والمعنوية والإصلاح الخلقي والاجتماعي الذي ظهر كان كلّ



بسبب هداية القرآن الصريحة غير الملوثة.

فالآيات التي كانت تشع على النفوس من لسان رسول الله ﷺ والمسلمين المؤمنين بعيدة عن حجب المصطلحات والمعلومات، لو كانت آن ذاك تُمزج بالبحوث الأدبية والكلامية والجدل، وتشكّل حوزة الدرس لفهم مثل هذه المواضيع، بدون شك لم يكن لها مثل هذا الأثر. وبالقياص إلى إتساع الرقعة الإسلامية، وتغيير معيشة المسلمين، وإشاعة العلوم الجدلية، وظهور الاختصاصيين الفنيين أصبحت الأذهان محدودة، وتجزأت آيات القرآن من وراء عدسات معلومات البيئة، وظهرت بلون تلك العدسات، وأعرض وجه فطرة الجماهير عن انعكاس نور هداية القرآن التام الشامل، وكل فرقة حدّقت نظرها إلى القرآن - بناءً على أذواقهم - من نافذة آراء المفسرين وكتب التفسير، وكل فرد من المفسرين فسّر القرآن في حدود معلوماته وفنّه.

فالبعض كتبوا التفسير على ضوء فن المعاني والبيان والبلاغة والأدب والإعراب كالزمخشري والبيضاوي، والبعض الآخر طوّوا آيات القرآن في غشاء مواضيع الكلام والفلسفة واصطلاحاتهما، كالفخر الرازي، أو العرفان والتصوّف والتأويلات، مثل عبد الرزاق الكاشاني، والآخر اكتفى بنقل الأحاديث والروايات، كالطبري من العامة، والمفسر الجليل «الصافي» من الخاصة.

إنّ مواضيع المفسرين وتحقيقاتهم المستندة الصحيحة تكون مؤثرة في فهم القرآن من أجل الهداية عندما تكون انعكاساً من أشعة هداية القرآن، لا أنّها منظورة من زاوية أنظار هؤلاء، فالأحاديث الصحيحة المستندة إلى مصادر الوحي تدور حول تأويل المجملات وتطبيق الكليات وبيان جزئيات الأحكام وتوضيح الهداية، ومثل هذه الأحاديث لا يمكن أن تكون حجاباً للقرآن هو كتاب نور وهدى وموعظة للمتقين.

فالقرآن الذي هو أسمى من حيث الدلالة والسند، كيف يمكن أن يستند فهم هدايته إلى الأحاديث؟ إنّ القرآن يخاطب المؤمن والكافر وعامة الناس باعتبارهم يبحثون عن الهداية، لا باعتبارهم أدباء أو متكلمين أو رواة حديث،

فالنظر إلى القرآن كالنظر إلى النبع الفياض الذي يصعب النظر إليه. ولا بد من النظر إليه، وهل يمكن للانسان أن يغضّ النظر عن النور، مع العلم بأنه صنيعه وعاشقه؟ فالقرآن نور من نور السماوات والأرض «اللَّهُ نُورُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ» الذي شِعّ على قلب نوراني، وانعكس منه على شكل الفاظٍ ومفردات، فإذا لم يكن التحدّق إلى مصدره وحده الأسمى، لا يمكن أن يغضّ النظر عن مرتبته الدنيا وانعكاساته.

إنّ كتاب الهداية هذا الذي يجب أن يكون - كنصف القرن الاسلامي الأول - سائداً على جميع الشؤون النفسية والأخلاقية والحكم والقضاء، أصبح في معزل عن الحياة بصورة تامة، ولم يتدخل في أيّ شأن.

إنّ دنيا الاسلام التي كانت في يوم من الأيام في الطليعة والقيادة بقيادة هذا الكتاب، أضحت اليوم تابعة، والكتاب الذي كان سند الدين والسائد على جميع الأمور، صار كالاشياء الأثرية وكتاب الأوراد داسمة تبرك وتقديس فقط، وفي معزل عن الحياة العامة، ومشرفاً على عالم الأموات ومراسيم الغفران وتلاوته تعلن عن الموت.

إنّ دنيا الصناعة والاختراع التي افتقدت شخصيتها، ودنيا المسلمين المنحدرة لم تنتبه إلى أنّ للقرآن موضعاً في الحياة ولا تصدّق ذلك، وكلتا هما تقولان بصراحة وبلسان الحال: أيّة حاجة الى دستور القرآن الإلهي مع تقدّم العلوم والاختراعات الباهرة والكواكب المثيرة للعالم؟ مع العلم بأنّ هذه كلّها يمكن أن تأتي بالفلاح وتهب السعادة في ظل الهداية المديدة، فإن كانت الهداية قد ارتحلت بصورة تامة من الانسانية وسادت عليها الشهوات والتحرّكات النفسية، فمهما تُستخدم قوى الطبيعة بصورة أكثر ازداد الظلام والاضطراب، واقترب انهيار البشرية أكثر فاكثراً. ومهما كانت هذه الاختراعات عجيبة ومهمّة لم تكن أكثر من أدوات حياة، ولم تكن بنفسها غاية نهائية، ولذا فإن السؤال يطرح نفسه دائماً: لماذا هي، وإلى أين تريد بالانسان؟ وهل أنّ قيمتها بالمستوى الذي لا تكون سبباً للضرر والشقاء والكبر والفساد في الأرض، وتُسْتَهِلك في سبيل خير الانسان وسعادته؟ هناك أيضاً سؤال: كيف يمكن الوقوف بوجه الضرر والشقاء والفساد، وما هو

الخير والسعادة، وكيف يمكن الوصول إليهما؟ الخير والسعادة الحقيقيان هما الهداية إلى نتائج وجود الانسان نفسه والموجودات الأخرى وغاياتها.

إن القرآن الكريم يوضح علائم التكوين والإبداع بالفوائد البدائية والهداية إلى الغايات النهائية، والآيات (١٠ - ١٤) من سورة الزخرف تقول: ﴿الَّذِي جَعَلَ الْأَرْضَ مَهْدًا وَجَعَلَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا لَّعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾ والذي نَزَّلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً بِقَدَرٍ فَأَنْشَرْنَا بِهِ بَلْدَةً مَّيْتًا كَذَلِكَ تُخْرَجُونَ﴾ والذي خَلَقَ الْأَزْوَاجَ كُلَّهَا وَجَعَلَ لَكُمْ مِنَ الْفُلْكِ وَالْأَنْعَامِ مَا تَرْكَبُونَ﴾ لَتَسْتَبْشِرُوا عَلَى ظَهْرِهِ ثُمَّ تَذْكُرُوا نِعْمَةَ رَبِّكُمْ إِذَا اسْتَوَيْتُمْ عَلَيْهِ وَتَقُولُوا سُبْحَانَ الَّذِي سَخَّرَ لَنَا هَذَا وَمَا كُنَّا لَهُ مُقْرِنِينَ﴾.

ويقول في سورة النحل في الآيات. (٣٠ - ١٧) حول الفوارق بين خلق السماوات والأرض وما يستفيد الانسان من لحوم الحيوانات وأصوافها وجلودها وحملها الأثقال، وجمالها في الذهاب والإياب، وإنزال المطر ونتائجه، وتسخير الشمس والقمر وما يخرج من الأرض، وتسخير البحر وما يستخرج منه واختراع الفلك: «وعلى الله قصد السبيل ومنها جائز ولو شاء لَهْدَاكُمْ أَجْمَعِينَ. لآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ. لآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ. لآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَذْكُرُونَ. وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ، لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ. أَفَلَا تَذْكُرُونَ».

وفي سورة ابراهيم، الآية ٣٨، بعد أن بيّن خلق السماوات والأرض وإنزال المطر والثمرات الناتجة منه، وتسخير الفلك، والانهار، والشمس والقمر، والليل والنهار، وما يحصل من جرّاء البحث، والنعم التي لا عدّ لها، يقول: ﴿إِنَّ الْإِنْسَانَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ﴾.

وفي سورة الحديد، الآية ٢٦، حول الحديد وفوائده وغاياته النهائية ووجوده في متناول اليد يقول: ﴿وَأَنْزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنْفَعٌ لِلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ وَرُسُلَهُ بِالْغَيْبِ...﴾.

فالهداية إلى الغايات تستخدم القابليات أكثر فأكثر إلى العمل، وتتقدّم بالقوى البشرية في طريق الخير والصلاح، وكلما يكون تحت تصرف الانسان يُستخدم في طريق الأمن والكمال، وهذا هو الطريق الأقوم الذي لا يُمَهَّدُ من قبل أيّة مدرسة وكتاب سوى مدرسة

أَكْتَفَى، وَقَرَّ، غُلْفَ، أَقْفَالَ، وكأنَّ كل واحد منها يشير إلى نوع من الحجب له صلة بأحد المدارك الباطنيّة: فالحجاب الذي يستوعب أعماق الضمير، أو يحجب ما حوله، أو يمنع الأذن والعين الباطنيتين من السمع والبصر. أو الحجاب النفسي غير المكتسب: كالذين لم ينتبه عقلهم الفطريّ بسبب عدم التفكير، وبقيت نظرهم في اطار بيئة ظواهر الحياة الدنيا. والمعلومات والعلوم المكتسبة التي تثير الغرورَ والعُجبَ هي أيضاً من الحجب التي تمنع من تدبّر الآيات ومعرفة الهداية، وما اكثرت الاصطلاحات والعلوم التي تستخدم في سبيل فهم الدين وآيات الكتاب الحكيم أصبحت حجاباً عليها، وتقاسير للقرآن والتفسير هو فنّ المفسّر ومعلوماته والمفسّر يسند جميع آرائه وأفكاره إلى الحد الذي يريد إلى القرآن ويشبّتها بواسطة آيات الوحي، وربما هناك احاديث وروايات مطعونة من حيث السند والدلالة، وغريبة عجيبة من حيث المفهوم تأتي في التفسير وحول الآيات التي هي برهان الحق، ونور مبين، وهُدًى للمتقين، فتكون عليه كنسيج العنكبوت وربما كان البعض من أصحاب النظرة الضيقة الجامدة في وجه التعبد بالدين لا يجوزون تفسير جميع آيات القرآن الهادية إلا بالروايات الاسلامية وغير الاسلامية التي لم يجر عليها الجرح والتعديل. مع العلم بأن مثل هذه الروايات التي جاءت في التفسير والمعارف لم تنتقح مثل أحاديث الفقه والاحكام وما تنقح منها لا يستوعب تفسير جميع الآيات.

وبناءً على هذا الرأي، يجب أن تعرض جميع آيات القرآن على الروايات، مع العلم بأن الروايات يجب أن تعرض على القرآن، كما يجب أن يتوقّف هدي القرآن قبل صدور هذه الروايات بمدة غير قليلة. «وكما اشرنا سابقاً، فإن الأحاديث الصحيحة من حيث السند، المتينة من حيث الدلالة تفسّر آيات الاحكام. وتوَوّل المتشابهات، وتبيّن بطون القرآن، وهذا غير فهم هداية القرآن».

واكثر من هذه الحجب، هي الحجب الأخرى من الأمراض النفسيّة المكتسبة الموروثة، والانحرافات الفكرية. والطبائع الوضيعة كالغرور والكبر والحسد، والتي لكل منها مصدر وعلاج.

إنّ مثل هذه الحجب هي التي تفسد ذائقة فهم كل حقيقة، وتمنع من الالتذاذ بفهمها، وتلتوي بدويّ آيات الحق، وتمنع نفوذها إلى الضمير الانساني، لأنّ أكثر المسلمين يواجهون مثل هذه الحجب، فأصبحوا محرومين من هداية القرآن وأتباعه. ولو كان المسلمون يتبعون هدى القرآن الأقوم، فلماذا أصبحوا مشتّتين، أذلاء، حائرين، فاقدى شخصياتهم، وبدلاً من أن ينهضوا بالأقوم التصقوا بالأرض أو غرقوا في سُبّات. وإذا أرادوا النهوض والسير يأخذون طرق التقليد الأعمى من الآخرين؟!

إنّ المسلمين مسؤولون أمام الله تعالى عن كتاب الله، لا عن أقوال المفسّرين، ولا عن الروايات القاصرة التي لم يثبت سندها الى مصادر الوحي وبا تّخاذ «الاتّقاء» من الحجب المشار إليها وأمثالها، يشع نور هداية القرآن على القلوب: «هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ»، ويظهر جمال ذلك الوجه دائماً، وينتشر ظلّ رحمته الوارف على رؤوس المسلمين المرعوبين، ثم على الدنيا الحائرة. «عروس حضرة القرآن تميّط عن وجهها النقاب عندما تكون دار مُلك الإيمان نزيهة من الغوغاء»<sup>(١)</sup>.

إنّ ما يؤثّر في فهم هداية القرآن بعد الاتّقاء من الحجب هو:-

١- البحث عن مادة المفردات، وفهم المعاني ومفاهيم عصر النزول العامّة، وفصلها عن المعاني والمصطلحات المستحدثة، مثل مفاهيم: الإيمان، الكفر، النفاق، القلب، المحكم، المتشابه، والتأويل وأمثال ذلك .

٢- التدقيق في النقاط المقصودة والإشارات الملحوظة والمقايسة في الأسلوب، والالتفات إلى سر الإيجاز والإطناب، والتقديم والتأخير، والحذف والإبدال، والتشبيهات والكنايات، والأمثال والعبر، والتعابير البلاغية. ولم يكف فهم فنون البلاغة المتعارفة فقط لمعرفة بلاغة القرآن الواسعة المتنوّعة. بل بالتأمّل والتفكير الحرّ يمكن التعرف على رموز بلاغة القرآن، فتكون هذه المعرفة شيئاً فشيئاً على شكل ملكة، كما أنّ

(١) النص ترجمة بيت شعر فارسيّ استشهد به المؤلّف رحمه الله. (الترجمان)

العربيّ البسيط كان يتمكن بفطرته الحرّة وملكته فهم الدقائق من معرفة رموز بلاغة كلام الله ونفوذه. وكثير من المحققين في البلاغة ورموزها محرومون من فهم دقائق القرآن، وكلامهم في مستوى كلام العامة، وكثير من علماء الأدب والشعر يعجزون عن انشاء الشعر السلس والمؤثّر.

٣- معرفة الأخلاق النفسية، والقوى الباطنية، وتحليل المبادئ الفكرية، والشهوات، والغرائز، والعواطف، والتطوّرات الاجتماعية، واسرار رقيّ الشعوب وانحطاطها.

٤- الانتباه العام إلى بيئة العرب الجاهليّة، وعند نزول القرآن، والتمثّل بالبلاغة الفياضة، والفطرة الحيّة، والفضاء المفتوح وسماهم المنيرة، والبيئة التي كان فيها آيات القرآن تجتذب القلوب، وتقهر العقول، وغيّرتهم إلى حدّ أنّهم كأنما خلّقوا من جديد.

٥- على أهل الرأي من العلماء والمحقّقين أن يجعلوا كليّاتهم العقلية والفلسفية ومعلوماتهم في طريق فهم هداية القرآن، لأنّ يحدّدوا القرآن بانطباعاتهم.

٦- يجب الرجوع إلى الأحاديث المحققة التي تستند إلى مصادر الوحي والأئمة الطاهرين عليهم السلام من حيث السند والدلالة الصريحة في تأويل المتشابهات، وفهم آيات الأحكام، واستنباط الفروع.

#### اسلوب هذا الكتاب لفهم القرآن من حيث الهداية:

إنّ الأسلوب المتخذ في هذا الكتاب للناطقين باللغة الفارسيّة - لربما تستقر أشعة آيات القرآن في أذهان من يتلقّونه بصورة أكثر، فيستفيدون من هدايته - هو: في البداية يأتي بعدد من الآيات المترادفة بأرقامها، ثم تأتي ترجمة الآيات ترجمة تطبيقية إلى اللغة الفارسية بحيث لم تخرج عن نطاق معاني المفردات الصحيحة<sup>(١)</sup>، مع العلم والاعتراف بهذه الحقيقة وهي أنه مهما جرت الدقة في ترجمة القرآن وبأية لغة كانت لم تكن معجزة كآيات القرآن، فلم يكن لها ذلك الأثر المستولي على القلوب، ولذلك

(١) هذا فيما يخصّ النصّ الفارسي الذي يحتاج إلى الترجمة، أما العربيّ فلا يحتاج إليها. (الترجمان).

الاحترام الشرعي والحكمي.

إنَّ معاني القرآن الرائعة التي تشبه البحر المائج لا تسفر عن وجهها إلَّا في قالب التعابير التي صنعها القرآن! ولا يوصلُ تلك المعاني والاشارات والرموز كما ينبغي أيُّ قالب وتركيب آخر، إلى درجة بحيث لو تغيَّر حرف أو كلمة، تتغير معانيها وأغراضها وإشاراتنا ولحنها. بناءً على هذا، فكلُّ ترجمة قاصرة عن أَيْصال القصد القرآني، إلَّا أن توضح وتفسّر.

ثم توضح معاني المترادفات وموارد استعمالها ومادة المفردات عند اللزوم ليستفتح مجالٌ أوسع في فكر القارئ لتفكير أوسع. عندئذٍ يُوضّح ما شاع على الفكر بصورة مباشرة من نصّ الآيات، وتارة يستفاد من الأحاديث الصحيحة وآراء المفسرين عند الإقتضاء، ثم ينعكس ما وصل إلى فكر الكاتب وتجلّى في ذهنه، لربّما يتعرف القارئ بنفسه على رموز هداية القرآن بصورة أكثر ويتحقّق الايمان التقليدي بكماله، وأن يغوص الباحثون في أعماق الآيات أكثر فأكثر.

إنَّ ما كتبتُ حول الآيات أو في نصّها طرأ على الفكر من تعلق القلب بالآيات في أوقات فراغ الفكر عن أمور الدنيا، والانصراف من الآمال والأمنيات الخدّاعة، والجزئيات اللاهية، أو من البحث والدراسة في التفاسير. عندما كانت تعتريني العناية التامة بالآيات أحياناً في جلسات البحث التفسيري (التي كانت تعقد منذ سنوات لطبقة الشبان) واحدق النظرة بنظرة الشبان الطاهرة الجذابة، تلوح أشعة من خلال الآيات موضوعة البحث، والآن وبعد سنوات طويلة. أريد أن أستعيد تلك المواضيع إلى الذاكرة، وأسجلها على القرطاس، أرى - مع الأسف - أن كثيراً منها كالبرق الخاطف والانعكاس المرتعش رحل عن مرآة ذاكرتي، وبقيت لمحات منها تشع على أطراف الذاكرة، وأكثرها مذكرات ناقصة ومُبَعَثرة، سُجِّلَتْ في زوايا الذاكرة والأوراق، والتي أحاول الآن - بتوفيق ملهم الحقائق - أن أصنّفها على صورة كتاب.

إنَّ ما يُكتَب حول الآيات أو من ناحية هداية القرآن ليس له اسم تفسير (إزاحة

الستار) ولا يعتبر بأنه قصد القرآن النهائي، ولذا وجدت اسم «اشراق من القرآن» أكثر مناسبة له، لأن ما كتب أو يكتب باسم «تفسير القرآن» لا يخرج عن اطار أفكار المفسرين ومعلوماتهم، مع العلم بأن القرآن جاء لهداية جميع الشعوب وفائدتهم في كل عصر إلى يوم القيامة.

إذاً لا يمكن أن يستوعب ظرف فكر شعب من شعوب العصر أعماق حقائقه، وإذا كان كذلك لانهت، ويبقى الآتي خلف المسيرة التكاملية، ولم تبقى أية فائدة للأجيال القادمة. إن تقدم العلم والعصر هو الذي يتمكن أن يميظ الستار شيئاً فشيئاً عن بواطن القرآن وأسراره، كما أن المحققين الإسلاميين بدأوا بتفسير القرآن من بداية القرن الثاني، وبعد ذلك كتب الكثير من التفاسير للقرآن الكريم طبع بعضها، ولم يبق من البعض الآخر سوى الاسم. «أول تفسير كتب في أوائل القرن الثالث الهجري والذي لا يزال في متناول الأيدي، هو تفسير جامع البيان للطبري». ومع كل هذه التحقيقات والتفسيرات التي كتبت حول الآيات مع بذل المساعي وتحمل المشاق، وعدم وجود الأدوات، لم يكن مورد استفادة الناس كما ينبغي في هذا العصر.

فالذي يريد استفادة أكثر من الآيات المبحوث عنها في هذا الكتاب، عليه: أولاً - أن يعتني بالآيات وترجمتها والتدبر فيها.

ثم - يتفهم المفردات.

بعد ذلك - يدقق النظر في البحث حول الآيات. ولما كان شرح المفردات والمصطلحات الخاصة التي هي بمثابة قاموس للقرآن قد جاءت في هذا القسم، يكون هذا القسم - بالطبع - أكثر تفصيلاً من الأقسام الأخرى. وإذا تكررت الكلمة الغريبة أو الآية في مكان آخر، يشار إلى الآية السابقة أو رقمها فقط.

واتخذت هذا الأسلوب في بيان هداية القرآن، لربما يتجلى وجه القرآن للناطقين باللغة الفارسية، ويحملون أنفسهم بجمال الهداية القرآنية والكمال القرآني، ويصحوا المسلمون الذين خسروا أنفسهم في مقابل فلسفة الحياة والصناعات الخلابة، والتعلق



بالحضارة الفانية التي صنعتها عقول البشر الناقصة، ويتخذون طريق الخير والصلاح، ويتمتعون أكثر فأكثر من رؤوس أموالهم العقلية والروحية والمادية. لو كنّا نتعرّف على تعاليم القرآن وهذه الطريقة والأسلوب الذي يعرضه من أجل أن نحيا حياة «طيبة»، ونعرّف به الآخرين في دنيا الحيرة والوحشة هذه، سوف يعترف طالبو الحق والهداية أكثر من هذا بأنّ هذا الكتاب كتاب سعادة البشر عامة قبل أن يكون كتاباً للمسلمين.

هذا الكتاب هو الكتاب الوحيد الذي يخصّ ضمير كلّ إنسان، وهو ضمير مبدأ المؤسسة الانسانية النشطة، ويمكنه أن ينير الباطن الانساني بين ظلمات المادة، ويجعله ساطعاً كالليل المليء بالقمر والكواكب، وعندئذ يبدي فجر الضياء من أفق الباطن. وهذا واجب علماء الدين وحرّاس سرادق النظام الوحيد أن يوضّحوا جمال أحكام القرآن وأسراره وهدايته أكثر فأكثر، ومهما امكنهم أن يعرضوا زوايا من الاشارات والحقائق والدقائق حيث قال: «للقرآن عبارات وإشارات ولطائف وحقائق، فالعبارات للعوام، والإشارات للخواص، واللطائف للأولياء، والحقائق للأنبياء».

### نظرة في بعض الاحاديث حول التمسك بالقرآن:

الكافي «محمّد بن يعقوب الكليني ومحمّد بن مسعود العياشي في تفسيره» عن الامام الصادق عن آبائه عليهم السلام: «قال رسول الله صلى الله عليه وآله: أيّها الناس إنكم في دار هُدنة وأنتم على ظهر سفر، والسير بكم سريع، وقد رأيتم الليل والنهار، والشمس والقمر يبليان كلّ جديد، ويأتيان بكل موعود؟ فأعِدّوا الجهاز لبعْد المجاز» قال: فقام المقداد بن الاسود وقال: يا رسول الله، ما دار الهُدنة؟ فقال: «دار بلاغ وانقطاع، فعليكم بالقرآن، فإنّه شافع مشفع، وماحل مُصدّق، ومن جعله أمانه قاده إلى الجنة، ومن جعله خلفه ساقه إلى النار، وهو الدليل يدلّ على خير سبيل، وهو كتاب فيه تفصيل وبيان وتحصيل، وهو الفصل ليس بالهزل، وله ظهر وبطن، فظاهره حكم، وباطنه علم، ظاهره

انيق، وباطنه عميق: له تخوم وعلى تخومه تخوم، ولا تحصي عجائبه، ولا تبلي غرائبه، فيه مصابيح الهدى ومنار الحكمة ودليل المعرفة».

وعن الامام الصادق عن رسول الله ﷺ قال: «القرآن هدى من الضلال، وتبيان من العمى، واستقالة من العثرة، ونور من الظلمة، وضياء من الأحداث، وعصمة من الهلكة، ورشد من الغواية، وبيان من الفتن، وبلاغ من الدنيا الآخرة، وفيه كمال دينكم، وما عدل أحد من القرآن إلا إلى النار».

حديث آخر: «تعلموا القرآن فإنه أحسن الحديث، وتفقهوا فيه فإنه ربيع القلوب، واستشفوا بنوره فإنه شفاء للصدور، وأحسنوا تلاوته فإنه أنفع القصص... فالقرآن أمر وزاجر، وصامت وناطق، حجة الله على خلقه، أخذ عليكم ميثاقه، وارتهن عليه أنفسهم، أتم به نوره، واكمل به دينه، وقبض نبيه ﷺ وقد فرغ إلى الخلق من احكامه، الهدى به». أيها القارئ العزيز، إذا وجدت في مواضيع هذه المقدمة وقسم من الكتاب خطأ أو غفلة فذكر، واسمح لي، لأنني كنت منقطعا عن كل مكان في وقت الكتابة، ولم تصل يدي إلى أي مصدر، كالانسان الحي أعيش وسط القبر.

شرحُ ذا الهجرِ وشجُوِ خاطرٍ دعه ذا الوقت لوقتٍ آخر<sup>(١)</sup>

فَرَجَ اللهُ عَنِ الْإِسْلَامِ وَالْمُسْلِمِينَ بِمَنِّهِ وَفَضْلِهِ وَرَحْمَتِهِ

السيد محمود الطالقاني

ربيع الأول ١٣٨٣ هـ ق - مرداد ١٣٤٢ هـ ش.

## سورة الحمد

مكية، ٧ آيات

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ﴿١﴾

﴿١﴾ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٢﴾ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ﴿٣﴾ مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ ﴿٤﴾  
إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴿٥﴾ اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ ﴿٦﴾ صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ  
عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ ﴿٧﴾ ﴿٧﴾

شرح كلمات البسملة:

اسم: من السمو بمعنى العلو، وذلك بدليل مشتقاته، لا من السمة بمعنى العلامة، لأنَّ اسم المشاهير من الناس، صفات الأشخاص أو الموجودات وآثارهم المعروفة توجب رفعتهم، وبروز شخصيتهم في الأنظار. «تسقط همزة الاسم عند اتصال الباء بها في الكتابة في جملة البسملة فقط».

الله: خاص وعلم حقيقة الذات المقدسة، للجامع لجميع الكمالات، المنزه من كل نقص. وما يلفت النظر بهذا الاسم هو مبدئية جميع الكمالات، لا الذات، لأنَّ الذات الإلهية

أسمى من التصوير والتعقل وتحديد العقل والفكر المحدود، وما هو مطلوب من قبل الانسان أن ينتبه إليه هو نفس مبدأ الصفات والكمالات الظاهر في العالم، إذاً فكلمة «الله» مع أنها اسم ذات وعلم فهي تعطي المعنى الوصفي. والأصل اللغوي أيضاً يدل على هذا المعنى الوصفي الذي جاء من «آله» بمعنى: عَبْدٌ، تَحِيَّرٌ، تَضَرَّعٌ، سَكَنٌ. إله: اسم معبود، سواء كان حقاً أم باطلاً. «الله»: مع حذف الهمزة وإضافة الألف واللام، هو اسم المعبود الحق. إذاً «الله» اسم جامع الصفات، والصفات كل واحدة منها اسم لهذه الحقيقة الجامعة. الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ: كلاهما من الرحمة. رَحْمَنٌ على وزن فَعْلان للمبالغة، ومن ناحية زيادة مادة الكلمة تدل على الرحمة الواسعة وازديادها. والرحيم فيها دلالة على الرحمة الخاصة والمحدودة، أو الأولى للصفة الذاتية، والثانية رحمة إضافية، أو الأولى مثل عطشان عارضة، والثانية مثل عليم وحكيم ذاتية.

جاء في الروايات: الرحمن لجميع الموجودات، والرحيم للمؤمنين، أو الرحمن في الدنيا والآخرة، والرحيم في الآخرة. وعن الإمام الصادق عليه السلام: الرحمن اسم خاص لصفة عامة (لأن هذه الصفة لا تقال لغير الله)، والرحيم اسم خاص لصفة خاصة. فالأولى تأتي في الآيات والتعابير بصورة مطلقة، والثانية تضاف: رحيم بعباده، رحيم بالمؤمنين. ان هاتين الصفتين لله تعالى، ويمكن أن تكون بدلاً أو عطف بيان من الاسم أي ذلك الاسم الذي هو الرحمن الرحيم.

### الأثر الفكري والاخلاقي للبسملة وتكرارها:

إن القرآن الذي هو كتاب التوحيد الوحيد، وجاء من أجل تكامل البشر الفكري الأخير، تبدأ سورة بالبسملة، لينتبه الإنسان إلى أن جميع تعاليمه وأوامره هي من مبدأ الحق ومظهر الرحمة (سوى سورة التوبة التي تدل آياتها على القهر والغضب على المعاندين الحاقدين على الحق والخير وإعلان قطع صلة الرحمة عنهم). والأمر بهذه الكلمة لهذا السبب، وهو أن يدير بوجه فكره وقلبه عن غير الله، لينظر الانسان كل العالم

وكلّ عمل من زاوية التوحيد، ويتّجه من التشبّت الفكري نحو الوحدة والصلة، ويزيل أسماء الأصنام والأوثان وأصحاب السلطة الذين كان يذكرهم في بداية الأمور عن ذاكرته ولسانه، سواء العرب أو غير العرب. ويختتم على القلوب والألسن ختم اسم الله مبدأ الرأفة والرحمة والخير. ليستمد - بالاهتمام بهذا الاسم - قوة أكثر من قابليته ويستخدمها عند الإقبال على كل عمل، ولا يعتمد على قوته المحدودة فقط، وبهذا تكون قوّة العمل والأمل بالنتيجة أكثر، بل العمل نفس النتيجة، لأن نتيجة كل عمل هي الحصول على القوة، هذه الفكرة نفسها تستحصل القوة وهي صورة لاستمرارية العمل. إذاً إذا تم العمل باسم غير الله أو غفلة عن اسم الله لا تحصل تلك الفائدة والنتيجة التي تليق بالعمل الانساني الرشيد، كما قال عظاماؤنا: كل عمل لم يبدأ بيسم الله فهو أجدع ابتر.

إنّ الإنسان الذي يرى نفسه عاجزاً في هذا العالم بوجه عوامله ومناظره، يتطلّب ملجأً من حيث يدري أو لا يدري، ولما كان جاهلاً بنتيجة أعماله وخائفاً منها يتّجه نحو قدرة ليطمئن قلبه بها، ويحرّر نفسه من القلق عند الإقدام، ولهذا فإنّ جميع الشعوب كانوا يبدأون أعمالهم المهمة باسم الالهة وأرباب النوع والسلطين. والقرآن يأمر بأن تكون البداية باسم الله الرحمن الرحيم، وارتباط الفكر به، ليتخلّص من التشبّت، ولا يجد القلق إليه سبيلاً، ذلك الله الذي لم يكن كأرباب النوع والسلطين والأصنام حاقداً، سيئ الطبع، ويركض وراء شهواته، بحيث يكون تارة رؤوفاً وأخرى غضوباً، يسالم جماعة ويحارب أخرى (وما اكثر اساطير حرب الالهة وسلمها ورأفتها وغضبها في التاريخ).

﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ○ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ﴾:

الحمد والشكر والمدح واحد، وهو في مقابل النعمة والمساعدة، دون الالتفات إلى كمال المنعم ومقامه ومنزلته. والمدح: هو الثناء على الممدوح بلحاظ كماله وجماله، دون الالتفات إلى النعمة والاحسان والحمد: جامع معنى الشكر والمدح، لذا يأتي تارة بمعنى الشكر أي الممنونيّة، وتارة بمعنى المدح أي الثناء. والألف واللام يمكن أن تكون للجنس، أي جنس الحمد وطبيعته، ويمكن أن تكون للاستغراق بقرينة ربّ العالمين، أي إنّ

كل حمد من كل حامد سواء كان بلسان اللفظ أو بلسان الوجود الذي هو ظهور التربية والكمال يختصّ بذات مبدأ الكمال الذي هو ربّ كل عمل. ربّ: مصدر من ربا يربو، أو من رَبَّ يَرْبُّ، مثل نَمَّ يَنْمُ. وهو بالمعنى الوصفي للمبالغة، أي ذلك المبدأ الذي صفته الذاتية تكميل الموجودات والعالميين وإيداعها وإيصالها إلى الكمالات التي تليق بها.

العالمين: جمع العالم يقال لكلّ نظم واندماج كلّ فصيلة من الموجودات التي توجد في ظروف وقوانين خاصة عالمياً، لأنّ هذا النظم والاندماج هو الذي يتعلّق به العلم، مثل: عالم الجمادات، والنباتات، والحيوانات، والكواكب، والملائكة. وهذا الجمع - جمع المذكر السالم هو للعقلاء، وهنا إمّا أن يكون القصد الموجودات ذوات الفكر والعقل، أو جميع الموجودات وعوالمها بلحاظ نوع من الشعور أو القابليّة الموجودة لدى الجميع، أو بلحاظ أنّ مسيرة جميع الموجودات التكاملية هي الوصول إلى العقل وظهوره، وهذا المعنى يلائم كلمة ربّ التي بمعنى كمال التربية.

وان كانت جملة «الحمد لله» جملة خبرية لكنّها تعطي معنى الانشاء، أي إنّ ما يدركه العقل المفكّر من الخيرات والنعم والصالحات والكمالات يُعبّر عنها بهذه الجملة، ولما كان العقل عاجزاً عن إدراك الجميع، فعليه أن يكون هذا التعبير بكلام الله المحيط بالجميع وتلقينه، ليؤدّي واجب الحمد بصورة أفضل، فالألف واللام للاستغراق، واللام للاختصاص بالله الذي هو جامع الكمالات ومبدأ جميع الخيرات مع وصف الربوبية، تدلّان على الحصر، أي إنّ كلّ نعمة وكلّ كمال موجودان وعلى أية صورة هما من ذلك المبدأ والذات المقدّسة. والجمل التالية هي كالمثال والشاهد على هذا الحصر والإختصاص، لأنّه مربّي جميع العوالم (ربّ العالمين) أي يهب النمو للجميع من لحاظ الذات والصفات. إذ أنّ كلّ نعمة هي منه، وكلّ حمد من كلّ حامد منتبه أو غير منتبه بواسطة أو بغير واسطة فهو له، لأنّ جميع النعم والكمالات تبدّيه، ولأنّ الانسان جامع كمالات الموجودات الأخرى، وله مقام الحمد الجامع، وإدعاء هذه الكلمة التي هي في الحقيقة اهتمام بالقابليّات الباطنيّة وأمل بكلّ كمال وتقديم، يليق بالانسان.

### أي أثر لتكرار الحمد وصفة الرحمة؟

هذا الانسان هو الذي يضع جبل عبودية غير الله الذي هو الكمال المطلق في جيده عندما يُبتلى بقصر النظر ونسيج التخيلات والأوهام، ويغفل عن قابلياته الباطنية ولياقة مقام الحمد، ويطأطئ برأسه أمام كل شبح بلا روح عاجز، ويطلق لسانه بالحمد والثناء على كل ذي سلطة فارغ عاجز، ومع الشعور بحقيقة حمد الله والالتفات إلى القوى الباطنية والانفتاح نحو العالم الكبير يمكن أن يُطلق من هذه الأشرار، وأن يطر من هذه البيئة المظلمة، ويدير بوجه قلبه عن غير الله، ويجعل العقل والقابليات الراقدة يقظة نشطة، وأن يصل إلى الرفعة والعزة بحمد الله وثنائه عن الاستجداء والذل والاستكانة في رحاب غير الله. إن الانسان يصنع لنفسه بنسج الخيال والأوهام الواهية، والوحشة والخوف المهلهل محيطاً مُتعباً، رهيباً، كَلَّه ألم وتعب ومشقة، وبالتالي التشاؤم بنفسه وبالعالم، وفي مثل هذا المحيط يلتف حول نفسه كالودودة، ويضطجع في وسط لفافته خائباً يائساً خاملاً، وبعد مدة لم يبق منه سوى الجلد. فتعليم الحمد هو من أجل إيجاد الأمل وتمزق هذا المحيط. وكلمة الحمد كالحلّة النورانية التي تغطي محيط الحرمان المظلم المحدود والتنازع إلى البقاء، وتبعده عن مجال النظر، وتفتح العين للعالم المليء بالجمال والنعمة والتربية، وبمنظرة التفاؤل والخير ينسى الألم والتعب والتشاؤم والتفكير بالشر.

يعتبر الحمد والثناء مختصاً بالمبدأ الذي شمل بلطف تربيته جميع أنحاء العالم والموجودات كافة، يهب القوة لكل عاجز، يهب الروح لمن لا روح له، ويعطيه ما يليق بشأنه من مستلزمات الحياة، ويجعله أفضل مما هو عليه إلى أن يزينه بجمال العقل، وعندئذ يثير - من أجل إكمال تربيته - الأنبياء وذوي الحجى العظماء، فيجعل أمام عينيه الشرائع والقوانين ويتمم التربية التكوينية بالتشريع، ولذا فقد جاءت آيات التكوين بالتشريع، ولذا فقد جاءت آيات التكوين والتشريع معاً في القرآن الكريم الذي هو مظهر

التربية واردة الحق، ويعتبر الكل أثراً لقانون التربية.

وبهذا البيان فإن حقيقة كلمة الحمد تتسع بسعة العالم الكبير، فمهما تفتحت أسرار العالم وتقدم عقل الانسان اكثر، واتضحت مجهولات نظام الطبيعة والنباتات والحيوانات الصغيرة والكبيرة، وعُرفت مسافة الكواكب وأجهزة الحيوانات الباطنية والظاهرية تتجلى حقيقة الحمد والاهتمام بتربية العالم بصورة اكثر، وتتعمق واقعيتها وتتسع أكثر فأكثر. وتكرار عبارة «الرحمن الرحيم» بعد «رب العالمين» لها لطف خاص، وذلك أن ربوبيّة الله لم تكن لتكسر للغلبة والضغط على الموجودات، بل هي لرحمتين خاصّة وعامة، بحيث تترتب الموجودات في ظل هذين النوعين من الرحمة، وكلّ مربّ ومعلّم وحاكم تشمر تربيته عندما تكون عن حبّ ورأفة، ويتناسق نظام الخلق مع الخالق والانسان والعالم.

إذاً، حتى لو كانت البسملة جزءاً من السورة فلا تكرر لهذه العبارة في الحقيقة، ففي البسملة التي هي البداية يكون الرحمن والرحيم وصفاً مباشراً لاسم الذات وبلا واسطة، وفي سورة الحمد جاء الوصف بواسطة الربوبية بحيث يكون مقيداً ومحدوداً بصورة اكثر. والرحمة في الانسان عاطفة وشعور مرهف، والتي هي مصدر الشعور بالمساعدة وحب الخير والتفكير بالخير، ويلتذ الانسان من إنجاز رغبة هذه العاطفة دون النظر الى المكافأة، وبالنسبة لله تعالى فمن لحاظ آثار الرحمة وظهورها، لا تأثر ولا انفعال، وعاطفة الخير هذه أو الطبع الانساني كغيره من القابليات والفضائل مكنونة في ضمير الانسان، فالالتفات الى مبدأ الرحمة وآثاره وتكرار هذه الكلمة توقظ هذه العاطفة، وتدفعها الى العمل، حتى يكون قلبه ينبوعاً للرحمة، وتجري من لسانه ويده نحو الآخرين. وهذا هو أثر تكرار جميع صفات الله وأسمائه وتذكّرها، بحيث تظهر حقيقته ومعناه في الإنسان المستعد.

﴿مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ﴾: مالك وملك قراءتان مشهورتان، اختار البعض الأولى، والآخر الثانية، فقد وصف الله في آيات أخرى بالمالك وبالملك أيضاً. المَلِك هو المتصرّف في إدارة البلاد، والمالك هو الذي يمتلك كل تصرّف بالنسبة لما عنده ويتمكّن



من ذلك. وكلّما كانت القدرة على التصرف أكثر كانت المالكيّة أكثر، وإن كانت المالكيّة في الدنيا تعتبر أمراً عقديّاً واعتبارياً، ولكن أصلها هو القدرة على التصرف في الموجودات التي يمكن التصرف بها.

ولذا، لمّا لم تكن لنا قدرة التصرف والتدبير في قوانا وأعضائنا، ولا نحيط بها علماً، لم نكن مالكيها، ومالنا قدرة التصرف فيه هو تلك الافعال وآثارها، والتي هي من مبدأ الاختيار والارادة، إذ أنّ المالكيّة بحث هي الاختيار في التصرف، والتي مصدرها العلم والقدرة بالنسبة للملك.

يَوْم: ما بين طلوع الشمس وغروبها بلحاظ اللغة، واصطلاحاً يقال للعصر والزمان والمدة التي تقع فيها حادثة تاريخيّة (بسبب ظهور الحادثة ورؤيتها، كما أن المراثيات تظهر من ستار الظلام بعد طلوع الشمس) يقال: يوم السلطنة، والسلطنة، والحرب، التكوين - وعبر القرآن الكريم عن أدوار تكوين السماء والأرض بالأيّام: ﴿خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ﴾ - فالدين، أي الجزاء. وربما يطلق على الشريعة كلمة الدين، لأنّه يبيّن آثار الأعمال الحسنة والسيئة وجزاءهما، ويحدّد ثواب كل عمل وعقابه، وربما تكون كلمة «دين» من المفردات الدخيلة في اللغة العربيّة، كما يوجد شَبَهٌ لها في الجذور اللاتينيّة والفارسية القديمة وفي «الافستا» عيناها.

ما معنى ﴿مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ﴾؟

إن الارادة الحرّة في اختيار العمل لهي من مميّزات الإنسان، وعلى هذا الأساس من الإرادة والاختيار تكون أعماله ذات قيمة جيدة أو جزاء سيئ، ويحسبون له حساب الشرع والعرف، وهذا سبب التكليف، لأنّ حقيقة المِلَكِيّة هي حق التصرف التام، والانسان حرّ ومتصرّف في العمل، إذ أنّ المِلَكِيّة العمل موهبة له، واختيار العمل هذا ومِلَكِيّته يبدأ من التصور والاختيار والعزم حتى الإنتهاء، وبمجرّد أن يتمّ العمل بأيّ شكل من الأشكال يخرج من اختيار الانسان الفاعل ومِلَكِيّته، وتترتّب عليه الآثار والنتائج في ظروف وقوانين خارجة عن اختيار الانسان وارانته أي في مالكيّة الله، كما أننا مختارون

أن نتكلم أو نسكت، أو ندير مفتاح الكهرباء أو الجهاز، أو نغلقه، لكن أثر الكلام في النفوس والأفكار والنتائج المترتبة عليه بتشغيل الجهاز أو المعمل، أو اشتعال المصابيح خارج عن اختيارنا. وعندئذ يتضح أثر العمل أو الكلام، فيصل إلى النتيجة النهائية، وتتجلى آثاره من جميع الجوانب.

إذاً، فكل عمل وأثر هو مبهم ما لم يصل إلى نتيجة، ويتضح بمجرد أن يصل إلى النتيجة والجزاء. فكل فعل له عالمان ومحيطان: الأول: محيط التصور والاختيار والعزم والانتها. والانسان في هذا المحيط مكلف، والنتيجة والجزاء الذي هو نهاية المسيرة وأثره مجهول، ويختفي وراء ستار العوامل والمقتضيات. الثاني محيط ظهور الآثار والجزاء، أو «يوم الدين». وفي هذا المحيط تكون الملكية لله وحده، وخارجة نهائياً عن اختيار العباد وارادتهم. وعالم الجزاء النهائي عالم تتكشف فيه آثار أعمال الانسان ونتاجها وباطنه وملكاته من خلف ستار الغفلة والطبيعة، وتُطلع الحقائق رأسها - كما هي من أفق هذا العالم المظلم الذي خفي فيه كل شيء على النظر سوى الظواهر والسطوح.

إذاً، فإنّ هذا العالم بجميع أنواره وأجسامه النورية لئلاّ ليس إلا، وذلك العالم يوم ظهور الأعمال صغيرها وكبيرها وفعل الآثار وانفعالها، وملكيته كلّها لله الذي وهب للانسان قسطاً بسيطاً جداً من ملكيته باعطائه الاختيار والارادة الحرّة، ومحيط هذه الملكية ينتهي بانتها العمل وبصورة ناقصة، ومن هذا الحد إلى ما لا نهاية يكون محيط ملكية الله<sup>(١)</sup> التي تبدأ بعد العمل حتى تطلع من الأفق النهائي ﴿يَوْمَ لَا تَمْلِكُ نَفْسٌ لِنَفْسٍ شَيْئاً وَالْأَمْرُ يَوْمَئِذٍ لِلَّهِ...﴾، إذاً، إضافة «مالك» إلى «يوم» لا تحتاج إلى أيّ تأويل، فما أبلغها وأدقّها، سبحانه الله عمّا يصفون.

١- ليس الغرض من كلام المؤلف - رحمه الله تعالى - أن ما قبل هذه الفترة خارج عن قدرة الله وملكته، وإنما الحديث يدور حول عمل الانسان ونتاجه. فإنّ عمل الانسان يتمّ بارادته واختياره وهما من معطيات الله له، والامر كما عبّر عنه الامام الصادق (ع): «أمر بين أمرين». ونتائج الاعمال وآثارها الجزائية تبدأ بعد انتهاء فترة العمل لاغير، وملكته فترة هذه النتائج والآثار التي لا نهاية لها تختص بالله تعالى. (الترجمان).

شرح جملة: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾: -

العبادة كما يفسرها البعض ليست بمعنى الخضوع فقط، ومعناها العبودية، أي جعل الانسان نفسه رقاً، وشدّ حبل الرقية في جيده دائماً، والتسليم أمام أي شيء وأي شخص هو نفس عبوديته، سواء كان بسبب الحاجة أو الرغبة والحب أو الإعظام والاحترام ولازم مثل هذا التسليم هو الخضوع. إذاً يشعر العبد في البداية بالكمال والعظمة في المحبوب درجة أنه يستسلم بدون قيد أو شرط، ويُطأطأ رأس عبوديته أمامه، وعندما يصل الأمر إلى هذا الحد يكون المحبوب معبوداً.

اشراق هذه الآية وتأثيرها:

إنّ الانسان المركّب من القوى والרגائب المختلفة يستسلم تدريجياً لما يتطلبه في أية جهة اتّجه، ويضع غلّ عبوديته في جيده، وبهذا السبب يختار معبودين بعدد القوى والרגائب وما ينجم عنها من أوهام. ويمكن فصم هذه الأغلال عندما يتحرّر العقل، ويفتح عينه على ربوبية العالم العامة والرحمة اللامتناهية العامة، وتدير مبدأ التربية والخير والرحمة ومالكيتها. فبالشعور بهذه العظمة والقدرة والتصرّف يتمكّن من التخلص من أغلال عبودية غيره، ويعبّر بهذه الجملة عن هذا التخلص، الذي هو الشعور والحركة والتخلّص والفناء في إرادته: «إِيَّاكَ نَعْبُدُ» مع تقديم ضمير «إِيَّاكَ» الذي يفيد الحصر والالتفات التام والحركة، فعاد من حمد الغائب ووصفه إلى الحضور والخطاب، ففي الوصف بالربوبية والحمد والرحمة والمالكية يجد المطلوب والمعبود الحق، وينظر إلى جميع أنحاء العالم مليئة بصفاته، بل لا يلوح للعين شيء سوى ظهور هذه الصفات، ويشعر بجاذبيته في وجوده، ويفصم بعبادته والتقرب والتسليم الكامل إليه آخر أغلال عبودية غيره. ولما كان قليل من الغفلة يجذب جواذب مخالفه إلى عبودية غير الله، فقوة الحركة وحدها لا تكفي، بل تجب الاستعانة لاستمرار ذلك، لذا يقول - بتكرار الضمير وتقدمه على الفعل:

﴿إِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾: والاستعانة هي لا نجاز عمل مستصعب لا تكفيه القوة والجهد الجهد لوحده. فتكرار ضمير «إِيَّاكَ» يفيد مطلوبين ورأيين:-

الأول: الالتفات إلى المعبود وعظمته وقدرته وجاذبيته، وبهذا الالتفات يتقدم إلى الأمام ويطلب أن يتقرب إليه بصورة أكثر، ولما كان يرى الالتفات والهمة غير متناسقة مع الحركة والتقدم، ويشعر بوجود الموانع، فيعود التفاته إلى الجواذب المخالفة، ويرى قدام الهمّة محصورة بين العلائق والعواطف، عندئذ يقول: «وإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ»، وتكرار الضمير يدل أيضاً على أنه كلما اتجه بقصد القربة إلى العبوديّة، يجب عليه أيضاً الاستعانة والطلب من أجل قرب آخر.

وربما يكون ضمير الجمع لهذا السبب، وهو أنه يجب أن تكون الحركة اجتماعية وبقوة المجتمع من أجل رفع المانع واجتياز السدود والعقبات، لأن مجموع مركّب قوة عدد من الأفراد أكثر من حاصل جمع قوة كلّ فرد لتلك المجموعة، أو قل: إنّ مجموع القوى يتصاعد بالتصاعد الرياضي، كقوانين الجاذبيّة والحركة والسرعة، والتكاثر المضاعف لثواب الجماعة بحسب تكاثر عدد الأفراد مُبْتَنٍ على هذه القاعدة.

وبهذا السبب كان أصل تشريع الصلوات اليوميّة هو الجماعة، والصلوة فرادى رخصة فيه. وفي الصلاة الانفرادية وإن كان من الممكن أن يكون التوجّه إلى المبدأ أكثر، والمعارضات النفسيّة أقلّ، ولكنّ قوة المقاومة والحركة تقلّ بذلك القدر أيضاً، لأنّ أغلال عبوديّة غير الله والجواذب المخالفة للكمال قوية جداً، وقطعها والاجتياز من هذه العقبات لا يتهيأ إلا بتمركز القوة في جهة واحدة، وتوحيد القوى، والاستعانة واستقطاب القوى المضاعفة، (وكل هذه الأمور تستفاد من جملة ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾. فقصّة ابتلاء طائر الروح الانسانيّة المحلّق في الجوّ في هذا الفخّ وطريق نجاته هي قصّة «الحمامة المطوّقة» في كتاب «كلىة ودمنة».

ثم يُعَدّ العبد نفسه، ثم يدير قوّته ضمن القوى الأخرى مرة واحدة نحوه (إنّ هيئة الجملتين وتركيبهما يفيدان هذا الأمر)، وهذا الإعداد وتمركز القوى لا يكفي وحده

للطفرة والهروب من مركز الأشرار، إلا أن يصل لطف الله الذي هو تلك الجاذبية لمساعدته، وكأنما هذا التوجّه والإخلاص في الاستعانة يستجلب اللطف والجاذبية، والاستعانة هذه التي هي للطفرة والإخلاص في الاستعانة والتقرب والعبادة لا تتأتى إلا من جانب الله تعالى، لأنها متعلقة بلطفه بصورة كلية، بل هي اللطف والجاذبية، وتختلف عن الاستعانة في الأمور الأخرى، لأن الاستعانة في الدفاع عن الحق وطلب الفائدة والشفاء والرزق من غير الله من سنن العالم وأسبابه، ولكن السنة والسبب المنحصرين في العبادة هما نفس الاستعانة بالله «إذاً أخطأ بعض مفسري السلف في اعتبار الآية لحصر الاستعانة في الأمور الأخرى أيضاً».

إن ما قيل هو المعاني والأسرار التي تستفاد من نظم وتركيب هاتين الجملتين، وربما يشع من خلال ذلك على الفكر نور من هذه الآيات، وضرب عنها صفحاً، أو لا يمكن إضاءتها كما هي، ولا تفيد أية جملة قصيرة أو طويلة كما تفيد هذه الجملة من المعاني، فمثلاً يقال: إيتاك نعبد ونستعين، إنما نعبد ونستعين بك، نعبدك وحدك، لك العبادة وبك الاستعانة، وأمثالها، وهذا هو الإعجاز في الكلام، بحيث عندما يتغير مكان الحرف لا يكون مثله، ولم يجد أحد أبلغ منه.

﴿إِهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾: الهداية هي الدلالة بالحب والرافة والصلاح، وتطلق على قصد الخير، وتطلق مجازاً للشر والسوء. وذلك لتوجيه الملامة والتوبيخ: «فأهدوهم إلى صراط الجحيم».

الصراط: صراط في الأصل، ومعناها اللغويّ البُلْعُ، ولتقارب مخارج الراء والطاء مع الصاد وتطابقها، قلبت السين صاداً، وتطلق في الاستعمال على الشارع العام المفتوح، وربما لأن الشارع العام يتقدّم بسالكه، ويجتذبهم في نفسه مثل الجهاز الهضمي.

والسبيل: طريق خاصّ باتجاه الخير أو الشر، ويوعز ويضاف إلى جميع الفئات: سبيل الرشd، سبيل الغي، سبيل المؤمنين، سبيل الكافرين، ولما كان السبيل كالطرق الخاصة غير معروف، يُعرّف بالاضافة إلى الاشخاص. ولما كان الصراط طريقاً عاماً إلى الخير

والصلاح، وهو مطلوب فطريّ عام يوصف بمثل الحق والمستقيم أو يُضاف. إذاً فالطرق الفرعية الخاصة عندما تكون طرق خير وسلامة وسعادة تؤدّي إلى صراط الحق والصراط المستقيم، ﴿قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَى بَصِيرَةٍ﴾. وإذا لم تكن طرق الحياة الخاصة عن بصيرة ولا تؤدّي إلى الصراط المستقيم، تؤدي بسالكها إلى الحيرة والقلق. إذاً فالصراط المستقيم مطلوب بنفسه، وعندما يسلك الشخص هذا الطريق يتقدم نحو غايته، ويزول قلقه واضطرابه، ويجتذب طريق السالك إليه.

فالصراط المستقيم وإن كان طريقاً، والطريق هو للوصول إلى الغاية، ولكن الطريق المستقيم هو بنفسه مطلوب وغاية للموجود المتحرّك المستعدّ للسلوك، وكل جهد يبذل لاستمرار الحياة وكل قلق واضطراب إنّما يكون من أجل الوصول إليه، ليصل إلى الطريق الذي يجتذبه، وكلما تقدّم ازداد إطمئنانه، ويجد في كل خطوة المطلوب والكمال والنور والبصيرة، إلى أن تنقذه أشعة من مبدأ الكمال والربوبية، وحبال جاذبيته تزيد في سرعة حركته، ويجتذبه نحو قربه، وعندما أمسك بالاستقامة والمحاذاة التامة - يؤدّي السبيل إلى الصراط والصراط يكون مستقيماً - تعثور الأشعة السالك من كل جانب، وتملاً قلبه شوقاً وحماساً، ويتخلّص من كل جاذبية، ولا يميّز قرنه من قدمه، إلى درجة أنه يصرف بوجهه عن كل شيء غير أنوار العظمة والقدرة:

أَذْهَبُ إِلَى يَنْبُوعِ الشَّمْسِ الْمَشْعِ لِرُؤْيَا وَجْهِهِ رَاقِصاً كَالْهَبَاءِ<sup>(١)</sup>

وسر الحركة الذاتية والجوهرية والارادية ومبدأ التكامل هو الوصول إلى الصراط، لا أنّ الصراط طريق نحو هدف معيّن محدود، لأنّ الكمالات لاحد لها، والله أعلى من كل كمال، والإنسان أيضاً غير محدود في قابليّته، ويصل إلى أيّ حدّ ونهاية، بداية اللانهاية. وإذا كان المطلوب شيئاً آخر، والصراط وسيلةً وطريقاً إليه كان الواجب أن يُقال: إهدنا إليك، أو إلى جنتك... بالصراط، أو: من الصراط وامثال ذلك من العبارات، والعبارة استدلالية: الحركة عين البقاء والكمال، الحياة، أو ملازمة لها، وهذه ظهورات وأطوار

(١) ترجمة شعر فارسي. (الترجمان).

للحركة، والسكون نقص وموت وفناء:

نحن أحياءً بأننا لانسكن نحن موج سكوننا عدمناً<sup>(١)</sup>

إنَّ غريزة أو فطرة حب البقاء والكمال والهروب من الموت والفناء تبحث عن طريق يكون فيه التقدم ولا يوجد فيه سكون أو توقّف، وهذا هو الصراط المستقيم - إذاً فطلب الصراط المستقيم مطلوب الانسان الذاتي، بل كل كائن حيّ - كما أنّه قد جاء في القرآن الكريم في كل مكان وعد بالصراط المستقيم كالوصول إلى قرب الله والجنة واللذائذ، ذُكِرَ باعتباره غاية مستقلة ومقصوداً لذاته، ولهذا: -

الصراط: عُرِفَ بالألف واللام للعهد الذهني أو الحضوري، أي ذلك الطريق المعهود والمطلوب لكل باحث وسالك، أو طريق تكامل الموجودات، أو الناس المتقدمين في طريق الكمال.

المستقيم: يقال: المستقيم بمعنى المعتدل والمستوي، اسم فاعل من استقام، ومجرّده قام، استقام جاء لازماً بمعنى قام، وجاء متعدياً أيضاً بمعنى أقام، وباب الاستفعال في أكثر استعمالاته يفيد التكلف والجهد والطلب. استخرجه، أي أخرجه بطلب وسعي. عندما يقوم جسم مستقيم على جسم آخر يبقى قائماً، ولهذا صار الخط المعتدل مستقيماً، والخط المستقيم إمّا أن يقال له بلحاظ الخط الفرضي، أو بالنسبة إلى السالك الذي يسير باستقامة، ويحافظ على الطريق من الميل والانحراف.

وبالنظر الى المعنى الذي قيل للصراط، فالمستقيم صفة بيانيّة له، لأن الطريق إن لم يكن مستقيماً لا يكون صراطاً، والصراط المستقيم هو غاية الانسان الفطرية، وهذا هو أيضاً مبدأ التكامل.

إنّ بقاء الكائنات الحيّة يكون بقدر الانطباق مع التكامل، وقد انقرض مليارات الكائنات الحيّة وهي التي انحرفت عن مسيرة التكامل، فالعلماء الطبيعيون مثل «لامارك» و«دارون» وأتباعهما يعتبرون مبدأ التكامل ومنشأه من الحاجات الطبيعية وتنازع البقاء،

(١) ترجمة شعر فارسي. (الترجمان).

والمطابقة مع المحيط وبقاء الأصلح، ووصلوا إلى هذه النتيجة، وهي أن هذه العوامل تؤدي إلى تغيير صورة الموجودات وأعضائها، وتكمل المؤهل منها، وتبيد غير المؤهل. ولما بدأ هؤلاء الحركة والتكامل من الحاجات والتنازع، إذًا ينتهي الأمر بالاختيار الطبيعي والتطبيق مع المحيط: إذًا، إن المبادئ، الفرضية لتكامل هؤلاء تنقض التكامل، ويشاهدون أن بعد اقتراض نوع من الأنواع في القرون السالفة ظهر نوع آخر يشبه النوع السابق من جهة، وأكمل منها من جهات كثيرة.

فالطبيعيون عندما انتبهوا إلى أن الفاصلة كبيرة بين الأنواع، وحلقات هذا الفيلم لم تتصل ببعضها يسعون معاندين أن يملؤا هذه الفراغات بالفرضيات الناقصة، وأن يعثروا على الحلقات الوسطى المفقودة ولذا فقد وردت مئات النقوض والردود على هذه الفرضيات من قبل علماء الطبيعة الآخرين، ولما أراد هؤلاء أن يجدوا منشأ التكامل في المحيط والحاجات الطبيعية والعوامل العضوية فقط، ولم يرفعوا نظرهم عن هذه الظواهر، بقيت فرضيتهم ناقصة، وواجهوا مشاكل في مسيرتهم في هذا الطريق، مع أن الحق هو هذا، وأن التكامل يصل إلى ظاهر الموجودات من باطنها وذاتها، وهناك حركة في جوهرها، كما أن النطفة تبدأ بالحركة منذ بداية التكوين وقبل أن تستقر في المحيط المناسب من رَحِم الأم، وتصنع الآلات وتغير في الصورة، وتوصل نفسها إلى المحيط المناسب، وتظل تعقب طريقها حتى تكمل آلات ادراكها ومعلوماتها، وتخرج بالصورة الانسانية، وتطوي مراحل الاحساس والتخيّل والتعقل.

هذا نموذج صغير ودائمي للتكامل. إن مسيرة الخليّة وأطوارها في رَحِم الأرض الواسع كالمحيط الداخلي ورحم الكائنات الحيّة، لأنّ قوانين الحياة متساوية، وإذا كان هناك اختلاف فمن جهة الكمال والنقص، فأفان المسيرة التكاملية وعوارضها في محيط الأرض الواسع أكثر ومدتها أطول. إذا إن هؤلاء العلماء - مع كثرة الضوضاء هذه - لماذا يغضون النظر عن تكامل الخلايا النطفويّة، ولا يعتبرونها معلولة لقوانين التنازع والاختيار الطبيعي وبقاء الأصلح؟! مع الشبه الظاهري لاول خلية نطفة الانسان مع الحيوانات



الأخرى، ولأن قدرتها على التكامل أكثر، ومحيطها أكثر قابليةً تستمر في مسيرتها، وتطلع رأسها من عالم الانسان، ولكن الحيوانات، الأخرى تتوقف.

إذاً فالكائنات الحيّة التي تتقدّم في رحم الحيوان أو في الأرض جميعها تطوي المراحل نحو عالم الانسان، وتطلع رأسها من العقل والحرية والارادة، وعليها أن تسلك هذا الطريق بالعقل والارادة الحرّة، وأن تجتاز المحيط بعد المحيط. فالمجموعات التي انحرفت عن صراط التكامل المستقيم، أو لائمت نفسها مع المحيط تتوقّف، وتعتبر من الضالّين أو المغضوب عليهم، ويحكم عليهم بالفناء إذاً كما أن الانحراف عن المسيرة التكاملية يؤدي إلى الفناء والافتراض، فالتطابق والملائمة مع المحيط يؤدي الى توقّف الكائن الحيّ أيضاً. وينقرض على أثر التوقف بخلاف ما يقوله بعض علماء الطبيعة).

إنّ الانسان الذي يريد باختياره وارادته أن يجعل صراط الكمال هذا بصورة أكمل، ويتقدّم في هذا الطريق، عليه ألا يكون مطابقاً للمحيط ولا منجذباً إليه، وعليه أن يغير من محيطه الفكري والروحي على الدوام، ويسير في الخط المستقيم، ويحذر من الانحراف، لأنه دائماً يتعرّض للغفلة والضلال، وأن يداوم على هذا الدعاء والطلب أيضاً، ليكون مشمول عناية مبدأ الكمال والوجود ومشيتته الخاصة.

إنّ الآيتين المباركتين السادسة والأربعين والسابعة والأربعين من سورة النور تستعرضان بجماليات موجزة جامعة أدوار الحياة التي مرّت عليها ملايين السنين حتى ظهور الانسان والعقل والهداية الى الصراط المستقيم:

﴿وَاللّٰهُ خَلَقَ كُلَّ دَابَّةٍ مِنْ مَّاءٍ فَمِنْهُمْ مَنْ يَمْشِي عَلَىٰ بَطْنِهِ وَ مِنْهُمْ مَنْ يَمْشِي عَلَىٰ رِجْلَيْنِ وَمِنْهُمْ مَنْ يَمْشِي عَلَىٰ أَرْبَعٍ يَخْلُقُ اللّٰهُ مَا يَشَاءُ إِنَّ اللّٰهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ . لَقَدْ أَنْزَلْنَا آيَاتٍ مُّبَيِّنَاتٍ وَ اللّٰهُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ .﴾

تكرر في الجملة «مِنْهُمْ مَنْ».. وهذا التكرار لطف وإعجاز في البيان بالنظر الى تكامل الأنواع: بناء على هذا إنّ من (المكسورة) نشيئة لاتبعيضية فحسب، ومن الموصولة (المفتوحة) تطلق على العاقل بالفعل أو العاقل بالقوة مثل جنين الانسان، وكأنّما هنا كان

يجب أن يأتي بـ «ما» فجاء بـ «مَنْ» (وحيرَ المفسرين) والسبب في ذلك هو هذه المسيرة التكاملية التي تتقدّم نحو عالم العقل، وبالنسبة الى العالم والنوع السابقين، كل نوع يتقرّب الى عالم العقل اكثر من ذي قبل: ويظهر من عود الضمير على ما يُعاد عليه القريب أن يقال: بعض ذلك النوع السابق الناشئ المنفصل حيوان يمشي على بطنه او على رجلين... إذاً، كلمة من المكسورة تشير إلى النشوء، ومن المفتوحة تشير إلى الارتقاء والكمال، كما أن علماء الطبيعة يطلقون على فلسفة التكامل اسم فلسفة النشوء والارتقاء أيضاً. ثم يشير في الآية الأخرى إلى ظهور العقل الانساني المميّز، وإنّ نزول الآيات المبيّنات القولية والتكوينية وجعلها في متناول الأيدي من أجل تمييز العقل وتبيينه، ليتقدّم بحرية الارادة والتميز وفقاً للمشئنة الالهية نحو التكامل الذي هو الصراط المستقيم: ﴿وَاللَّهُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ...﴾ .

والآية الستون من سورة هود تفيد - ببيان آخر - سلطة التربية والتكامل ونفوذهما على جميع الحيوانات: ﴿مَا مِنْ دَابَّةٍ إِلَّا هُوَ آخِذٌ بِنَاصِيَتِهَا إِنَّ رَبِّي عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ .

- الناصية شعر مقدّم الرأس، وكأنما هي استعارة تشير الى مركز ظهور التكامل - كما أنه نسب الكذب والخطأ الى الناصية في سورة العلق: - «نَاصِيَةٍ كَاذِبَةٍ خَاطِئَةٍ»، لأنّ المخ هو الذي يسجّل الادراكات بواسطة الأعصاب ويجعلها إرثاً باقياً في الأعقاب وإنّ جهاز المخ والأعصاب يتقدّم في تكامل مستمر، ورأس سلسلة هذه التربية والتكامل بيد ربوبية الله، ومراحل التكامل المحسوسة الواضحة تتقدّم من الطبيعة البسيطة والمركبة نحو الغريزة، ومنها الى مراحل الادراكات الحسية والوهمية والخيالية حتى ظهور العقل الفطري والتكامل العلمي. وإن طفرة المركبات الطبيعية الأولى هي ظهور الحياة والغرائز، وفي هذه الطفرة تحرّض الغرائز الكائنات الحية على السعي وراء الغذاء والدفاع والنسل. والطفرة الثانية ظهور الحواس والادراكات الظاهرية التي ترشد الغرائز وتكملها، لأنّ تمييز الغذاء والمسكن والنسل وما يلائم منها. وما لا يلائم يتم عن طريق الحواس، وبعد

ذلك تظهر الحواس الباطنية التي تسجل الادراكات الظاهرية ولما كانت الحواس والادراكات الجزئية ربّما تخطأ - كالخطأ في البعد والقرب والاستقامة والإعوجاج - تظهر الادراكات الكلية والاستدلال الذي هو أثر العقل الفطري، فالعقل يرشد الادراكات والمحسوسات والغرائز ويكملها.

إنّ هذه الادوار والمراحل كما هي ظاهرة في تكوين الانسان، يجب أن تكون في سائر الانواع هكذا أيضاً وإنّ تغيير الأعضاء والجوارح والجهاز العصبي وتكاملها أثر من آثار هذه التربية والتكامل المعنوي والباطني وظهوره ﴿إِنَّ رَبِّي عَلَىٰ صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ هل يحصل المطلوب بتمامه مع بزوغ العقل الفطري من أفق الغرائز والحواس، وتتوقف هنا التربية والهداية؟ مع أن طبيعة الفطرة هي الاستعداد للطرفة والتحرّر من عالم الحيوانات فقط، فإنّ العقل الفطري في أسر الحواس والغرائز ومقيّد بهما دائماً، بل محكوم لها، ولا تميز أشعته القصيرة الباهته الحقّ والباطل في مجال الرأي، والصالح والفساد في مجال العمل من كل الجوانب، ويبقى صامتا ومحكوماً في مهابّ الهوى والشهوات والظغيان التي تنار من قبل حبّ النفع واللذة والغرائز، وكأنّما لم تحصل مثل هذه الطرفة والتطور في الحياة. فاذا لم يدركه نور الهداية ليجعله حاكماً مستقلاً توقّف التكامل، بل ينعكس.

إذاً، فالهداية النهائية التي هي هداية الدين - الوحي والالهام - إلى قانون التكوين الذي هو قانون التكامل، لابدّ منها. والتجارب والاكتشافات في مسيرة الاحتياجات يمكنها أن تهَيئ العقل الفطري وتجعله قادراً، لكنها لا تجعلها حاكماً مستقلاً وحرّاً، وعلى فرض أنّ الناس يصلون الى هذه المنزلة واحداً واحداً وببطء وعلى طول الزمان، الاّ أنّه لم يكن عامّاً ولا سريعاً.

والهداية الغريزية الحسيّة الفطرية خارجة عن الارادة والرغبة، وبعد بزوغ الفطرة التي هي بداية الإرادة والاختيار، فإنّ استقلال العقل الفطري واستقامته وتكميله تتعلّق بالارادة والرغبة أي الاستعداد والقابليّة الاختيارية. اذاً لم يكن الغرض من هذا الدعاء:

﴿إِهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾ الهداية السابقة للاختيارية. فإذا كان الضمير «نا» يشير إلى الحقيقة وفصل الانسان المميّز والذي هو ذلك العقل الفطري والاستعدادي، فالمطلوب في هذا الدعاء استمرار الهداية وكمالها، أي أزح ستار الغفلة والجهل عن عقلنا، واحفظه من الزلّة والانحراف، وخذه إلى الفعلية والكمال، واجعله مستقلاً مستقيماً، واجعل ادراكاتنا الإجمالية والنظرية تفصيلية واكتسابية وإذا كان الضمير «نا» يتعلّق بمجموع الجنس وفصل الانسان، يعني ذلك: خذ جميع قوانا وغرائزنا وادراكاتنا منسقة مستقيمة إلى الأمام في ظل الهداية، ولما كان الاستعداد الكمال لجميع الموجودات والكائنات الحية متحقّقاً في الجبلة الانسانية، يمكن أن يكون هذا الدعاء لسان حال استعداد الجميع، أي اجعل الجميع على صراط التكامل المستقيم هذا.

الخلاصة: الهداية هي الدين الذي يجعل العقل الفطري مستقيماً، ويظهره في الصلّات العامة وفي كل ناحية من نواحي الحياة وآثار الخير والشر... ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفاً فِطْرَةَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا...﴾ لأنّ النظام الديني وتعليم الأوامر والأحكام الكلية وبيان معارف المبدأ والمعاد كلّ ذلك يصل إلى الناس عن طريق الأنبياء ويكمل، إذاً فمثل الهداية الغريزية والفطرية لم تكن موضع طلب العبد، وما يجب أن يُطلَب دائماً هو الهداية في التمييز والتطبيق، ليعرف - بالعناية الربوبية ولطفها - معارفها ويطابق نيته وأعماله معها، لأن الانسان من هذه الناحية يكون في معرض الزلل والانحراف. إذاً يجب أن يكون هذا الدعاء دائماً.

### من ناحية الروايات

ورد عن أمير المؤمنين عليه السلام في تفسير هذه الآية: يعني:

«أدّم لنا توفيقك الذي أطعناك به في ماضي أيامنا، حتى نطيعك كذلك في مستقبل أعمارنا». وجاء عن الامام الصادق عليه السلام يعني: «إرشدنا إلى لزوم الطريق المؤدّي إلى محبتك، والمُبلغ إلى جنّتك، والمانع من أن نتبع أهواءنا فنُعْطَب، أو أن نأخذ بآرائنا فنهلك»

إنَّ الغرض - كما يتَّضح من هاتين الروایتين - من طلب الهداية هو استمرار الطاعة والبعد عن الأهواء والآراء التي تأخذ لنفسها صورة الدين، فتكون سبباً للانحراف عن الصراط المستقيم، لأنَّ صورة الانحرافات الدينية الباعثة على الغرور خطرُها أشدُّ من اللادينية بكثير.

إذا كانت فاتحة الكتاب من أوائل السور - كما يتَّضح من بعض الروايات وأنها جزء من الصلاة - فالمسلمون الأوائل كانوا يطلبون توضيحاً أكثر بواسطة الوحي، وعلى المسلمين الآخرين بعد أولئك أن يقوموا بالاستفسار والتمييز والاجتهاد.

وبناء على ما قيل، فالصراط - كما وصلنا في الروايات عن رسول الله ﷺ والأئمة الهداة عليهم السلام والنظام الذي لا يُقبل سواه، «الصراط المستقيم في الدنيا ما قصر عن الغلو، وارتفع عن التقصير واستقام، وفي الآخرة طريق المؤمنين إلى الجنة».

والرواية الأخرى التي جاء بها المرحوم ملا محسن الفيض في تفسيره الصافي: «إنَّ الصورة الانسانية هي الطريق المستقيم إلى كل خير، والجسر الممدود بين الجنة والنار». وصورة الانسان الحقيقية هي العقل الفطري الذي يجب أن يكون بواسطة التوجيه الديني حراً مستقلاً، فيكون - بناءً على اتحاد العاقل والمعقول - الطريق والسالك واحداً، والمقدمة تثبت النتيجة دائماً، والمقدمة توصل إلى نتيجة أخرى، وكل فكر وإدراك جديد يكون مصدر عمل وأثر، والأعمال والآثار تكون مصدر أخلاق وملكات، وهكذا يتقدم إلى الأمام في الفكر والاخلاق والآثار والمكتسبات.

وجاء في عدد من الروايات عن طريق الخاصة أنَّ الصراط المستقيم هو أمير المؤمنين والأئمة الهداة، ومعرفتهم. لأنَّ هؤلاء المثال الكامل للعقل المستقل الإيماني والفضائل الخلقية، والسيرة العملية السامية، فمعرفتهم وخلقهم وعملهم يصدّ عن كل زلّة وانحراف، والنظر إلى جهة حركتهم يقود إلى صراط الهداية. كما يقول أمير المؤمنين عليه السلام في الخطبة الثالثة والتسعين من نهج البلاغة: «انظروا أهل بيت نبيكم فالزموا سمتهم، واتبعوا أثرهم، فلن يخرجوكم من هدى، ولن يعيدوكم في ردى، فإن لبدوا فالبدوا، وإن نهضوا فانهضوا،

ولا تسبقوهم فتضلوا، ولا تتأخروا عنهم فتهلكوا».

وعن الامام الصادق (عليه السلام): «وهي الطريق إلى معرفة الله، وهما صراطان، صراط في الدنيا وصراط في الآخرة، فأما الصراط في الدنيا فهو الامام المفترض الطاعة، من عرفه في الدنيا واقتدى بهداه، مرّ على الصراط الذي هو جسر جهنّم في الآخرة، ومن لم يعرفه في الدنيا زلّت قدمه عن الصراط في الآخرة، فتردّى في نار جهنّم».

ندرك مما قيل لحد الآن في معنى الصراط ومن مضمون الآيات والروايات الأخرى أنّ للصراط حقيقة وواقعية والتي هي نفس طريق التكامل والقرب إلى مبدأ الكمال، وقد جاء بحسب العوالم ومراتب الفهم البشريّ بأشكال وتعابير مختلفة، والتعبير النهائيّ عنه جسر جهنّم والذي على أصحاب العقول والتكليف أن يعبروا عليه ويجتازوه. وهذا مثال كل حقيقة تدركها العقول البشرية بصورة من الصور حسب قوّة ادراكها وضعفه، ويظهر في عالم الخيال والحسّ أيضاً بصور مختلفة. كما أنّ طريقة كل فرد وأسلوبه وأهدافه في الذهاب والإياب، وحياته اليومية تظهر بشكل من الأشكال، ولها شكل آخر في عالم الخيال والعقل، وتظهر في المنام كالطريق المعبد سهلة، أو الطرق الملتوية مظلمة ذات شفا جرف مخيف. فالعقل الحرّ وطريق الكمال في الحقيقة سبيل أو جسر على شفا جرف الشهوات والأهواء، فالشخص الذي يتمكن من اجتيازه بسهولة هو الذي يكون نور الايمان دليله وقوّة العمل تحافظ عليه، ويقتدي بالامام الحق، وبهذا النور والقوّة والجاذبيّة يتمكن من التخلص من جاذبيّة الغرائز، ويجتاز من وسط نار الشهوات، ويستقيم من الانحراف إلى الإفراط والتفريط، ويعبر مسرعاً أو كالبرق كما جاء في الروايات وأنّ يتطلّب الهداية إلى الصراط المستقيم في كل فكرة وخصلة وعمل صغير أو كبير، ومتابعة الامام الحق.

وضعف هذه الجاذبيّة والغفلة عن هذا الدعاء تؤدّي إلى الانحراف والسقوط. كما أنّ الانحراف نحو الشهوات يلهب شعلات الطمع والجشع، ويحرق قوى الخير وحب الحق و العفة والغيرة. ويعمّ الغضب وسوء الظن والتفكير السيّء وسحق الحق جميع ما يحيط

بمثل هؤلاء الناس. والتفريط أو تعطيل الغرائز أيضاً يؤدي إلى الفقر والاستكانة وانهيار الفكر والاخلاق والمجتمع. والنمط الأوسط - كما جاء في الروايات - ما أدقه وأصعبه، لا يمكن اجتيازه إلا بجاذبية الإيمان والاخلاص والبصيرة.

﴿صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ﴾: النعمة بمعنى الراحة، واسطة الحياة، ولراحة للانسان الموجود المفكر المتقدم سوى الهداية إلى الصراط المستقيم بعد تعيين الغاية والمطلوب - إن الحياة عقيدة وجهاد - إن السالك والمسافر الذي يعرف الطريق ومنازله يسهل عليه تعب السفر، ولا يخشى قلة الزاد، ويعتبر المال وبالاً، وكل ما يملك إلى الفناء والزوال.

والذي عن مسلك الحق انفصل لم يجد خيراً له مهما حصل<sup>(١)</sup> والآية الأخرى تبين النعمة حسب المراتب: ﴿وَمَنْ يُطِعِ اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَأُولَئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالصَّالِحِينَ﴾.

إن القوافل التي وردت عرصة هذا العالم وانقرضت، رسموا بآثارهم التي تركوها من حسن وقبيح وخير وشر الصراط المستقيم وغير المستقيم، كلما كان عندهم وتعلقوا به ذهب إلى الفناء، وبقيت النتيجة والأثر، وهذا هذا هو ذهابهم، وهكذا عامة الناس يمكنهم أن يتصوروا الحقائق بالنظر إلى الامثال والنماذج التاريخية، بل التاريخ لم يكن سوى أعمال الماضين وحركاتهم المباشرة وغير المباشرة، والمواضيع الأخرى هي نتائج تلك الأعمال وآثارها. فالماضون من البشر بكل تقاليدهم وآدابهم وسلطتهم وحضارتهم كانوا كالحيوانات الصغيرة والكبيرة إما أن تقدموا في صراط التكامل المستقيم فرداً ونوعاً وتركوا من أنفسهم آثاراً، وإما أن توقفوا وسرعان ما انقرضوا، أو أنحرفوا وزالوا بعد مدة. هذه هي روح تاريخ الشعوب والأمم وفلسفته، وتصدق على كل كائن حي متحرك.

﴿المغضوب عَلَيْهِمْ﴾ تطابق اليهود في الروايات، و«الضَّالِّينَ» تطابق النصارى، وبالنظر إلى الوضع الروحي والأخلاقي لليهود والنصارى يكونان مصداقين واضحين

(١) ترجمت البيت الفارسي إلى البيت المذكور. الترجمان.

لهذين الوصفين، لأن أسلوب تفكير اليهود العام هو التمرد على الحق والكمال. فاليهود من ناحية التربية العنصرية والغرور الديني يعتبرون العالم وأهل العالم ملكاً لهم، ويعتقدون أن الله إله اليهود، والدنيا لليهود، وأهل الدنيا أرقاء لليهود، والدار الخالدة لليهود. وأثر مثل هذا الاعتقاد والغرور قتل روح الخير والرحمة والعواطف والفضائل الانسانية ليس إلا. والشعب الذي يفقد هذه المعاني والفضائل سوف لا تكون عنده روح التكامل والقدرة المعنوية، وينجذب الى المال والمادة اكثر من اللازم بدلاً من القدرة المعنوية، وتكون غايتهم الثراء من أي طريق كان وباي شكل من الأشكال حتى لو كان بدون عوض أو إسداء خدمة صحيحة، إلى درجة أن السعي وراء العلم والصناعة والتمسك بالدين، كل ذلك في رايهم مقدمة للقدرة المادية. وهذه الاخلاق والروحانية هي التي جعلتهم موضع غضب الله والشعوب ونظم العالم، وصدتهم عن التكامل المعنوي والفضائل الأخلاقية التي يكون العلم وسيلة لها.

الغضب حالة نفسية، وأثرها الإبعاد، بخلاف الرحمة، ولم ينسب الغضب كالهداية إلى الله، لأن الهداية لطف الله الخاص، والغضب أثر عمل الناس، والهداية منه فقط، والغضب انعكاس عن المحيط والوجود.

النصارى، وإن تقدموا من لحاظ الكمالات العقلية والاخلاقية والعواطف الإنسانية، ولكنهم ظنوا في ذلك الزمان أن الرهينة وقطع العلاقة عن الزوجة والولد والدنيا شرط الفلاح والفوز والكمال المعنوي، فأنحرفوا عن الصراط المستقيم وضلوا. وهذا الاهتمام المفرط بالثروة والماديات الذي هو أساس الحضارة الغربية المسيحية وقاعدتها، والذي أقلق العالم، وسلب الراحة من سكان هذا الكوكب، رد فعل ذلك التفریط والرهبنة المصطنعة المبتدعة.

العطف بـ «لا» يفيد أن فئتين ممتازتان، والمغضوب عليهم الذين أضيف إليهم «غير» يتعدون اكثر من «الضالين» عن أصحاب النعمة، أو أنهم وُضِعوا في الجهة المقابلة، والتائهون «الضالين» لما كانوا يملكون الطريق وهم ضالون أقرب إلى الفئة الأولى:



﴿وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُمْ مَوَدَّةً لِلَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصَارَى...﴾

### بنظرة العقل الفطري الظاهرة

والآن ونحن نبتعد من منطق الحمد (روضة الحمد) نعيد النظرة مرة أخرى في آياتها، إن الانسان الذي يفتح عينيه على هذا العالم بفطرة طاهرة نيرة، يراه كله نعمةً وجمالاً وحكمةً وكمالاً، ويشعر في نفسه رغبةً وحركةً مُلِحَّةً نحو الكمال والبقاء، فتراه مضطراً لِسَوْقِ حكمة وجود العقل الفطري وجماله ونعمته نحو ينبوعها، ويدرك ظهورها في الكمال والوجود من المبدأ اللامتناهي، فينطلق لسانه بكلمة «الْحَمْدُ لِلَّهِ»، ذلك المبدأ الذي وسعت عناية تربيته جميع العوالم بنوعين من الرحمة، وينحو بالأعمال والآثار بتصرفه المالكِي نحو البقاء. وهنا يجد مطلوبه ومقصوده ومحبوبه الحقيقي في نور هذه الصفات، وعند ما ميّز المطلوب يتّجه نحوه بعد التشبّث، ويستعين به فقط: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾، وبعد هذا الادراك والتمييز والاستعداد يحتاج الى طريق لا يوجد فيه انحراف وزلة وتوقف، فيضطرّ إلى أن يطلب هذا أيضاً منه، لأنّ العقل البشري عاجز عن تمييز مثل هذا الطريق، الطريق الذي يميّزه بهدايته، ويتقدّم فيه بعونه، ويطابقه ببصيرته الإيمانية مع طريق الماضين وأسلوبهم.

لما كانت الهداية إلى الصراط المستقيم مبدءً ومنبعاً لكلّ خير وسعادة، جاء طلبها في نصّ سورة الحمد، وأضحت سورة الحمد الجزء المكمل للصلاة - «لا صلاة إلا بفاتحة الكتاب» - ولاتقال جملة أو كلمة على وجه الأرض دائماً وبصورة منسّقة مثل هذا الدعاء. عندما ينتشر النور بجماله وجلاله في آفاق الأرض صباح مساءً ويفتتح، وفي فصول طلوع الشمس وغروبها، ملايين المسلمين يفوهون بهذه الجملة ويسمعونها عشرات المرات منفردين وفي الصفوف. هذا الدعاء جامع كل خير وفاتحته، وهذه السورة جامعة القرآن وأمّ الكتاب وفاتحته، لأن مبادئ القرآن وفهرستها مجموع في هذه السورة.

آيات القرآن الحكيمة تعود إلى خمسة أمور: المبدأ، المعاد، الانسان، الأحكام،

الماضين. وسورة الحمد سبع آيات في كل آية جملتان أو كلمتان وهي جذر الكتاب وأصله وأمه، وسائر الآيات الأخرى فروعها واغصانها (ولهذا فإن أحد أسماء هذه السورة السبع المثاني) وقالوا لأن هذه الآيات السبب يجب أن تقرأ في كل صلاة مرتين، ولأن أمهات مواضع القرآن قد أوجزت فيها، وكأنها قرآن مستقل، كما ذكرت في سورة الحجر بصورة مستقلة وعطف عليها القرآن: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَاكَ سَبْعًا مِّنَ الْمَثَانِي وَالْقُرْآنِ الْعَظِيمِ﴾ .

بداية سورة الحمد جاءت بوصف الله عن طريق نعمه وصفاته المشهودة وبيّنت صفته الربوبية، ونوعين من رحمة ظهور ذاته وإرادته في عوالم الوجود، ويفيد وصفه بمالكية يوم الجزاء (يوم الدين) تصرفه القهار في العالم وتطور العالم العام وسر المعاد، والخطاب بلسان العبد: «إِيَّاكَ نَعْبُدُ...» وقصر العبادة عليه يشير إلى قابلية الانسان واستعداده للتطور والتكامل، والذي هو المميّز الوحيد للانسان. والصراط المستقيم على شكل تشريع، القوانين والشريعة، و ختام السورة اسرار الموت والحياة وأسبابهما، رقي الأفراد والشعوب وانحطاطهما، هذه هي بذور وجذور المواضع الخماسية في جميع آيات القرآن.

## سورة البقرة

مدنية، وهي مائتان وست وثمانون آية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ﴿١﴾

﴿٢﴾ ذَٰلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٣﴾ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ ﴿٤﴾ وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنزِلَ مِنْ قَبْلِكَ وَبِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ ﴿٥﴾ أُولَٰئِكَ عَلَىٰ هُدًى مِنْ رَبِّهِمْ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿٦﴾

نظرة في حروف أوائل السور:

هناك آراء وأقوال تدور حول الحروف التي وردت أوائل بعض السور. والتي وردت روايات تؤيد بعضها، ويبدو من مجموع هذه الآراء والروايات أن ذكر هذه الحروف كان لغرض ما، ويمكن معرفة ذلك الغرض بصورة مجملّة بواسطة أو بلا واسطة، أو هو لفتح الطريق بوجه العقول الايمانيّة للعمل والتفكير، والتدبّر في هذا الكتاب السماويّ والمعجز بصورة اكثر.

والان نأتي بما يبدو من الاحتمالات وآراء علماء التفسير المعروفة والروايات، وما

يمكن أن نجد لكل رأي من تبرير وبيان:

١- هي أسماء السور التي بدأت بهذه الحروف. يمكن تبرير هذا الرأي بما يلي: وهو إن هذه الحروف الخاصة تشير إلى آيات خاصة في تلك السورة، والحروف الأولى لتلك الآيات مثل حروف أول السورة، ولما كان التأمل في تلك الآيات موضع اهتمام وعناية فجيء بحروف أول السورة مشابهة لها أو لبعضها. كما يقال للبيت الممتاز في القصيدة «بيت القصيد» ويأتون به في بداية القصيدة، أو يأتون من المقالة أو البحث بجملته منتخبة منه ويجعلونها عنواناً للبحث. فمثلاً في سورة البقرة نرى الآيات التي بدأت بـ «الم»: «أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ خَرَجُوا...»، «أَلَمْ تَرَ إِلَى الْمَلِإِ مِنْ بَنِي إِسْرَآئِيلَ...»، «أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِي حَآجَّ إِبْرَآهِيمَ...» أتت متتالية في أواخر السورة ومتقاربة. ويمكن أن نجد مثل هذا الموضوع في السور الأخرى التي تبدأ بحروف مقطعة.

٢- كل حرف من هذه الحروف أو مجموعها تشير إلى صفة من صفات الله، وبعضها اسم و وصف لرسول الله، أو هي قَسَمٌ ببعض الأسماء والصفات، فالحكماء والعرفاء المتوِّرون يقولون: إن العالم ظهور لصفات الله وأسمائه، وكل ظاهرة هي مظهر اسم أو أسماء، كما أن النور البسيط يتصوّر ويتلون بحسب قابليّة الأجسام، أو أن أعمال الانسان وآثاره كلُّ منها ظهور صفة من صفاته أو سجيّة من سجاياه.

٣- إنَّ ما بُدئ به الآيات التالية هو لجلب انتباه السامعين لينصتوا ويصغوا، ولأجل أن يقيس القراء بأداء هذه الحروف الوقف والوصل، والمد والقصر، ولحن القراءة وجوانبها الأخرى. كما يستخدمون كلمات غير مفهومة لقياس الأوزان الشعرية والإيقاعات.

٤- يقول البعض: إن الحروف التي تُفْتَحُ بها بعض السور رموز وإشارات إلى حوادث المستقبل مثل وقت تأسيس وانقراض ومدة الدول، وبقاء وفناء الشعوب، ويرى البعض مصدر هذه التنبؤات هو تركيب عدد من هذه الحروف. ويقول البعض الآخر: إن هذه الحروف تدلّ على أسماء وصفات هي مفاتيح الغيب ولها آثار. فالحوادث المتعلقة بكل موضوع يمكن للعلماء المتخصّصين به من التنبؤ حوله بقدر ما يدركون من العلل

والظروف، فالطبيب يشير إلى مستقبل المريض ومدة المرض من حيث الشدة والضعف وبحسب الأمزجة. وعلماء الاجتماع والتربة والأنواء يخبرون عن التطورات الجوية والأرضية والاجتماعية وتقارن الكواكب والحوادث التي لها صلة بهذه التطورات. والذين يعرفون نفسيات الشعوب وأخلاقهم، وأدركوا فائدة أنواع الحكومات وآثارها، ينظرون إلى استمرار الشعوب وفنائها، وانهيار الحكومات في المستقبل القريب والبعيد والصدمة التي يوردها الحجر في الماء، أو القنبلة التي تنفجر في الهواء تحدد شدة التشعشع والأمواج ومقدارهما ودوامهما.

فكلما سما الفكر في الأسباب والعلل، وحلقت الروح في أفق أسمى، تنظر إلى الحوادث والمسببات بصورة أكثر وأوسع.

فالقرآن أصبح مصدراً وعلّة لتطورات معنوية وأخلاقية بليغة، بحيث أصبحت هذه التطورات مصدر تطورات اجتماعية، وكلما ازداد ادراك قوة تأثيره وكيفيته في نفوس الافراد والجماعات والشعوب المختلفة وأخلاقهم، يكون التنبؤ بالمستقبل أدق وأوسع. إذاً يمكن القول بأن حروف أوائل السور التي هي جزء من القرآن رموز عن الحوادث أو أسبابها أو صفات الله الخاصة، والتي يمكن بالانتباه إليها وفهمها، التنبؤ بالحوادث التي للقرآن تأثير عليها بصورة أكثر - كما أن آيات من القرآن وأحاديث عن الرسول الكريم وأمير المؤمنين وسائر الأئمة عليهم السلام أخبار تخبر بصراحة عن بعض حوادث المستقبل - كان هذا التوضيح لتبرير الآراء والروايات التي تعتبر حروف أوائل السور رموزاً لما يدور في المستقبل من الحوادث. لكن الغيب الذي مصدره الوحي أو الإلهام هو بحث آخر.

٥- قال جماعة إن هذه الحروف تنبئ عن إعجاز القرآن، بهذا المعنى: وهو أنه يعلن للمنكرين والمكذّبين أن القرآن آيات وكلمات مركبة من هذه الحروف، وهذه الحروف والمفردات التي تركب منها هي في متناول أيديكم، فإن لم يكن معجز من قِبَل الله فاتوا بآيات مثله. فإبداء المعجز في الكلام كالمعجز في الطبيعة: والحروف هي عناصر الكلام،

وعناصر الحروف المركبة، وعلماء الطبيعة يعرفون العناصر البسيطة لكل مركب حي ويعرفون مقدارها، ولكنهم عاجزون عن صنع حبة قمح أو نواة فاكهة أو خلية، وآيات الوجود تبدأ دائماً من العناصر، وتظهر على صورة مركبات رفيعة المستوى وكائنات حيّة، ويعلن مبدع العالم بهذا العمل: إن أمكنكم فاصنعوا حبة قمح بهذه الأوصاف الحيوية! وآيات القرآن أيضاً بالابتداء بهذه الحروف البسيطة تعلن عن نفس هذا الإعجاز، وذلك على لسان من لم يدرس ولم يعرف الحروف!

هذه الحروف التي عددها في اللغة العربية تسع وعشرون حرفاً جاءت في تسع وعشرين سورة بصورة خاصة من الحساب، وقد درس القاضي البيضاوي هذا الحساب في أوّل تفسيره وخرج بهذه النتيجة: إنّ الحروف مجهورة ومهموسة، شديدة ورخوة، مطبقة ومنفتحة. ومن مجموع الحروف الثمانية والعشرين - بناء على أن الألف لا تُحسب - جيء بنصفها الأربعة عشر في أوائل تسع وعشرين سورة، وهذه الحروف الأربعة عشر من النصف، تشكّلت من كل نوع من الأنواع الستة... (يراجع التفسير المذكور للاطلاع على تفصيل هذا الحساب وعدد كل نوع من الحروف).

يقول المحقق الطنطاوي: إنّ العدد ثمانية وعشرين ونصفه مشهودان في نظام الموجودات الكامل: - عظام مفاصل كل يد، الفقرات العليا والسفلى في ظهر الحيوانات التامة الخلقة، قوادم أجنحة الطيور، منازل القمر الشمالية والجنوبية. ويدغم أربعة عشر حرفاً في اللغة العربية في لام التعريف، وأربعة عشر لاتدغم، وأربعة عشر حرفاً يعترها التنقيط، وأربعة عشر غير منقوطة، وحرف الياء - لوحدها - غير منقوطة، وفي الوسط منقوطة وجيء في أوائل سور القرآن بأربعة عشر حرفاً أيضاً، وأربعة عشر حرفاً لم تأت. إنّ مطابقة القرآن مع وضع اللغة والتكوين تدل على أن الجميع آيات لله تجلّت في صور مختلفة، وتمّت بحساب وأعداد خاصة. ويتميّز العدد ثمانية وعشرون من بين الأعداد بأنه لا مثيل له بين الأعداد العشرية مثل الستة في الآحاد والعدد ست وتسعين واربعمائة (٤٩٦) في المئات، أي أن أجزاء كل عدد إمّا أن تكون أقلّ أو أكثر من ذلك

العدد، سوى هذه الأعداد المحدودة مثلاً العدد ثمانية وعشرون نصفه أربعة عشر، ريعه سبعة، حاصل القسمة على النصف اثنان، حاصل القسمة على الربع أربعة، حاصل القسمة على ثمانية وعشرين واحد، والمجموع هو ثمانية وعشرون.

كانت هذه الآراء المعتمدة على الروايات حول الغرض من الحروف الافتتاحية أو تأويلها، وهل أن هذه التأويلات وأمثالها صحيحة ومطابقة للواقع؟ الله اعلم.

والقدر المتيقن من القول هو أن هذه الحروف لم تكن مهملة عن غير قصد، وإنما جيء بها عن قصد وحكمة. ونقول بعد هذا: ربما كان القصد رمزاً بين الله ورسوله، ويعلم ذلك بعض أفراد اهل بيت النبوة الراسخين في العلم وتأويل المتشابهات. وفائدة أهل الرأي هو أن تنتبه أفكارهم وقابليات تحقيقاتهم، ويعملون أفكارهم لربما يصلون - بمعونة الراسخين - إلى معانيها وتأويلها الواقعي، كما أن البعض يعرفون من التركيبات الطبيعية والكيمائية مقدار عناصر كل مركب ونسبه وأوصافها وآثارها فقط، وهناك من يعرف رمزها ومفتاحها.

وهناك ذكرى أخرى تتردد في الذاكرة لأبأس بذكرها لإكمال هذا البحث: ربما تشير الحروف الافتتاحية إلى المجهول والمقصود من ذلك اللامقصود. ويؤيد هذا الاحتمال بمقدمتين قصيرتين:

الأولى: ان ادراكات الانسان الحسية والعقلية محدودة، كما يدرك الانسان الأمواج الصوتية والمرئيات والمشمومات في حدٍّ ومقدار معين، مع العلم بأن الأمواج والروائح والأصوات الصغيرة والكبيرة، وكيفية وكميتها ملأت العالم، وصلة الانسان بالعالم لم تكن إلا عن طريق الحواس المتناسبة المدركة لها. فلو كانت الحواس تدرك أكثر من المقدار المناسب، فمثلاً تسمع جميع الأصوات البعيدة والقريبة، وترى المرئيات المجهرية منها كالميكروبات والضخمة منها كالكواكب البعيدة، ويشم جميع الروائح، أو كانت لنا حواس أخرى نحس بها المحسوسات الأخرى أيضاً، لكان وضع الحياة شاقاً لا يُطاق ولا يمكن استمراره: -

غفلة أضحت وجود العالم والذكاء آفة يا آدمي<sup>(١)</sup>  
 إذاً، كلما يمكن أن تدركه حواسنا من الأمواج والأشعة والأصوات، وما يدركه عقلنا  
 من حقائق الوجود عن طريق الآثار والصفات والبرهان والعلّة، وإن كانت محدودة من  
 جهة وغير محدودة من جهات أخرى، وما وراء ذلك لا يمكن إدراكه بالنسبة لنا، ولا صلة  
 له بحياتنا الحسيّة والعقلية وكمالنا وبقائنا.

الثانية: العوالم اللامتناهية هي ظهور آيات الله وإرادته، والقرآن هو إرادة الله وآياته  
 الذي جاءت على شكل ألفاظ وعبارات، ونزل بحسب عقلنا المحدود وحسنا السمعي  
 والبصري، متناسباً مع حياتنا وكما لنا العلمي والعملّي: ﴿لَوْ أَنزَلْنَا هَذَا الْقُرْآنَ عَلَى جَبَلٍ  
 لَرَأَيْنَاهُ خَاشِعاً مُتَصَدِّعاً مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ﴾: فالقرآن الذي لونزل على الجبل لجعله خاشعاً  
 متصدّعاً يجب ألا يكون على شكل صوت وكلمات!!

وبالنظر إلى هاتين المقدمتين - اللتين يجب أن تُشرّحا أكثر في محلّهما - يُؤيّد أن هذه  
 الحروف تشير إلى المجهول والمقصود من ذلك اللامقصود. وبعبارة أخرى: الحد الفاصل  
 بين ما وراء المحسوس والمعقول. وما يمكن لنا إدراكه وفهمه واستخدامه، كما يقال في  
 الإصطلاحات العلمية: فوق الحس، فوق العقل، المجهول، إيكس، س. ويقال في  
 المحاورات العرفيّة: - بعد اللُتَيَا والتي.

وهذا الكلام صحيح بالنسبة للرأي القائل إنّ هذه الحروف رمز بين الله ورسوله، أو أنّها  
 إشارة إلى الصفات العليا، لأن مجهولات العقول المتعارفة هي معلومات الحسّ والعقل  
 الأفضل المؤيّد بالوحي، وتتجلّى صفاته وآثاره بصورة كاملة فوق العقول البشريّة العاديّة.  
 ما قيل - إلى هنا - يعود لكل الحروف والبحث كان بصورة عامة، ولكن ما يعود على  
 كل حرف من الحروف من الحروف الموجودة في أوائل سور معيّنة بحث آخر، قلّ ما بحثه  
 القوم، وربما تفتح أبواب بوجه الباحثين في المستقبل.

(١) ترجمة شعرية لبيت شعر فارسي. (الترجمان).



### شرح الكلمات والروابط الأدبية:

ذلك: إشارة إلى البعد المكاني والزمني والرتبي.

كتاب: كالحساب واللباس، مصدر مجرد بمعنى الكتابة، أو من المفاعلة بمعنى المكاتبة، واستعماله الشائع في المكتوب.

ريب: بمعنى سوء الظن وسلب الثقة، وزوال التفاؤل، ولا يرادف الشك، ويستعمل متعدياً، وينسب إلى الشخص وغيره، مثل: رابني فلان، رابني عمله. والشك لا يكون كذلك.

هُدًى: كالتقَى مصدر في الأصل، ومعناه أنه دلالة حتى نهاية الطريق.

المتقين: جمع فاعل الإتياء، أي عمل الوقاية، والوقاية واسطة المحافظة، والممانعة كالترس والملابس الشتائية.

يؤمنون: فعل مضارع من الإيمان، ومجرّده أمن، أي صار في الأمان، أو أئمنه، أو صار أميناً، والإيمان الذي هو إفعال من الأمن، أي إيصال الإنسان نفسه أو الآخر إلى الأمن، والتمسك، أو الصيرورة في الأمان. ولم يكن الفعل المضارع في هذه الآيات للإخبار عن المستقبل، بل يفيد الدوام والاستمرار.

الغيب: ما غاب عن الحواس.

الآخرة: في مقابل الأولى، أي الحياة الأخرى أو الفضلى.

اليقين: العلم القاطع بالحاصل بالدليل والبرهان، ولهذا لا يُنسب إلى الله تعالى. المفلح: من الفلاح أي الحرث، والاجتياز بمشقة، والفوز، أي التخلص من المشاكل، واجتيازها والوصول إلى النجاة والراحة.

ويحتمل في الآية الأولى تراكيب وإعرابات مختلفة، بحيث يختلف المعنى أيضاً بحسب التراكيب المختلفة، وأكثر المعاني المحتملة صحيحة أيضاً. وإجمال ذلك كما يلي: «ذلك»، خبر «آلم» أو للمبتدأ المحذوف مثل هو، أو مبتدأ مؤخر لـ «آلم»، أو لـ «لاريب

فيه» أولـ «هُدَى»، أو مفعول لفعلٍ مقدّر مثل «أعني»، أو منصوب على الاختصاص.

«الكتاب» خبر، أو صفة، أو عطف بيان، أو بدل.

«لاريب فيه» خبر أول، أو ثان، أو ثالث لذلك، أو عطف بيان، أو بدل، أو مع متعلقها

جملة حالّة للكتاب أو للضمير في «فيه»، أو مبتدأ مؤخر لـ «فيه» المقدّرة.

«للمتقين» متعلّق بالكتاب، أو بلا ريب فيه أو يهدى. ويكون حاصل ضرب هذه

الاحتمالات كثيراً.

ويرى بعض المفسّرين احتمالات أخرى بعيدة عن نظم الآية ومعناها، وقد أوصلوا

حاصل الضرب إلى عدد مذهل!! وعلى كل حال، وهذا أيضاً من بلاغة القرآن المعجزة

العجيبة، بحيث تظهر من كلمات معدودة من أول آية هذه الاحتمالات الكثيرة المعقولة

الصحيحة!!

### مميزة القرآن:

إنّ ميزة كل كتاب وعلم بما يمتاز به من موضوع، والموضوع هو ما يدور حول

مضمون الكتاب. مثل: المقدار المنفصل والمتصل: في علم الحساب والهندسة. الجسم:

من جهة نوعين من التغيير في علمي الفيزياء والكيمياء. البدن: في علم الطب والتشريح.

وعندما يُعرّف الموضوع تعرف النتيجة والتعريف أيضاً، وتثبت مواضيع الكتاب إمّا عن

طريق التجربة والحسّ، أو بواسطة التفكير والبرهان، أو كالقرآن، تتقبّله الفطرة الأولى

والوجدان النظيف، ويثبت العقل والتجربة. وموضوع بحث القرآن هو الإنسان، لا من

ناحية التشكيلات الجسميّة أو النفسيّة، بل من ناحية الذات الانسانية وحقيقتها، أي

الضمير الخيّر الطالب للحق الذي يؤدّي صلاحه وفساده إلى صلاح النفسانيات والأخلاق

والاعمال وفسادها. ونور هداية القرآن تضيء ذلك الضمير الطالب للحق وتضعه على

الطريق، هذا الضمير الذي لم تفسد تشكيلاته الأولى ولم تنحرف، ويتوقّى من التلوث

والباطل، أي يكون له تقوى فطريّ.

هذا هو موضوع القرآن الذي يميز هذا الكتاب عن الكتب الأخرى. ومعرفة الموضوع توضّح التعريف: فالقرآن كتاب هداية المتقين، وكأنما الهداية بنفسها مطلوب ذاتي، ولكن اعلن بأن الغاية والنتيجة هي الفوز والفلاح. هذه الامور الثلاث: الموضوع، والتعريف، والغاية. يعتبر علماء كل علم معرفتها واجبة في الابتداء بذلك العلم. والتوضيح الكامل لهذه المسألة جاء في أول سورة البقرة هذه فقط، التي يبدأ القرآن بها بعد سورة الحمد، ويفيد نظم وترتيب سور القرآن وآياته. والآن لندقق معاً في هذه الآيات، لنرى ماذا نفهم من النظر إلى معنى الكلمات والمفردات.

﴿ذَلِكَ الْكِتَابُ﴾: مع العلم بان القرآن لا يزال على أوله، ولم تنزل جميع آياته قبل هذه الإشارة ليكون على شكل كتاب، ماذا تعني كلمة «ذلك»؟

أما أن يكون من الأفضل - بالنظر إلى «ذلك» التي تفيد الإشارة إلى البعيد، والتوسع في معنى الكتاب - من كل تبرير أن نقول: إن الإشارة هي إلى القرآن المحقق قبل أن يظهر بشكل ألفاظ وعبارات، كما أن كل حقيقة علمية في عالم العقل البسيط تتكوّن في عالم الذهن قبل أن تنزل إلى عالم الحس، فكذا معنى نزول القرآن، الذي نزل في ذهن العالم العام - أو على حدّ تعبير الروايات إلى سماء الدنيا - قبل نزوله الكامل.

﴿لَا رَيْبَ فِيهِ﴾: لما اعتبروا معنى الريب مرادفاً للشك، ونفي مطلق الشك - مع كل هذه الشكوك الموجودة في الأذهان والكتب - لم يكن صحيحاً، أو لو ظاهر الكلام وبرّوه، كما قالوا: إنّ القصد هو نفي لياقة الريب، أو أنّ الجملة في معنى الانشاء، مثل: «لَارَقَتْ وَلَا فُسُوقَ» أي يجب أن لا يشكّ أحداً. أو هو نفي الشك حول الهداية، بناءً على هذا تكون «هْدَى» حالاً لضمير «فيه». وبالنظر إلى معنى «ريب» الذي قيل هو اضطراب الذهن وسوء الظن، ونُسب إلى العلل، وبالنظر إلى دراسة ما مضى من التاريخ، يتضح أن شكوك الناس وشبهاتهم حول القرآن كان مصدرها الآراء التي لا أساس لها، أو العصبية أو إحياءات الاعداء، ندرك بلاغة هذه الجملة وغناؤها. تعلن هذه الجملة بصراحة بأنّ هذه الظنون السيئة والشكوك والاضطرابات لم يكن القرآن مصدرها، بل العلل النفسية،

والانحرافات الفكرية، وقصر النظر عن رؤية الواقع، والعوامل السياسية والاجتماعية، فأفكار البشر المحدودة تضيق حدودها أكثر فأكثر على أثر المقدمات العلمية الخاطئة أو الإيحاءات أو التقاليد، ولا تصدق سوى الآراء والعقائد الناتجة عن هذه العلل التي غشت على الفكر كالستار السميك، أو تنظر إليه بنظر الشك وعدم الثقة.

عندما نفقت الفلسفة اليونانية بين المسلمين بعد القرن الأول، واصبحت آراؤها ونظرياتها حول الأمور الالهية والمعاد وتكوين الأرض والسماء وكيفيته من المسلّمات، إعتري الشك بعض الأشخاص الذين لم يشاهدوا التطابق في بعض الآيات مع تلك النظريات وتخلخلت عقائدهم. فبادر كثير من العلماء والفلاسفة الاسلاميين إلى تأويل وتطبيق الآيات من أجل المحافظة على عقائد المسلمين، حتى ظهور الأسس العلمية التي انهار على أثرها أساس تلك الفلسفة، وانتشعت تلك النظريات والتخيّلات كالسحب الموسمية، وشمخت آيات القرآن الحكيمة ببلاغتها الخاصة كبنيان العالم المرصوص بثباتها. واليوم - أيضا - جاء الشك والريب وقصر التفكير من الذين انشغفوا بنظريات العصر العلمية أو نظمه الاجتماعية، ولكن سرعان ما يدركون أن القرآن يعلن من أفق أسمى: «لَارْيَبَ فِيهِ» عندما يتضح قصر هذه المواضيع أو خطأها على أثر ظهور نظريات أكمل وأسمى.

سيأتى البحث مقنعا بشرح أوفى بعد الآن بتناسب الآيات.

﴿هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ﴾: سبق أن قيل في البحث اللغوي أنّ المتقي فاعل الاتقاء، والعامل بالوقاية، وهي ما تمنع من الضرر أو توقف شيئا عند حدّه كالترس، المظلة، الاسطوانة، والسدّ، يقال لها وقاية. والآلة التي توقف السيارة وقاية أيضاً، وأهميتها أكثر من الآلات الأخرى تمنع من الاصطدام والانجراف إلى الهوة وسائق السيارة يأخذ سيطرته من قوّتها.

والضمير النشط الواعي الذي يكف الشهوات والعواطف والغضب من الجموع ومواجهة حدود الآخرين وحقوقهم، وقاية للنفس الانسانية، وصاحبها مُتَّقٍ. وهذا

الضمير موجود مع كل نفس باختلاف: ﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا، فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا﴾.

وتكرار الذنب والإنحذار في التمرد والعصيان يضعفه أو يفصم عراه. وأي نفع من الهداية لمثل هذا الشخص الذي ظلّ متوقفاً أو إنهار الى الهوّة، هداية القرآن تثير الفطرة، وتنسّق بين الضمير والأخلاق والأعمال.

وهذا الموضوع من سقراط العظيم حول حقيقة العدالة ينطبق مع حقيقة التقوى حيث يقول:، إذا أردنا أن نميّز حقيقة العدالة (أو التقوى) في وجود شخص، علينا أولاً أن ندرك التقوى في المجتمع، كالخط الدقيق تسهل قراءته عندما يكون اكبر ويطابقه، فهيكّل المجتمع العام يتشكّل من ثلاث طبقات:-

١- العلماء والساسة.

٢- العسكريين.

٣- المنتجين وعمّال مستلزمات الحياة.

فكل من هذه الطبقات الثلاثة لهم مهنتهم وسجيّتهم الخاصة وفقاً لعملهم و واجبهم، والتي يكتسب المجتمع أو الحكومة منها اسماً وصفة، فبحسب الطبقة الأولى حكيمة وفاضلة، ومن ناحية الطبقة الثانية شجاعة وغيورة، ومن ناحية الطبقة الثالثة مُنتجة ومقتصدة.

واجب الطبقة الأولى تنظيم القوانين وتعيين الواجبات والحقوق وفقاً للخير والصالح. وللطبقة الثانية واجب الدفاع وحراسة الحدود وتنفيذ القوانين تحت اشراف الطبقة الأولى. و واجب الطبقة الثالثة الانتاج والتبادل الاقتصادي وتأمينه. فتمركز كل طبقة في اطار حدودها، والتمتّع بحريّتها، وعدم التدخل في شؤون الآخرين عدالة، ومثل هذا المجتمع عادل، والمحافظة على الحدود وتنفيذ القوانين وبواسطة القوات التنفيذية والعسكرية تحت اشراف قوى العلماء والحكّام العقلية يقال له التقوى الاجتماعي والسياسي. واذا ثبت التقوى الاجتماعيّ يتمتّع كل فرد وكل طبقة برؤس الأموال الماديّة

والمعنوية بصورة صحيحة، ويتقدم نحو التكامل. وإذا اجتازت طبقة حدودها، واعتدت على حدود الآخرين يصيب الهيكل العام الخلل والضعف والفناء.

هذا دور التقوى البارز الذي يظهر في جهاز المجتمع، ودوره الدقيق الخفي يتم في جهاز الانسان الداخلي. وجهاز الانسان الداخلي على ثلاثة أقسام:-

مبدأ التعقل والتفكير الذي هو الذهن.

مبدأ الميول والذائد الحيوانية الذي هو الشهوة.

مبدأ الغضب والدفاع الذي هو الغيرة.

أما عمل المبدأ الذهني والعقلي هو إدراك الحقائق العلمية والعملية، والنظر الى العواقب، والتفكير في الصلاح. والشهوة والرغبة الجنسية للمحافظة على الفرد وبقاء النسل. وأما المبدأ الغضبي فهو حارس الحقوق، وعليه - بأمر من العقل وهدايته - أن يقف بوجه الاعتداء على الحقوق والحدود، ويوقف كلاً من القوى الداخلية عند حدّها. فمثل هذا الانسان مُتَّقٍ ويمتلك الوقاية، وعقله المؤهل بنور الهداية الذي يشع عليه من الخارج متّجه نحو الكمال وإدراك الغيب، فإذا زالت هذه الوقاية والنظام النفسي على أثر التحريضات وجموح بعض القوى الداخلية، استخدم المبدأ الشهواني والغضبي العقل والذهن، وحرّض على الوصول إلى اللذائد الشهوانية خارجاً من الحدّ، عندئذ تنفقد قابلية اهتدائه.

والآن، وبعد الدراسة والتدقيق في كلمة التقوى وتحقيقها في جهاز المجتمع والفرد، يمكن القول: إن معنى التقوى الجامع هو الضمير الواعي بالحق والحارس على الحدود، واثرة تنسيق القوى النفسية، وظهور الفضائل الخلقية كالعدالة والشجاعة والعفة. وعندما غفل علماء الأخلاق عن هذا التنسيق والترابط وحققوا في الخصال الحسنة والسيئة كلاً على حدة، وللتحلي بذلك صدّروا أمراً، قلّما حصلوا على نتيجة.

إذاً، فالتقوى من مفردات القرآن والدين الخاصة، وحقيقتها أنها تضم جميع الكمالات المعنوية والفضائل الخلقية، ولم تكن مجرد الإلتقاء الظاهر والتسليم إلى الدين.

﴿الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ﴾: الإيمان غير العلم واليقين، لأنَّ في معنى الإيمان الحب والتعلُّق، والتقدِّيس والتعظيم والصلة، والعلم بشيء في حد ذاته لا يؤدي إلى الإيمان به. والإيمان باللغة الفارسية يترجم بالرغبة والرغبة تفيد الصلة والتشاكل، كرغبة الجسم إلى النار بحيث يتطَّبع عليها شيئاً فشيئاً ولكن كلمة الإيمان تفيد الوصول إلى الأمن أكثر من الرغبة (كما قيل في البحث اللغوي)<sup>(١)</sup> فإذا تعدَّى إلى المفعول يوصل غيره، وإذا جاء بلامفعول يوصل نفسه إلى الأمن.

إنَّ طلب الأمن والهروب من الفناء يحثُّ الإنسان على السعي دائماً ليرتاح به، والتعلُّق بالمحسوسات والماديات التي هي في حالة فناء وتغيير مستمر يزيد من القلق وعدم الأمن، إذاً ما الحيلة؟

إذا كان هذا القلق والخفقان الداخلي من مستلزمات الحب والتعلُّق بالظواهر الزائلة وأظلة الحسِّ والخيال، إذاً فالانقطاع عنها يستلزم راحة البال والقلب والأمن. يأتي هذا السؤال أيضاً: هل من الممكن للإنسان الذي نسجت لحمته ضميره وسداه من الحب والتعلُّق أن يكون إنساناً بانقطاعه عن كل حب وتعلُّق ويبقى حيّاً؟! والجواب هو أن التحرُّر والانقطاع من هذه العلائق هو الارتباط والرغبة بالغيب، والغيب هو ما يجده الإنسان بالعقل والضمير، الغيب هو تلك الأصول والحقائق الثابتة التي ينعكس منها الجمال والكمال على هذا العالم، أو قل: إن المادَّة كالصفحة الشفافة أو البحيرة الصافية التي تظهر فيها كل تلك الصور مع أشعة النور، والذين لم يروا سوى تلك الصور المنعكسة بمجرد أن فتحوا أعينهم، ولم يطلِّعوا على إشعاع النور في حلقات الفلم يتصوِّرون أن كل تلك الصور موجودات أصيلة، فيتعلَّقون بها، لكنَّ التعلُّق بالصور التي وجودها حركة وفناء، لا يعقبها سوى الهمِّ والألم والقلق، والهمِّ والألم يعكس بعض هذه الصور بصورة غير صحيحة أحياناً ويقطع العلاقات أو يضعفها، ولكنَّ هذه الحالات توقع أكثر الناس في شرك أشباح الوهم والخيال. أصحاب التصوُّف والعرفان الذين يظنون أن طريق الكمال

(١) هذا الشرح يخصُّ الأصل الفارسي وترجمة الإيمان بالفارسية ولا صلة له باللغة العربية. (الترجمان).

الوحيد هو قطع العلاقات الحسيّة، يتتلون بعلاقة تخيّلاتهم وأوهامهم. ما أكثر ما أثبت العلماء والمحقّقون عن طريق القياس والبرهان عدم أصالة المادة وظواهرها، ولكن لما كان نورهم العلمي في محيط محدود، ولم يصلوا إلى إدراك الحقائق الثابتة يصطدمون بالشك والريب، والعقل الفطريّ يريد تارة أن يفتح عينيه ليدرك ما وراء المحسوسات والعلل والمعقولات كما هي، ولكنّه يقع في شباك سلسلة القياس، والحسّ والخيال يبديان الانطباع الفطريّ بصورة أخرى ويظهرانه على غير الواقع، كالطفل الذي يسمع تغريد الطير على غصن عالٍ، ويرى هيكله وريشه وأجنحته الجميلة تحت شعاع النور من خلال الأوراق، ويتعلّق قلبه به، وللوصول إليه يرديه بالحجر إلى الأرض ويمسكه بأظفاره، هل هذا الهيكل المشرق على الفناء، الذابل، أو الميّت هو نفس ذلك الغريد الذي كان يصقّق بجناحيه؟ وما يُدرّكه الخيال والوهم والعقول المحدودة عن حقائق وجود القسم، يكون شبحاً منه لاهو. والحق إنّ ما ينعكس في مرآة النّفس صورة ناقصة عن الواقع. وكلما صفت البحيرة أكثر وكانت هادئة تعكس صور الجبال والسحاب بصورة أفضل، ومالم يكن لم تعكسه. والمهمّ هو هل أنّ هذا الانطباع الناقص القصير يمكن أن يكون أكمل وأوضح لتعكس مرآة القلب ما هو موجود؟ وشروط الانطباع الفكري (الرؤية الباطنيّة) كشروط الانطباع البصري وشروط البصر الحسي، بصر العين، مواجهة المحسوس، واشعاع النور، وكلما تكاملت هذه الشروط تكون الرؤية أكمل، والرؤية الكاملة تكون عندما تكون العين سالمة، مواجهة الجسم تماماً، واشعة النور تكون مباشرة. وتفتّح عين العقل الفطريّ والبصيرة الباطنيّة نحو الغيب والتمسك به عندما يكون عدم الاعتناء واللامبالاة لم يضعف الرؤية الباطنيّة، ويتمكن بقوة التقوى أن يلفت نظره من المحسوسات إلى الحقائق المعقولة.

إذا شع نور هداية الله الذي هو نور السماوات والأرض بهذه الشروط والظروف النفسية، ونوّرت آياته البيّنات عين العقل بمحيط النفس الداخليّ وعالم الغيب، يعود الالتفات من المحسوسات والمتغيّرات إلى ذلك العالم، ويميل أكثر فأكثر، إنّ معنى الإيمان



- لاسيما في صيغة المضارع - يدلّ على الاستمرار والتكامل.

تبدأ هذه الحركة العقلية من الشك بين أصالة المحسوسات والمعقولات، وتتقدّم نحو الظن والاعتقاد ومراتب اليقين (الظن، التصديق، التلقّي أو الاستلام). بناءً على هذا فـ «الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ» وصف حدوثي للمتّقين بعد الاستقرار في معرض نور الهداية، أي أنّ المتّقين بعد أن يتنوّروا بنور الهداية يؤمنون بالغيب.

﴿وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ﴾: قيام البدن حالة يستقر فيها أعضاؤه كلّ بحالته الطبيعيّة، و يؤدّي واجبه لقاء انتصاب البدن، ويظهر الهيكل كما هو: فمراكز الإدراك والرأس فوق البدن، والبدن يعتمد على فقرات الظهر، والكلّ يقوم على عمودي الرجلين، وتتلقّى الأعصاب الأوامر وتخبر بسهولة، والعين والاذن والأطراف تتجه بسهولة إلى كلّ جهة، وللإرادة سلطتها وأوامرها التامة على الأعصاب، والأعصاب على العضلات، والعضلات على الفقرات وأعمدة البدن، وقيام البدن له صلة بقيام الفكر والتصوّر، وما زال المطلوب لم يتصوّر بصورة صحيحة، لا تتم إرادة الانسان لإنجاز ذلك والوصول إليه، ولا يتحرّك البدن انحناءً واستقامة خلافاً للرغبة الطبيعيّة.

والاستعداد للصلاة يكون عندما يثير الله الهمة ويقيم الذهن الذي كان متجهاً حواسه وشهواته المنحنية أو الراقدة (وهذا سرّ قصد القربة)، وفي هذا الوقت تأخذ القوى النفسيّة وضعها الطبيعيّ وتقوم كقيام أعضاء البدن، يقع مركز التفكير والإدراك في جهاز جسم الانسان الداخليّ في الأعلى، والقلب الذي محل ظهور العواطف في الأسفل، والمعدة والأمعاء التي هي مرّجّل شهوة الطعام أسفل من ذلك، والجهاز التناسلي المثير للشهوة الجنسية، أسفل منه.

وفي جهاز النفس الداخلي المركب من هذه القوى يجب أن يكون هكذا، الإقامة - التي معناها اللغوي القيام، الانتصاب والتكميل - كما لها في الانسان قيام ظاهر البدن وباطنه والقوى النفسية. وتكميل هذا القيام يكون في الجماعة عندما يعود الأفراد من أهواء الاختلاف والنظام الطبقيّ إلى الوحدة والاتّحاد، ويقفون في صفّ واحد، ويقفون

بإمام عادل عالم له الحق الطبيعي في التقدم. ولما كان تحقق الصلاة وكمالها بالاقامة، نرى أن القرآن يأتي بلفظ: أقام، أقم، يقيمون، مقيمون، كلما أمر بالصلاة أو وصفها، وأوعد المصلين الغافلين عن حقيقة الصلاة بالويل وجاء بكلمة «المصلين» و حدها: «فَوَيْلٌ لِلْمُصَلِّينَ». وفي سورة «المعارج» عندما استثنى المصلين عن سائر الناس غير الثابتين ذكر دوام الصلاة متمما لكلمة المصلين: «إِنَّ الْإِنْسَانَ خُلِقَ هَلُوعًا، إِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ جَزُوعًا، وَإِذَا مَسَّهُ الْخَيْرُ مَنُوعًا، إِلَّا الْمُصَلِّينَ، الَّذِينَ هُمْ عَلَى صَلَاتِهِمْ دَائِمُونَ».

والفعل المضارع «يُقيمُونَ» هنا يفيد السعي المستمر لإقامة الصلاة أكثر فأكثر، لأن إقامة الصلاة استقامة للإنسان نفسه، ويجب أن تكون مستمرة وبالتدريج، لكي تتم الصلاة الكاملة المستقيمة التي تليق بشأن الإنسان في جميع العمر، وعندما يتم هذا الواجب النهائي بصورة صحيحة وكاملة، واستقامت الحقيقة الإنسانية وينتهي تكليفه في هذا العالم يرحل، وكأنما جاء إلى هذا العالم من أجل هذا الأمر، لكي ينجز عملاً لا تقا كمالاً.

﴿وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ﴾: إنَّ بناء قوى الإنسانية الغامض المعقّد يشبه الأجهزة المنتجة للطاقة واللاقط، يوصل بين الإيمان بالغيب والصلاة مع مخازن القوى: «وَعِنْدَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ...، وَلَهُ مَقَالِيدُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ» هذا الاتصال يحرك القوى العقلية والنفسية، ويهب مفاتيح رؤوس أموال الطبيعة، أو أنَّ الإنسان كالنواة التي تمدّ جذورها في الأرض، فيمتدّ ساقها ويورق، وتواجه النور والهواء، وتفيد وتثمر بقدر نموّها وتغذيتها من الأرض: فإذا كانت «مِن» تبعيضية، فإنّها تشير إلى الإقتصاد في الصرف، فالرزق من كل أنواع الفوائد المادية والمعنوية حلال، لاسيما إذا نُسب إلى الله وآثار رحمة الله: «رَزَقْنَاهُمْ» وهو إما أن يكون مالاّ نتج من العمل البدنيّ أو الفكريّ، أو أدوات العمل وأعضائه والأخلاق والعلم الذي هو مصدر العمل: والإنفاق هو الإيصال وفتح طريق الصرف - وجميع الأفعال التي تبدأ بالنون وثانيها فاء تعطي هذا المعنى، مثل: نَفَعَ، نَفْعٌ، نَفَثَ - ويرتفع مستوى الانتاج والعمل بالإنفاق والصرف المقتصد.

إذاً يستفاد من جملة «مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ...» أمور أساسية ثلاثة:

١- الرزق، و «ما» تدل على الشمول.

٢- المقصود هو الرزق الحلال بدليل كلمة «رزق» والضمير «نا» والآيات السابقة.

٣- يجب أن يكون الصرف في حدّ معيّن، وذلك يستفاد من «من التبعية». ولكن كيفية الصرف ومورده يعود إلى تمييز الانسان.

﴿وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ﴾: معنى النزول هنا جعل الشيء في متناول اليد، وبدلالة «ما» على الشمول يشمل جميع الآيات والأوامر والصفات العالية التي أوحيت على قلب الرسول الكريم وألهم بها، وظهرت في وجوده. وإذا كانت «الباء» سببية يكون متعلّق الإيمان عامّاً، أي أنّ إيمانهم يزداد بسبب الآيات النازلة عليك.

﴿وَمَا أُنْزِلَ مِنْ قَبْلِكَ﴾: ما أنزل قبلك على الأمم السالفة، وهو مقدّم من حيث الزمان، ولكن إيمان المتأخرين به جاء عن طريق رسالة خاتم الأنبياء التي آياتها واضحة وخالدة، إذاً الإيمان بما أنزل إليك يستلزم الإيمان بما أنزل من قبلك. ويمكن أن تكون «ما» نافية، و «الواو» عاطفة أو حالية، فيكون المعنى هكذا:

يزداد إيمانهم بسبب الآيات النازلة عليك.

﴿وَبِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ﴾: الآخرة - في مقابل المحسوس، الاول، الدنيا - هو عالم غير محسوس يأتي بعد هذه النشأة، العالم الأفضل. فاليقين المتزايد بمثل هذا العالم وبقاء الانسان وجزاء الأعمال عندما يكون نتيجة الفكر والاستدلال الصحيح لا يحصل لكل شخص، وباستقلال - الكلمة - وتقديم الضمير «هم» قد عرّف منزلة هؤلاء.

هذه الآيات الأربعة تعرّف القرآن وتبيّن أوصاف الذين يتمتعون بهدايته، ويصلون الى الكمال البشري. إنّ بناء الانسان النفسي كبنائه البدني يشبه النبات والشجرة - بناءً على قاعدة التطابق والتشابه في نظام الموجودات والعوالم - : يبدأ النبات بالنمو والحركة ثم تمتد جذوره في الغيب خلال التربة وتصل إلى المصادر الغذائية. ونمو الانسان وحركته المعنوية تبدأ أيضاً من الايمان بالغيب والذي هو إتصال الأسلاك الفكرية بمصادر القدرة. وإقامة الصلاة بعد الإيمان بالغيب كجذع الشجرة الذي يقوم على الجذور وينبع منه الورق

والثمر ويستقرّ عليه. - الصلاة عمود الدين - والإنفاق الذي معناه إخراج الفائدة وبسط الكف كالأوراق التي تنبسط، وتوصل الإدّخار الغذائي والعلاجي للإنسان والحيوان. والايمان بالفروع النازلة على الأنبياء ﷺ بعد الإيمان بالأصول مثل أغصان (فروع) الشجرة التي تنمر من الجذور (الأصول)، واليقين بالآخرة هو تكوين فكري من أجل البقاء كالثمرة والنواة، والثمرة حصيلة عمل الجذر والجذع والورق والفصن الذي يأخذ من الهواء والأرض التور والغذاء، وهي تكون المادة الغذائية للنواة، ليتصلّب ليُثمّر وتحيط به القشرة، وتؤمن بقاء النوع: «إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِّأُولِي الْأَلْبَابِ»، والتمتع من الآيات لأصحاب اللبّ واللّب هو حصيلة النواة، والنواة السالمة حصيلة الثمرة الناضجة، وهي - الثمرة - حصيلة الورقة الخضراء واجتذاب النور، وذلك ناتج عن ثبات الجذر.

وشجرة وجود الانسان تمد أغصانها وأوراقها باتصالها بالغيب، وتمتّع من نور هداية القرآن وتصل الى ثمرة اليقين. وضرب الله مثلا - في سورة ابراهيم (٢٣-٢٦) الكلمة الطيبة كشجرة طيبة: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَضَلُّهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي السَّمَاءِ، تُؤْتِي أُكْلَهَا كُلَّ حِينٍ بِإِذْنِ رَبِّهَا وَيَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ، وَمَثَلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ اجْتُثَّتْ مِنْ فَوْقِ الْأَرْضِ مَا لَهَا مِنْ قَرَارٍ، يُثَبِّتُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ...﴾ وضرب في سورة النور بالزيتونة مثلا للذين يشعّ منهم نور الله.

عندما تصل الشجرة بهذه الظروف الى الثمرة والنواة، تخلص نفسها من تأثير عوامل الفناء، وتوصلها الى حدّ البقاء، ولو تُلِفَ منها آلاف الثمرات أو أُكِلَتْ مع ذلك تؤمّن بقاءها. وإن دُفِنَتْ في الأرض تنبت المئات من نوعها المتميّز بصفات وآثارها، وعندما تتفتح أزهارها بوجه النور، وتشعّ، كأنما قد احتفلت ببقائها وفلاحها، وتُدَلِّي أضوية ملونة على أغصانها وبين أوراقها، وتعلن نشيد:

﴿أُولَئِكَ عَلَى هُدًى مِنْ رَبِّهِمْ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾: المتقون الذين عُرِفُوا - في بداية السورة - بأن الهداية خاصّة لهم، هم الذين اتخذوا الوقاية، لأنهم خائفون ويفكرون

ويطلبون طريق الفوز والفلاح. ولما كانوا يبحثون عن الطريق يتمسكون بهداية القرآن، وبعد هداية القرآن العامة، يستولون على الهداية الخاصة ويستقرّون عليها، وتخلّصهم الجاذبيّة الربويّة. - «أُولَئِكَ» لتعظيم الشأن، «عَلَى» بمعنى الاستيلاء والاستقرار، «رَبِّهِمْ» تفيد إختصاص الهداية بهم بواسطة اضافة ربّ إليهم - إنَّ هؤلاء يصلون من الهداية العامة الرحمانيّة إلى الهداية الخاصّة الرحيميّة، وكلمة «مِنْ» النشئيّة تشير إلى أنّ هدايتهم كلها من جانب الربوبية، وهذه نتيجة اليقين، يقين وصول العلم والايمان بتلك الدرجة من الإحساس والشهود الذي يستقره الذهن والضمير، ويمتلك الشعور والعمل، ويجتذب المتّقين أصحاب اليقين إلى نفسه، ويتصرف بهم، وينقذهم من السقوط والانحراف والتوقف، ويجعلهم فائزين: «وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ».

إنَّ المرحوم الشيخ محمد عبده العلامة المصلح اعتبر «أُولَئِكَ» الأولى إشارة إلى الجماعة الأولى، والثانية إلى الجماعة الثانية باللفّ والنشر، واعتبر التنوين في «هُدًى» للنوع لا للتعظيم. أي: إنَّ أولئك الجماعة قد استقروا على نوع من الهداية نتيجة للإيمان والصلاة والانفاق وهم مهتأون للفوز والفلاح، والجماعة الثانية الذين يؤمنون بالفروع ومتيقّنون بالآخرة فائزون مفلحون في الحقيقة، ولكن يستفاد من ظاهر الآية والبيان أنّ هذه هي أوصاف مراتب كمال المتّقين حتى مرتبة اليقين بالآخرة، وعندما يصلون هذه المرتبة يستقرّون على هداية خاصّة، والفلاح ملازم لهذه الهداية.

إنَّ هذه الآية - بتركيبها الخاص - تشير إلى واقع وحقيقة العالم والدنيا ونهاية مسعى الجميع، «عَلَى هُدًى» الاستواء على مطيّة الهداية، «الفلاح» الحرث والتقدّم والغرس، والإفلاح السعي لهذه الأمور - والمادة التي حرفها الأول فاء والثاني لام تأتي لهذه المعاني، مثل: فَلَعَجَ، فَلَحَجَ، فَلَقَ. وتكرار «أُولَئِكَ» يفيد الحصر، كل هذه إشارات لطيفة واستعارات تركيبية تشير إلى مادّة الطبيعة الفيّاضة وسعي الانسان من أجل الخلاص من أمواجها.

الانسان المركّب من هذه المادّة وذراتها الفيّاضة، ويريد البقاء بحسب الفطرة، يسعى

ويسعى بوجهه وتلاؤمه ليتعلق بحبل نجاة، ويتعلق بكل سبب، ويمسك بكل قطعة خشب، ولكن هذه المساعي لا توصله الى مكان، وكلها تغور في وسط أمواج الطبيعة المظلمة التي قعرها جهنم المحرقة، سوى الذين يركبون سفينة الهداية، سفينة النجاة وكاسحة الامواج تلك التي صنع هيكلها من فولاذ الايمان، وأعمدتها من إقامة الصلاة، وتتقدم بدقه (المقذاف) الإنفاق والعمل الصالح، وتضيء الساحل بواسطة الفانوس البحري: «أولئك على هدى...».

﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ ءَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٧﴾ خَتَمَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَعَلَىٰ أَبْصَارِهِمْ غِشَاوَةٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٨﴾﴾

#### نظرة الى مفردات الآيتين:

إن: من الحروف المشبهة بالفعل، لهيئتها ولزومها للاسم والخبر، ولتأكيد النسبة في مقام السؤال أو الشك، لا الخبر الذي لم يسبق.

الذين: اسم موصول، والقصد منه إما أن يكون جماعة خاصة، أو للجنس وعامة الذين اتخذوا الكفر حرفة لهم.

الكفر: هو الإخفاء أو الاختفاء لغةً، يقال للزارع والليل كافرًا، لانهما يستتران الأرض أو الفضاء، وكفران النعمة يعني غصّ النظر عن النعمة، وفي اصطلاح الشرع انكار الأصول أو ضروريات الدين.

الإنذار: التحذير من المستقبل والعاقبة، ويعود الفعل الى معنى المصدر ليكون خبر «سواء» والتعبير بالفعل يدلّ على الحدوث والتجدّد، والجملتان الفعليتان بعد الهمزة و «أم» شرح «سواء».

خَتَمَ: الشيء أيّ أنهاه، على الشيء، أي ضرب عليه بالختم وصدّق نهايته، ولهذا يقال لآلة التصديق هذه خَتَمًا وخَاتِمًا.

القلب: الوسط، وضع الشيء منقلباً، العضو المعروف، الضمير والوجدان. وربما يقال لهذا قلباً لأنه يتقلب باستمرار: العضو الصنوبري الشكل الذي يستورد الدم من البدن ويدفعه إلى الرئة، ويستعيده مرة أخرى، والقلب المعنوي يتجه دائماً من جهة إلى أخرى. السمع: مصدر كالقلب، والقصد هو جهاز السمع.

الابصار: جمع البصر والقصد نور النظر.

الغشاوة: الستر والغطاء، على وزن فعالة بكسر الفاء، يقال للأشياء المحيطة والمستوعبة: تستوعب البدن كالعمامة والعصابة، أو الصناعة التي تستوعب الفكر كالخياطة والقصارة، أو الناس كالإمارة والخلافة.

العذاب: يفيد المنع لغةً، أو المانع. ولهذا يقال للماء الهنيء عذْباً لأنه يمنع من العطش، وكلما يمنع من الوصول إلى المطلوب يقال له عذاباً.

العظيم: في مقابل الحقير، والكبير مقابل الصغير، والعظيم كبير في الظاهر والباطن، بحيث يملأ القلب والنظر.

﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾: كلما جاءت كلمة الكفر في القرآن فهي كالإيمان بالنسبة للباطن والحقيقة وتناسب معناها اللغوي، الكفر والإيمان مصطلح شرعي أو متشّرعي اصطلاح بعد ذلك من أجل آثاره وأحكامه، ويتعلق بالظاهر، ويمكن أن لا ينطبق على الباطن. والحق ان الانسان - بحسب الفطرة - ليس بمؤمن ولا كافر مازال لم يتنبّه ولم يُعْمَل عقله، وبعد مرحلة الفطرة إما أن يبقى غافلاً منصرفاً وإما أن يعجز عن التمييز. وهاتان الطبقتان يمكن أن تعودا إلى الإيمان بالاستدلال والتنبيه، والذي لا يريد العودة والتمييز، إذا انكر بعد التنبيه أو التمييز لا تدركه الهداية، لأنه اختار الكفر بارادته وانتباهه. والكفر عديمي في أول الأمر، والثاني يقابل الإيمان ومتضادّ معه (لا العدم والملكة) وعارض نفسيّ وعناد. والاستمرار والاصرار على الكفر يعطل القوى المدركة عن العمل إلى درجة أنها تتوقف نهائياً، إن لم تكن قد وصلت فعلاً إلى هذه المرحلة، ولأنها لا بد وأن تنتهي إلى هنا تُنسب له وحوله آثار الختم والغشاوة، كالمسافر الذي في أول الطريق، ولكنه أقرب إلى المنزل

الذي يؤمّه.

والظاهر أن «الذين» موصولة لا موصوفة، ومورد النزول (وان كان لم يخصّص) هم كفار مكة المعاندون. والجملة الفعلية «كفروا» المستندة للاختيار والإرادة والتي تفيد الاستمرار تشير الى أناس اختاروا الكفر اختياراً واصرّوا عليه، لا الذين يعيشون في غفلة كالأنعام، ولا الذين يواجهون الشك البدائي أو الشك الاستمراري. إذ أفاختهم على القلوب والآذان المنسوب الى الله لم يكن جبراً ومخالفاً للعدل واللطف، لأنه نتيجة ارادتهم واختيارهم، وترتب الآثار وتأثيرها - والذاتان هما من قانون التكوين وعوامل الله - سيّر عملهم واختيارهم نحو هذه النتيجة، وبعبارة أخرى: إن الفيض والرحمة الشاملة من قِبل الفيّاض والخير المطلق في مرتبة الذات والاختيار يظهر بشكل المقتضي أو بالاختيار المراد، كما أنه يظهر في الحيوانات على شكل غرائز وأحاسيس توصلها للشهوات واللذائذ الحيوانية، وإذا كان الأمر غير هذا فهو خلاف العدل واللطف. وإذا كان الحيوان في المرتبة الحيوانية غير هذا، وكان له إدراك ومطلوب أسمى فهو - إذا - يزاحمه في مسيرة الحياة، مع هذا الفارق وهو أن الحيوان لا اقتضاء له سوى هذا، والانسان يتمكن بالارادة من السير في هذا الطريق. وما هو خارج عن الاختيار أولاً الجهاز البدني والدماغ وحدود العقل والإدراك والذوق البدائي الذي يختلف في الأفراد، كما أن الإنسان يختلف عن الحيوان، والحيوانات تختلف عن بعضها والمعادن كذلك.

وبعد الجهاز الأوّل يعمل الوجدان والضمير في الإنسان الذي يُثار منه الرغبة والاختيار، ولما كان في حال تغيير وتقلّب مستمر، عبّروا عنه بالقلب، ومنه اختيار الخير والشر وأسلوب العمل. وهذا هو الذي يحرض العقل والقوى الأخرى على العمل في طريق الرغبات، ويمكنه فصم أغلال العادات والغرائز وتحرير الانسان، لأنّه حرّ في الاختيار، وهو مصدر التكليف والمحاسبة.

وفي المرحلة الثالثة تأتي العادات والملكات، التي تترسّخ نتيجة اختيار العمل. وبعد رسوخ العادات والملكات، عندما يفكر الانسان أو ينجز عملاً مختاراً في الظاهر، ولكنّه



في الواقع مجبر و مجبول على ذلك، والرجوع عن هذه العادات والملكات المكتسبة مستحيل أو صعب. وقد اتضحت الجهات او المراحل الثلاث في هاتين الآيتين، فالكفر نُسِبَ إليهم وإلى اختيارهم، والختم على القلوب الذي هو نتيجة أعمالهم نُسِبَ إلى الله، وجاءت الغشاوة بدون نسبة، وكأنما جهاز وجودهم يكون هكذا وفي هذا الحد، أو أنها نتيجة العوامل الوراثية والتكوينية السابقة.

﴿وَعَلَى سَمْعِهِمْ﴾: يمكن أن تكون معطوفة على «عَلَى قُلُوبِهِمْ»، فتكون خبراً مقدّماً لغشاوة. إذاً فالكفر نسب إليهم، والختم إلى الله، والغشاوة إلى الجيلة والطبيعة، وعطلّ جهاز السمع من الممكن أن ينسب إلى الله أو إلى جيلتهم، وتبدو البلاغة العجيبة في هذا القول.

جاءت القلوب والابصار بصيغة الجمع، والسمع بصيغة المفرد؟ لأنّ «السمع» مصدر ولا يجمع، ربما كان بالنظر إلى اعمال وادراكات كل فرد، لأنّ للقلب رغبات وادراكات متنوعة: كلية، جزئية، وهمية، تخيلية، حسية، معنوية، ورغبات في الخير والشر، والحق والباطل. كذلك البصري يرى الألوان والسطوح والمقادير ويدركها. ولكن نوع إدراك السمع هو تلك الأمواج الصوتية.

ولما كان إدراك البصر يتأتى من الجانب المقابل، عبّر عن كفّ هذا الادراك بالغشاوة (الستار)، بخلاف إدراك القلب لما كان من جهات مختلفة، جاء له بكلمة «خَتَمَ»، وخَتَمَ الشيء، يعني أنهاء. وخَتَمَ على الشيء، يعني أمضى نهايته، أو جعل خَتَمَهُ عليه، أو أغلق باب الصندوق أو الدار ووضع عليها مادة طبع عليها الخَتَمَ أو الخاتم.

بناءً على هذا لما كانت كلمة «خَتَمَ» أتت مع «على» نُسِبَ انتهاء العمل فقط - الذي هو الغلق أو الخَتَم - إلى الفاعل، لا المقدمات ولا العمل نفسه، والجملة تفيد التشبيه والاستعارة: بحيث شُبِّهَ قلوبهم بصحيفة استوعبها ظلام الكفر وسواد الأوهام، وختم الله في نهايتها وأغلقها، أو يشبه مخزناً أو صندوقاً مختوماً غير مفتوح بحيث بقيت داخله قابلياتهم و ثرواتهم الانسانية مخفية، ومُنِعَت من قابلية الظهور والاستفادة منها.

يقول امير المؤمنين عليه السلام في الخطبة الاولى من نهج البلاغة حول علّة بعثة الانبياء الغائية: «يُشيروا لهم دفائنَ العقول» أي ليخرجوا للناس كنوز العقول المدفونة أي المخفية. بمجرد أن يدخل الوليد الى فضاء هذا العالم، واتصل جسمه بالمحيط الخارجي، يفتح فاه بالأنين، ويفتح فمه يضغط الهواء على رئتيه، وعلى أثره تبدأ دقات قلبه وحركاته المنتظمة، وبهذه الدقات والحركة يتطلّب الغذاء والطاقة الدفاعية باستمرار، ويهيئ الجسم لحياة جديدة، ونوافذ العين والاذن هكذا أيضاً بالنسبة للقلب الباطني أو الضمير والوجدان.

إنّ انعكاس الألوان والسطوح مظاهر العالم المختلفة على شاشة العين، ووصول أمواج الصوت الى الأذن، يحرك القلب أو الضمير، وهذه الحركة هي نفس الرغبة ليدرك ما يرى وما يسمع. هذه بداية أساس جهاز الانسان الباطني ومادّته التي تبدأ من الإدراك والعمل والسجاي. وهذا العمل مستمر كدقات القلب ودوران الدم، وتعكس العين والأذن المرئي والمسموع في الضمير، والضمير يدفع جهاز الإدراك والحافظة والباصرة والسماعة الحركة من أجل اكمال إدراكاته ورغباته والوصول إلى الباطن والعلل الفاعلية والغائية، ليكتشف سرّ كلّ شيء، ويعرف المبادئ والغايات، وذلك من أجل الوصول إلى منبع الجمال والقوة. ويمدّه الله بالعون المستمر، فيتقدّم في دور الفطرة، وتطّلع العوامل الوراثية والشهوات والأهواء رأسه أيضاً الواحدة تلو الأخرى مزامنة لهذا التقدّم، وتجعل القلب ميداناً للجذب والدفع.

وهنا يجب أن تصل قوّة دعوة الأنبياء وتشريع القوانين والأحكام للمساعدة، لكيلا يمرض القلب. ولا يصيبه الخلل ولا يواجه الموت، كما أن الطبيب الحاذق اول ما يقوم به من عمل معرفة وضع القلب. والأنبياء أيضاً - الذين هم أطباء النفوس - نظرتهم الأولى تتّجه الى الضمير والقلب الباطني، إلى الحدّ الذي يفيد فيه الإنذار والبلاغ الذي يضمن الحركة ودقات القلب، وإلا ييأس الطبيب ويتحمّن الموت.

يكون أثر القلب الحيّ المباشر في العين والأذن، وتكون العين منه أبصر والأذن أسمع

باستمرار، وكأنما داخل هذه العين والاذن عيون وآذان يفتحها القلب الحي ويجعلها ترى وتسمع، كما أن المتعلم لا يرى - في البداية - من صفحة الكتاب سوى الخطوط، ولا يسمع من القول سوى الصوت والحجب الموجودة على العين والاذن ترتفع باستمرار بالإقبال على الدرس والتعلم. كل شخص يدرك من الحروف أصواتا ومن الكلمات معاني أكثر يرى صفحة العالم كصفحة الكتاب، ولكن ما يراه العالم الإلهي لا يراه العالم الطبيعي، وما يراه العالم الطبيعي لا يراه الأمي. فواحد يرى من ورق الشجر الصورة واللون، والآخر النظم والهندسة والجمال، والثالث جهاز الجذب والدفع والتغذية والعارف يرى في كل ورقة منها كتاباً يدلّ على قدرة الله تعالى.

﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾: تفيد الجملة الاسمية المبدوءة بلام الاختصاص الثبات والاستمرار والملازمة، أي أن عذاباً عظيماً ثابت وملازم لهم، وإن كانت الغفلة قد صدّتهم عن العلم به والانتباه له، هذه نهاية الكافرين، كما أن الفلاح والفوز نهاية المؤمنين: وإن هذا الفرق والامتنياز هو أثر إشعاع نور الوحي الذي يثير كل مستعدّ له، ويميّز كل شخص أو طبقة بحسب قابليّته واستعداده، كما أن إشعاع النور بين الموجودات في الفضاء يخلّصها من السكون والتجانس في المستوى، ويفصل كل واحدٍ عن الآخر في الصورة والمكان، ويبدأ الفعل والانفعال والاصطدام بين العناصر والقابليّات المختلفة بعد إشعاع النور، فالبعض يسمون بحبهم للنور، والبعض الآخر تَبَوَّأُوا أعماق الأرض فلا يفتحون أعينهم للنور، ولا تسمع آذانهم دعوة خطوط الأشعة التي هي رسل الله، والبعض حائرون بين جاذبية النور والظلام.

وامتازت النفوس الهادئة المطمئنة بعد طلوع القرآن الشعاع الباطن فالذين تحيا فيهم فطرة حبّ الحقّ وضمير حبّ الخير بصورة سليمة، يند مجان في بعضهما بمستوى رفيع، ويتقدّمان بهدي القرآن. وفئة أخرى هم الذين تطبّعوا على ظلام الكفر، ونور الوحي لا يلائم عيونهم الخفاشيّة، والفئة الثالثة هم الذين يعيشون حائرين :-

أرسل الله النبين لكي يوضحوا التمييز في رُشدٍ وغي

أرسل الله الدعاة بالورق	فارتضى واختار دُرّاً في طبق
إنَّ كلَّ الناس قبل الأنبياء	مسلماً أو كافراً كانوا سواء
قبلهم كُتِّنا سواء كَبَشَر	مادري شخص بنا خيراً وشر
كان للسكّة والقلب رواج	وسُراة نحن والعالم داج
فتجلى كوكب الرسل وقال:	ابتعد يا غشّ يا صافي تعال <sup>(١)</sup>

انظروا الأوصاف النفسية والأخلاقية للفئة الثالثة في نور الآيات التالية:

﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَقُولُ آمَنَّا بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَمَا هُمْ بِمُؤْمِنِينَ ٩  
يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَمَا يَخْدَعُونَ إِلَّا أَنْفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ ١٠﴾ فِي قُلُوبِهِمْ  
مَرَضٌ فَزَادَهُمُ اللَّهُ مَرَضًا وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ ١١﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ  
لَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ قَالُوا إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ ١٢﴾ أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ الْمُفْسِدُونَ وَلَكِنْ  
لَا يَشْعُرُونَ ١٣﴾

نزلت هذه الآيات حول صفات فئة أخرى وأعمالهم وسيرتهم بالنسبة للقرآن والدعوة  
الاسلامية، وهؤلاء ليسوا كالفئة الثانية الذين انتهت فطرة رغبتهم للكمال وشعورهم  
بالخطر، ولا كالفئة الأولى الذين تخلصوا من الظلمات بإشعاع القرآن حتى وصلوا إلى  
ساحل النجاة. فالفئة الأولى لما كانت قواهم النفسية ثابتة ومتناسقة وهم يتقدمون في  
الطريق المستقيم بنور هدى القرآن والإيمان بالغيب، منحهم الله لقب «المتقين»، والذي  
هو وصف اسمي يدل على الثبات، ثم جاء بأوصافهم بصيغة افعال المضارع التي تفيد  
الحركة والتكامل، وجاء وصف الكفر والختم للفئة الثانية بصيغة افعال الماضي، الذي  
يخبر عن الماضي وموتهم الروحي والمعنوي. ولم يذكر وصفاً ثابتاً للفئة الثالثة، ولا جاء

(١) ترجمت ستة آيات فارسية بمثلها عربيّة. (الترجمان).

بخبر عن مستقبلهم يفيد الرجاء، ولا ذكر وضعهم في الماضي. وعبر عنهم ببعض الناس، أي لم يكن لهم وصف ثابت، لأنهم لا تنطبق أقوالهم مع أفعالهم، ولا أفعالهم مع نيّاتهم القلبية، وكل هذه مع إدراكاتهم الفطرية والوجدانية. ويواجهون الاختلال الفكري وتجزئة القوى الباطنية وعدم التناسق النفسي.

وخطر هؤلاء على كل جماعة تواكبهم بالفكرة أشد من الكافرين، وقلّ ما يُكشّفون، ولم يكونوا في النفاق سواء. ولذا فإن القرآن في هذه الآيات بحث بصورة أكثر أعمالهم وأوصافهم، وربما كان هؤلاء الفئة الظاهرة من المنافقين، لأنّ مرض النفاق موجود في أكثر الناس، وكما أنّ المؤمن الخالص قليل، كذلك الكافر المحض قليل أيضاً، وفي آيات القرآن الأخرى أطلق عليهم اسم المنافقين، وفيه سورة باسم المنافقين.

النق: الثقب وجحر الفأر في الأرض الذي له طرق مختلفة، ويأوي إليها الفأر الأعمى الهارب من أشعة النور، وكلما واجهه الخطر من جهة تخلّص من جهة أخرى، وكأنما جاء اسم المنافق لهذه المناسبة، لأنّ المنافق عاجز من ناحية التفكير والارادة، لذا يتلون مع كل محيط وجماعة، وله وجوه متنوّعة، ليخدع الناس بكل وجه. كما أنّ بعض أوصافهم في هذه الآيات «مخادع» اسم الفاعل من «يخادعون»، وأحد معاني «الخدعة» اختفاء «الحيوان، الضبع» في غاره.

هكذا درس سقراط باطن أمثال هؤلاء الناس، يقول: كانما احتلّ باطن هؤلاء حيوانات متنوعة، أو أنّ باطنهم هيكل له رؤوس مختلفة، بحيث يخرجون رأساً منها متناسباً مع كل زمان ومكان، يظهرون تارة بصورة الانسان المحقّ العادل، وتارة يظهرون بصورة الوحش الكاسر المفترس في مقابل الضعفاء، ويحرّكون ذيلهم كالثعالب في مقابل الأقوياء في الظاهر ويتملقون، ويبدو الضعف والذل من عيونهم، وتارة يفتحون أفواههم لكل حرام كالخنزير، وتارة يظهرون بمظهر حيوان شهواني، وتارة يلعبون ويستهزئون بكل حقيقة ويخالفون كل عمل ثابت جاداً.

ويدعى مثل هؤلاء الناس اتفه الناس وأحقرهم بنظر القرآن والأديان والرجال

الواقعيين، وعديمي الضمير من وجهة نظر القرن الذهبي، واذكاء ديبلوماسيين سياسيين قادرين في بيئات الانحطاط النفسي والاخلاقي.

﴿وَمِنَ النَّاسِ...﴾ الألف واللام يمكن أن تكون للجنس كما يبدو، ومن للتبويض، أي بعض الناس، ويمكن أن تكون للعهد إشارة إلى الآيتين السابقتين، ومن للتبيين، أي من أولئك الناس الكافرين. وأصل «الناس» أناس، بدليل إنس وإنسان وأناسي، وجاءت الألف واللام بدلاً من الهمزة، وفعلها الماضي «أنس» أي تطبّع أو تحرك واضطرب، لأنّ الانسان - بخلاف الوحوش - له طبع الأنس والألفة، وأنه لا يستقرّ: ويمكن أن يكون اسم الفاعل من النسيان. أي الناسي والغافل.

الوصف الأول والظاهر لهذه الفئة التظاهر باللسان فقط، بحيث لا يوجد شاهد على أقوالهم في العمل والسيرة، مع العلم بأن اعتقادهم الباطني يظهر في العمل بصورة تلقائية. جاء تكرار الباء في «وباليوم الآخر» لتأكيد الإيمان، والذي هو دليل على النفاق، لأنّ المؤمن الحقيقي عمله يشهد له، ولا يحتاج لإظهار المؤكّد.

وجاءت الجملة الاسمية «وما هم بمؤمنين» وباء الملابس بدلاً من «ما آمنوا» أو «ليسوا مؤمنين» للنفي العام لأصل إيمانهم القلبي.

ويستفاد من هذه الآية أمران رئيسيان: الأول: أنّ الإيمان حقيقة باطنية وقلبية، يجب أن تظهر بالعمل، ومجرّد إظهار الإيمان لا يجعل أحداً في صفوف المؤمنين. الثاني: أنّ الأصل الأول من أصول الدين هو الإيمان بالله وبآخرة.

﴿يُخَادِعُونَ اللَّهَ﴾: يخادعون فعل مضارع من المفاعلة، ويستعمل هذا الباب للفعل الذي يتم من قبل اثنين متقابلين أو أكثر، وهما فاعلان ومفعولان في وقت واحد، وينسب الفعل إلى الذي بدأ به، ولما كان الخداع بدأ من قِبَل هؤلاء، نُسِبَ إليهم، ولما كان ردّ فعله، الخداع وتخطئة الادراكات الوجدانية الفطرية وحبجها، وهذا قانون الهيّ، نسب - بصيغته المفاعلة - إلى الله أيضاً، كما أنّ الظالم الأول يدمغ وجدانه ويجعله مظلماً، ثم يدمع المظلوم وكل ذنب له هذا الأثر قلّة وكثرة، وجملة «وَمَا يَخْدَعُونَ إِلَّا أَنْفُسَهُمْ» بيان لـ

«يُخَادِعُونَ»، أي إنَّ نتيجة فعلهم وسيرتهم تعود على انفسهم، فهم يخدعون أنفسهم، ويُخلِون نظامهم النفسي الطبيعي ولما كان إدراك الأمور النفسية وامراضها دقيقا جداً، والاهتمام بالحالات النفسية والتطورات الداخلية من الصعوبة بمكان على اثر الغفلة والاهتمام بالأمنيات والشهوات الخارجية عبّر بالشعور عن هذا العلم والادراك، وأنكر القرآن الشعور فيهم. والشعور من الشَّعر أي دقَّة النظر، والشاعر هو من يدرك دقائق الأمور ولطائفها، وما اكثر الذين يحصلون على المعلومات ولهم فكر لكنهم يفتقرون إلى الشعور...

﴿فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ...﴾ هذه الصفة الثالثة والإخبار عن وضعهم الداخلي، وسبب الوصف الاول واضح، والثاني العشاوة عليهم بالترتيب.

المرض حالة عندما تعتري الجسم أو العضو تؤدي إلى اختلال عام في العضو أو الجسم، وبالنتيجة لا يتم العمل أو الأثر الجدير بالعضو أو الاعضاء المريضة كما ينبغي، ويعتريه الألم والحُمى أحيانا حتى تلفت نظر المريض نحو الخطر، وهذا الاختلال وعلائمه محسوسة في الجهاز الجسماني ويكون هذا الاحساس بهذا الاختلال في الجهاز النفسي أدقّ وأوضح أحيانا، كالاختلال والآلام النفسيّة كالجهل والتكبر والحسد أو الطعن الذي يرد على شخصيّة الانسان وشرفه مما يسهّل تحمل الآلام الجسميّة، إلى درجة أن الانسان يتمنّى الموت، وهذا بنفسه دليل واضح على أن الانسان جهاز آخرواء الجهاز الجسمي. فمثلا، كما أن ألم الضرس يذهب بالراحة ويسقط اللذة من النظر ويجعل الحياة مظلمة، فإن ألم الحسد أو التكبر أو الأنانيّة له نفس النتائج: يتألم، يصيبه الأرق، يتلوّى لأن الآخرين في نعمة أو جاه أو منصب.

ويتضح هذا الموضوع بصورة أكثر بتقدّم العلم والتجارب: وقد ثبت أن كثيرا من الأمراض الجسميّة سببها الاختلال النفسي، لأن هذه الاختلالات تؤثر على الأعصاب والأعصاب جهاز حيويّ يعمّ جميع الأعضاء، فبمجرد أن يختلّ هذا الجهاز تقلّ قدرته الدفاعيّة، ولا تقوم الأعضاء بإنجاز مهمّاتها بصورة صحيحة، وهذا هو سبب كل مرض.

إنّ دنيا العلم تسعى باستمرار لاكتشاف أدوية تحدّ من الألم والموت غير الطبيعي، ولكنها لم تفكر بعلاج لهذه الانحرافات النفسية والخلقية والضغط المعنوية، ولم تبتكر دواءً يكون سيّء الظنّ والحسود والانانيّ بواسطته حسن الظنّ يحبّ الناس انسانيّاً، أو تقتل من الداخل جرائم الحقد والجشع واليأس. فالمعالجات العصبية المتعارفة لا تتعدّى التسكينات، والعلاج الجذريّ الحاسم خارج عن مهمّة علماء النفس والأعصاب البشريين، لأنّ الإحاطة التامة بجهاز الانسان النفسيّ الغامض وتأثير الأفكار والتخيّلات والأعمال والبيئة على القوى الباطنية لا يتمكن عليها إلاّ مبدعها «عالم الغيب والشهادة». وهو الذي يُطلع الناس على هذه الأسرار، ويزيد في قوة الدفاع المعنويّ بالاوامر النفسية والعملية، يضع حدّاً لِسراية هذه الامراض بالوقاية والتقوى، وقد وضّحنا ذلك قبل هذا.

فكما أنّ المرض الجسمي يُضعف الجسم ويمنعه من الاستقامة، وتقلّ الشاهية نتيجةً لاختلال الجهاز الهضمي، ويكون الغذاء اللذيذ غير لذيذ في الذائقة، ولا يقوم العضو بواجبه الطبيعيّ، كذلك المرض النفسي والاختلال له مثل هذه النتائج. فالمريض النفسي لا يدرك الحقائق والمعارف ولا يهضمها، ولا يقوم على برهان ودليل مباشر، ولا يتمكن من الاستناد على عقيدة ثابتة، ولا يتلذّذ بالتوجّه إلى الله وعبادته، والتفكير الصحيح، ومساعدة الناس وخدمتهم، ويخاف مما لا يُخاف منه كالمصاب بالمالا لنخوليا (المرض السوداوي)، ولا يخاف مما يجب الخوف منه، ولا يؤثّر فيه الوعظ والإنذار والتحذير.

﴿فَزَادَهُمُ اللَّهُ مَرَضًا...﴾ أخبر في البداية عن تمكّن المرض في قلوبهم، ولم يبيّن مصدر ذلك وسببه، لأنّه من الممكن أنّه ورث المرض من أبويه وأسلافه، أو جاء به من دور التكوين، أو أنّه أضعف قدرة الوقاية في نفسه، باختياره وعرض نفسه للمرض، لأنّ المرض (أو ميكروبه) يوصل نفسه إلى مراكز الجسم الأصلية أو القلب، ويتقدّم به قانون التكامل الذي هو قانون الهيّ عامّ في العالم ويكثره، لأنّ كل موجود صغير أو كبير له حق الحياة والنموّ في بيئته الملائمة له، وعناية الله متساوية بالنسبة للجميع.



تكرار كلمة «مرض» بصيغة النكرة يفيد على أن المرض الأول يختلف عن الثاني شدة وضعفًا، أو بالأختيار وعدمه، أو من جهة المصدر والسبب، لأن المرض الأول ضعيف والثاني قوي، والأول باختياره أو غفلته وبواسطة الاسلاف، والثاني خارج عن الاختيار، وبواسطة قانون التكامل. وقد بينت الآية الكريمة هذه الحقيقة ببلاغة تبهر العقول، فقال تعالى «فَزَادَهُمُ اللَّهُ مَرَضًا» بدلاً من «فَزَادَ اللَّهُ مَرَضَهُمْ» فزيادة الله الاولى تشملهم انفسهم، و«مرضا» الذي هو تمييز ونكرة جاء ضمن زيادتهم هم، أي إن هذه الزيادة تابعة للتكامل العام!!

إذاً يستفاد من هذه الآية أصول ثلاث: الأول: هو أن المرض عارض على صحة طبيعة الكائن الحي الأولى وعلى مزاجه. الثاني: لا يُنسب عروضه وتمكّنه إلى الله. الثالث: زيادته تكون وفق تكامل الأحياء العام والذي هو القانون الإلهي.

﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ﴾ العذاب الأليم لهؤلاء وملازم لهم، وهذا العذاب بسبب كذبهم أو تكذيبهم (على قراءة يكذبون بتشديد الذال)، الأليم بمعنى المؤلم أو بمعنى المبالغة في العذاب، والألم مقابل اللذة، واللذة حالة تلائم الطبيعة، أي إن كل ما يلائم طبع إحدى الحواس والمدارك في الكائن الحي فهو لذيق. وما لا يلائمها فهو مؤلم. فبمجرد أن يعرض عارض أو مرض للعضو الحساس يعلن العضو عن عدم ملائمته عن طريق الألم ليتوقف الخطر العارض بكل سرعة، ولكن بعد استيلاء المرض وقطع صلة العضو بالحياة العامة يهدأ الألم، وهذا هو الموت. ولما كان المنافق كالكاfer لم تنتهِ حركة قلبه وضميره وحياته المعنوية، وهي في حالة التجزئة وقطع الصلة نتيجة تكذيب جهازه النفسي، فهو يعيش في حال ألم وعذاب. ولكن الكافر استولى عذاب الموت على كل قواه المعنوية وأزال شعوره، وهذا هو السر في اعلان العذاب العظيم للكاfer، والعذاب الأليم للمنافق، كما أن الشلل والعمى والطرش أو الموت العام عذاب، ولكن بلا ألم. والانسان يهون الألم إلى حد ما لكيلا يواجه الموت الذي هو فناء.

يجد المتألم بنفسه طريق العلاج، بل الألم نفسه إعلان عن وجود العلاج، كما أن الماء

إذا لم يكن موجوداً لم يكن العطش، العطش بنفسه إعلان عن وجود الماء، والأمراض التي لم يُكتشف لها دواء كالسرطان، يحاول العلماء دائماً أن يكتشفوا لها الدواء ولا يقول أيُّ طبيب: لا يمكن علاجه ولا يوجد له دواء، بل الجميع يقولون: له دواء ولكنه لمَّا يُكْتَشَف. إذا الفطرة البشرية تقدّم هذه الشهادة القطعية بأنّ لكلّ دواء موجود في التركيبات النباتية والكيمائية. إذاً فالإنسان مصاب بمرض الجهل والعمى، وما أكثر الذين عاشوا في وسط الألم والمرض وماتوا، مع العلم بأنّ دواؤهم كان إلى جانبهم وفي وسط حديقة دارهم.

هل يمكن للحكمة واللفظ اللذين خلقا لكل داء علاجاً ودواءً، أن لا يخلقا للآلام المعنوية التي أضرها وألهاها - كما قيل - أشد وادوم من الآلام العضوية والجسمية، علاجاً ودواءً، ولم يثر الأخصائيين والمكتشفين؟! وهذا دليل آخر على وجوب بعثة الأنبياء وتشريع طرق العلاج.

﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُوا...﴾ وهذه أيضاً من صفات المنافقين الخاصة، من أنّهم يعتبرون أنفسهم مصلحين مع كونهم مفسدين ومصدّر كلّ فساد. ومن وجهة نظر المنافقين أو ساسة العصر المحافظة على النظام القائم - مهما كان - وإلهاه الشعب بالفرائز الجنسية، ومنع ظهور القابليات هو إصلاح في الأرض، وهؤلاء يحاولون بهذه الطبول والمزامير والصدود والصدود أن يحافظوا على كل شيء كما هو ليستفيدوا ويسيطروا على الوضع القائم بصورة أكثر.

ومن وجهة نظر الأنبياء والمصلحين الكرام يكون أسلوب المنافقين وأعمالهم فساداً في الأرض. ولهذا يكون هذا الأسلوب سبب فساد القابليات الفكرية والخلقية بين أفراد البشر، ولما كان الإنسان ثمرة التكوين والأرض يكون فساد فساد الأرض، أو من جهة أنّ فساد الطاقات البشرية يؤدي إلى بوار الأرض وعدم الاستفادة من قابلياتها. أو أنّ كليهما ناتجتان عن بقاء النظام الفاسد والكلّ يؤثر بعضه في البعض الآخر.

وعلى كل حال فمن وجهة نظر الأنبياء ورسّل الله يؤدّي ركود النظام الاجتماعي

والقابليات النفسية إلى الفساد كركود الهواء والبحر وظاهر الكائنات وباطنها. ولهذا فإن القرآن أشار إلى المفسد في الأرض بالاعلان والتنبيه وتكرار الضمير، وهؤلاء هم المنافقون. ومثل هؤلاء يظنون أنفسهم فقط مصلحين (باستعمال كلمة «انما» الدالة على الحصر) بالتطيل والتزمير والمحافظة على الوضع القائم، وأن غيرهم مفسدون مُخلّون. ولما كان النظام الاسلامي المقدس وأتباعه تركوا الوضع القائم وأوهام الحاكمين عليه، وأثاروا قابليات الناس الفكرية والخلقية، وصاروا السبب في نشوب الحروب الباردة والحارة، يراهم هؤلاء مفسدين، هؤلاء الذين تطبعوا على أوهامهم الجاهلية، ولا يدركون سوى ماهو موجود، ولا يفهمون حقيقة كل من الصلاح والفساد، ولا يتمكنون أن يفهموا: «وَلَكِنْ لَا يَشْعُرُونَ».

﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ آمِنُوا كَمَا آمَنَ النَّاسُ قَالُوا أَنُؤْمِنُ كَمَا آمَنَ السُّفَهَاءُ أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ السُّفَهَاءُ وَلَكِنْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٤﴾ وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ آمَنُوا قَالُوا آمَنَّا وَإِذَا خَلَوْا إِلَى شَيَاطِينِهِمْ قَالُوا إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِئُونَ ﴿١٥﴾ اللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ وَيَمُدُّهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿١٦﴾ أُولَئِكَ الَّذِينَ اشْتَرَوُا الضَّلَالَةَ بِالْهُدَىٰ فَمَا رَبِحَت تِّجَارَتُهُمْ وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ ﴿١٧﴾﴾

#### معاني الفردات:

الشياطين: جمع شيطان، من شطن اي ابتعد عن الحق، وتمرد على الأوامر، وكل موجود يكون كذلك يقال له شيطان.

الاستهزاء: استفعال من هزأ أي التحطيم، الاستبراد، القتل، وعندما يتعدى بالبلاء يكون بمعنى الاستخفاف والسخرية.

المد: الزيادة، الإطالة، وعندما تزداد ألفاً تكون بمعنى إضافة شيء إلى آخر.

الطغيان: تجاوز الحد، التمرد. الطاغية: المستبد، الجبار.

العمّة: الحيرة، الذهاب والإياب بلا قصد، السير بلا دليل، العمى.

يتّضح من الأوصاف والسيرة التي ذكرت للمناققين في هذه الآيات أنّ هؤلاء من الناحية الطبقيّة طبقة ممتازة ثبلائيّة معيّنة، أناسٌ تعلموا بالتجربة طرق الخداع وإغفال العامة والتلوّن بكل لون (كما يشير إلى هذا أيضاً معنى نفق والنفاق لغةً). ويتصوّرون أنّ مقياس الحق والباطل والانتصار والاندحار هو الوضع القائم، وتجارب الماضي وأفكاره، وحالهم. ولما كانوا مغرورين بقوتهم الفكرية أو المالية أو معلوماتهم المحدودة، لا يدركون الحق وقوّته كما ينبغي. وفي مقابل هؤلاء، العامة أصحاب الضمائر النيرة والفترة الطاهرة، الذين قلّما يصابون بأمراض نفسيّة، ولذا فهم يدركون الحق بصورة أفضل، وتضحياتهم واستقامتهم أكثر.

تفيد جملة «كَمَا آمَنَ النَّاسُ» أنّ عامّة الناس آمنوا، لأنّ صفتهم الانسانية لم تتلوّث. ولم يصابوا بالتعصّب الطبقيّ أو العنصري أو القوميّ، وكانوا يرون أنّ هؤلاء لا يتجاوبون مع مخالفاتهم، فأصابتهم الحرمان والمشاكل، وعادوا على أنفسهم بالخطر، لاسيما كانوا ينظرون إلى المسلمين المهاجرين، والأنصار الفقراء، وبؤساء المدينة المحاصرين من قبل أعدائهم في الداخل والخارج من المشركين واليهود والدول العظمى. ومن وجهة نظر هؤلاء لم تكن استقامة المسلمين وآمالهم وإيمانهم سوى ضعف العقل والبساطة وعدم التفكير بالعواقب ليس إلّا، ولا تتفق مع الحساب للحياة. ولكن السفهاء بصورة تامة هم هؤلاء في الحقيقة والواقع، سواءً كان السفه خفة العقل، أو قصور التفكير، لأنّ هذه الطبقة من الناس هم الذين تواجه عقولهم القاصرة تيارات الشهوة والهوى، ولا يستقرّ لهم فكر ورأي، أو أن قابليّاتهم العقلية قلّما تبدو من وراء ستار الأنانيّة والغرور، ﴿أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ السُّفَهَاءُ وَلَكِنْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ كما أنّهم افتضحوا ولمّا يمض على ظهور الاسلام وقت طويل، وأصبح تنبؤهم وتفكيرهم بالعاقبة وانكماشهم وبالأعلى عليهم، واتّضح سفههم. وكانت مقابلة الحق والباطل هكذا دائماً طيلة التاريخ.

﴿وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ آمَنُوا﴾

هذه - أيضا - خصلة الأنانيين المغرورين المستكبرين النفسية، الذين يسخرون من الآخرين، لاسيما المؤمنين، ويتخذون منهم آلةً للمرح واللهو، وهم مُمَثِّلُونَ كالقردة يتشكّلون بكلّ شكل، فكلّما قابلوا المؤمنين ظهروا بمظهر الايمان، مع العلم بأنهم يخفون وراء مظهرهم الايماني صورتهم الشيطانية، وهم ينجذبون دائماً لطبيعتهم النفسية تلك. «خَلَوْا إِلَى شَيَاطِينِهِمْ» تشير الكلمات: خلوا، وإلى، وإضافة الشياطين، إلى باطنهم الشيطاني، وإنجذابهم اليه، والاستهزاء بالحق من آثار هذه النفس الشيطانية، والغرض منه الاستخفاف بالانسان المكرّم عند الله.

والفرق بين الاستهزاء والخداع - وقد عدهما القرآن من صفات المنافقين - هو إنّ الغرض من الاستهزاء الاستخفاف فقط، ولكن المخادع يريد أن يصل بواسطة الخداع إلى غرض آخر.

ومثل هؤلاء صفاتهم شيطانية ومهازل، لأنّ قواهم الفكرية تستخدم للسخرية والطعن في الآخرين، وبالتالي يعجزون عن التفكير الصحيح والإيمان الثابت والتصميم في العمل، ويفقدون قيمتهم، ويعيشون بحيرة وقلق، ويصابون باضطراب فكريّ، وهذا هو استهزاء الله وعباد الله بهم، كالزوبعة التي أثارها الحوادث الجوية أو التراب والعجاج والتي ظنّت أنها اتخذت الأرض والهواء ألعوبة، وهي الثابتة المستقلّة بنفسها، مع أنّ وجودها لم يكن سوى تراب وهواء قد التفتا ببعضهما وسرعان ما يتلاشى.

كأنما جملة «وَيَمُدُّهُمْ...» شرح لـ «اللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ» وقد نُسِبَ الاستهزاء والإمداد إلى الله في هذه الآية، والطغيان نُسِبَ إليهم وإلى سوء اختيارهم. بناءً على هذا فالطغيان الذي هو تمرّد على الحقّ وتجاوز الحدّ سبب الاستهزاء والإمداد ونتيجة هذه الامور «الْعَمَةُ» وهو الحيرة والتسيّب في الطريق المغلق، والسير بلا هادي وعاقبة أمر جميع هؤلاء الخسران النهائي والفشل المعنوي الذي توضحه الآية التالية:

﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ اشْتَرَوُا الضَّلَالَةَ....﴾ إِنَّ كَلِمَتِي «أُولَئِكَ» و «الَّذِينَ» هي للانتباه الخاص إلى أوصاف مثل هؤلاء ونفسيّاتهم وسيرتهم ليترسّخ في ذهن السامع بعدما جاء

في الآيات السابقة، ولتعلن نهاية حياتهم. وكأنه توضيح آخر عن استهزاء الله بهم: كيف اتخذوا أنفسهم العوبة، فأمدّهم الله أيضاً بقانون العالم العام فخسروا في النهاية جميع رأسمالهم.

إن هؤلاء جاءوا إلى الدنيا برؤوس أموال فيّاضة من القابليات والقوى الظاهرية والباطنية التي هي مشاعل هداية الفطرة، وبدلاً من أن ينيروا فطرتهم وقواهم، ويتجهون بنورها نحو الهداية، اشتروا الضلال بأرواحهم، وحوّلوا هذه الأنوار بجدهم وجهدهم ناراً ودخاناً.

واعلان نهاية هؤلاء في مقابل نهاية الفئة الأولى الذين أصبح رأسمالهم المعنوي كله نوراً وهدى وفلاحاً، وهؤلاء الضلال والخسران، وكما يبدو الأمل والبشرى، بالنسبة للفئة الأولى ومنها: «أُولَئِكَ عَلَى هُدًى مِنْ رَبِّهِمْ» يتضح الحرمان والأسف في هذه الآية بالنسبة إلى هؤلاء:

فغدا النورُ الالهيُّ دخان      فطرة الحق بها نمروء بان<sup>(١)</sup>

تشير جملة «أشْتَرَوْا» إلى أنهم جعلوا هدايتهم الفطرية وإيمانهم التكوينيّ بسوء اختيارهم وجدهم وجهدهم ثمناً لسوق الضلال، لأنّ المشتري هو الذي يمتلك الثمن ويذهب إلى البائع، والبائع جالس في مكانه يعرض بضاعته، «وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ» تشير إلى أنّ هؤلاء لأنّهم لم يربحوا من رؤس أموال الطبيعة وقواهم فحسب، بل خسروا ولم يهتدوا إلى طريق استغلال هذه القوى، وضلّوا مع وجود آلاف المصاييح.

﴿مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ الَّذِي اسْتَوْقَدَ نَاراً فَلَمَّا أَضَاءَتْ مَا حَوْلَهُ ذَهَبَ اللَّهُ بِنُورِهِمْ وَتَرَكَهُمْ فِي ظُلُمَاتٍ لَا يُبْصِرُونَ ١٨ صُمُّ بُكْمٌ عُمًى فَهُمْ لَا يَرْجِعُونَ ١٩﴾  
أَوْ كَصَيْبٍ مِنَ السَّمَاءِ فِيهِ ظُلُمَاتٌ وَرَعْدٌ وَنُقُبٌ يَخْلُونَ أَصَابَهُمْ فِي آذَانِهِمْ مِنْ الصَّوَاعِقِ حَذَرَ الْمَوْتِ وَاللَّهُ مُحِيطٌ بِالْكَافِرِينَ ٢٠ يَكَادُ الْبَرْقُ يَخْطَفُ أَبْصَارَهُمْ

كُلَّمَا أَضَاءَ لَهُمْ مَشَوْا فِيهِ وَإِذَا أَظْلَمَ عَلَيْهِمْ قَامُوا وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَذَهَبَ بِسَمْعِهِمْ وَأَبْصَارِهِمْ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢١﴾

### معاني المفردات:

مثَلٌ: صفة: قصّة ذات عبر، تأتي تارة لتشبيه المعقول بالمحسوس، أو التشبيه المركّب والاستعارة المركّبة بحيث تبيّن مجموعة صفات جماعة وأحوالهم وعواقب أمرهم، وتارة تأتي بشكل حكاية، أو جمل أو أمثال شائعة بين الشعوب، أو التقاليد، أو التمثيل على شاشة المسرح، ليركّز المضمون والمطلوب في الذاكرة وتظهر المواضع المشتتة بشكل مجموعة.

إِسْتَوْقَدَ: مِن وَقَدَ، والوقود بمعنى الاشعال والحطب، وصيغة الاستفعال تفيد الجدّو الطلب والمشقة.

صَيَّبَ: المطر الغزير المتتالي، والسحابة الممطرة.

رَعْدٌ: الحركة القويّة، صوت اصطدام السحب ببعضها.

صَوَاعِقُ: جمع صاعقة، الصوت المخيف، البرق والنار النازلة من السماء.

يَخْطِفُ: من خَطَفَ، استلبه بسرعه.

ضرب القرآن هَذَيْنِ المثليين بألفاظ وتعابير خاصة كالشاشة المحسوسة ليمثّل لذوي التفكير والتأمّل أوصاف المناققين وحالاتهم، وأعمالهم المضطربة، وبيئة نفسيّاتهم القلقة، وتخيلاتهم وآمالهم القائمة على غير اساس، التي ذكرتها الآيات السابقة، لعلّهم ينتبهون، أو يفتضحون ويعتبر بهم الآخرون.

المثّل الأول: يمثّل الحيرة والضلال في صحراء مظلمة، والسحب المتراكمة قدسدت جميع منافذ نور الهداية السماوية، بحيث لا يبدو نجم واحد من زاوية الافق، وفي مثل هذا الظلام الدامس، وبين هبوب الرياح المضادة يجمعون حطبا بجذّو نصب ويوقدون ناراً، ليدفّقوا من حرارتها ويضيئوا المحيط المظلم بشعلتها، لعلّهم يجدون طريقهم،

وبمجرد أن تشتعل النار، وتضيء أطرافها تهبّ ريح وتعصف بما جمعوا هنا وهناك، فيقفون حائرين مبهورين في مكانهم.

يشير هذا المثل إلى الحالة النفسية لأولئك الذين تراكت سحب الشهوات المختلفة المظلمة على أفق فطرتهم، وقطعت صلتهم بنور الهداية، فيرون أنفسهم في بيئة تصبّ الموت والبلاء والفقر الملازم للدنيا، وبدلاً من أن يخلصوا أنفسهم بقوة العقل الفطري، والاتصال بسلك نور هدي القرآن، جمعوا أوهاماً مما يلبس الحق بالباطل كالحطب وأسموها معتقداً ونظاماً، وبمجرد أن أرادوا الاعتماد على ما جمعوا ونسجوا من تخيلات، وأن يجدوا طريقاً من خلال نور الفطرة الباهت، هبت عليهم العواصف النفسية المضادة، والتي هي من آثار الاجواء والبيئات المختلفة، فأطفأت نورهم، وأخمدت شعلتهم، وأظلم عليهم الطريق، وبعد أعوام مضت ظلوا واقفين في مكانهم حائرين لا يجدون بصيص أمل ولا بريق هداية للتقدم، ولا طريق للرجعة.

هذا من الوضع النفسي، وأمّا وضع الحياة الظاهرية، فيبادر هؤلاء إلى الوفاق مع الجماعات وتغيير اللون والوجه لتأمين حياتهم، بدلاً من إيجاد العلاقات الإيمانية الحسنة مع الناس وتحمل المسؤولية، والقيام بالعمل الصالح، ولكن عندما يقارب نسيج سياستهم تصّعاتهم وتراكم أمورهم إلى النتيجة، وتكاد أن تنفتح نافذة أمل للوصول إلى أمانيهم وآمالهم، تداهمهم حوادث الدهر القهرية فتتنقض غزلهم، وتطفئ نور أملهم. وهؤلاء في ظلمات أوهامهم لاأذن لهم ليسمعوا صوت الهدى، ولا لسان لهم ليسألوا عن الطريق، ولا عين لينظروا موضع قدمهم: «صُمُّكُمْ عُمِّي».

وبالنظر إلى هذا البيان، نلقي نظرة أخرى على هاتين الآيتين: «آسَوْقَدَ ناراً...» أشعل ناراً بجهد. تشير هذه الجملة إلى البيئة المظلمة، والتي هي الباطن والحقيقة لتلك التخيلات والأوهام والتصنّعات: أي يريدون أن يجدوا الطريق بجهدهم وعقلهم القاصر، في مقابل المؤمنين الذين أضحت فطرتهم أنور، وأذائهم أسمع، وأعينهم أبصر، وألستهم أنطق بتسليمهم للحق ونور الهدى وهذا هو النور المحض الثابت الذي أنار جميع الجهات.



ولكنّ ما يشعله المنافقون هو نتيجة نفوسهم الملتهبة التي يرافقها الرماد والدخان، وذلك النور الباهت الضعيف القاصر الناتج عن سعيهم وهو من قِبَل الله الذي يجعل لكل عمل أثراً يزول، أو يذهب به الله («ذَهَبَ اللَّهُ بِنُورِهِمْ» ومعنى «ذهب به» أخذه معه، فنسب الذهاب به إلى الله، والنور اليهم، والتفت من المثل الذي هو إشعال النار إلى المُمَثِّل الذي هو أعمالهم الباطنيّة)، وما يبقى بالاضافة إلى التعب والمشقة حطّ تخيلاتهم واوهامهم المحترق نسبياً ونفوسهم المتدخّنة.

جاء ضميراً «استوقد» و «حوله» مفردين، العائدين على «الذي» (ويمكن أن يعود ضمير حوله إلى «ناراً» والضمائر التي تلتها أتت بصيغة الجمع باعتبار معنى «مثل» العام، أو أنها تشير إلى الوضع العام، كما أنّ الذي يشعل النار واحد في أكثر المجتمعات أو جماعة واحدة، والمنافق الذي يلعب الدور الأول يكون واحداً عادةً، والآخرون حوله ويساعدونه، ولكنّ الجميع شركاء في الظلام والحرمان.

﴿ظُلُمَاتٍ﴾ جمع نكرة يشير إلى الظلمات الهائلة، كما أنّ مفعول «لَا يُبْصِرُونَ» محذوف، أي أنّ الظلمات إلى درجة بحيث كلّما ألّقوا النظرة لم يبصروا شيئاً. ولم يشاهد في هذا المثل الخوف والقلق والعاصفة والظلمات من البداية بصراحة، وتصرّح جملة «أَسْتَوْقَدُ نَاراً» عن الجهد والسعي. والظلام والضلال والبرد من ملازمات إشعال مثل هذه النار، وكأنّما كانوا يأملون النجاة أو تغيير الجو وتقشّع السحب، وطلوع الأنوار السماوية بجهودهم هذه والمساعي. والظلمات والرعد والبرق الواردة في الجملة التالية تفيد أنّ مساعيهم لم تصل إلى نتيجة، وانقطع نور أملهم، وازداد ظلامهم.

المثل الثاني يستعرض بيئة النفاق الأكثر خوفاً وخطراً، التي يشاهد فيها الأفق المظلم وشدة المطر، والظلمات والرعد والبرق منذ البداية، وربّما تكون نفس بيئة القصة الأولى التي بدت بهذا الوضع الخطير، واستمرار النفاق أتمّ خطره. بدأ المثل الأوّل من الفرد «كَمَثَلِ الَّذِي» والثاني من البيئة «أَوْ كَصَيِّبٍ» وقد بدت أعمال الفرد بصورة جمع «جاءت الضمائر في الجمل التالية بصيغة الجمع» والجمع بصورة البيئة العامة. بناءً على هذا لاحتاج إلى

تأويل «صَيَّب» بذوي الصَّيْب، ليكون العطف على «الذي» صحيحاً، يشير في هذا المثل إلى أنَّ المبتلين بمثل هذه البيئة استولت على نفوسهم المسكنة وقد يسوا من جهودهم والمساغي، وآلتهم الدفاعية الوحيدة في مقابل الارض والسمااء المظلمة، والسحب المتراكمة والبرَد الذي ينزل على رؤوسهم، وصوت الرعد ولمعان البرق الذي يرعبهم، والصواعق النارية التي تخلع منهم القلوب، هي أن يجعلوا أصابعهم في آذانهم (أو يغمضوا عيونهم) ليقللوا في انفسهم الشعور بالخطر.

ووضع الإصبع في الأذن في مثل هذه الظروف الخطرة كناية عن أنواع موجبات الغفلة والانشغال وآلات التحذير، والذين انسدت بوجوههم نافذة الرجاء والسعادة والبقاء ليس لهم سوى التحذير والتغافل. وهؤلاء يلقون بانفسهم في قبضة الموت خوفاً من الموت!

﴿وَاللَّهُ مُحِيطٌ بِالْكَافِرِينَ﴾: كأنما يزول شعورهم الوجداني وجميع أحاسيسهم وإدراكاتهم الانسانية نهائياً، على أثر تكرار ما يؤدي إلى الغفلة والتحذير، ويستولي ظلام الكفر على باطنهم (تراجع الآيات الأولى من السورة التي وصفت الكافرين)، ولما كانوا قد وصلوا من الحد القائم بين النفاق والكفر إلى الكفر، أحاط بهم غضب الله من كل جانب ومكان.

﴿يَكَادُ الْبَرْقُ يَخْطِفُ أَبْصَارَهُمْ﴾: لم تتمكن عيونهم الضعيفة التي اعتادت على الظلام أن تجابه أنوار الآيات عن قرب، وبمجرد أن تضيء ماحولهم إشعاعاً نور مشوا خطوات. ولم يبدو أي سعي من أجل نجاتهم بسبب اليأس والخوف، وعملهم الوحيد النظر إلى الآفاق منتظرين الحوادث الأرضية والسماوية والحوادث، فحدقوا النظرات إلى اقتران الكواكب والآلات العالمية، ويأملون الحياة من نفس الجهة التي تنذرهم بالموت وذلك لعجزهم وضعف عقولهم!

يستفاد من جملة «كُلَّمَا أَضَاءَ لَهُمْ...» أنَّهم حدقوا عيونهم إلى ماحولهم بقلق دائم، وعضوا العيون عن النظر إلى طاقاتهم وقواهم المعنوية، وبمجرد أن يروا ضياءً من بعيد

«أَصْأَاءَ لَهُمْ» مَشَوْا فِيهِ. وَلَكِنْ تَوَقَّفَهُمْ دَائِمِيٌّ وَمِنْ مُسْتَلْزِمَاتِ طِبَائِعِهِمْ «وَإِذَا أَظْلَمَ عَلَيْهِمْ قَامُوا...».

﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ...﴾: فكما أَنَّ الله يذهب بنور آمالهم، كذلك يذهب بنور أبصارهم وأسماعهم، ولا يتمكنون من الاستفادة منها، والأنسب أن يكون الغرض من أخذ البصر والسمع خاصاً بالإنسان، أي إن هؤلاء لم يستفيدوا كما ينبغي من هاتين الطائفتين، هاتين النافذتين، هاتين اللاقطتين ومركزي الاحساس والشعور، وتوقفوا على ذلك القدر مما يستفيد الحيوان من البصر والسمع اللذين يدركان الظواهر والمحسوسات، مع العلم بأنَّ السمع والبصر الانسانيين اقوى وأفضل بكثير!

تفيد كلمة «لو» التي تأتي للامتناع، ومجيء، «سمع» للجنس، و «أبصار» بصيغة الجمع، و اضافتهما إلى «هم» أَنَّ هؤلاء لم يكونوا مستحقين لهذا البصر والسمع، وماذا يكون لو كان الله أخذ منهم هذا السمع والبصر؟!

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿٢٢﴾ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ فِرَاشًا وَالسَّمَاءَ بِنَاءً وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنْ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَكُمْ فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَنْدَادًا وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٢٣﴾﴾

#### معاني المفردات:

يا: حرف للنداء البعيد، وينادى به القريب للتعظيم، أو غفلة.

أي: رابطة الاتصال «يا» بأل التعريف، وللجنس المبهم.

ها: للتنبيه، وقد جاء مثل هذا النداء كثيراً في القرآن، ينادى به الشخص الغافل أو الناسي أو المتطعم على التخييلات والأوهام (كما قيل في معنى الإنسان قبل هذا) البعيد عن النظر إلى نفسه وخالقه وواقعه لينتبه ويلتفت، ليعود عن البعد إلى القرب، وعن الغفلة إلى الانتباه، وعن الابهام إلى الوضوح. كالغارق في سبات عميق على أثر الغفلة والجهل،

ويحذق به الخطر من كل جانب، ويناديه المنادي المنبّه من بعيد، ثم يدنونه ويحرّكه ويذكر اسمه ولقبه عسى أن ينتبه وينهض.

الخلْق: جعل الشيء بقدر بدون زيادة أو نقصان، الإبداع بقدر وقياس.  
الَّذِي خَلَقَكُمْ: صفه تبيينيّة لـ «رَبِّكُمْ» ليوقظ الأفكار ويلفت نظرنا إلى أَنَّ رَبَّكُمْ ومربّكم هو الذي أبدع ظاهركم وباطنكم والذين كانوا قبلكم بقدر وأوجدكم، لا الذي اتخذتموه على اساس الوهم والتقليد ربّاً أو أرباباً. وكذلك جملة «الَّذِي جَعَلَ...».  
جَعَلَ: يتعدّى إلى مفعولين، بمعنى صَيَّرَ، وجَعَلَ الشيء من وضع إلى آخر ومن صورة إلى أخرى بصورة مستمرة.

الفرّاش: مصدر بمعنى المفروش. المفروش للاستراحة والهدوء.  
البناء: مصدر بمعنى المبني، ويتعدّى بواسطة «على» أو «الباء» أي المبني عليه، أو به. وهاتان الجملتان من معجزات القرآن العلميّة، مع العلم بأنّ التطورات الأرضيّة واتصالها بالسماء لم تكن تخطر على بال في تلك العصور، يصرّح القرآن بكلمتي «جعل» و «بناء» ويشير إلى أدوار ما قبل دحو الأرض وتهيئتها، وكون السماء أساساً وقاعدة للأرض، والسموات العليا للعوالم السفلى  
النِّدَاءُ: الشيطان المتساويان في الذات أو الصفات الممتازة<sup>(١)</sup>، و «المِثْل» أعمّ منه.

### نظم الآيات:

أشارت الآيات السابقة إلى الهداية والايمان والكفر، وبيّنت حقائق ثابتة وجامعة حول الاختلاف المعنوي والأخلاقي والجهاز الداخلي لجماعات ثلاث، وهذا الاختلاف هو السبب في الاختلافات الأخرى، وادّى إلى الحروب والحرمان. بحجج وأسباب. يقولون: إن الاختلاف والخصام ناتج عن اصطدام المصالح واستخدام ثروات الطبيعة. ألم يمكن للفرد او المجتمع أن يستخدم الثروات الطبيعيّة بدون حرب واختلاف؟ وما هو

(١) قصد المؤلف رحمه الله: الشيء المساوي لشيء آخر في الذات أو الصفات الممتازة. (الترجمان)

مقدار النفع والاستخدام؟

يقولون: إنّ طبيعة الجشع وحبّ التفوّق هما اللذان جعللا افراد البشر متجابهين متخاصمين وجعللا منهم صفوفًا وطرائق متناحرة. ماهو دافع هذه الطبايع، ولماذا يطلب الانسان أكثر من حاجته، ويُسْعِبُ نفسه والآخرين؟ يقولون انها اختلافات ذاتية.

مع العلم بأنّ جهاز الانسان النفسي العام وذاتيّاته مشتركة، والإختلاف يجري في امور خارجة عن الذات. والذي صار سببا للاختلافات هو اتّخاذ الآلهة المختلفة، لأنّ الانسان محتاج ومخلوق ومربوب لآخر في الوجود والتكوين والتدبير والتربية والموت والحياة، وكذلك الموجودات، مع العلم بأنّه لا بدو أن يعبد خالقًا ورازقًا، ويخضع له ويتقرّب إليه، ولكن سيطرة الحواس والأوهام والتقاليد على العقل الفطري تجعل ذلك المعبود المطلق بصور متنوّعة محدودة، وكل ما يظن به أنّه مسبّب الأسباب والرزق والقوّة والوجود يعلّق عليه آماله ويعبده. والاختلافات تبدأ من هنا.

يدعو في هذه الآية ببدء اليقظة العام إلى ان يحرّروا أنفسهم من قيود عبادة غير الله، ويتّجهوا إلى الله.

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي...﴾ العبوديّة من مستلزمات إدراك الربوبيّة، وهذا الإدراك فطريّ ووجداني، فلا يمكن للانسان أن لا يعتبر نفسه مربوباً، إذاً لا يمكنه أن لا يتّخذ معبوداً، مهما كان ذلك المعبود وأيّ شيء كان! ذلك الربّ الذي خلقكم وخلق أسلافكم، وخلق كلّ ما اتّخذتموه إلهاً أو اتّخذه أسلافكم أو ما يتعلّق بالارض والسماء، وقدرها ودبرها. والتذكّرة بخلق الماضين كما نما تشير إلى المعتقدات والآراء التي ورثها الأجيال التالية من الماضين، وترسخ عوامل الوراثة واحترام الاسلاف في النفوس، وتسحب سلسلة التالين وراء الماضين، ويتمكّن الانسان بهذه الحركة الفكرية والتوجّه والانتباه إلى الربوبية وتكوين نفسه (ربكم وخلقكم، وهذا ما تفيدّه الاضافة الى ضمير المخاطب) وتدبير الأرض والسماء، أن يفصم باستمرار سلسلة العقائد والتقاليد هذه،

ويحرّر العقل. اذاً لما كانت العبوديّة التي هي أثر الشعور بالربوبية وهي فطرة الانسان ووجدانه لم يدر حولها سؤال واستفسار من أنّه لماذا «أَعْبُدُوا رَبَّكُمْ»، وانّما الذي أدّى إلى التشنّت في العبادة هو قيود العادات والتقاليد. أي أنكم الذين تعبدون معبوداً ما على كل حال، حرّروا العقل، واسموا بالنظرة، واعرفوا الربّ الحقيقي بالتفكير في أنفسكم وفي العالم، واعبدوه.

فالشرك والكفر نتيجة للعادة والغفلة.

إنّ هذه الآية بعد أن تذكر الفرق الثلاثة: المؤمن، الكافر، والمنافق وتوصفهم، تخاطب ببلغة بارعة ونداء منبه جميع البشر المتساوين في الادراكات البدائية...  
﴿لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾: إنّ الالتفات والانتباه إلى الربوبية يؤدّي إلى العبودية، وهذه تؤدّي إلى التقوى المستمرة المتكاملة. وان كان ممّا يبدو أن هذه الجملة متعلّقة بـ«أَعْبُدُوا»، ولكنّها ترتبط بـ«خَلَقَكُمْ» بصورة ضمنيّة أيضاً.

إنّ هذه العصارّة من الطاقات والقابليّات التي تكوّنت بصورة انسان، عليها أن توصل ضميرها وفكرها بمبدأ، وتتّجه إليه، باعتباره الكمال والقدرة اللامتناهيين وفوق ذلك، عسى أن يتيقّظ فيها الشعور بالمسؤولية بالنسبة إلى الثروات المعنوية، فيستخدم قابليّاته معاً وبصورة منسّقة، ويتقدّم أكثر فأكثر، وهذا سرّ التقوى (كما قيل قبل هذا)، وقد جاءت العبارة بكلمة «لَعَلَّ» والفعل المضارع «تَتَّقُونَ»، لأنّ العبادة لا تؤدّي إلى هذه الحركة والمسؤولية في نفوس الجميع، وإن بدأت هذه الحركة والمسؤولية فلا استمرار لهما. وعندما تتيقّظ هذه المسؤولية في الإنسان بالنسبة إلى نفسه وإلى الله يكون مشمولاً لهذه الهدى القرآن.

وبالنظر الى نظم هذه الآية وارتباطها ببداية السورة «هُدًى لِلْمُتَّقِينَ» يتّضح الطريق إلى الوصول إلى التقوى. وإلاّ لكان موضع هذا السؤال من أنّه لما كان القرآن هو الهداية للمتقين فقط، فما هو الطريق للوصول إلى التقوى؟

كلّ شيء غير مبدأ الوجود والكمال لا يشير قوى الانسان وقابليّاته ولا يوجد الشعور

بالمسؤولية. ولما كان كل شيءٍ سواء محدوداً، فعبادته والتوجه إليه وجعله الغاية يجعل الانسان راكداً محدوداً، ويشتت الطاقات الفردية والاجتماعية وإذا كان الايمان بمثل هذا المبدأ وعبادته يعتبر لحد الآن من الواجبات والفضائل الشخصية، يزداد الشعور باحتياج الناس - اليوم - إلى مبدأٍ وتوحيد فكريٍّ كلما ازدادت صلة شعوب العالم ببعضهم، بل يعتبر من الضروريّات.

وإذا كانت هذه الحقيقة قد بدت حتى اليوم بشكل تقاليد وأعراف بيئية وعنصرية، فمن الآن وصاعداً تكون الطريق الوحيد والعلاج الوحيد للرابطة البشرية والقانون للسلامة والسلام العام.

فالقرآن يدعو الجميع في هذه الآيات لينتبهوا إلى خلقهم والعالم الذي يعيشون فيه، ويعتبرون العالم بكل النعم والجمال من مبدأٍ واحد، وليتمتع به الجميع. ولما كان الكل في ضيافته، عليهم أن يعبدوه جميعاً. والتقدم الفكري والتكامل وارتباط الحياة اليوم قد وهب هذا الانتباه للجميع.

﴿الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ..﴾: مهد الأرض بعد أدوار مديدة ووسعها للجميع، وأدّخر فيها المعادن والثروات الطبيعية منذ سنوات طويلة قبل ظهور الانسان، وأكثر فيها الهواء والنور والماء، وجعلها بعيدة عن سيطرة الانسان ليتمتع بها الجميع، ولا يمكن لأحد احتكارها ومنعها. هذه آيات ربوبية الله، وأدلة وحدانيته، وأصول نعمته: أصل الربوبية الخلق، الجعل، التدبير والرزق، هل ينبغي بعد هذا أن تتخذوا ندّاً؟ في جميع هذه الصفات أو في بعضها، وتتمسكوا بغيره، وتطأطأوا رؤوسكم تعظيماله، وتطلقوا ألسنتكم بشكره؟ مع أنكم لو مرّقتم أستار التقاليد والعادات لعلمتم تحت أشعة العقل الفطري أنه لا معبود بحق سواه... ﴿فَلَا تَجْعَلُوا لِلّٰهِ أُنْدَاداً وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾.

هذا تكوين الانسان صاحب الحواس والطاقات الكثيرة، وهذه الارض ذات المصادر والثروات الطبيعية، وهذه المياه الفيّاضة، وهذه المائدة المبسوطة في الجبال والسهول والصحراوات، بالارزاق والاثمار المتنوعة، كل ذلك منه ولك أيّها الانسان والرجوع اليه.

إذاً يجب أن يكون بيان الغرض من المجيء إلى هذا المنزل وتنظيم الحياة فيه، وكيفية التمتع بنعمه منه أيضاً. وذلك البيان والنظام هو هذا القرآن. إذاً أكشفوا بالتدبر والتأمل فيه ظلمات الشك والريب من امام بصيرة العقل، ونوروا العقل بنور هدايته.

والآية التالية التي تبدأ بـ«الواو» تفيد نفس صلة كتاب التشريع بكتاب التكوين هذين اللذين يجب أن يكونا من مبدأ واحد...

﴿وَإِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِثْلِهِ وَادْعُوا شُهَدَاءَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿٢٤﴾ فَإِنْ لَمْ تَفْعَلُوا وَلَنْ تَفْعَلُوا فَأْتُوا النَّارَ الَّتِي وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ ﴿٢٥﴾﴾

#### معاني المفردات:

السورة: الشرف والمنزلة السامية، البناء الشامخ، الجدار العالي الصالح، كل قسم من القرآن من حيث سمو المعنى واللفظ الذي تقصر عنه عقول البشر وافكارهم، ولا يجدون طريقاً للتنفيذ إليه يقال له سورة.

الشهداء: جمع الشاهد، أي الحاضر الناظر، وعندما يتعدى باللام، أو على، أو الباء، يأتي بمعنى الخبر الجازم القاطع الذي ينصب عليه الحكم.

حجارة: واحدة الحجر، الحجر بصورة مطلقة، أو حجر معين، وإذا دخلت عليها الألف واللام تشير إلى الأحجار الكريمة، المعروفة لدى الناس والمرغوب فيها.

نفث السورة في البداية مطلق الريب (بالمعنى المذكور سابقاً) عن القرآن بالجملة الحاسمة «لَا رَيْبَ فِيهِ». إذاً يبدأ مصدر الشك في القرآن من حالات النفوس وتأثرها، والشك حول كل حقيقة على نوعين: الشك الابتدائي الذي هو مقدمة ومحرك لليقين وعندما يواجه الانسان مثل هذا الشك فهو صادق في شكّه، ويريد أن يصل الى اليقين. أمّا الهاريون من البرهان واليقين، وتبتدع نفوسهم الشك، ويصرون عليه، لم يكن شكّهم



صادقاً، ولا يحركهم نحو اليقين، والجملة التي تأتي في آخر الآية «إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ» تشير إلى هذين النوعين: أي إذا كنتم صادقين في شككم وتريدون أن تفكروا بالحقيقة، يمكنكم بالتدبر في هذه الآيات واستخدام طاقاتكم أن تنقذوا أنفسكم من الشك.

ويمكن أن يعود ضمير «مِنْ مِثْلِهِ» إلى «ما» في «مِمَّا»، أي أتوا بسورة مثل التي أخذت. عنه، - أو تكون «مِنْ» نشئية - لأن صنع شيء على مثال شيء أسهل من الإبتداع والابتكار وهذه الجملة تفيد الصفح والسماح، أي أنكم لو أتيتم على صورة القرآن مثلاً له يُقبل منكم أيضاً. كما أن الذين عارضوا أرادوا جميعاً أن يأتوا بآيات معتمدين على الآيات القرآنية، ولكن لوحاتهم الناقصة أدت إلى فضيحتهم. ويمكن أن يعود الضمير إلى «عبدنا»، أي أتوا بسورة من مثل هذا الشخص، الشخص الذي لم ير المعلم والمدرسة، ونشأ في مثل هذه البيئة والمنطقة. ولم تتلون نفسيته بمعلومات العصر وحضاراته، ولون عبودية الله فقط هو الذي أوصله إلى هذه الدرجة، هذه العبودية التي استوعبت جميع وجوده، فأضحت روحه وقلبه مجرى لأوامر الله وإرادته، وأصبح عبداً مطلقاً، فالاسم والشهرة والجوانب الشخصية كلها فنت في العبودية فصار: «عبدنا» (والعباد المختارون [من قبل الله] ذكروا بأسمائهم لابتداعهم [العبودية] «واذكر عبدنا داود، عبدنا زكريا»<sup>(١)</sup> ولما كان هذا الكلام [القرآن] من عند الله، فاستعينوا بغير الله للشهادة والقضاء.

﴿فَإِنْ لَمْ تَفْعَلُوا...﴾: جاءت هذه الآية للسماح وإفساح المجال للمنكرين، لأن الجملة الشرطية يحتمل فيها الوقوع وعدمه، والجملة الحاسمة التأبيدية تأتي بعدها «وَلَنْ تَفْعَلُوا» التي تنفي هذا الاحتمال إلى الأبد.

دعوة الناس إلى معارضة القرآن والإتيان بمثله في عصر أقرن وعجزهم عن ذلك معجزة، والنفي الأبدي والاخبار عن المستقبل اللامحدود معجزة أوضح منها. وبالنظر إلى أن الإنسان موجود متكامل وينحو نحو التكامل شاء أم أبى، واستمرار تغيير الصناعات

(١) جاء في القرآن الكريم: «ذكر رحمة ربك عبده زكريا» لآعبدنا. وجاء أيضاً: «واذكر عبدنا أيوب» و: «كذبت قبلهم قوم نوح فكذبوا عبدنا...». (الترجمان)

والعلوم ونظام الآلات وتكاملها يمثل تكامل الانسان الفكري، ويظهر هذا التكامل بصورة أوضح في الكلام والقلم والبيان، لأن النطق ميزة الانسان الخاصة، إذ هذا الإدعاء الجازم الذي أيده مرّ العصور أيضاً لا يكون إلا من المبدأ المحيط بكل العصور والأزمنة والاحوال والاضاع البشرية!!

كان هذا الادعاء الجازم دليلاً على أن القرآن معجزة وكلام الله، كما أن جميع الموجودات والمركبات كلها معجزة، وإن كان الانسان يعرف عناصر نوع من المركبات ومواده، ولكن تركيبها بصورة كائنات حيّة وذات أثر حيوي هي معجزة التكوين، وخارجة عن تناول فكر الانسان وفعله، لماذا؟ لأن ذلك المعنى وتلك الروح، وسرّ الحياة الذي جعل العناصر بهذه الصورة ومنحها هذه الخصائص والآثار هو من عند الله، وظهور ارادته. وإعجاز القرآن أيضاً كان من أجل أن المعاني السامية التي هي ارادة الله والتي تهب الحياة قد ظهرت في قالب أسمى العبارات وأبلغها (وَكَذَلِكَ أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ رُوحاً مِنْ أَمْرِنَا) فسمي القرآن هنا روحاً، وإذا كان إعجاز القرآن لبلاغته، فانه كان معجزاً للعرب أو فصحاء العرب فقط، مع العلم بأن القرآن للجميع وإلى الابد. وقد عبّر العلماء والمفسّرون عن اعجاز القرآن كل حسب ذوقه من جانب واحد: كالبلاغة، التنبؤ، المعارف والعلوم العالمية، القوانين والقواعد الحيويّة، الجاذبيّة. وكل واحد من هذه الأمور هو معجزة لشعب وزمان لا للجميع كالصورة والآثار والخصائص والنظم والنمو والانتاج كل واحدة منها هي معجزة التكوين في الكائنات الحيّة، ولكنها جميعاً أثر لسرّ الحياة وظهوره في العناصر. سرّ الحياة هذا هو الذي جمع العناصر المستعدة ومزجها وصيّرهما على صورة وشكل ونظم لم يكن لها قبل ذلك، ويفصل العناصر غير المستعدة ويجعلها جانباً. وسرّ الحياة هذا هو الروح والفرقان - كما أن القرآن سُيّي روحاً وفرقانا - لأنه يميّز اللائق عن غيره ويفصلهما، وينمي في النفوس عناصر الخير والصالح، ويسموها، ويميّزها عن عناصر الشر النفسّي، ويفتح العين والعقل للحق والباطل، والخير والشر، ويوصل الأفراد الصالحين اللاتقيين من كل لون أو قوم مع بعضهم، ويفصل الطالحين عنهم.

ولهذا فإن القرآن معجزة خالدة في كل زمان للعرب وغيرهم. فكل من له قلب ووعاء جذبت بلاغته ونظمه ونغمه الجذابة قلبه. وأنه معجزة علمية وعقلية لأهل الفكر والتأمل المتحررين من الغرور والعصبية والأغراض بآياته المحكمة حول أسرار السعادة والشقاء، والهدى والضلال، والامور الروحية والنفسية، والاخلاقية والاجتماعية، وبيان مبادئ التكوين وغاياته، وعلاقات العالم والمخلوق والخالق العامة، والحقوق بين الأفراد، وإعمال الملكات وآثارها، والآداب والتشريع والأنظمة.

أو لا نرى إلى حد ما رجالاً أحراراً من امثال: كار لا بل، تولستوي، ليز، وروسو، وكثير من أمثالهم جعلوا هذا الكتاب المعجز موضع تأمل ودراسة مع كونه مترجماً ترجمة غير وافية شافية، وتوصلوا إلى حقائق محدودة عنه، واعترفوا بسموه وفضله وسيطرته المعنوية النافذة، وربما طأطأوا برؤوسهم تعظيماً واحتراماً له، وقد احتفظت الكتب بأسمائهم وأقوالهم.

والتصور بأن تحدي القرآن وطلبه المعارضة لم يقع موضع اهتمام، ولم يفكر به أحد تصور باطل، ولا يتلاءم مع التاريخ والمبادئ النفسية والاجتماعية<sup>(١)</sup>. فالقرآن يدعو المنكرين والمرتابين في هذه الآية وآيات أخر بصراحة وجزم إلى المعارضة لياتوا بمثله أو بسور أو بسورة - وإن كانت قصيرة - من مثله، وشعور العرب بالفخر والنخوة والأفضلية في تلك الحقبة من الزمان كان كافياً لاثارتهم وإثارة غيرهم للمعارضة، والسباق في هذا الميدان، لا سيما في ميدان الأدب والخطابة، فكيف بهم وقد أهينت جميع مقدساتهم ومعتقداتهم وتقاليدهم وآلهتهم مع تعصبهم الجاهلي، ووجود دعوة وكتاب يريد إيجاد تطوّر في العقيدة والمبادئ الاجتماعية، ويكافح بشدة المصالح الشخصية والطبقية، مع العلم بأن الناس المتحضرين الذين حدثت الحضارة من عصبيتهم، لو اصطدمت إحدى

(١) يريد المؤلف - رضوان الله عليه - الرد على القائلين بالصفرة، أي أن الله صرفهم عن معارضة القرآن واعتبروا هذه الصفرة معجزة أيضاً. وموضوع الصفرة لا يتناسب مع هذا التحدي الصارخ، بالإضافة إلى أنه يعني أن العرب كانوا قادرين على معارضة القرآن، ولكن الله صرفهم عن ذلك. فكيف يطلب الله منهم المعارضة، ثم يصرفهم عنه، تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً. (الترجمان)

تقاليدهم الاجتماعية وأمجادهم وآدابهم وأهينت، يثور شعورهم القومي، ويستخدمون طاقاتهم المادية والمعنوية للدفاع عنها.

والتاريخ شاهد على أن العرب هم العرب الذين كانوا عصبه برمتهم لخلق هذه الدعوة واخمد هذا النور، واستخدموا كل طاقاتهم، ووقف الآباء والأبناء والأقرباء متواجهين، لكنهم لم يبادروا إلى هذا التحدي، واعترف ابطال البلاغة بعجزهم في تلك البداية التي دوى بها صوت القرآن، ورفعوا قصائدهم وأشعار شعرائهم المشهورين عن جدران الكعبة، ولما رأوا سحر بيان القرآن وتأثيره كالسحر يجمع ويفرق جماعة عن بعضهم، ويجمع الآخرين معاً، قالوا إنه سحر! وكانت آخر محاولة لهم إبعاد الحجاج في مواسم الحج لاسيما الشبان والى الأبد من الاستماع إلى آيات الله، وكلما كانت الدعوة تزداد انتشاراً كان قلق الحاكمين ورؤساء الأديان يزداد، فقاموا بمعارضة الدعوة بشدة ومحاربتها للاحتفاظ بحكومتهم على الافكار والأبدان التي كانت على صورة أوهام وقيود قوانين وتقاليد، حتى عصر رؤساء الاستعمار ومؤسسيه، الذين اعتبروا القرآن أقوى قلعة شامخة بوجه أطماعهم في البلدان الاسلامية وبين المسلمين، فاستخدموا المرتزقة والأجراء باسم المستشرقين، والجمعيات الدينية من أجل الانحراف بالافكار، وأثاروا الكتاب العرب من غير المسلمين لانتقاد القرآن وتأليف جملات مثله - مثل جمعية «الهداية» المسيحية اللبنانية - وأوجد من يبتدع الأديان في ايران والهند وأفريقيا!!

وبهذا التاريخ الوضأ القائم على أسس المبادئ النفسية والاجتماعية، هل يمكن غض النظر عن هذه الدعوة، واعتبارها لأهمية لها؟!

### هاتان الآيتان نموذجان من سر إعجاز القرآن

إن التأمل في هاتين الآيتين من قبل المفكرين والمنتدبين يفيد أن إعجاز القرآن لم يكن في جانب خاص محدود، لأنه حق وروح ظهرا في مفردات وكلمات وجعلها معجزة للهدى من كل الجوانب:

١ - البلاغة، الجزالة، السبك... نجعل مقياساً لفهم هذا الجانب من الإعجاز: نأخذ بنظر الاعتبار المعاني الدقيقة للحروف والروابط والمفردات، ثم المقصود والمعاني لكل هذه الآيات بكل اتساع اللغة العربية وشمولها من مفردات ومترادفات ومشتركات ومجازات ونتمكن أن نصب نفس المعنى في قوالب كثيرة، ثم عندما نجعل تلك المعاني في أية صورة، أو نحذف من هذه الآيات حرفاً أو كلمة، أو نضع بدل الحرف أو الكلمة مشابهاً لها، أو نغيّر موضعها لا نرى في الآيات التي ركبناها تلك الجزالة ولا ذلك السبك، ولا تعبّر عن المعنى والمقصود كما ينبغي، مع العلم بأننا لم نبتكر شيئاً، لأننا اعتمدنا على نفس الآيات في تجربتنا هذه.

٢ - الجزم والقهر اللذان يفيدان احاطة المتكلم المطلقة وحاكميته.

٣ - التنبؤ الأبدي بكلمة «لن».

٤ - جملة التهديد - حول الإعراض عنه - الذي بيّنه بتعبير جامع في نهاية السرّ العلمي والنفسي وأعلن عن النار والعذاب المعنوي والمادي، الدنيوي والأخروي:

﴿فَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ﴾: كل فرد يجد بين الجملة الشرطية: «فَإِنْ لَمْ تَفْعَلُوا...» وفاء الجزاء في «فَاتَّقُوا...» موضوعاً صحيحاً حسب ذوقه الأدبي والعلمي وفي نطاق فكرته، مثل: عندما لم تتمكنوا من الاتيان بمثله، يجب أن تعلموا بأنه من الله، عليكم إزالة الريب والشك وتتيقنوا بأنه حق. عليكم أن تستسلموا لأوامره. يجب أن يسود القرآن على نفوسكم ومجتمعكم. لكي تحذروا وتتقوا من مثل هذه النار وتتجنبوها، وإلا فإنكم ستواجهونها، النار التي حطّ بها الانسان وتلك الحجارة الخاصة (بناءً على أنّ الالف واللام للعهد، والتاء تشير إلى النوع). يقولون: القصد من الحجارة القلوب القاسية التي لا تؤثرها آيات الله، أو الاصنام المصنوعة من الحجر. إنّ قلب الانسان يتأثر، فلماذا أصبح كالحجر؟ لأنه يهتم بالمادة والأحجار الثمينة دائماً. ولماذا تُعبّد الأصنام المصنوعة من الحجر؟ لأنها تصنع من الجواهر والأحجار الثمينة، أو أنّ التفنّن فيها يجعل الحجر ذا قيمة، وعلى كل حال، فإنّ الحجارة التي عطف على الانسان

أيضاً، ولو كان الغرض هو التخويف فقط لقبل بدلاً من «وقود» توقد، وبدلاً من «الناس» الحديد. مثلاً.

وننظر بالتدقيق فيما قيل مشهداً آخر من إعجاز هاتين الآيتين، ولكنّ التصور بأننا نظرنا إلى جميع جوانبهما، وأدركنا الغرض كما هو، تصور خام وفكرة قاصرة. وعلى كل حال هي حقيقة أسمى من الوهم والخيال قد تجلّت في كلمات وعبارات ﴿لَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِهِ، وَلَا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ تَنْزِيلٌ مِنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ﴾

﴿وَبَشِّرِ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ كُلَّمَا رُزِقُوا مِنْهَا مِنْ ثَمَرَةٍ رِزْقًا قَالُوا هَذَا الَّذِي رُزِقْنَا مِنْ قَبْلُ وَأُتُوا بِهِ مُتَشَابِهًا وَلَهُمْ فِيهَا أَزْوَاجٌ مُطَهَّرَةٌ وَهُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ (٢٦)

#### معاني المفردات:

البشارة: الخبر غير المسبوق حول الخير والذي يوجب السرور، لأن آثار السرور تظهر على بشرة الميَّسَّر.

الصالحات: جمع الصالحة، اللاتقة، المناسبة، الملائمة.

جَنَّات: جمع جَنَّة، البستان الكثير الشجر، من جَنَّ: أي أخفاه وغطّاه، وجَنَّ بالكسر والمجنون يقال بسبب خفائه عن البصر أو العقل.

أُتُوا: جمع المجهول من أتاه، وعندما يتعدّى بالباء (أتى به) يعني جاء به معه. إنَّ نهاية الآية السابقة إنذار وإعلان عن الخطر لأولئك الذين أعرضوا عن هدي القرآن وكفروا به. وهذه الآية تبشّر المتمسّكين بالقرآن، والأشخاص الذين ساروا على نور هداة.

كما أن حطب جهنّم ولهيبها النفوس الكافرة المرتبطة بالحجارة، ومنشأ الجنة النفوس المؤمنة المتمسّكة بالقرآن المرتبطة به.

والبشارة حول الأمنية الطيبة والنعم الخفية التي تُشاهد آثارها وهي موجودة.

اللام في «لَهُمْ» تفيد الملكية والإختصاص، وهي [النعم الخفية] بنفسها ذات لذة اكثر من الكون في وسط النعمة. وقد جاء الإيمان مع العمل الصالح في أغلب الآيات، ويذكر الإيمان لوحده لأن الإيمان نفسه يؤدي إلى العمل. وبالنظر إلى الآيات الأخر فالمقصود هو العمل الصالح، لأن الوعي ومعرفة الظروف واجب اكثر من أصل الايمان من أجل إنجاز عمل مناسب كما ينبغي، كما أن الماء مصدر النبات والشجر، ولكن كل نبت وشجرة لاقيمة لها بالقياس إلى الجهد ورأس المال، ولاتناسب مع المحيط، وكل عمل صالح يجب أن يكون من مبدأ الإيمان، ولكن الإيمان لوحده لا يكون منشأ العمل الصالح، لأن الصلاح والمناسبة أمر نسبي ويوافق مقتضيات البيئة. وما اكثر الأعمال الجيدة المقبولة لوحدها ولكنها لم تكن صالحة (كما أن بعض الاشخاص يدخرون بعض الأموال للأمور الخيرية، وينفقونها في إحدى السبل أو ينشئون بها عمارة، أو يعقدون مجلسا لايناسب المحيط ولا الغاية الدينية)، والإيمان هو إدراك خطة سعادة الفرد والمجتمع، والعمل الصالح هو الذي يعدّ الفرد والمجتمع للوصول والتقرب الى السعادة، والاتصال ينبوع الخير والرحمة هو الذي يجري الخير والرحمة في القلوب والنفوس المستعدة، ويجب أن ينبت منه بسايتين الأعمال الصالحة المفيدة، الأعمال الصالحة التي امتدت جذورها في ينابيع الإيمان، وإلا لم يكتب لها البقاء والاستمرار.

إذا فالجنّات ملك ثابت للمؤمن، لأن منشأها الإيمان، وجذور أشجارها ممتدة في هذا ينبوع، ولو كان الغرض وصف مناظر الجنة البهيجة فقط، كان يجب أن يقال: تجري من فوقها. أي الأرض، أو: تجري تحت أشجارها.

تجري ينابيع الطبيعة، وتعمر منطقة الدنيا التي هي على هامش الجنة، ومناهل الحياة توضع تحت تصرف الجميع قبل الآخرة في ظل الإيمان الذي هو منشأ كل عمل صالح ولولب القابليّات وسبب الأمن العام، لأن دنيا الفقر والهوان لايمكن أن تكون مقدمة لآخرة العز والثراء: ﴿وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكاً، وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَى﴾، ﴿رَبَّنَا إِنَّكَ مَنْ تُدْخِلِ النَّارَ فَقَدْ أَخْزَيْتَهُ﴾.

حين يتطابق مع أي شيء، ويجعله موضع حبه الباطني يكون مرافقا للتلوّث الخلقي والخلقي (بفتح الخاء وضمتها)، ويُطْلَع رأسه من الآلام والجفاء، وكلّما يتمتّع به من لذائذ ونعم يكون وصلها وفصلها في آنٍ واحد، لازال لم يصل فهو يتمنى الوصل، وبمجرّد أن يصل يفكّر في الفصل والفناء.

إذاً يجب الإعتماد على من يجتذب القلب، ولا يتلوّن كلّ يوم بلون، ولا يؤدّي خريف الفناء بورق نعمته وورد جماله إلى الذبول، ولا تبعثرها الرياح. إنّ الانسان المؤمن العاقل لا يجعل نفسه لعبة للملاهي الزائلة، ولا يغض نظره الثاقبة عن النعيم الخالد، لأنّ عدم الثبات يصاحبه القلق، والقلق يخلط النعم بالآلام. والقرآن في ختام بشارته رفع هذا القلق عن أصحاب الجنة، وهذا خواطرهم بوعدهم بالخلود: «وَهُمْ فِيهَا خَالِدُونَ».

هذه نتائج وثمار الإيمان بالقرآن وسيادته، لأنّ أوّل تأثيره تحطيم العقائد والعادات الرذيلة التي تحجّرت مع مرور الزمان، وتصدّ النفوس والمجتمعات عن التطوّر الذي هو من مميّزات الانسان، لأنّ العقل البشري قد تخلّص من تحت حجاب الأوهام بنور هداية القرآن، وتفتح فيه ينابيع المعارف والابتكارات، وتقدّم طاقات الفرد والمجتمع بالتوازن والتعادل، وتنبث منه الأخلاق الفاضلة والأعمال الصالحة، وتنتج الأعمال نحو النتيجة الصحيحة، وتحصل منه الثمار المتشابهة، وعندما تتلاقح كل ثمرة مع الفكر الإيماني تتضاعف فيها الفوائد. ونتيجة هذا التضاعف خالدة.

ضرب الله مثلا لهذه الحقائق التي هي أساس الجنة بالأمثال في هذا العالم من أجل فهم الجميع وفي العالم الآخر بالذائد الحسيّة، ليطمئنّ كل شخص منها بما يشتهي عقله وإدراكه، لأنّ اللذة والنعمة بمقدار الإدراك، بل لم تكن شيئاً سوى الإدراك:

عقلُ السُّفرة لا خبزٌ وماء	نورُ العقل وللروح غذاء
لأَسْوَى النُّور إدامُ آدم	من سواه الروح لا تنمي نمي
خذ من الآدام نَزْراً باعتبار	لم تكن للحرّ بل تغذو الحمار
للغذاء الاصل حتى تستحقّ	لُقمُ النور لها أنت المُحقّ



عكس ذاك النور في الخبز جرى فيض تلك الروح في الروح سري<sup>(١)</sup>

﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَسْتَحْيِي أَنْ يَضْرِبَ مَثَلًا مَّا بَعُوضَةً فَمَا فَوْقَهَا فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا فَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ وَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا فَيَقُولُونَ مَاذَا أَرَادَ اللَّهُ بِهَذَا مَثَلًا يُضِلُّ بِهِ كَثِيرًا وَيَهْدِي بِهِ كَثِيرًا وَمَا يُضِلُّ بِهِ إِلَّا الْفَاسِقِينَ ﴿٢٧﴾ الَّذِينَ يَتَّقُونَ عَهْدَ اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مِيثَاقِهِ وَيَقْطَعُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ أُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ ﴿٢٨﴾﴾

#### معاني المفردات:

يستحيي: من الحياء: التأثر والانفعال من السوء في البشر. وبالنسبة إلى الله فإن أمثال هذه الصفات كالغضب والكره والحب فالمقصود أثرها، لَأَنَّ مَنْ يَسْتَحْيِي مِنْ فَعَلٍ فَإِنَّ الْحَيَاءَ يَصَدُّهُ عَنْهُ.

ضَرْبُ الْمَثَلِ: إمَّا أَنْ يَكُونَ مَأْخُودًا مِنْ «الضَرْبِ فِي الْأَرْضِ»، كَالْمَسَافِرِ الَّذِي يَدُورُ مِنْ مَدِينَةٍ إِلَى أُخْرَى، يَدُورُ عَلَى الْأَلْسِنَةِ. أَوْ أَنَّهُ مَأْخُودٌ مِنْ «ضَرْبِ الْأَوْتَارِ» كَالْأَلْحَانِ وَالْأَنْغَامِ الَّتِي تَكْشِفُ الْحَالَاتِ وَالْأَوَاضَاعَ النَّفْسِيَّةَ. أَوْ مِنْ «ضَرْبِ الْخِيْمَةِ»، لِأَنَّ الْأَمْثَالَ تَبْقَى ثَابِتَةً بَيْنَ الشُّعُوبِ كَالْخِيَامِ (تراجع الآية ١٤).

بعوضة: حشرة صغيرة.

الحق: الثابت، اللازم، الواقع، العدل، اليقين.

الفسق: الخروج أو القفز. فَسَقَتِ الرُّطْبَةُ عَنْ قَشْرِهَا.

النقض: هدم البناء، كسر العظم، حلّ الغزل.

الميثاق: العقد، الأحكام، وثاق الحبل الذي يشد الأنتقال.

من الآية الخطائية: «يَا أَيُّهَا النَّاسُ...» حتى بشارة الجنة، هذا هو أصل دعوة القرآن

(١) ترجمت الآيات الفارسية الخمسة إلى آيات عربية (الترجمان) .

الغَيْثُ هذا اللطيف الطبع منبته في الروض وردّ وفي السبخات أشواك<sup>(١)</sup>  
يهدي الله جماعة بالقرآن وأمثاله؛ لأنّ الله هو مبدأ الخير والقرآن كتاب هُديّ، إذاً  
الضلال لماذا؟ وكيف تهدي أمثلة القرآن وتُضِلّ؟ الجملة المحصورة التالية تجيب على  
السؤالين: إنّ القرآن يزيد الضلال في نفوس الفاسقين المنحرفين الذين خرجوا من  
الحدود باختيارهم وتمييزهم، مع الأخذ بنظر الاعتبار معنى الفسق لغةً. كيف يعرف  
القرآن الفاسقين؟....

﴿الَّذِينَ يَنْقُضُونَ عَهْدَ اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مِيثَاقِهِ﴾: العهد: الذمّة، أو المسؤولية بالنسبة  
لشيء يلتزم به الشخص. وإضافة العهد إلى «الله» بدون تحديد وتوصيف تفيد عموميتته  
وشموله؛ إذاً كلُّ حَسَنٍ وَسَيِّئٍ وخير وشر يُدرك بحسب فطرة الانسان، وكلّ مسؤولية  
يشعر بها، والسنن المتداولة بين الشعوب، وما أُنجِزَ بواسطة الأنبياء أو بلغوا بتركه فهو عهد  
إلهي. هذه العهود الأولى تكون تارة متينة ومورد تأييد: «مِنْ بَعْدِ مِيثَاقِهِ» وميثاقها من قبل  
الله عن طريق الشرائع، لتبين الحدود والآثار والثواب والعقاب، ويعرف نتائج تلك العهود  
عن طريق العقل والتجربة، والميثاق من قبل الناس هو فهمه وقبوله وتطبيقه، وتتصل  
بواسطة هذه العهود والمواثيق الوجدانيات والفطريات بالادراك، والادراك بالعمل، والفرد  
بالآخرين، والخلق بالخالق، والمقدّمة بالنتيجة، والدليل بالمدلول.

والذين ينقضون هذه العهود، لما كانوا قد خرجوا من حدود الفطرة والعقل  
والمسؤولية، وتمردوا عليها فهم فاسقون (كفسوق النواة من القشر الطبيعي)، ولأنّهم قطعوا  
هذه العلاقات والوشائج فهم قاطعون، ولأنّهم يقطعهم وشائج الطاقات الإنسانية صدّوا  
أنفسهم والآخرين عن طريق الخير والهداية وأفسدوا فهم مفسدون، وبالتالي كلّهم  
خاسرون: ﴿أُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾.

إذاً الفسق كما تعرّفه الآية هو نقض العهد وقطع الوصل والإفساد في الأرض، ونتيجة  
كل هذه الأمور الخسارة المعنوية والمادية.

(١) ترجمت البيت الفارسي ببيت عربي (الترجمان)

ويمكن تقريب الموضوع إلى ذهن الجميع بهذا المثل: إنَّ عجلة كلِّ جهاز وآلته لها واجب وعهد حسب بنائها الخاص، ويجب أن توضع في محل خاص في المصنع، وعندما تحلَّ في محلّها تتصل بالجهاز الكبير وترتبط به، فإذا خرج هذا الجزء الصغير أو الكبير عن موضعه، صار فاسقاً، انتقض عهده البنائي، وانقطعت صلته بالكل والسابق باللاحق أيضاً، ونتيجة ذلك الفساد والضرر العام لذلك الجهاز.

وخلاصة موضوع الآية هي أن الهداية تكون منشأ الضلالة في مجال نفوس الفاسقين - كما أن الخير في طريق الشر ورؤوس الأموال يؤدي إلى الخسارة - وسبب نقض العهود وقطع العلاقات هو البقاء وراء حُجُب الكفر والأهواء النفسية، وغضّ النظر عن الآيات الإلهية.

إذاً يجب التدبّر في الآية التالية، وقراءة آيات من هذه الآية.....:

﴿ كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللّهِ وَكُنْتُمْ أَمْوَاتًا فَأَحْيَاكُمْ ثُمَّ يُمَيِّتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٢٩﴾ هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُمْ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ أَسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ فَسَوَّاهُنَّ سَبْعَ سَمَوَاتٍ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿٣٠﴾ ﴾.

#### معاني المفردات:

كيف: للاستفسار عن الأحوال والأوصاف، كما إنَّ «متى» تأتي للسؤال عن الزمان، و «أين» عن المكان.

أموات: جمع مَيِّت، الذي لا روح له.

استوى: من سواء: الإحاطة بكل جانب، والمهيمنة على العمل، وعندما تنعدي بـ«إلى» تفيد إتمام العمل مع الإحاطة.

هذا الكافر هو الذي يحار في أمثال خالق الخلق ومبدئه وغايته القولية والعملية ولا يتفهّمها، مع العلم بأنّه لو كشف ستار الكفر والغفلة من أمام عين عقله، ويتّجه نحو

كافرين. «وَكُنْتُمْ أََمْواتاً...»: الواو حالية، للضمير المستتر في «تَكْفُرُونَ» وقد ظهر هذا الضمير في «كُنْتُمْ»، كما أنَّ المادة التي لاروح لها ظهرت بصورة كائن حيّ بظهور الحياة فيها، وعلى العقل والشخصية الانسانية المحجوبة بالكفر أنَّ تظهر نفسها بالنظر إلى هذه الحقيقة. بالتدقيق في هذا التعبير ننظر إلى تنسيق هذه الآية مع آية وجود الإنسان التكويني والعقلي!!

الكفر بآية الوجود والحياة يرافق الكفر بالحق وآيات الحق أيضاً، ولما كان الإنسان بغضّ نظره عن نفسه يغضّ النظر عن عقله، يغضّ النظر عن الله وآيات الله، ولما يجد نفسه يجد كلّ شيء، والعقل والتفكير يرجعان إلى الله برفقة الوجود التكويني أيضاً: «ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ».

إِعْرِفْ نَفْسَكَ لَوْ تَعْرِفُهَا      لَعَرَفْتَ قَبْحَكَ وَالْحَسَنَاتِ  
لَعَرَفْتَ الْكُلَّ لَوْ تَعْرِفُهَا      وَتَجَنَّبْتَ الْأَذَى وَالْعَزَنَاتِ  
مَاعَرَفْتَ النَّفْسَ لَازَلْتَ كِذاً      لَو تَرَاهَا لَرَأَيْتَ الْمُحْسِنَاتِ<sup>(١)</sup>

ربما لهذا السبب كان الكفر بالنفس كفراً باللله وبآياته والكل متلازم مع الآخر. جاء في أغلب الآيات الكفر مطلقاً، مثل: «إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا» «أَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا» (الآيات السابقة).

لأنَّ حقيقة الحياة نورٌ الهيّ وشعلةٌ أبديةٌ وهي حيّةٌ بالذات، إذ لا يصيبها الفناء، كذاتية الحرارة للنار، والضياء للنور، إذ الموت تحوّلٌ من قالب وصورة، والحياة ظهور ذلك بصورة أخرى. وهذا التحوّل والتكامل غير قابل للإنقسام أبداً مثل موجب الكهرباء وسالبه. والموت يُشاهد في فواصل معينة فقط، ليرجع إلى مبدئه: «ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ» - بالفعل المضارع - «ثُمَّ يَمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ...» بدون ذكر فواصل الموت والحياة وهذا يفيد اتّصال (الموت والحياة والرجوع) بل ارتباطها معاً:

من الجمادِ ميتٌ صرْتُ نامياً      من النُومِ صرْتُ ماشياً

١- ترجمت الآيات الفارسية إلى أبيات عربية (الترجمان).

مِثُّ مِنَ الْحَيَوَانِ صُرْتُ آدَمًا لَمْ أَخَشْ نَقْصًا مَوْثِقًا بِدَالِيَا<sup>(١)</sup>

لأن نهاية التكوين وغايته تصل إلى الحياة، وتتكامل في مظهر وجود الانسان، إذاً يكون جميع المخلوقات من أجل تصرّف الانسان وتدييره ومقدمة لوجوده: «هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُمْ...»، ولولم تكن عين الانسان وأذنه وإدراكه وقواه الأخرى، لكان كلُّ مرئيٍّ ومسموع وموضع تفكير والطعوم والروائح وثروات الأرض التي هي ظواهر عالمنا عبثاً. إذاً فالأرض وما يتعلّق بها يتحقّق في وجود الانسان: «جميعاً» إمّا أن تكون تأكيداً لـ «ما» «مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعاً»، أو تأكيداً لضمير «لَكُمْ» (أي لجميع البشر). إذاً فثروات الأرض الأولى حلال للجميع (لا الأرض، وهذا هو مبدأ حليّة الثروات الأرضية الأولى). وبعد أن أتقن بناء الأرض للانسان واكملها، استوى إلى السماوات (بما قيل في معنى الاستواء) لهيمنة إرادته الازلية على نظام المعمورة كما أنّه عند إنهاء آخر جزء من البناء يتوجّه صاحبه إلى جميع الأجزاء بصورة متساوية لادارتها والاستقرار عليها، وبعد أن استولى موظفو الحكومة على كل شبر من البلد واستقر الأمن والنظام، تسيطر الحكومة على الجميع بصورة متساوية، وتوصل جميع الأجزاء مع بعضها وتنظّمها: بالنظر إلى أنّ الأرض عندما لم تكن على صورة أرض ولم يكن فيها ساكن، لم تكن السماء ايضاً، لأنّ «السماء» من السموّ، وهو أمر نسبي واعتباري، ولا زالت الأرض لم تكن، لم تكن السماء، كما أنّ التحت عندما لم يكن، لم يكن فوق، ولما لم يكن الأسفل، لم يكن الأعلى. إذاً يصحّ هذا الاسم والعنوان والنسبة بتكامل الأرض: لم تفد هذه الآية أنّ أصل بناء الأرض كان قبل أو بعد موجودات السماء، فلم يبق موضع لهذا البحث (كان العلماء والمفكّرون الاسلاميون قد استأنسوا بفلسفة اليونانيين والاسكندرانيين ونظر ياتهم، حتى أن علماء التفسير والكلام اتّبعوا هذه النظريات ايضاً، فلذا كانوا يؤوّلون مثل هذه الآيات ويبرّرونها لأنّها تخالف تلك الأفكار، كانت فرضيّة اليونانيين ونظريتهم حول الأرض والسماء التي أشادوها على اساس حساب وأصول عبارة عن: أنّ الأرض هي المركز الثابت للعالم

(١) ترجمت الأبيات الفارسية إلى أبيات عربية (الترجمان)

وطبقات السماوات التسع والتي هي عناصر وأجرام أفضل من الأرض، وكلُّ منها يحيط بالآخر ويدور حوله، وبحسب قاعدة (امكان الأشرف) خلقت السماوات قبل الأرض، وهيكّل الأرض والأفلاك والأجسام إبداعاً وقديماً. أي لم تخلق بصورة تدريجية وتكامليّة، بل كانت بهذه الصورة دائماً وستظل هكذا). هذا موجز عدد من الأصول العامة للفلسفة اليونانية حول الأرض والسما.

بالتدقيق في مجموع آيات القرآن الحكيم وهذه الآية التي هي موضع البحث (لاسيما آيات السور الأخيرة) نرى أنّ الآيات لم تتلائم أبداً مع هذه الأصول والنظريات التي كانت من المسلّمات بين العلماء عند ظهور القرآن. وبعد أن أدّت الحركات العقلية في القرون الأخيرة بأسلحتها العلميّة إلى انهيار اركان بناء القدماء الخياليّ وجدرانه، تحرّرت الأفكار من نطاق تلك الفرضيّات، وتفتّحت عيون العقول الناضرة إلى العالم. ولكن لم تصدر حتى الآن أحكام قطعية وآراء حاسمة لم تتغيّر حول أغلب المسائل العويصة وأسرار الوجود، وهذه المواضع في طريقها إلى التكمال بصورة مستمرة.

وبتحرر العقول من قيود النظريات القديمة، تحرّرت آيات القرآن أيضاً من التحديد والتطبيق والتأويل. والآن يمكننا أن نتدبّر بحريّة أكثر في مثل هذه الآيات، ولانكون مشمولين [لقوله تعالى]: ﴿أَفَلَا يَتَذَكَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا﴾.

﴿فَسَوَّاهُنَّ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾:

إنّ تنظيم السماوات والأرض وترتيبهما وتسويتهما وجعلهما على سبعة أشكال يدل على أنّهما كان لهما وجود واقعي، غير أنه لم يكن بهذه الصورة والوضع المنظم الكامل وبهذه النسب والمسافات. (سبع، إمّا أن تكون بدل الضمير، وإمّا أن تكون المفعول الثاني لِسَوَّى، والتي هي بمعنى جعل). وآخر الآية تفيد أنّ أسرار تنظيم السماوات وتسويتها ومقدارها ومسافاتهما لا يعلمها إلا الله الذي يحيط علمه بكل شيء، والعالم ظهور من علمه. إذا كان للعدد مفهوم ويفيد الحصر، فهنا لما أُحيل إلى علم الله رفع هذا الحدّ والحصر، ويفتح المجال أمام علوم الانسان لدراسة أكثر لأنظمة السماوات وترتيبها ونظمها. وهذه الآية تبيّن وتشير إلى نموذج النظم والمقدار الذي يراه الجميع ويمكن

لجميع إدراكه.

بهذا البيان يمكن التصديق بأن المقصود من السماوات السبع هو تلك الكواكب الموجودة في المنظومة الشمسية من عالمنا (إن الفلسفة وهيئة الأفلاك القديمة تعتبر - كما قيل - الأفلاك التسع، وتلك كانت فرضية لا يدركها الجميع، فكيف بالنظر إليها)، وقد اكتُشِف كوكبان آخران، ولكنهما لم يكونا قابلان للرؤية، وكان اكتشافهما بعد العلم بأن الشمس هي المركز وأن القمر تابع للأرض.

إذاً يبقى عدد السبعة على حاله مع كشف هذين الكوكبين أيضاً؛ والأمر كما يلي: تبعد عطارد عن الشمس ٣٦ مليون ميل، ويفرض لها صفراً، الزهرة ٣، الأرض ٦ (تخرج من حساب السماوات السبع)، المريخ ١٢، الفراغ الفضاء ما وراء المريخ الذي قيل عنه أنه كوكب متناثر ٢٤، المشتري ٤٨، زحل ٩٦، اورانوس ١٩٢، نبتون ٢٨٤، ويضاف أربع لكل من هذه الأعداد التصاعدية، وتضرب في تسعة، هذا العدد يوضح بعد كل من الكواكب عن بعضها وعن الشمس.

ولما كان لفظ السماء موسّعاً وعامّاً، لم تكن معانيه محدودة حسب الاستعمال، كما أنّ بعض الآيات تنسب نزول المطر والقرآن والملائكة والرزق والتدبير وعروج الأمر إلى السماء، فمن الواضح أن معنى السماء في جميع هذه الآيات لم يكن واحداً. فالمقصود في البعض هو المراتب وعوالم الباطن المعنوية، وفي بعضها الآخر الجهات الظاهرة المحسوسة (ولكل منها بحث خاص) وهنا يمكن أن يكون المقصود الكواكب والجهات الظاهرة - كما قيل - ويمكن أن يكون الطبقات الجوية هو المقصود (وربما كانت الآية في سورة حم دخان: «ثُمَّ اسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ» تشير إلى هذا) وهو أنه دبر الطبقات الجوية المحيطة بالأرض والتي كانت على شكل دخان وسواها قبل تكوين الأرض وجمودها، وجعلها سبع طبقات تحيط بالأرض «وان كان الاختلاف في الطبقات الجوية من المسلمات، ولكن عدد الطبقات لما يُعرف بعد».

وفي رأي بعض العرفاء والعلماء الروحانيين أن المقصود هو التسوية الباطنية،

والسماء هي السرّ الإنسانيّ الذي على سبع مراتب ودرجات: النفس، القلب، العقل، الروح، السر، الخفيّ، والأخفي أو العقل الفطري، بالقوة، بالاستعداد... إلى العقل الفعّال. وهذا التوضيح والاحتمال يتناسب والآية السابقة: «ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ»، لأن الرجوع هو طبيّ مراتب التكامل النفسيّ، والعقلي. ويتناسب ايضاً مع: «خَلَقَ لَكُمْ...» وأنّه عندما انتهت الأرض بوجود الإنسان، اعتنى بالمراتب المعنوية وتسويتها، وبإدراك من الظاهر إلى الباطن، لأنّ الإنسان هو الغاية من تكوين الأرض، ودرجات الكمال العقلي هي الغاية من وجود الإنسان. «خَلَقَ لَكُمْ، ثُمَّ أَسْتَوَى، لَكُمْ وَبِكُمْ، إِلَى السَّمَاءِ...».

﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٣١﴾ وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى الْمَلَائِكَةِ فَقَالَ أَنْبِئُونِي بِأَسْمَاءِ هَؤُلَاءِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿٣٢﴾ قَالُوا سُبْحَانَكَ لَا عِلْمَ لَنَا إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَا إِنَّكَ أَنْتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ ﴿٣٣﴾﴾.

#### معاني المفردات:

إِذْ: حرف زمني للماضي بتقدير اذكر<sup>(١)</sup>.

مَلَائِكَةُ: جمع مَلَكٍ مخفّف مَلَكٍ، من «الألوكة» بمعنى الرسالة، أو أنّ مفردة مَلَكٍ من مَلِكٍ بمعنى المتصرّف والمالك.

خليفة: من خلف، الذي يحل محلّ الآخر ويكون قائماً مقامه، وينظم أعماله. والتاء للمبالغة.

السَّفْكُ: إراقة الدم بغير حق.

(١) وهم المؤلف - رحمه الله - بقوله: اذكر حرف زمني...، لأنّ اذ لاتأتي حرفاً، بل هي اسم في موارد الأربعة، وهي في هذا المورد مفعول به لفعل محذوف تقديره اذكر. (الترجمان)



التسبيح: من سَبَّحَ في الماء، وتقدم وتنزيه الله، وأنه طاهر من كل رجس.

التقديس: القول بالطهارة والتفضيل.

آدم: اسم نوعي وشخصي، غير عربي، وربما كان مأخوذاً من معنى الفعل، اي صار حنطاوي اللون، وَفَّقَ بين المتضادين والمتخاصمين.

العرض: الإراءة والجعل في المعرض.

أنبأ: جاء بالخبر الجديد، الاخبار.

سبحان: مصدر، يضاف غالباً، منصوب بفعل محذوف، يقال عند الاعتراف بالذنب والتقصير وطلب التوبة.

العليم: بصيغة فعيل تدل على الصفة الملازمة للذات والعلم بالجزئيات.

بالمقدار الذي يبدو الغموض والسرية في خلق الانسان وتركيبه المعنوي وقواه النفسية، كما أنه يسأل نفسه أحياناً، ما أنا، وكيف خُلِقْتُ، ولماذا هذه الشهوات، هذه الغرائز، هذه الأهواء والطموحات، وهذه الطلبات، وهذه الضوضاء الداخلية، وهذا العقل والاختيار، وهذا الحب والكراهة؟ من أين أتيت ولماذا أتيت في هذه الآيات التي تبحث حول خلق آدم ومنزلته وأسرار الهبوط والصعود، تأتي ايضاً مثل هذه الأسئلة: حوار الله مع الملائكة حول الخلافة، جعل الخليفة في الأرض، كيفية الملائكة واعتراضهم وتسبيحهم وتقديسهم، تعليم الأسماء والإنباء وعرضها على الملائكة، مكوث آدم في الجنة، وحقيقة ذلك وهبوطه وطريق صعوده، كل هذه الأمور موضع استفهام وهي من الأسرار القرآنية. وهناك تمثيل وبيان عجيب في هذه الايات عن سر وجود الانسان والقوى التي تركب منها والتطورات التي طرأت عليه، وماهي الغاية من خلق هذا الموجود!!

لوحلت أذهان المسلمين من التأويلات المبهمة والأخبار الاسرائيليات والمنقولات عن كتب الهنود لانفتح طريق التفكير الصحيح في مثل هذه الآيات، ويجاب على هذه الأسئلة بتأييد من الآيات والروايات الاسلامية الصحيحة.

«اذ» تأتي في بداية بعض الآيات للتذكرة والانتباه إلى أهمية الموضوع: وهنا جاءت قصة كيفية تكوين وجعل الخليفة وسر ذلك. فإذا كانت تتضمن معنى الشرط فالمقصود هو جواب الشرط. «قَالُوا أَتَجْعَلُ» فاعل «قَالَ» «رَبُّكَ» لا الرَّبُّ، أو «اللَّهُ» للانتباه إلى أن هذه هي ارادة ربوبية ربك، التي هي النموذج الكامل للربوبية، أن يوصل العالم إلى مثل مرتبة الكمال تلك، ويبدى التطور إلى درجة ظهور مثل هذا الخليفة فيه.

تفيد الجملة الإسمية «إِنِّي جَاعِلٌ» التحقيق والثبات. جعل، التي هي تحويل من وضع إلى آخر، وعنوان الخليفة يفيد التطور والتكامل، وربما كان تطوراً نوعياً وطفرة نوعية لا بالنظر إلى بداية خلق آدم وكيفيته، بل صريح الآية «وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ...» تدل على أن آدم كان، ووصل إلى درجة الخلافة بتعليم الأسماء...

هناك رأيان حول كيفية ظهور نوع الانسان في الأرض: أحدهما رأي فلسفي قديم، والظواهر الدينية القائلة بأن أنواع الخلق واصوله ظهرت بلاسابق، والرأي الاستقرائي الآخر الذي يعتبر نتيجة ونمواً أو تكاملاً من فروع الفلسفة، يعتبر ظهور الانواع من الداني إلى العالي بصورة مستمرة، ويعتبر كل نوع داني منشأ للنوع العالي بمرور الزمان وتأثير البيئة. ولكن الفواصل بين هذه الأنواع بعد لم تعرف على أساس الدراسات العلمية وعلم طبقات الأرض، ولم تثبت جزئيات هذه النظرية وهذا الرأي كما ينبغي من الناحية التجريبية، وكلياًتها من ناحية الأدلة الفلسفية. وهاذان الرأيان قام كل منهما بوجه الآخر. ويمكن الجمع بينهما بفرضية أخرى: وهي أن طفرات وتكاملات فجائية ظهرت في فواصل التكامل التدريجي. بناءً على هذا، صحت نظرية التكامل التي تدل القرائن الكثيرة عليها، وأراحت المحققين من مشقة البحث التافه عن الحلقات الوسطى أيضاً؛ لأنّ الفواصل بين الظواهر والأنواع ليست بالدرجة التي يمكن ملؤها بواسطة رأي وفرضية أو اكتشاف عظام، مثل: الفاصلة بين الذرة والكريات، الكريات والخلايا، الخلية النباتية مع الخلية الحيوانية، الحيوان الراقى مع الانسان.

على كل حال، فإن نسبة مثل هذا المجهول من قبل الله الى نفسه «إني» والقيد «في

الارض» وتقدّم هذه الجملة على «خليفة» كل ذلك يفيد عناية مبدأ الحياة الخاصة بالأرض وإعدادها لمثل هذا التطور والطفرة، وتدل كلمة «لِلْمَلَائِكَةِ»، باللام على أن خلق هذا الموجود هو نتيجة عمل الملائكة ومكّمل له، وخارج عن حدود عملهم.

لا شكّ لمتأمل في أن العالم واقع تحت تأثير قوي ومبادئ، الأثر الذي يجعله بأشكال وصور مختلفة، وينظمه ويكمّله. والاختلاف واقع في الكيفية والأنواع فقط: هل يمكن لهذه الآثار والأعمال الدقيقة المنظمة الحكيمة المشهودة في أجسام الموجودات أن لا يكون لكل منها مبدأ ومؤثر خاصّ وقريب؟! هل أن طبيعة المادة البسيطة الأولى فقط - التي هي في الحقيقة ليست سوى الحركة والطاقة - يمكن أن تكون منشأ لهذه الآثار؟ وغذاء النبات والحيوان هذا الذي يظهر بأشكال مختلفة، ويتم تركيب خاص فيه في كل مرحلة فيكون مثل العضو ويتصلّ به، ويستجبه الى الاغصان العالية بلامقاومة معاكسا للجاذبيّات العامة، هل يمكن أن يقال إنّه أثر للمادة ونتيجة طبيعيّة بسيطة لها؟ مع العلم بأن المادة تلين تحت نفوذ هذه القوى وتقبل التغيير، وتخفى الى درجة أنها لا تُرى إلا بالدقة والاستدلال.

وأثما المحسوس هو تلك القوى وآثارها التي استوعبت باطن كل كائن حيّ وظاهره. إنّ مادة العالم الأولى كالسبورة السوداء أو الصفحة البيضاء التي ملأتها خطوط الكاتب ورسوم الرسّام ولم تترك جزءاً منها خالياً! هل هذه القوى العاملة تعلم بعملها وآثاره ولها عقل وشعور؟ لم يكن كل من العقل والعلم والشعور محسوساً في الانسان ولا يمكن تعيين مركزه وموضعه، وما يدرك هو المشهود من آثار العلم في القول والعمل. إذأكلما كان القول والفعل أكثر تنظيماً يدل على أكثرية علم مبدئه وشعوره؛ لأنّ هذا هو مقياس ما يدركه العقل.

وعندما نرى كل هذه الحكمة والنظام في آثار هذه القوى التي نحن عاجزون عن إدراكها كلها، كيف نعتبرها عديمة العلم والشعور! والمميّز الوحيد بين عقل الانسان وعلمه وبين تلك القوى هو التكامل في شعور الانسان وعلمه الذي لا حدّ له، وتوقفه

فيها. إنها لا يمكن أن تدرك نتيجة أعمالها - وليس لها علم بالعلم - ولما كانت بحسب الميزان العلمي بسيطة فكل نوع يكون مبدأ نوع واحد من الآثار، ولما كانت عقولها وعلومها ليست من أنفسها، فعليه يجب أن يأتيها الالهام ممّا فوقها، ولها مراتب ودرجات مختلفة؛ إذاً لا يمكن اعتبار هذه القوى والمبادئ كالقوى الطبيعيّة والجسميّة مثل الطاقة الكهربائيّة وجاذبيّة الأجسام وخواصّها، ومثل هذه القوى الماديّة لا نظام ولا تنوع لها، ويجب أن تنظم بالعلم والعقل؛ ولأنّ هذه القوى المنظمة أسمى من القوى الماديّة لا يمكن إطلاق اسم القوى الماديّة عليها، وهذه القوى لما كانت مدبّرة وتتصرف في المادة والقوى الماديّة سُمّيت ملائكة. والدراسة العلميّة والعقليّة حول وجود الملائكة تتوقف إلى هنا، وليس هناك طريق لمعرفة درجاتهم ومقاماتهم وحدودهم إلا ممّا أفاده القرآن وما أشار به سالكو هذه الطريق (لا يوجد بعد القرآن كلام أكثر تفصيلاً واستناداً حول الملائكة من كلام أمير المؤمنين عليه السلام، لاسيما في خطبة الاشباح) ماذا نعرفه من الآيات؟:

﴿قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا...﴾ إِنَّ محاوره الله مع الملائكة (أو مع السماء والارض وجميع الموجودات) «قَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ آتِنَا طَوْعاً أَوْ كَرْهاً قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ» لم تكن كمحاورتنا عن طريق الصوت والهواء واللسان والآلات العضويّة الأخرى، وحقيقة القول هو إظهار المواضع والنيّات والتعبير عنها ويتم بصورة التركيب الصوتي أو الرسم والعلامات أو الإشارة بالعين والوجه والاصبع، أو تسليم آلات العمل بيد العامل والإشارة إليها، كلّها قول وأمر أيضاً. عندما يأخذ العامل آلات العمل من ربّ العمل ويستخدمها - بلانطق لساني - يقولون: إنّه امر وقال: اعمل هكذا، وهذا أيضاً قال: أنجز ذلك، وكلما يظهر من العقل البسيط والذهن على صورة تعقّل وتخيل هو حوار باطنيّ أيضاً، كما يقال: كنت أحدث نفسي، أو أحدثت مع نفسي، وبعد ذلك يظهر بصورة ارادة وتصميم في أعضاء العمل وجوارحه، أو يظهر في العالم الخارجي بصورة صوت أو كتابة أو أشكال ماديّة، كما تقول: إنّ هذه الكتابة قول ذلك العالم، وهذا البناء أمر ذلك الوزير أو المهندس.

إذاً هذه كلها درجات وصور للقول. يعطي الذهن المصور تارة نموذج صورة إلى قوى

الإرادة والعمل لإيجادها، ولكن الإرادة تتوقف في مرحلة العمل أو التصميم لوجود الموانع والعقبات، فالعقل الفعّال يُعلن عن الصورة، وتعلن قوى العمل عن وجود المانع بتوقفها ولسان حالها، (لا بصورة تمرد وعصيان)، لربّما يزول المانع الداخلي، ويتحقق الأمر والإرادة.

ويجب أن نعتبر محاورة الله مع الملائكة من هذا القبيل، فالعالم الكبير كالذهن لظهور الصور من مبدأ الفيض، وكأنما القوى والمبادئ الطبيعية (الملائكة) قد أعدت هيكل آدم الجسمي الذي هو آخر صورة الأنواع الكاملة، وظهور صورة النوع الكامل (العقل الحرّ والاختيار) من لدن عقل العالم المحيط الفعّال خارج عن حدود وجود الملائكة وعملهم الارضي، وينتسب ويرتبط بذلك المبدأ الأعلى فقط: «إِنِّي جَاعِلٌ...، وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي».

إنّ ظهور هذه الحقيقة واتصالها بالهيكل النوعي المركّب من الغرائز والشهوات والغضب أدّى إلى تعجب الملائكة وحيرتهم وتوقفهم: «أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ...» «مَنْ» تدلّ على التفاتهم نحو العقل والاختيار الذي أدى الى حيرتهم، وإلّا لما كانت حقيقة آدم لم تظهر بعد وكانت مبهمة كان يجب أن يقال: «ما»، وهي أنّ هذه الطبيعة من الشهوات والغضب عندما تطلع رأسها في العالم بسلاح التدبير والاختيار، وتعمل هذه القوى بطاقة العقل التي لا حدّ لها، لا تقف عند حدّ أبداً، وباستخدام الأهواء والشهوات تجعل كل شيء حتى وجود نفسها هباءً منثوراً: «يُفْسِدُ فِيهَا» وعندما يلتهب غضبه يُسْفِك الدماء بلامبالاة: «يُسْفِك الدِّمَاءُ»، لا مثل بقية الانواع والضواري التي تفسد وتسفك الدم في حدود تأمين معيشتها.

﴿وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ...﴾: التسبيح من السباحة، والسباح في البحر يحدّق عين أمله على الساحل وعلى قوّته، وبهذه النظرة والأمل لا يفقد شخصيّته بوجه الأمواج وقوة البحر، وتعمل يداه ورجلاه بقوة، وبمجرّد أن ييأس من نفسه وفقد شخصيّته أمام قوة البحر، تتراخى يداه ورجلاه، فيستسلم للأمواج، إذّا التسبيح هو من الامل والتفكير حتى

الحركة والعمل. وفي الاصطلاح الاعتقاد بنزاهة الله من كل سوء وحبّ سوء، هذا الشعور يرافق الالتفات الى نِعَم الله والطافه، أو بسبب هذا الالتفات؛ معرفة درجة الحمد والثناء على الله، تعريف نزاهة ارادته من كل شرّ لأنه مبدأ الخير، ولا يريد سوى الخير، إذاً كلّ سوء وشرّ هو منّا و من تلوثنا وتفكيرنا السيئ وتقصيرنا، ونخلص أنفسنا من التلوث والضعف والجهل بالسعي والحركة نحوه وهو الكمال والخير المطلق.

هذه حقيقة «نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ» بالباء التي هي إمّا أن تكون بمعنى مع، أو تكون سببيّة: - نُسَبِّحُ بسبب أو مع حمدك - وكلمة «سُبْحَانَ اللَّهِ» تعبير عن هذا الإدراك والحركة، بواسطة اللسان. وبالتدقيق في هذا البيان يتضح عمل الملائكة ووجودهم وحدّهم: وصلّتهم بالمقام الأعلى هي أخذ الخير والإمداد، وبالعالم السفلي عملهم تنزيه الملوّثين بالمادة المظلمة الميّنة وتكميلهم وسوقهم نحو النور والحياة والكمال، والدعوة بصورة أكثر، وإزالة النقص، وإعداد وتفضيل كل ذي قابليّة إلى مقام قدسه «وَنُقَدِّسُ لَكَ». يتضح من لام «لَكَ» أنّه لم يكن المقصود تقديس الذات الإلهيّة، بل التقديس من أجل ذاته وفي سبيله. إذاً لم يكن كلام الملائكة من أجل أفضليتهم ومدح أنفسهم، وإنّما بيان الحقيقة بلهجة التأثير والعجز من أنّه ما سرّ هذا العمل؟ ونحن بجهدنا الدائب وتوجيهاتك وإمدادك ياربّ نسوق العالم نحو الصلاح والكمال والتنظيم، ونعرف أكثر من كل شيء - ما تراه إرادتك النزيهة! وهذا الذي يريد أن يطلع رأسه من هذا العالم بالقدرة والاختيار والتدبير الذي منحها إياه يلوّث مشيئتك، ويعبث بعملنا، وينقض غزلنا؟!

كان حيرة الملائكة وترّيثهم لأنهم كانوا يظنون أنّ المقصود من الخلق هو عملهم وهو التسبيح والتقديس، ولم يطلعوا على خارج نطاق علمهم وعملهم ونتيجة عملهم المحدود.

وكان الواجب أن يتخلص الملائكة من الحيرة، ويتقدمون في عملهم ويعلمون أنّ المقصود لم ينحصر بعملهم، بل هناك مقصود آخر، ومادام لم يسفر عن وجهه لم يطلعوا على سرّه: «قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ...».

﴿وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا...﴾ هذا جواب تفصيلي مقنع للملائكة وتوضيح «ما لا تَعْلَمُونَ» وسرّ خلافة الانسان: ليس المقصود من الأسماء مفردات الاسماء فقط، لأنّ معرفة المفردات لوحدها لا تستوجب أفضليّة الإنسان، ووضع الاسماء والمفردات تدريجي ومتنوع؛ إذاً لا يمكن تعليم جميع الأسماء لشخص نموذجي كامل أو لأفراد النوع، والشئ الآخر يجب أن يكون تعليم المفردات والألفاظ بلغة أخرى ولفظ آخر، وهذا يؤدي الى التسلسل اللامتناهي وتعليم الله بواسطة الحروف والمفردات غير صحيح. إذاً يجب أن يكون المقصود المعنى العام الحقيقي للاسم والذي هو عنوان المسمى وعلامته، وكل ما دل على موجود وعرفه ذاك هو الاسم. وان كان هو بنفسه صاحب الاسم، ولا يمكن معرفة أي موجود إلا عن طريق الاسم والعلامة والصفات الخاصة؛ لأن حقيقة وجود كل شئ هو نفس الشئ الذي لا تدركه الحواس والمدركات الانسانية إلا عن طريق اللون والسطح والطبيعة والعوارض، والصفات والآثار من حيث أنّها ممثلة هي اسماء أيضاً ومن حيث لآثاره الخاصة بها هي مسمّى وصاحب العنوان: كما أنّ الحروف والكلمات الخطيّة من حيث تمثيل الكلمات الصوتيّة أسماء، وهي أيضاً موضوعات مستقلة، والكلمات الصوتية والخطيّة تمثل الصور الذهنيّة، والصور الخياليّة والعقلية تمثل الحقائق الخارجة عن الذهن، كل هذه - من ناحية التمثيل - انعكاس للاسماء والصفات، والتي تدركها قوى الانسان الحسيّة وإدراكه عن طريق الحواس وبقوة التعقّل والتجربة، والأسماء والمفردات اللفظيّة بوضعها الطبيعي تمثل آثار وصفات الأعيان الخارجة عن الذهن.

إذاً هذا وجود الانسان وحواس ادراكاته هو الذي يكشف عن ربائب التكوين من حجب الخفاء والمجهول، هذه هي قدرات درك حقيقة تعليم الأسماء والاحساس بها وتعقّلها، التي تتقدّم تدريجياً من الحواس الظاهرة نحو العقل بتفكير عامة البشر وتجاربيهم (فالتعليم تعلّم تدريجي، والاستيعاب الفجائيّ وبلا تعلّم يسمى وحيّاً وإلهاماً) إنّ القدرة على التعلم وفطرة البحث هذه عندما تتصل مع القدرة على الاختيار والتصرف

في وجود الإنسان يستحق مقام الخلافة؛ لأنَّ الخليفة هو الشخص الثاني الذي يحلَّ محل الأول، وينجز عمله ويكمِّله، ولو لم يطلع مثل هذا الموجود الفاهم المتصَّرف رأسه في العالم، لبقيت جميع المخلوقات وراء حجب الجهل والنسيان، وعندئذٍ ما كان للعالم جلال وعظمة وجمال، ولا يصل أي مخلوق الى نتيجة وثمره، ولم تظهر أفضلية البعض على البعض الآخر وقيمته. يد القدرة الأولى تصنع، ويد قدرة الخليفة تقوم بالتجميل، الحكمة الأولى تبدع كل شيء بخواصه وآثاره، والحكمة والعقل الثاني توضح ذلك وتحركه.

وإذا كان هذا معنى الخلافة وسرّها؛ إذاً يكون كلّ فرد من أفراد الانسان خليفة في نطاق قدرته العقلية وإدراك الأسماء والتصرّف فيها، والخلفاء المنتجبون هم أناس مطلعون على أسرار الانسان. ويسوقون القابليات البشرية الخفية نحو الخير والكمال، ويمنحون ذوي القابلية من الناس استحقاق مقام الخلافة، ومن وجهة نظر هؤلاء الخلفاء المنتجبون بحق لم تكن للموجودات حقيقة ثابتة وواقعية، والأسماء كلّها حق. إنّ هذا التعبير الجامع، جامع لكل التعبيرات والتفسيرات التي قيلت عن الأسماء.

﴿ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى الْمَلَائِكَةِ...﴾ ثم: تأتي للفاصلة الزمانية بين المعطوف و المعطوف عليه تدل على مرور زمن على تعليم آدم وبعد ذلك عرضهم على الملائكة - أراهم فجأة - كما توضع نتيجة التجارب العلمية بعد مدة في معرض المشاهدة، وتوضح لكل الذين كانوا يجهلون أسرارها ورموزها.

إنّ ضمير جمع المذكر «هم» يعود على الذوات والمسّميات من حيث دلالة الأسماء عليها، وجاء «هم» بدلاً من «ها»، مع العلم بأنّ المرجع يبدو واحداً ليفيد نوعين من الرأي والإدراك: فأدم استوعب الاسماء عن طريق تعليم الله إيّاه؛ لأنّ علمه بالمخلوقات كان بواسطة تعلّم آثارها وخواصّها فقط؛ لأنّ الحقائق والذوات كانت مجموعة عن عين عقل آدم، ولكن طريق إدراك الملائكة لم يكن بالتعلّم - الاستيعاب التدريجي والاستدلالي - بل بواسطة ظهور الذوات والحقائق ومشاهدتها، لا إدراك الآثار والصفات، بعد أن تجلّت الأسماء في مراتب ذهن آدم ومراة روحه، وتحققت ذواتها بصورة خيالية وعقلية، أو لما



ظهرت آثار الأسماء وخواصها من جزاء تصرف آدم في الخارج وعالم الطبيعة، صارت في معرض مشاهدة الملائكة، وبناءً على هذا نفس الأسماء المعروضة صارت مسميات في نظر الملائكة: «ثُمَّ عَرَضَهُمْ» وآثارها أسماء الاسماء: «أَسْمَاءٌ هَؤُلَاءِ».

على كل حال: إنَّ طريق استيعاب آدم التعليم واستيعاب الأسماء، كيفية تلقي الملائكة العرض، وما تلقونها هي المسميات. ويمكن أن يعود ضمير «هم» على آدم باعتبار النوع.

﴿فَقَالَ أَنْبِئُونِي بِأَسْمَاءِ هَؤُلَاءِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾: لم يكن الملائكة قبل ظهور آدم مطلعين بخواص أسماء وذوات ربائبهم، ولا بالآثار الخارجية لهذه الأسماء، وظهرت هذه الأسماء وبنات في وجود آدم فقط. وإلى هنا لم يوجد اطلاع عن اسم وأثر وظهور الأسماء في الخارج، وتجلي وجه الأسماء في وجود آدم وعرضها عليهم، فكروا بقصر آرائهم حول آدم، ثم قيل لهم: أخبروا عن أسماء هؤلاء إن كنتم صادقين في ظنكم بأنكم بالقياس أفضل وأعلى من آدم؟

إلى هنا انتهى القياس بين الخليفة الجديد، والملائكة القدماء في العمل ومسابقتهم بامتيازين هما لياقة آدم وفضليته: الأولى معرفة الأسماء والثاني تحقيقها في الخارج، وفي هذه المرحلة شاهد الملائكة نزاهة إرادة الله وحكمته، وأدركوا محدودية وجود علمهم، وقالوا بلسان حال العجز والاعتراف: يا من ذاتك وإرادتك أسمى من كل تقصير ونقص، أنت المنزه الطاهر، لا علم لنا إلا ما حددته لنا، ونعلم فقط بأنَّ علمك محيط ونافذ وعملك حكيم ورشيد، أبدعت كل واحد لعمل خاص وعلمته ما يجب وفي نطاق وجوده - ثالث امتيازات آدم يمكن معرفته من الآية التالية - وأقمت نظام العالم على هذه القاعدة: ﴿سُبْحَانَكَ لَا عِلْمَ لَنَا إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَا﴾ ... يمكن معرفة الامتياز للخليفة بالتدقيق في الآية التالية:

(قَالَ يَا آدَمُ أَنْبِئْهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ فَلَمَّا أَنْبَأَهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ قَالَ أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ

غَيْبِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ ﴿٣٤﴾ وَإِذْ قُلْنَا  
لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَىٰ وَاسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ  
الْكَافِرِينَ ﴿٣٥﴾ ﴿٣٥﴾

### معاني المفردات:

أنبأ: من نبأ: جاء به عالياً وقريباً، جاء بخبر جديد.

الإبداء: الايضاح، الابتداء بالموضوع.

السجدة: الخضوع والخشوع والتذلل، وضع الجبهة على التراب، وعندما تتعدي باللام  
تكون لصالح المسجود وفي سبيله. وهي من الأضداد على حد قول [صاحب] القاموس،  
جلس خاشعاً وقام منتصباً.

إبليس: يقال انه اسم غير عربي، وربما كان من أبليس، أي قل خير، ابتعد عن رحمة  
الله، حار في عمله. ولهذا الوزن أمثال في اللغة العربية مثل: إزميل، إحريص، إصليت.  
إن ضمائر جمع أسمائهم مثل «عرضهم» تعود على أسماء (كما قيل)، والأسماء  
مسميات من وجهة نظر الملائكة، وأنها ظهرت بصورة مسميات بعد ظهور الأسماء في  
وجود آدم. ويمكن أن يكون الضمير في هذه الآية عائداً على الملائكة، كما أنه يحتمل أن  
يعود في «عرضهم» على آدم.

بناءً على هذا يفضل آدم على الملائكة في ثلاثة مراحل واطوار وجودية: الأولى:  
القدرة الفكرية والعقلية لاستيعاب الأسماء، العلام والمميزات الذاتية. الثانية: القدرة  
على التصرف والتدبير وبيان تلك العلام في مسرح الطبيعة - المفهومة من أنبأ - الثالثة:  
الإحاطة العقلية بالأسماء وصفات الملائكة.

إذاً يستفاد من هذه الآيات أن الملائكة لم يكونوا بأنفسهم مطلعين - قبل وجود آدم -  
بظواهر الوجود التي كانت نتائجها بإذن الله، ولا بالأسماء وعلام تلك الظواهر، ولا  
الصور، والأطوار التي ظهرت بتصرف آدم فيها، ولا بحدود أنفسهم وخواصهم. كل هذه

ظهرت أولاً بصورة علم في عقل آدم، وعرضها والنبأ عنها في العالم الخارج عن العقل ويجعل الخليفة. إذا لم يكن للملائكة رقي وتكامل من أنفسهم، وتدرج إليهم الكمال بتقدم العالم وتكامله بسبب وجود آدم - لأن التطور والتكامل يكون من المادة وتركيب القوى المختلفة - ثم إن كل نوع منهم محدود بمحيط علمه وعمله «مَامِنَّا إِلَّا وَلَهُ مَقَامٌ مَّعْلُومٌ» (لأنهم بسطاء) وليس لهم علم بعلمهم وبناتج عملهم وآثاره أيضاً. وكأنما هؤلاء الملائكة أحياء كسائر الموجودات (سوى الانسان) مع الفارق وهو أن أعمالهم عن علم وإرادة، ويقهرون الطبيعة والمادة ويسودونها ومن الممكن أن يعوا كل هذه الأمور - لا عن طريق العلم - ولكن الكائنات الحية الأخرى أعمالها غريزية ومحكومة من قبل المادة والطبيعة، وهي لا تعي وجودها ولا تعرف نتيجة أعمالها وآثارها وخواصها (كما أن النحل لم تعي ما تنتجه ولم تعرف حكمة بيوتها السداسية).

يستفاد من هذه الآيات وأقوال بعض المفسرين أن الخطاب والمحاورة حول جعل الخليفة والأمر بالسجود كان خاصاً بملائكة الأرض، أولئك الملائكة العاملين في عالم الطبيعة أو خلاله أو في ما يتصل به (وتؤيد هذا الآية: «أَشْتَكَبْتُ أَمْ كُنْتُ مِنَ الْعَالِينَ» في سورة (ص) تخاطب إبليس بعد التمرد). ويمكن تشبيه ملائكة الأرض بمرايا تشع عليها الالهامات العلمية من الأعلى (العلل الفاعلية) - لا عن طريق الاستعداد والاكْتِسَاب - وتنعكس منها على المادة المتماسكة والطبيعة بصورة هداية غريزية وفطرية، وتسوق كل مستعد ليصل إلى مقام الانسان ليسير حتى يصل إلى العقل والتفكير، ويكون أفضل من الجميع، عندئذ يتجلى في وجود آدم العقلي والعلمي سر وجود الملائكة وآثارهم العلمية والعملية: ﴿أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ غَيْبِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾، ﴿وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ﴾. إذا يعلم الله بأسرار السماء والأرض وباطن الملائكة وظاهرهم وخليفته فقط، الذي علمه الله.

﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا...﴾، إذا كان المقصود هم ملائكة الأرض فإن الألف واللام في «الملائكة» في هذه الآيات تفيد العهد، وتشير إلى أولئك الملائكة الذين يتولون

بلا واسطة إدارة القوى الحياتية وتنظيمها من حدّ المادة وأطوارها من القوى الجسميّة والنفسيّة حتى أعتاب عالم العقل والاختيار، كأنّما حدث فاصل (حيرة وركود) في هذا التطور العظيم، إنّ تعليم آدم وإنبائه وكشف سرّ ذات الملائكة وأعمالهم، أخضع جميع طبقاتهم المسلسلة أمام مثل هذا التطور والقدرة حتى صاروا على قارعة مسيرة التكامل وطأطأوا رؤوسهم على أعتابه، وهذا هو سرّ سجود الملائكة والأمر به؛ لأنّ روح السجود وسره هو الخضوع والانقياد، الذي يظهر في هيكل الانسان بصورة التعفر بالتراب ووضع الرأس [الجبّهة] على التراب. وهذه الحالة تدلّ على الخضوع التام كالتراب، يكون تحت تصرف المسجود وتديره: ﴿لِلّٰهِ يَسْجُدُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ وَالنَّبَاتِ كَبِيرًا وَصَغِيرًا﴾ ﴿وَالنَّجْمُ وَالشَّجَرُ يَسْجُدَانِ﴾ هذه هي حقيقة الخضوع والانقياد، عبّرت الآية في سورة الحجر عن تطوّر الخلق هذا والأمر بالسجود لآدم بهذا التعبير: ﴿فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُّوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ﴾، أي إذا سَوَّيْتُ ظاهره وباطنه وأكملته ونفخت من روحي فيه فاسجدوا كلّكم أمامه بصورة دائمة. لأن معنى الوقوع هو السقوط والثبوت والوجوب، والأمر بالوقوع في حال السجود. إذا لم تكن هذه السجدة وضع موقت كسجدة هيكل آدم الظاهر. فلم يبق موضع للبحث في هذا المورد من أنّ السجود لغير الله يجوز أو لا يجوز.

﴿فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَى...﴾: استثناء إبليس يفيد العموم والشمول بأنّ الملائكة كلّهم أو هذا النوع من الملائكة سجدوا، ويفيد أيضاً تكريم منزلة آدم المسجود والملائكة المأمورين. والوحيد الذي بقي في الطرف الآخر من هذا التطور وفي حال التمرد والتكبر والحيرة هو إبليس. ولا تتمكّن من تصوير كَيْفِيَّةِ إبليس وشكله وتركيبه (كالملائكة)، ولا طَلِبَ منا مثل هذا العمل، وما تتمكّن من إدراكه بالدراسة العقلية هو أنّه مصدر الشرّ والقوابة والوسوسة ويجرّ الانسان إلى الجهة المخالفة للكمال والمصلحة والتفكير في العواقب، ويجب الانتباه إلى وساوسه وغوايته، وتحرير العقل والروح من كيده وسره. هذا مصدر يجعل الحق باطلاً، والباطل حقاً، والشرّ خيراً والخير شراً، ويخيف مما لا يخاف

منه، ويجزىء على ما يجب أن يخاف منه، يَعدُّ مخادعاً، وييدي السراب واقعاً، ويسدل على الحق والمصلحة والتدبر حجاباً من الوعود الخداعة، ويحجب ما وراءه: ﴿يَعِدُّهُمْ وَيُمْنِيهِمْ وَمَا يَعِدُهُمُ الشَّيْطَانُ إِلَّا غُرُورًا﴾ وبمجرد أن يقف الانسان في موقف الغضب والاعتداء على حق الغير والشهوة وأي ذنب آخر يقوي الموقف ويسدل الظلام على محيط الفكر، ويحجب العاقبة، ويخمد نور الضمير ونداءه.

هذه علامات الشيطان وأوصافه التي يَبَيِّنُها القرآن والروايات الدينية، ونشعر بها، وندرك أنَّ هناك مبدأ لأمثال هذه الأمور، كما نعرف بنفس هذا الشعور مبدأ الخير والإلهام وهو المَلَك، وعندما نكون عرضة للخير أو الشر، والحق أو الباطل يقف صفان متجاهاان في باطننا، ونبتلي نحن في الوسط بين تجاذبهما: مبادئ الخير التي تأخذ طاقتها من الضمير والعقل الصريح تجرُّ نحو الصلاح، ومبادئ الشرِّ التي تعبىء قوى الوهم والشهوات والغضب تسوق نحو جرف الهوة والانحدار، ولم تكن هذه القوى وحدها التي تعبأ للمواجهة مع بعضها، بل نشعر بأنَّ العون يأتيها على التوالي، أفهل يكون غير هذا!! وهو أننا نعرف القوى الطبيعية وميكروبات المريض من كيفية آثارها وتنوعها، ونطلب لكل حادثة وأثر مبدأ ومؤثراً، ولهذا السبب يعتقد جميع شعوب العالم من العلماء والجهلة بوجود المَلَك والشيطان، فالعلماء الماديون يعبرون عن مبادئ الأثر بالقوى، ويهربون من اسم الملك، وأتباع الدين يتقون من أسم القوى. إذاً أكثر الاختلافات تقع في التسمية أو في بعض الأوصاف لا في أصل ذلك. بناءً على هذا يجب أن لا يعتبر الشيطان نفس تلك القوة الوهمية (كما يتصوره البعض) بل الوهم مظهر مبدأ الشرِّ والشيطان وممثل هذا المبدأ في وجود الانسان وباطنه، كما أنَّ الضمير والوجدان هو ممثل الخير وعامله في وجوده، والانسان بنفسه صورة مضغرة لجميع العالم ونموذج من العالم الكبير، وقد عبَّروا عن هذه القوى النموذجية المتضادة الغامضة بـ«اللَّمة»: «في الانسان لمة من الملك ولمة من الشيطان».

إذاً كل واحد من هذين النوعين من القوى الخفية المتراكمة في وجود الانسان موجود

الخليفة في الأرض، وخلق آدم من الطين وتسويته، ونفخ الروح فيه، وأمر الملائكة بالسجود له، ثم إسكانه في الجنة، والروايات الصريحة الواردة عن المعصومين عليهم السلام حول جنة خليفة الله هذا تؤيد هذا أيضاً، كما في الرواية المعتبرة عن الإمام الصادق عليه السلام أنه قال: كانت هذه الجنة من جنان الأرض وتشع عليها الشمس والقمر، وإذا كانت جنة الخلد لم يخرج منها أبداً، ولم يدخل اليها إبليس»<sup>(١)</sup> حتى أن بعض المفسرين بحث حول تحديد منطقتها، وجاء في تفسير البيضاوي: «إنه بستان كان بأرض فلسطين أو بين فارس وكرمان، خلقه الله تعالى امتحاناً لآدم، وحمل الإهباط على الانتقال منه إلى أرض الهند...»<sup>(٢)</sup>.

إذاً يجب أن تكون هذه الجنة في الأرض ويمكن معرفتها بالعلام والأوصاف التي ذكرها القرآن عنها، وقبل أن نبحث عن موضع هذه الجنة أو نعيّنه (لم يحدّد القرآن الموضع، وقام المفسرون والمتكلمون بالبحث للعثور عليها) نلقي النظرة من بعيد على آدم ووضعه النفسي، آدم ذاك الذي كان الفرد الانساني النموذجي، وكان له لقب خليفة الله، وقدرته وتصرفه أدّى بالملائكة للسجود، وكانت روحه كالمرآة تجلّت فيها الأسماء وصفات الله وجميع الموجودات، ويشع فيها جمال العالم المعنوي وجلاله، وقلبه مشغولاً به أكثر فأكثر، لم تظهر فيه بعد الشهوات والأمنيات التي يصرف كل فرع منها الفكر والذهن ويقلق البال، ولم تسيطر العواطف المختلفة التي تجتذب اهتمامه نحوها على عقله، ولم تكدر روحه فكرة الموت والفناء وطلب العلاج من أجل البقاء، ولم يقلق باله الخوف من المستقبل، والجشع في جمع المال، والدوافع المملّة، ولم يستول غبار العداوات والأحقاد والأنانيات على صفحة نفسه الساطعة، ولم تحدّده جدران القوانين والدساتير، كدور الطفولة والفطرة عندما يفتح الانسان عينه بروح طاهرة نحو النور والعالم، ويرى كل شيء

(١) ترجمت ما كان المؤلف عليه السلام ترجمه الى الفارسيّة، لأنني لم أعر على أصل النص مع كثرة البحث عنه. (الترجمان).

(٢) نقلت النص من تفسير البيضاوي: ١/ ١٤٢. (الترجمان).

كما هو حسناً وجميلاً، وتظله شجرة الحب، والكل يأنسون به، كان آدم خليفة الله يعيش في محيط كمحيط الفطرة [هذا] بالإضافة إلى العقل النافذ والروح الساطعة. وآدم هذا كأنما كان يعيش في جزيرة أو منطقة خضراء بين الزهور والرياحين والأشجار الملتفة النابعة في كل مكان، والأنهار الجارية في كل جانب، وكان نور الشمس الذهبي ونسيم الهواء والغذاء الطبيعي يربّي هيكله العاري، وكانت أنوار الشمس والقمر تشع من فوق رأسه، والنجوم تتلألأ، وكانت روحه وقلبه وروح وزوجه متناسقة مع حركة النسيم وأوراق الأشجار، وصدح الطيور وتسييح الملائكة. وكان عقله وفكرته تسيرّ وزوجه معه إلى أسرار العالم. وتجذبّه عواطف وزوجه إلى جمال الخلقة، يذهبان أينما يرغبان، ويأكلان كلّ ما يشتهيان، لا قلق لهما ولا ألم، لم تؤلّهما الآلام الروحيّة، ولا الآلام الجسميّة.

تلوح من نافذة كلمات الآيات وجمالها التي تدور حول الجنّة وموضع هبوط آدم مثل هذه الجنّة: بعد تعليم الأسماء والإنباء عنها وسجود الملائكة، أمر الله بالسكنى في «الجنّة» «أُسْكُنْ» (لا أدخُلُ فيها) أي أبقِ بذلك المحيط الخضر النضر، والالف واللام العهدية تشير إلى الجنّة المعهودة، المكان الذي أعدّ فيه جميع وسائل الحياة الأولى، ولم يكن فيها موانع وحدود: «رغداً، حيث شئتما»، وجاء وصف هذه الجنّة في سورة «طه» كما يلي: «إِنَّ لَكَ أَلَّا تَجُوعَ فِيهَا وَلَا تَعْرَى، وَأَنَّكَ لَا تَظْمَأُ فِيهَا وَلَا تَصْحَى»، ويفيد تعبير: «فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ» حالتهما الروحيّة ووضعهما المعنوي، أي أن الشيطان أخرجهما من المكان الذي كانا يعيشان فيه؛ مع أن سياق الكلام كان يقتضي هذا التعبير: «فأخرجهما منها، أو: من الجنّة».

وقد جاء حول مهبط آدم كلمات: الظلم، والعداء، والشقاء، وظهور القبائح والعورات في الآيات: «فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ» «أَهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ» سورة البقرة. «فَلَا يُخْرِجُكُمَا مِنَ الْجَنَّةِ فَتَشْقَى» سورة طه. «لِيُبَيِّنَ لَهُمَا مَا وَوَرِيَ عَنْهُمَا مِنْ سَوءَاتِهِمَا» سورة الأعراف.

ويجب أن يُعرف من مقابلة المهبط مع الجنّة أن آثار ظلام الظلم لم تكن تستولي على

أغصان الشجرة (الخلود، معرفة الخير والشر، الحياة) الملتفة، إلى أن خلبت لبّ آدم بالتهيبجات النسائية والوساوس الشيطانية، وتقرّب إليها، وزلّت قدمه من هنا... كانت هذه الجنة شعاعاً من الأسماء والصفات على مرآة الفطرة الساطعة، وحينئذ ملأ انعكاسها جميع نواحي مسكن آدم وزوجه بالصفاء والنور - شعّت جيّداً ولكنها كانت على عجل - كانت مرآة فطرة آدم كالبحيرة الصافية التي كانت لعمقها في معرض الدخان والبخار والهزّات البركانية، وأقل حركة في أعماقها تكدر وجه الماء، كما صار...

إن نفوذ عواطف المرأة وطلباتها مع وساوس إبليس والتقرّب إلى الشجرة أدّت إلى رخاوة موضع قدم آدم وزلته، ثم انقلع من الجنة وهبط: «فَأَزَلَّهُمَا عَنْهَا» - بناءً على عود الضمير على الجنة: أو أنّ إبليس زيّن الشجرة لآدم وكان ذلك بداية الزلّة وسببها - بناءً على عود الضمير على الشجرة. وبعد الزلّة، أخرج الاثنان من الوضع والمحيط الذي كانا يعيشان فيه: «فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ». وانحدرا نحو المهبط بأمر الله، أو أنّ إبليس أخرجهما وجرّهما إلى نفسه، وجلب انتباههما.

﴿أَخْرَجَ﴾ تعطي معنى خرّج واستخرج أيضاً، وبينهما فرق دقيق. هذه الزلّة بعثرت محيط الأمن والصفاء، وبدأ مهبط العداء والنزاع، والتقرّب إلى الشجرة صار مصدراً للمشاجرات:

﴿بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ﴾ جملة حالّة تعود على ضمير الجمع في «أهبطوا» بلا وساطة الفاء ولو.

إذاً الهبوط هو نفس محيط العداء والخصومة، والمخاصمة تستلزم مثل هذه الحياة. وبحسب الحكمة الأزلية. واللام في «لِبَعْضٍ» تشير إلى اللزوم والانتفاع والتي جاءت بدلاً من «بعضكم عدوّ بعض». فالحياة التي كلها احتياج وآمال تؤدي الى الاجتماع، والاجتماع يؤدي إلى العداوة والاصطدام. إذاً فالهبوط والاجتماع والعداوة لا تنفك عن بعضها. محيط العداء وتنازع البقاء هو مهبط الانسان ومحيط الحيوان الطبيعي؛ لأنّ الإنسان هبط من محيط السلم و صفاء الفطرة والاستيناس بالجمال اللامتناهي الذي كان



مسكنه الطبيعي، وفقد ذلك السكون والاستقرار، وتارة يطلب الهدوء والاستقرار في الأرض و عالم الطبيعة التي لا قرار فيها وكلها عداء ونزاع، لأنه طُرد من المَتَع واللذائذ التي لا مشقة فيها فإنه يطلب المتعة واللذة في وسط الآلام والمصائب: «وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ...» وكل ما يتخذ القلب قراراً وهدوءاً، لا قرار فيه ولا هدوء. ولهذا يئن دائماً كالنאי، وكالورقاء التي افتقدت عشها تحطّ على كل جدار وخراب وتقوم، وتئن في كل سهل وحذب بحنين «أين أين»<sup>(١)</sup> وتريد أن تخلص نفسها بترديد الأمواج الصوتية الموزونة ومشاهدة حركات الطبيعة المنظمة ونقوشها وزخرفها من الالتفات إلى الحياة المليئة بالعداء، وترتاح قليلاً بتذكر الموطن الأصلي، أو تعطل العقل والذكاء بالتحذير عن إدراك الحرمان والمصائب والموت. «مستقرّ ومتاع إلى حين» ذكرت الكلمات الثلاث بلا تعريف وإضافة، لتدلّ على أن الأرض لا قرار لها، متاعها قليل وزائل، وقتها غير معلوم. ويمكن أن يكون مستقر ومتاع بالمعنى المصدري: يعني: الاستقرار، والتمتع القليل.

﴿فَتَلَقَّى آدَمُ مِنْ رَبِّهِ كَلِمَاتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ﴾ (٣٨) قُلْنَا اهْبِطُوا مِنْهَا جَمِيعاً فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّْي هُدًى فَمَنْ تَبِعَ هُدَايَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ (٣٩) وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ (٤٠) ﴿

### معاني المفردات:

التَّلَقَّى: الإلتجاء، الاستيعاب، الاستلام جيّداً.

كلمات: جمع كلمة، لفظ ذو معنى، من الكَلَم بمعنى الجرح؛ لأنّ الكلمة تؤثر في النفس

(١) يشير الى ابيات بداية المتنوي الفارسي «... كيف الناي يحكي حاله فهو يشكو من فراق ناله» [ترجمة الترجمان شعراً] أو عينية ابن سينا وورقائيه: «هبطت اليك من المحل الأرفع...» وكلاهما يشيران الى هذا الهبوط، وبعد حقيقة الانسان عن الموطن الأول.

المتفتحة الصحراوية وفي ظل هداية الأنبياء، طالبوا بتنوع الغذاء والفوائد (وكان لهم نوع من التقرب إلى الشجرة) فجاءهم الأمر بالهبوط: «اهبطوا مضراً فإن لكم ما سألتم وضربت عليكم الذلة...» كأنما هذا الهبوط مرة أخرى وصورة أخرى من هبوط آدم نفسه.

بناءً على هذا فالهبوط تحوّل من وضع حياة أفضل إلى ما هو دون ذلك - لا من مكان إلى آخر. إذاً للهبوط درجات ومراتب له مرتبتان متميزتان حسب جهاز الهابط المعنوي ولكل منهما مراتب أيضاً: فالمنتخبون وأنبياء كآدم يأخذون طريقهم نحو الصعود في نفس المرتبة الأولى بتلقي الكلمات ويتوبون، وهداية الهداة ومساعدتهم تفتح للجميع طريق الرجوع وتنيره.

هذه الآيات تفيد بوضوح أن قصة التكوين والخلافة والجنة وهبوط آدم هي حقائق نوعية وعامة يمثلها القرآن في شخصٍ منتخبٍ، وأول [أمر] «اهبطوا» الذي جاء بضمير الجمع، مع العلم بأن الضمائر السابقة ذكرت تشبیهً، يشير إلى الهبوط العام، واشتراك الجميع في العلل النفسية ومقدمات هذا الهبوط، ولما كان إنجاز كل أمرٍ ودستور اختياري، إذاً فالجميع يتخذون هذا الطريق بارادة واختيار، ولو كان الأمر بالقهر والجبر لوجب أن يقال: «أهبطناهم». وجاء في سورة الأعراف في البداية عند ذكره لخلق آدم بصيغة الجمع: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَاكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَاكُمْ ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ..﴾ وذكر الهبوط الثاني بكلمة «جميعاً» لا «جمعاً».

﴿فَأَمَّا يَا تَبَتُّكُمْ مِنِّي هُدًى...﴾ يعلن التأكيد في «يأتين» وشرط «إمّا» أن مجيء الهداة حتم حسب قانون التكوين ومستلزمات الحكمة ومن أجل تدارك الهبوط، ولكن تأثير هدايتهم لها علاقة باستعداد الهابطين وذكائهم واستيعابهم، فإن كانوا قد اتبعوا هداية الهداة فازوا من الهبوط، وعلامة الفوز هي أن لا خوفٌ عليهم ولا هم يحزنون، الخوف وهو القلق من المستقبل قد انتفى بالجملة الاسمية: لا خوفٌ عليهم، والحزن وهو على مافات جاء بالجملة الفعلية: الحزن على أثر الهبوط وفقد النعم والحياة والخيرات والمكانة السابقة لا يدوم ويُتلافى: فحياة الانسان المليئة بالقلق في هذا العالم قائمة بين الخوف

والحزن، وكائنًا الانسان ظاهرة كالفقاعة التي تمكث بين أمواج الحزن والقلق، وتحاول التخلص دائماً من بين هذه الأمواج، وما يتمكن من المحافظة على ثبوته وارتياحه هو هذا الاتّباع من أنوار الهدى ليوصله إلى ساحل النجاة أو مصعده الأول. وجاء في هاتين الآيتين الأمر بالهبوط والوعد بالصعود مع وجود الفاصل وبشروط: «فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ...».

يبدو أن الهابطين ثلاث فئات، فئة تستوعب الكلمات في البداية وإِثان هبوطها (الكلمات) فتصدهم عن الهبوط والسقوط النهائي. وهؤلاء هم أصحاب فطرة وعقول قويّة يدركون الحقائق بأنفسهم بدون واسطة، ويدركون من كتاب العالم الساطع كلمات، ويقال لكل منهم بناء على الاصطلاح العلمي «مكتفٍ بالذات» يستمدون من قواهم وثرواتهم الذاتية».

الفئة الثانية: أولئك الذين يجدون نور الهدى باستخدام قابليتهم الذاتية وعقلهم الباحث عن الحق، ويسلكون طريق الصعود والنجاة من المهبط المليء بالخوف والحزن بمساعدة هداية الحق، ويتمسكون بالهداية المطلقة «هُدًى» وبالهداية الخاصة المضافة: «هُدًى». والأنبياء المتلقون هذه الكلمات وتراجم كلمات الربّ وكتاب التكوين ويسلكون طريق الصعود والجنّة بقوّتهم العقلية، وينقذون الآخرين بالدلالة والتوجيه والتذكير وتشريع الأحكام والحدود والإعلان عن نتائج الأعمال، من اليأس والأنس، والاحتراق والإلتئام في هذه الهوة المظلمة. وبمجرد أن يقع نظر النفوس المستعدة والفطرة الجاهزة على نور الهداية يشعرون بالهدوء والإطمئنان، وعندما يتمّ هذا الاتّباع على أحسن ما يرام، أثره وعلامته هي الإطمئنان التام وزوال القلق والحزن: ﴿فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾، والإرتياح والأمل بالمستقبل والطريق المستقيم لمثل هذا الاتّباع يملأ مكان الحزن على الأضرار والمصائب الماضية شيئاً فشيئاً. والنظر إلى نور الهداية واتباعه يتهياً للذين لم تعم عقولهم وفطرتهم ظلمات المهبط. ولم تَمُحْ ظروف بيئة التربية قابليّة الاهتداء من نفوسهم، والأشخاص الذين يتبعون أتباعاً تاماً ليزول الخوف والحزن عن نفوسهم ويثبتهم بين المهتدين قليلون، ولذا جاء تأثير الهدى وزوال الخوف

﴿يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَوْفُوا بِعَهْدِي أُوفِ بِعَهْدِكُمْ وَإِيَّايَ فَارْهَبُونِ ﴿٤١﴾ وَآمِنُوا بِمَا أَنْزَلْتُ مُصَدِّقًا لِمَا مَعَكُمْ وَلَا تَكُونُوا أَوَّلَ كَافِرٍ بِهِ وَلَا تَشْتَرُوا بِآيَاتِي ثَمَنًا قَلِيلًا وَإِيَّايَ فَاتَّقُونِ ﴿٤٢﴾ وَلَا تَلْبِسُوا الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ وَتَكْتُمُوا الْحَقَّ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٤٣﴾ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَارْكَعُوا مَعَ الرَّاكِعِينَ ﴿٤٤﴾﴾.

#### معاني المفردات:

ابن : جاء من البناء؛ لأنه بناء على أساس حياة الأب.  
 اسرائيل : كلمة عبرية، قيل إنها مركبة من «اسر» بمعنى العبد أو المنتخب، و«إيل» بمعنى الله، وهو اسم يعقوب بن اسحق بن ابراهيم. ويقول البعض أنها تعني القائد المجاهد مع الله. يقول المستر «هوكس» الامريكي صاحب الكتاب المقدس: «اسرائيل: الشخص الذي انتصر على الله» وهو يعقوب بن اسحق الذي اعطي هذا اللقب بعد مصارعته مع الملك الالهي في «فنيثيل». وثقراً: اسرا و اسراييل، أيضاً.  
 الذكر: الإعادة إلى الذهن، إلفات النظر، التلفظ، الشرف، الدعاء، الكتاب الديني.  
 الوفاء: إنجاز العهد والميثاق والمحافظة عليها.  
 الرهبة: الخوف مع الخشوع في مقابل العظمة والمؤاخذه.  
 الثمن: البذل في المعاملة، العوض الأعم، القيمة، القيمة الواقعية.  
 لبس: بفتح اللام: التعمية في العمل، خلط الحق بالباطل. وبضم اللام: ارتداء الثوب، المكث، الاستفادة.

الباطل : ما يقابل الحق، الفاسد، العبث.

الكتمان: إخفاء الحق والسر الذي يستحق الإظهار.

الركوع: الخشوع، طأطأة الرأس.

أنا مخاطب اليهود بكنية «بنى اسرائيل» لأجل أن يتذكروا ذلك الأب الكريم عند الله وآباءهم الكرام الآخرين، لربما يفيد هذا الاستذكار في إحياء تلك المحبة والصلة والتوحيد والأسلوب والطريقة والنعمة المضافة الموصوفة: «نِعْمَتِي الَّتِي...» هي نعمة النبوة والوحي والشريعة، التي أصبحت مصدر الوحدة والعزة والراحة والنعم الأخرى. والتذكير هو لأجل أن يقيسوا وضعهم الحاضر بذلك، ويدركون بهذا القياس أسباب تلك العزة وهذه النكبة.

﴿أَوْفُوا بَعْهْدِي...﴾ الشرط والإلتزام، الوعد والوعيد بعد الهبوط، عهد الله الخاص الذي تحقق في تاريخ بنى اسرائيل، وفي دنيا الهبوط والانحطاط والكفر العام تقدّم هؤلاء في طريق الصعود والرقى ووجدوا الأمن ما داموا قد اتبعوا فيه الهداة، وبمجرد أن جعلوا النظام الالهى آلة للشهوات والأهواء، وصاروا فرقا وفئات، واجهوا - أولاً - بينهم العداوة والخوف، واستخدموا الطاقات الدينية لتحطيم بعضهم البعض، ثم شُنَّ عليهم غضب المجاورين وجعلهم أشتاتاً خاسئين.

المحافظة على عقيدة التوحيد واتباع الأنبياء عهد اخذه الله منهم ومن كل أمة لها نظام الهى في الكتاب وحسب الفطرة والتجارب التاريخية. والعزة والقوة والراحة عهد من الله للموفين بعهد الله.

﴿وَإِذَا يَافَاهُ يُونُسُ﴾: إنَّ تقديم الضمير المنفصل، وضمير المتكلم المحذوف الذي تدل عليه كسرة النون يفيد الحصر المؤكد: تخوفوا من سلطتي وغضبي فقط. وعندما تتخوفون من الله وغضبه فقط، واستسلمتم [خاضعين] أمامه يذهب الخوف والحزن (المذكورين في آية الهبوط) عن قلوبكم، وعندما اعتبرتم أنفسكم آمنين من غضب الله وعقابه، وتولّيتم عنه، تعيشون بخوف واستيحاش دائم من كل أحد ومن كل شيء.

﴿وَأَمِنُوا بِمَا أُنزِلْتُ...﴾: أن الايمان بما أنزل [الله] هو أول عهد الله، و«الآية رقم ٣٨، فمن تبع هداي» هي نفس عهد الإيمان هذا. الإلتباع الصحيح هو فرع ونتيجة للإيمان، فالأنبياء الذين بعثوا من بين بنى اسرائيل وفتحوا عيونهم في الكتاب والوحي،

كانوا سفراء عن الله لتوثيق أواصر عهد الفطرة، إنزال (جعل الشيء في متناول اليد) ما هو أسمى من العقل وادراك الانسان هو دليل الايمان به. جاءت «ما» في «بِمَا أُنزِلْتُ» والمقصود من ذلك هو القرآن، مبهمة لتدل على أن ما تنزل الآن هو الصورة الكاملة الجامعة لتلك الحقيقة التي نزلت قبل هذا بصور مختلفة. وهذا الايمان هو اصل النعم الأخرى التي تفضل به الله على بني اسرائيل: «مُصَدِّقًا لِمَا مَعَكُمْ»، وهو هذا القرآن الذي يصدق نظام السلف، ويحيي مبادئ دعوتهم وشرائعهم، ويوصل الحال والمستقبل بالماضي، في الوقت الذي كانت الاوهام والخرافات والأهواء قد سترت وجه دعوة الأنبياء الطاهر ونظامهم الساطع، وكانت علاقة اتباع الدين تنقطع عن أصله أكثر فأكثر، زال الستر عن وجه دعوة الأنبياء ببعثة هذا النبي ونزول هذا الكتاب، واستحكم دين الحق على قواعده، ولو لم يكن تصديق هذا المصدق لم يكن هنالك دليل وبرهان لأديان السلف، ولا اتضحت أصولهم وشرائعهم الحقّة ولا تميّزت.

﴿وَلَا تَكُونُوا أَوَّلَ كَافِرٍ بِهِ...﴾: كان من المؤمل في إيان ظهور هذه الرسالة أن يكون اليهود بسابقتهم وتنبؤاتهم أول المؤمنين، لأنّ المشركين لم تكن لهم سابق معرفة بالنبوة والشرعية، وكانوا بحالة كفر وشرك، واستمروا على هذه الحال، وكان النصارى بعيدين عن بيئة هذه الدعوة، وكان إيمان اليهود هو المؤمل، وكانوا هم يعيشون بحالة انتظار، وكانوا يحرضون المشركين لاسيما أهل المدينة على الانتظار ويؤملونهم، وهؤلاء لم يكونوا مؤمنين أولاً ليكونوا أول كافر. وضمير «به» يعود على «بما» ويشير إلى أن كفركم بما أنزل هو في الحقيقة كفر بالدين الذي تعتبرون أنفسكم مرتبطين به، في الحقيقة إنّ كفر اليهود وتمردهم على الاسلام صار سبب تشتت شعوب العالم وحيرتهم، وضعف في نفوس الناس دعوة القادة العظام المؤدية إلى الهداية ووحدة الايمان، وماذا أنتجت من آثار سيئة لشعوب العالم!!

﴿وَلَا تَشْتَرُوا بِآيَاتِي ثَمَنًا قَلِيلًا﴾: الآيات التي تكون في معرض التجارة هي: الشريعة، الكتاب، المعابد، شعائر الدين الزيّ الديني، التي يجب أن تذكر المخلوقين

بالخالق، وتوصل الناس ببعضهم في رباط الدين الإلهي، وتربي النفوس، وتشير العقول، هي هذه الآيات، وعندما تكون تحت تصرف عبدة الدنيا تباع في مقابل المال والهوى. قيمة هذه الآيات تساوي قيمة نفوس الناس التي هي أغلى من كل شيء، وتوضع كالبضاعة التافهة في سوق عبدة الدنيا على يد مثل هؤلاء الناس، وعندما تتحول آيات الله ودينه إلى بضاعة وآلات معيشة، يكون نتيجة هذا الأمر الجهل والظلم والتشتت، وتفقد ميزتها الأصلية، وتكون - بالنسبة إلى بعض الناس - سبب تنفّر وابتعاد. وفي هذه المعاملة، يكون الدين ونظام الأنبياء - في مقابل الأهواء - بشكل آخر، ويرتدّ الناس عنه، وتتضرر القابليات البشرية أيضاً، وتزول المعلومات والادراكات الفطرية. يجب أن يكونوا منتبهين إلى أنهم يحصلون على أشياء تافهة وقليلة في مقابل فقدهم لهذه الثروات المعنوية [الطائفة]. إنّ الذين يضعون جواهر الآيات في معرض البيع والشراء أناس ضعفاء قد فقدوا شخصياتهم في مقابل الأقوياء وأهل الدنيا، ومهما ازداد خوف أهل الدنيا في قلوبهم يغفلون عن الله وعقابه بصورة أكثر، ومهما ازداد التفكير في عقاب الله عندهم، يقل الخوف وفقدان الشخصية في مقابل مظاهر الشهوات وسلطة الدنيا لديهم. ولهذا السبب قال في الختام على سبيل الحصر: «وَأَيَّايَ فَاتَّقُونِ»، ومعنى التقوى - كما قيل - هو التخوف والحذر، وتختلف عن الرهبة.

﴿وَلَا تُلْبِسُوا الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ وَتَكْتُمُوا الْحَقَّ...﴾: لأنّ الحق هو الحقيقة الثابتة الواقعة، وهو بنفسه لا يخفى على العقول، ولكن عندما يمتزج بالباطل يمكن كتمانته وإخفاؤه عن انظار العامة. وصرف الازدحام عنه، ورد عن أمير المؤمنين عليه السلام في نهج البلاغة: «فَلَوْ أَنَّ الْبَاطِلَ خَلَصَ مِنْ مِزَاجِ الْحَقِّ لَمْ يَخْفَ عَلَى الْمُتَادِينَ، وَلَوْ أَنَّ الْحَقَّ خَلَصَ مِنْ لَبْسِ الْبَاطِلِ، انْقَطَعَتْ عَنْهُ أَلْسُنُ الْمَعَانِدِينَ، وَلَكِنْ يُؤْخَذُ مِنْ هَذَا ضِغْتٌ، وَمِنْ هَذَا ضِغْتٌ، فَيُمَزْجَانِ! فَهَذَا كَيْفَ يَسْتَوْلِي الشَّيْطَانُ عَلَى أَوْلِيَائِهِ، وَيَنْجُوا الَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُمْ مِنَ اللَّهِ الْحَسَنَى»<sup>(١)</sup>.

(١) نهج البلاغة (شرح الشيخ محمد عبده) ١ / ٩٩ استخرجت النص بدل الترجمة. (الترجمان).

يمكن إخفاء الحق بمزجه مع الباطل ولبسه، ويمكن كتمان الحق بإخفائه في لباس الباطل (بناءً على أن المقصود من «اللبس» هو الستر والاختفاء)، والاحتمال الآخر في الآية هو أنه: لا تزينوا الباطل بلباس الحق، ولكن هذا الاحتمال لا يتفق ومعنى الكتمان. ﴿وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ...﴾: بعد الأمر بثلاثة أمور: بتذكر النعمة، الوفاء بالعهد، والإيمان بما أنزل، وثلاثة نواهي: ألا تكونوا أول كافر، ألا يشتروا بآيات الله ثمناً قليلاً، ولا يلبسوا الحق بالباطل، أمر بالعمل بهذه الأمور الثلاث: إقامة الصلاة، إيتاء الزكاة، والركوع مع الراكعين. وكأنما هذه الأوامر الثلاثة هي الدعوة العملية لجميع الأنبياء: إقامة الصلاة إقامة القوى النفسية واستخدامها والصلة بالله (تراجع الآية الثالثة).

إيتاء الزكاة هو صلة النفوس عن طريق إعطاء المال في سبيل الله، وعلى اثر مثل هذه الرابطة المالية يرتبط الأفراد والطبقات مع بعضهم ويسلكون طريق الرشد والطمهارة والاصلاح: «الزكاة: نموّ الزرع، الصلاح والنعمة، طهارة الأرض»، وحقيقة «الصلاة» وروحها هي التي تكون سبب مثل هذه الرابطة، رابطة الرحمة والخير مع الناس، وهذه الحقيقة كانت بصور مختلفة في شرائع جميع الأنبياء، وبمثل هذه الرابطة بين الله والناس يقفون صفّاً واحداً فيأتي الأمر الثالث: اركعوا مع الراكعين، كونوا في هذا الصفّ، وارتبطوا بهذا الحزب، ولا تنفصلوا عنهم. شعار هذا الحزب وعنوانه الخضوع الجماعي أمام الحق، أو المقصود من الركوع هو الصلاة: كونوا جميعاً في صفّ العبادة الجامع للمسلمين: لأن صورة الصلاة تظهر بالركوع، ويتضح بإنجاز الركوع بان الشخص في حال الصلاة، والركوع ركن مهم في الصلاة، ولهذا يقال لفصول الصلاة ركعات (لأقيامات ولا سجّادات)، فالمصلّي بعدما ينصرف عن الغير والتذكر، بمجرد أن يدرك العظمة يُطأطئ برأسه أمامها. وكأنما هذه الجملة هي دعوة القرآن العامة؛ ليكون جميع الناس الذين يخضعون امام الله وأوامره صفّاً واحداً: وباتّساع معنى الركوع فأنّه يشمل جميع الموجودات من عالم العقول والنفوس والطبيعة (كالتسبيح: إِنَّ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ): فالإنسان يتناسق مع جميع العوالم بإقامة الصلاة وإيتاء الزكاة؛ لأنّ جميع الموجودات مرتبطة بالخالق من جهة،



وَيَمْدُونَ الْمَخْلُوقِينَ وَيَخْضَعُونَ أَمَامَ الْمَبْدَأِ وَيَطِيعُونَ أَوَامِرَهُ مِنْ جِهَةٍ أُخْرَى.

﴿أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ وَتَنْسَوْنَ أَنْفُسَكُمْ وَأَنْتُمْ تَتْلُونَ الْكِتَابَ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٤٥﴾  
وَأَسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى الْخَاشِعِينَ ﴿٤٦﴾ الَّذِينَ يَظُنُّونَ  
أَنَّهُمْ مُلاقُوا رَبِّهِمْ وَأَنَّهُمْ إِلَيْهِ رَاجِعُونَ ﴿٤٧﴾﴾.

### معاني المفردات:

الهمزة: للتقريع والتقرير والتعجب.

البر: الاحسان، حب الخير، بالفتح: الصحراء، الفضاء الواسع [مقابل البحر]، وبالضم: القمح، النمو والسعة. إذا بالكسر هو ذلك الاحسان وحب الخير الذي يكون بسبب سعة الصدر والهمة العالية، يقال: فلان لا يميز الهَرَّ من البرِّ، أي أنه لا يميز الذي يطرده ويسيء اليه من الذي يحسن اليه.

يقول المازني: الهَرُّ القَطْ، والبرِّ: الفأرة وأمثالها.

النسيان: زوال ما كان يعرفه عن الذاكرة، السهو حول المعلوم وغير المعلوم.

تتلون: من تلا: عَقَّبَ. التلاوة: القراءة بصورة متتالية.

العقل: في الاصل الصدّ والكفّ، العقال، ما يعقل به ركبة الجمل، والعقل في عرف الحكماء على نوعين: العقل النظري والعقل العملي.

الاستعانة: طلب المساعدة والعون.

صَبَرَ: «على وزن فعل» أقدم وجراً على، امتنع عن، منع الدابة، وكفّ نفسه عن الرغائب النفسية.

الخشوع: الخشوع، يقال غالباً بالنسبة للقلب والباطن والعين، والخشوع يقال بالنسبة للجوارح والأعضاء.

الظن: حالة بين الشك والعلم، التصديق، العلم، ما يمر في الذهن، ويسيطر على القلب،

مقابل اليقين.

الملاقة: التواصل، المقابلة، الإتصال ب اتصال الخطيين.  
الرجوع: العودة الى الحال والوضع الأول.

إنّ ظاهر هذه الآيات خطاب لجميع بني اسرائيل، وأغلب مواضعها تعود لقادتهم الدينيين، ومفهوم الآيات له شمول وعموميّة. هذه الآية: «أتأمرون الناس...» جاءت بعد تلك الأوامر والنواهي تقرّياً وتوبيخاً لعلمائهم الذين كانت لهم مثل هذه الشخصية المزدوجة، وكأنّما هم موجودان: الأول: عقلٌ إيماني محبٌ للخير، والآخر نفسٌ تابعة للهوى، يدعون الناس بذاك للخير والصلاح، وينسون أنفسهم بطغيان الأهواء. مع العلم بأنّ تربية الدين هي من أجل إخضاع النفس لأوامر العقل الإيماني، ثم دعوة الآخرين لما دعوا أنفسهم اليه، والطلب من الناس ما هم عليه، لا أنّهم يفكرون في خير الناس وشرهم، ويزنون أعمالهم بميزان الدين، ويغفلون عن أنفسهم وزنة أعمالهم، ومالم يكن الشخص خبيراً وبصيراً بنفسه لم يكن خبيراً وبصيراً بأمور الآخرين:

تقدّمت بالجهل هذا عليك	مراحل والسبق قدتم لي
فأنت بغيرك لا علم لك	وإني بنفسي لا علم لي <sup>(١)</sup>

والسرّ النفسيّ لمثل هذه الدعوة لم يكن سوى استعطاف الناس، وجعل أوامر الدين ونواهيّة آله للعيش. الانسان الباحث عن النفع، وتأتي حركته نحو كل عمل من الغرائز، ويبحث عن النفع وما يلائم الغرائز والشهوات من كل طريق، إن لم يجعله الإيمان والتربية الدينية بوضع أفضل يتخذ أحد طرق الحياة، وربّما كان أسهل الطرق لهذه الرغبات هو طريق جذب عواطف الناس الدينية، وهذا هو نفس بيع آيات الله بثمر الدنيا الذي يؤدي إلى الضرر النفسي والعقلي والحيويّ. بناءً على هذا فإنّ الواو في «وَتَسْؤُونَ...» عاطفة، وكلا الموضوعين موضع تقرّيع: من أنكم بهذا العمل والاخلاق - حبّ الدنيا، وبيع الآيات، ومزج الحق بالباطل - تدعون الناس الى الخير، وتنسون أنفسكم. واذا كانت هذه الواو

(١) ترجمت البيت الفارسي. (الترجمان).

بمعنى «مع» أو «حالية» يكون التقريع من جهة «تَنْسُونَ»: من أنكم تدعون الآخرين للخير مع أنكم -أو- بينما أنتم غافلون عن أنفسكم؛ لأنَّ الأمر بالخير هو بنفسه عمل جيد صالح ومقبول.

﴿وَأَنْتُمْ تَتْلُونَ الْكِتَابَ...﴾: هذه الواو أيضاً تكون بمعنى «مع» أو حالية: إمّا أنكم حال كونكم تقرأون الكتاب بصورة متتالية، ذلك الكتاب الذي يدعو الجميع للخير واصلاح النفس دائماً، ويوقظ الشعور الفطري. أو إنكم تبادرون بتلاوة الكتاب فقط، فلماذا لا تتفهموه؟ بناء على العطف، مثل هذه التلاوة بدون تدبر وتعقل تكون موضع تقريع. ويكون الكتاب مفعولاً مقدرًا لـ «تَعْقِلُونَ». بناءً على الاول (إذا كانت الواو بمعنى مع أو حالية) تكون «أَفَلَا تَعْقِلُونَ» تقريعاً بالنسبة للأمر بالخير والغفلة عن النفس. ومفعولها عام، أي إنَّ عملكم هذا ليس بعمل الناس الذين يتعقلون الأمور ويفكرون بصورة صحيحة.

مثل هؤلاء الناس كالمريض الذي يبادر بمعالجة الآخرين، أو الجائع الذي يدعو الآخرين الى الشبع، أو صاحب المصباح الذي ينير الطريق للآخرين، وهو يتنكب الطريق في الظلمات.

﴿وَأَسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ...﴾: الاستعانة وطلب المساعدة في مقابل قوّة العدو وصفّه وهجومه. وإن كان في ظاهر هذه الآيات لم يبد ميدان حرب وجهاد، ولكن من خلال المعاني والاشارات يشاهد ميدان حرب رهيبة، والحروب الخارجية شرارة وأثر لهذه الحروب الباطنية، وانتصارها واندحارها هما أثر ونتيجة للانتصار والاندحار في تلك الحروب النفسية، الحرب الناشبة بين العقيدة والايمان [من جهة] والأهواء النفسية والعصبيات وحبّ الجاه والظهور [من جهة أخرى]. تلك العقيدة والايمان اللذان هما حصيلتا الوراثة والتقليد، لا على أثر البرهان والفهم الصحيح.

لهذه العوامل النفسية قلاعٌ ومتارس محصنة وصفوف مجهزة في مقابل مثل هذا الايمان والعقيدة إلى حيث تسلم الميدان إلى حكم الايمان وحكومته، وتخضع لأوامره

على أن تبقى قلاع الأهواء والشهوات على حالها. إن تذكر النعمة، والوفاء بعهد الله، والخوف منه وحده، وإبداء الحق كما هو، وإقامة الصلاة، وإيتاء الزكاة، والركوع مع الراكعين، والعمل بما يعرف ويقول للآخرين، وعدم الغفلة عن نفسه، هذه نماذج حكومة الإيمان التامة على النفوس. الآمال والأهواء النفسية المتضادة تريد أن تأخذ بيدها أزيمة المراكز النفسية لهذه الأمور بصورة أكثر، لتذهب الأهواء بالنعم من الأذهان، والأمنيات تضعف العهود وتجعلها بلا أساس، والقلعة تدحر الإرادة، وتملأ القلب بالخوف والهلع من أجل الدنيا... وشرط الانتصار وسببه في ميادين الحرب الخارجية هو الانتصار في هذه الحرب النفسية الباطنية. والسلاح والجيش واسطة محدودة لا يضمنان الظفر النهائي<sup>(١)</sup> ومن أجل أن يسود الإيمان الفطري، أو الوراثي والتقليدي على هذه العوامل النفسية وينفذ أمره، يجب أن يأتيه المدد من «الصبر والصلاة»: إذاً هذا الصبر لا يعني الاستسلام وعدم الأئين كما يظنه العامة من الناس، ولا غص النظر عن الحوادث (والامبالاة). الصبر هو سلطة الإرادة الإيمانية وسيطرتها على الانفعالات النفسية التي مصدرها الآمال والأمنيات الخارجة عن النفس، وكلما كان الهدف ومنظر الذهن أسمى، كانت القوة والمقاومة بوجه العوامل النفسية أكثر، كما أن مقصد السالكين كلما كان أبعد، كانت مصاعب الطريق أسهل.

فالصلاة تفتح عين العقل، وتجديد للعهد والاستمداد من المبدأ. هذه الصلاة التي تزيد الصبر طاقة، وتسود العوامل النفسية والانفعالات، ما أصعبها وأثقلها، (وبهذا البيان يتضح عود الضمير في «إنها» على الصلاة، والبحث عن موضع آخر أمر تأفه) هذا الثقل على الذين تحدّد مجال نظرهم الذهنية، وقد أخذتهم الدنيا ومناظرها الى درجة أنهم فقدوا شخصيتهم بالغرور. وتعطلت قابلياتهم الباطنية، فالذين لم يكونوا هكذا وهم خاشعون

(١) ترك جمع من المسلمين في غزوة أحد مترس العقيدة والقيادة في مقابل الطمع وحب المال. ففقدوا مترس ريبتهم وكنانتهم، وأصيبوا بالاندحار. وربما كان في هذا المورد حين قال رسول الله ﷺ: «عليكم بالجهاد الأكبر، وهو جهادك مع نفسك التي بين جنبيك».

يكون الصبر والصلاة عليهم أمراً سهلاً وخفيفاً.

﴿الَّذِينَ يَظُنُّونَ...﴾: يرى البعض الظن هنا بمعنى التصديق واليقين، ولم يلتفتوا إلى أن الظن في هذا المورد هو أبلغ من اليقين؛ لأنّ الظن بملاقة الرب يؤدي إلى الخشوع والقلق أيضاً، فكيف باليقين، كما أن كل قلق وأمل وتحرك وحماس يقوم من الظن. وهو تقرّيع بالنسبة للمخاطبين بهذه الآيات من أنهم لو كان لهم ظنّ بملاقة الرب، كان عليهم ألا يكونوا كذلك، فكيف بهم وهم يعتبرون أنفسهم أهل تصديق ويقين. ويشير إلى أنّ الموضوع أسمى من اهتمام الانسان الفكري وادراكه الذهني؛ إذ كلما شعّ من هذه الحقيقة على ذهن الانسان، لما لم يكن واقعه وكامله موجوداً فهو ظن من جهة الواقع، وعلائمه ومقدمات لذلك الواقع.

ان مقدمة قابليات تكامل الموجودات واستيعاب الصورة النوعية العليا وعللها هي هذا الخشوع والاستعداد، والموجود الذي يتوقّف في نفس تلك الصورة والوجود الأول، لا يستحق تلقي صورة أكمل ويفقد التطوّر، ويغلق على نفسه بهذا التحجر أبواب إفاضة الكمال، والانسان أيضاً إذا لم يخشع بارادة واختيار أمام قدرة القهار، لا تفتح بوجهه ابواب الخير والرحمة.

لم يكن اللقاء رؤية - كما يظن البعض - ولو نظرت شخصية من ذوي المناصب لم تقل: التقيت به وعندما ينفّث الباب بوجهك، وزال المانع ودخلت عليه، تقول: إلتقيت به حتى لو كنت أعمى.

إنّ خبر هذا اللقاء في جميع آيات القرآن أو في أغلبها مضاف إلى الرب، لا الى الله، الذي هو عنوان لحقيقة المحيط الاعلى اللامتناهي، ولا أوصافه الأخرى. إذاً المقصود هو اللقاء والوصول إلى الربوبية الخاصة وظهورها الكامل؛ لأن قابلية التربية والكمال في الانسان غير متناهية، وربوبية الله أيضاً غير متناهية، وما لم يكن الخشوع في كل مرتبة لا ينال الكمال والربوبية العليا.

والظن باللقاء ربما يتضمن التشبيه: كخشوع المستعد للمقابلة دائماً وتهيئة نفسه. إذاً

السمو وتفتح النظر هو الذي يزيل ستار الغرور وقصر النظر، وتظلل العظمة والقوة على الفكر، وعندئذ يرى الانسان نفسه تافهاً وصغيراً، أو يفقد نفسه بالمرّة أمامها.

يظهر هذا الادراك والشعور في حال الصلاة التي هي خشوع الباطن وخضوع الجوارح، وكل مقدماتها ومقارناتها وأجزائها وأركانها من قبلة وطهارة، وتكبير وسكون، والاتجاه في جهة واحدة، والركوع والسجود، تمثل هذا الخشوع وجذب الباطن، ثم الصبر والاطمئنان والاستقرار.

جاء في الرواية: عندما كان رسول الله وأمير المؤمنين - صلوات الله عليهما - يواجهان صعوبة أو أمراً مخوفاً، كانا يقفان للصلاة.

﴿يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَنْتُمْ فَضَلْتُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ ٤٨﴾ وَاتَّقُوا يَوْمًا لَا تَجْزِي نَفْسٌ عَنْ نَفْسٍ شَيْئًا وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا شَفَاعَةٌ وَلَا يُؤْخَذُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ٤٩﴾.

#### معاني المفردات:

الفضل: الزيادة في الخير، ما تبقى، التفوق.

مجزي: به، وعليه: كافاً الشخص به، عنه: كان بمكانه، جعله غير محتاج.

الشفاعة: من الشفع: الضم، ضم فرد إلى فرد يناسبه. (الذي يشفع لمجرم يضم اعتبار نفسه لذلك المجرم، وكأنما وهب له اعتباراً وماء وجه نفسه).

العدل، بالكسر: المثل، القيمة، طرف الحمل والثقل، والعدل بالفتح: في مقابل الظلم، الاعتدال في الحياة، المماثل.

تكرّر الخطاب لبني اسرائيل والتذكير بالنعمة الخاصة مرتين، ليكون بداية بيان النعم وعناية الله الخاصة بالنسبة لهم. ففي الخطاب الأول جاء التذكير بالنعم وطلب الوفاء بالعهد، ذلك العهد الذي كان مصدر نعم الله الخاصة، والآيات التي تلت الخطاب الاول

تفصيلٌ لذلك العهد الخاص المجمل وبيانه وهو الإيمان والإتباع، وجاء في هذا الخطاب التذكير والإلتفات إلى النعم التي أدّت إلى تفصيل بني اسرائيل. والآيات التالية أيضاً تفصيل وبيان لنماذج من هذا التفضيل والطاق الله، والصفح في مقابل زلّهم وتمردهم وكفرانهم النعم، إنّ الله فضّل بني اسرائيل بنعمة الهداية في دنيا الضلال، والتوحيد في دنيا الشرك، ونور الإيمان في دنيا الجهل والظلام، والقوانين والشرائع في عالم الفوضى والتوحش، والارتباط في دنيا الانفصام [والانفصال].

هذه خلاصة بعثة الأنبياء ودعوتهم، الذين قام أكثرهم من بين بني اسرائيل. ولم يقدّر بنو اسرائيل هذا التفضيل: فبدّلوا التوحيد بالشرك، والإيمان بالكفر، وانشغلوا بالمراسيم والتشريفات التي تبعث على الغرور، بدلاً من العمل الصالح وتنفيذ أحكام الشريعة، وحوّلوا الدين الإلهي العام إلى امتيازات قومية، ومزجوها بأوهام الشعوب المجاورة والمعاشرة، وبأدروا إلى تربية الآمال والامنيات التي لا أساس لها، بدلاً من التقوى والقلق من الآثام والأعمال واليوم الآخر، حتى أصبحت عقيدتهم العامة هي أن شعوب الدنيا مهما كانوا فهم أهل جهنم وعذاب، ونحن مهما كنّا أهل جنة ونعيم، والأنبياء والعظماء الذين قاموا من بيننا هم الذين يشفعون لنا ويدافعون عنّا. هذه الأوهام والعقائد التي لا أساس لها هي نفس أوهام المصريين وشعوب دنيا ذلك العصر الأخرى، والتي ظهرت بين بني اسرائيل بصورة أخرى. كان الإيمان الفطري بالبقاء مختلطاً بالرسوم والعادات المتداولة في الدنيا وأجهزة الأقوياء هو الذي صار مصدر مثل هذه الأوهام؛ ولذا كانوا يرفعون الاموات بنماذج من آلات القوة والدفاع: مثل جواهر الأبطال الثمينة، الأسلحة، والأصنام ليخلص الميت المذنب نفسه في الدار الآخرة بما يقتضيه الحال من هذه الآلات، وإذا لم تنفع الجواهر والأموال والسلاح، يستشفع بالأصنام الصغيرة لدى الإله العظيم.

نفث هذه الآية مثل هذه الأوهام نفياً باتاً، وفصلت حساب الآخرة عما هو متداول في الدنيا: فالمذنب والمجرم في الدنيا يتوسّل أولاً باعتباره ضمان، فإن لم يؤثر ذلك،

يستشفع بشخص وجيه، ثم يجعل المال والفدية وسيلة، فإن لم تؤثر هذه الأمور، فإن تمكن استعان بقومه وجماعته.

﴿وَلَا تَنْفَعُهَا شَفَاعَةٌ..﴾: انتفت الشفاعة في الآية بصورة نهائية، لأن ما في الاصطلاح تدل النكرة في سياق النفي على العموم لاسيما في هذا المورد الذي هو في وصف اليوم: اي لا شفاعة أبداً، وكل شخص مسؤول عن نفسه وأعماله. وفي بعض الآيات جاءت الشفاعة المطلقة خاصة بالله، مثل: ﴿مَالَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا شَفِيعٍ﴾، ﴿قُلْ لِلَّهِ الشَّفَاعَةُ جَمِيعاً﴾.

وفي بعض الآيات جاءت الشفاعة لغير الله مشروطة بالاذن والرضا والشهادة والعهد: ﴿مَنْ ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ﴾، ﴿مَا مِنْ شَفِيعٍ إِلَّا مِنْ بَعْدِ إِذْنِهِ﴾، ﴿لَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنْ أَرَضَى﴾، ﴿إِلَّا مَنْ شَهِدَ بِالْحَقِّ﴾، ﴿إِلَّا مَنْ إِتَّخَذَ عِنْدَ الرَّحْمَنِ عَهْدًا﴾، ﴿إِلَّا مَنْ أذنَ لَهُ الرَّحْمَنُ وَرَضِيَ لَهُ قَوْلًا﴾، وسلب في هذه الآيات حق الشفاعة المطلقة من غير الله.

الشفاعة في الدنيا وفي نظر العرف العام هي أن الشفيع يحرض الحاكم على العفو، ويغير ارادته حول المجرم. إذاً يتقدم السؤال: كيف يتغير رأي الحاكم العادل بواسطة الشفاعة؟ والحاكم الظالم المستبد هو الذي تتغير ارادته وحكمه كيفما تقتضي مصلحته، وعذاب المجرم في الآخرة لما كان موافقاً للعدل الإلهي، فالصفح عنه يخالف العدل. مع العلم بأن حكم الله وارادته هي نفس الحكمة وسنته الحتمية لا تقبل التغيير، كما تصرح آيات من القرآن بعدم تغيير سنة الله وارادته. ثم إن فتح باب الشفاعة يضعف الدين والشرعية في نظر العامة، وتتغير الأحكام. وهذا يخالف حكمة بعثة الأنبياء وتشريع الشرائع، بل هو مصدر الاختلال في النظام، ويكون سبب أشاعة الذنب، كما يشاهد في بعض الشعوب المغرورة بهذه الأمنية، وربما كان ذنب مثل هؤلاء المغرورين ونقضهم للأحكام أكثر من الذين لا يسودهم الدين بل يسودهم الوجدان والقوانين، لأنهم يحطمون سدّ الوجدان وحدود الدين باستنادهم وأملهم بشفاعة الشافعين، ويلوثون أنفسهم بأيّ



ذنب كان، ويتخلفون عن أيّ اقدام نحو الخير والصلاح والاصلاح.  
ومن جهة أخرى فإنّ الخيبة واليأس يدفعان المجرم والمذنب الى جرم وذنوب أكثر،  
ولكن التوبة التي هي رجوع وانقلاب وتحول تام لم تكن هيّنة للجميع بالمرّة، إلّا أن يكون  
الرجاء بعون الله ومدده وبخلفائه ليعدّوا المذنب للتوبة شيئاً فشيئاً، ويصدّوه - بين  
الخوف والرجاء - من اليأس والاستسلام للشرّ والغرور والجموح عن الخير. إذاً أصل  
الشفاعة محدودة، والبشارة بها أصل من أصول الرحمة والتربية، والقرآن الكريم أيضاً  
نفاها بصورة مطلقة وفقاً لهذا الأصل، ووعد بها في حدود الإذن والرضا، وروايات  
الشفاعة أيضاً جاءت مشروطة محدودة.

يجب أن يكون أصل الشفاعة مثل قوانين وأصول الجاذبية والحركة والسرعة مشمولة  
بشروط وحدود، فالجسم المجذوب إذا لم يكن ضمن حدود تأثير قوّة الجاذبية أو ضمن  
ميدان التشعشع المغناطيسيّ، لم تشمله جاذبية رحمة القوّة العليا، وبمجرّد أن يكون  
ضمن إطار قوّة الجاذبيّة ينجو من السقوط والانحراف، إمّا أن يكون في مدار ومركز  
الجاذبيّة، أو يتّجه نحوها بسرعة تصاعديّة. كما أن جسم الإنسان كسائر الأجسام  
الآخرى يتبع القوانين والقوى العالميّة، والنفس الانسانيّة وباطنه أيضاً يجب أن تخضع  
لمثل هذه القوانين حسب تطابق العوالم: فلو أنّ الآثار الباقية من الإيمان والعمل الصالح  
تجعل النفس الانسانيّة الملوّثة داخل حدود جاذبية الحق العامة وأشعته، وإن كانت مثقلة  
بالذنوب والتلوّث، تنضم إليها قوى الخير العليا وتشفع لها، وتجتذّبها لنفسها أكثر مما  
تستحق، وتطهرها من جرم الذنب والظلام، وإذا صدّ تكرار الذنب فطرة الانسان من  
الحركة نحو الخير والحق، وأبعده عن حدود جاذبيّته، لا تشمله الرحمة. وبهذا الميزان  
يمكن جمع جميع الآيات والروايات المختلفة الواردة في الشفاعة، والإطلاع على رأيها  
الجامع.

وتشير مجموع الروايات الواردة حول الشفاعة لهذا الميزان. كما ورد في «الكافي»  
عن الامام الصادق عليه السلام في رسالة بعثها لأصحابه: «... واعلموا أنّه ليس يغني عنكم من الله

أحدٌ من خلقه، لا ملك مقرب ولا نبي مرسل، ولا من دون ذلك، فمن سره أن تنفعه شفاعة الشافعين عند الله فليطلب إلى الله أن يرضى عنه...»<sup>(١)</sup>.

﴿وَإِذْ نَجَّيْنَاكُمْ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ يُدَبِّحُونَ أَبْنَاءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ وَفِي ذَلِكُمْ بَلَاءٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَظِيمٌ ٥٠﴾ وَإِذْ فَرَقْنَا بِكُمْ الْبَحْرَ فَأَنْجَيْنَاكُمْ وَأَغْرَقْنَا آلَ فِرْعَوْنَ وَأَنْتُمْ تَنْظُرُونَ ٥١﴾ وَإِذْ وَاعَدْنَا مُوسَى أَرْبَعِينَ لَيْلَةً ثُمَّ اتَّخَذْتُمُ الْعِجْلَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَنْتُمْ ظَالِمُونَ ٥٢﴾ ثُمَّ عَفَوْنَا عَنْكُمْ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ٥٣﴾

#### معاني المفردات:

النجاء: العجلة، السبق، التكلم بهدوء، قطع الشجرة، والتخلص من شرّ.  
آل: يقال إنَّ الآل والأهل معناهما واحد، كما أنَّ تصغير آل «أُهَيْلٌ»، وتستعمل لنسبة الفخر والشرف إلى الشخص، وأهل أعم منها، كما يقال: أهل المدينة، وأهل الفساد وأمثال ذلك. ولا تنسب آل لمثل هذه الأشياء، وربما كانت آل من آل بمعنى الفعل ولفظه، يعني رجع واتصل.

فرعون: الاسم العام لملوك مصر، كما أنه كانوا يقولون [لكل واحد من] ملوك الروم «قيصر»، وملوك إيران «كسرى»، والترك «خاقان».

سَامَ: بالمعنى اللازم: ذهاب الأنعام إلى المرعى، حوم الطير على شيء ما. متعدّ لمفعولٍ واحد: عرض المشتري البضاعة، وذكر ثمنها، ومتعدّ لمفعولين: التحريض على أمر صعب، والإذلال.

السوء: القبيح، الشرّ.

البلاء: الامتحان بالخير والشرّ.

(١) استخرجت نص الحديث من كتاب الكافي: ١/٨، الترجمان.

واعد: القرار بين شخصين [أو أكثر]، والميعاد: زمان أو مكان الوعد.  
 موسى: يقال مركب من كلمتين قبطيتين فصارتا عَلَمًا: مُو: ماء. سا: شجرة؛ لأن موسى  
 إلتقط من الماء وبجانب شجرة.

العجل: ولد البقرة، ويمكن أن يكون من العجلة، وهي من صفات العجل.  
 العفو: من عفا الريح الأثر. إزالة اثار الذنب ولوازمه.

أعادت إلى الأذهان هذه الآيات الأدوار المليئة بالمصاعب والآلام والذلّ لبني  
 اسرائيل حتى ظهور موسى ﷺ، وخلاصهم وخروجهم من مصر، واجتيازهم البحر، وغرق  
 الفرعونيين، ورجوعهم إلى عبادة العجل، والعفو عنهم: تُعرض في مفردات هذه الآيات  
 وحملها قصص بني إسرائيل المليئة بالأحداث وأوضاعهم النفسية وتطوّراتهم المعنوية،  
 وحركات الصعود والهبوط، وتقدّمهم وتخلفهم، كاللوحات الفنية والصفحات الحية أمام  
 أعين الناظرين بعد مضيّ قرون وقرون: إِنَّ جَمَلَةً: «نَجَّيْنَاكُمْ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ» بوزن تفعيل  
 (الذي يأتي للتدريج والتكثير) وحركات الفتح والنسبة إلى جمع المتكلم «نا»،  
 واتصال الفعل بـ «مِنْ آلٍ» تصوّر لنا صفحةً من تاريخ بني اسرائيل: وكأنما ننظر عن كتب:  
 كيف يسعون من أجل خلاصهم من سجون جهاز فرعون ومرترقته، وتحت مخالب  
 ظلمهم، فتكون آمالهم ومساعدتهم ومجاهداتهم موضع عناية الله ولطفه: ويفصمون هذه  
 القيود الواحد تلو الآخر بتقوية معنوياتهم وبعثة موسى، إلى أَنْ يَتَخَلَّصُوا فِي النِّهَايَةِ  
 «نَجَّيْنَاكُمْ».

وجملة «يَسْؤُمُونَكُمْ» هي شرح وجواب للكيفية ابتلائهم: وماذا كان يعمل الفرعونيون  
 معهم حتى وصل إليهم مثل هذه الأمداد الإلهية لنجاتهم؟ إِنَّ هَذَا التَّعْبِيرَ «يَسْؤُمُونَكُمْ...»  
 يعبر عن أنواع العذاب الذي كان يحيط بهم من كل جانب ومكان، ويشن عليهم غارته  
 بدون قيد أو شرط، وكان في كل يوم يحوم على رؤوسهم نوع من البلاء، وفي كلّ مدّة  
 يسفر أمام عيونهم وجه موحش قبيح لعذاب جديد: إِنَّ كَلِمَةَ «يَسْؤُمُونَكُمْ» والتعبير بـ  
 «سُوءَ الْعَذَابِ» هنا يجعل السامع مهتماً متسائلاً عن ماهية العذاب وكيفيته، فيذكر للمثال

نوعاً من عذابهم الأليم - من باب بيان المصداق، وذكر الخاص بعد العام: «يُذَبِّحُونَ أَبْنَاءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ...» وكان هذا العمل من أجل الحدّ عن ازدياد نسلهم، وابتلاء بقية الرجال بالنساء الأرامل، والوقوف على أوضاعهنّ المضطربة؛ لينحدروا - تلقائياً - لكل عمل وضيع. وهذا نموذج لاشدّ ذلّة وعذاب.

ثمّ يبيّن القرآن نتيجة عامّة ونهائيّة لهذه الابتلاءات والنجاة وذلك العذاب الأليم: الذي كان أمتحاناً عظيماً من ناحية تربيتهنّ وقياس استعداد بقائهنّ، ومكافحتهنّ وصبرهنّ:

﴿وَفِي ذَلِكَ بَلَاءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ﴾.

«أول شخص جاء إلى مصر من بني اسرائيل هو النبي يوسف بن يعقوب. (كما ذكر القرآن أيضاً قصة المجيء به الى مصر) ثمّ التحق به أبوه وإخوته، أبناء يعقوب الذين كانت لهم دماء طاهرة وابدان سالمة وكانوا مترعرعين في الصحراء، بمجرد أن واجهوا الراحة والارتياح في مصر ازداد نسلهم حيث بلغ عددهم خلال أربعمئة سنة «منذ دخولهم الى مصر وخروجهم منها» ستمائة ألف نسمة: وازدياد هذه الأقلية المتحدة المتعصبة القوية أقلقت فرعون، مما دفع به إلى سوقهم إلى الأعمال الشاقة كنحت الصخور وحملها لبناء الهياكل والقصور الفرعونية من أجل إذلالهم وإيادة نسلهم، ولما كان بنو اسرائيل يعتبرون أنفسهم أحبّاء الله وطائفته، وكانوا يأملون النجاة دائماً، ويحافظون على عاداتهم وخصالهم وقوميتهم، لم تتمكن هذه الضغوط من الإطاحة بهم؛ لأنّ القوّة المعنوية والأمل يقويان الجسم ويجعلان النفس ثابتة بوجه الضغط والمشقة، ولما رأى الفرعونيون هذا الصبر والثبات من بني اسرائيل، ولم يتمكنوا من إيادتهم من هذا الطريق، بادروا إلى ذبح ما يولد من أبنائهم، الى درجة أن القابلات كنّ مأمورات بخنق الوليد من بني اسرائيل بمجرد أن يفتح عينه للنور خالاً، أو يسلمنه بيد جلاوزة فرعون لذبحه (والمشهور عن سبب مجازر فرعون هذه من اليهود وهو تنبؤ الكهنة والمنجمين ليس له سند صحيح، وما قيل يطابق أسلوب المستبدّين والتاريخ، وأخلاق اليهود ونفسيّاتهم).

كانت كلمة «فرعون» لقب يلقب به جميع سلاطين مضر المستبدّين، كما أن لقب

جميع ملوك ايران «كسرى»، وملوك الروم «قيصر»، وملوك الترك «خاقان». وهذه كانت الطريقة للملوك المعاصرين لبني اسرائيل وسياستهم معهم، وربما كان القرآن لهذا السبب نسب هذا العذاب إلى آل فرعون، ويّين ذلك بصيغة المضارع الدالّة على الاستمرار: «يَسْؤُمُونَكُمْ». ويستفاد من التاريخ أنّ آخر فرعون ولد موسى في زمانه، وترعرع في قصره، ثم أُنقذ بني اسرائيل هو «رعسيس الثاني» الذي تسلم زمام الأمور بعد أبيه «سيتي الأول» سنة ١٢٨٨ قبل الميلاد، وعاش سبعاً وستين (٦٧) عاماً.

﴿وَإِذْ فَرَقْنَا بِكُمْ الْبَحْرَ...﴾: هذا بداية فصل آخر وصفحة أخرى من تاريخ بني اسرائيل وقد عرضها القرآن أمام عيونهم بعد الصفحة الأولى: يظهر في عبارات هذه الآية وحركات رجال بني اسرائيل ونسائهم وكبارهم وصغارهم خارجين من مصر خلف موسى بضجّة مشوبة بالقلق والسرور حتى يصلوا إلى ساحل البحر، أمامهم أمواج البحر، وخلفهم الفرعونيون المسارعون، يرون أنفسهم بين خطرين، متحيرين، يبحثون عن محيص، ماذا يعملون؟

يرجعون فيعتذروا من فرعون، يريدون أن يتمردوا على قائدهم موسى الذي جرّهم إلى هذا الطريق، فجأةً انفلق البحر أمامهم، وهجموا نحو الساحل الشرقي يتقدمهم موسى، ولم يمض الوقت حتى طلّوا من ذلك الجانب، فأسرع فرعون وجنودهم خلفهم، والأمواج أيضاً أسرع نحوهم، وجرتهم إلى قعر البحر! فبُهِت بنو اسرائيل الواقفون على ساحل البحر ينظرون: أنّ سلطة فرعون وكبريائه أنمحت كالفقاعة أمام سلطة التكوين السرمديّة، وخمد صوته واصوات جنوده في وسط دَوْرَان المياه. تعرض الآية حركات موسى وفرعون وأتباعهما وتلاطم البحر مع العوامل الباطنية والتغيرات النفسيّة: «إِذْ فَرَقْنَا بِكُمْ» ونسبة الفعل إلى جمع المتكلم «نا» والباء السببيّة تشير إلى الأسباب والعلل الإلهية وصلتها بالعلل النفسيّة: عندما أبديتم - يا بني اسرائيل - استعداداً من أنفسكم، واتبعتم موسى، وأردتم الخلاص من قيود التعلق بمصر التي هي قيود عبوديتكم وذلتكم، واستيقظ فيكم الشعور بعزة التوحيد، سارع مددنا لنجاتكم، سهلت الصعوبات، واجتزتم

من بين أمواج البحر: «أُنَجِّينَاكُمْ» بمعنى الفعل وصيغته (الذي جاء هنا من باب الإفعال بثلاث فتحات متتالية) «فلقنا بكم البحر وخلصناكم بإعلائكم، فجأة وأغرقنا الفرعونيّين، وجذبناهم إلى قعر البحر، وأنتم تنظرون في ساحل البحر للأمواج وإلهم».

يعتبر جميع المفسرين والمؤرخين الموافقين لما ينقله اليهود أن إنفلاق البحر وعبور بني اسرائيل من المعجزات وخوارق العادات، وقد أدركوا هذا المعنى أيضاً من ظواهر آيات القرآن.

قام أحد العلماء المسلمين (السير السيّد أحمد خان الهندي) بالمقارنة حول هذا الموضوع في الآيات من سورة البقرة، وطه والشعراء، وأخذ بنظر الاعتبار الوضع الجغرافي القديم لشمال البحر الاحمر، فيقول: إن موسى اجتاز ببني اسرائيل من المغرب ومن جهة شمال البحر الأحمر - الذي كان يومئذ بحراً قليل العمق - في حالة الجزر، وبمجرد أن وصل فرعون الغافل بالجيش وعرباته الحربية إلى هناك وأراد الإجتياز بسرعة فاجأه المد فغرقهم جميعاً.

إذا كان هذا التبرير في هذا المورد صحيحاً، فخرق العادة الذي يجري على يد هؤلاء الرجال الإلهيين، وجاء في القرآن لم يكن صحيحاً بمثل هذه التبريرات «وسياتي بحث أكثر بمناسبة الآيات حول المعجزات».

﴿وَإِذْ وَاعَدْنَا مُوسَى...﴾ هذا أيضاً بداية فصل آخر وصفحة أخرى من تاريخ اليهود الذي يعرضه القرآن للناظر بعد نجاتهم وغرق فرعون: ومن هنا يتقدم بنو اسرائيل نحو حياة جديدة، وقد انقطعت صلتهم بالماضي باجتيازهم البحر وغرق الفرعونيّين، وكان من الواجب حسب الأنظمة الإلهية أن يخطط برنامج جديد ليدخلهم في نظام القانون. أعدّ موسى نفسه بأمر الهاميّ إلهي لاستيعاب القانون وتلقيه، وكان عليه - في وسط غوغاء بني اسرائيل وحججهم الواهية وطلباتهم المختلفة، وابتلاءات المصير والجوع والعطش والسكن والتشتت - أن يتركهم لمدة ويذهب إلى الجبل أو إلى غار للعبادة والاتجاه الكامل لصفاء فكره وروحه ليكون قابلاً لتلقي أشعة نور الوحي. وقد ترك محيط الشرك

وعبادة البقر في مصر أثره في نفوس اليهود، بحيث كانت سلطة موسى وحده هي التي تتمكّن من جذبهم نحو العزّة والتوحيد، وجميع تلك الآيات والمعاجز لم تؤثر إلّا في حواسهم الظاهرة، وبمجرّد أن ابتعدت عنهم سلطة موسى القاهرة لعدّة أيّام، ونسيّت تلك الآيات، عاد بهم إلى شركهم جاذبية أوهاام مصر الرجعيّة، ورؤية القبائل التي تعبد البقر، وخداع السامريّ، وطار من رأسهم الاهتمام السطحي المبهم بالتوحيد، واتخذوا العجل إلها، وانغمسوا في أخسّ أنواع الشرك والظلام: «وَأَنْتُمْ ظَالِمُونَ».

هذه القصة تشير إلى أنّ المعاجز وخوارق العادات تتم من أجل إخضاع الذين ليس لهم حظّ وافر من العقل والتفكير الصحيح، ولا يجد البرهان والدليل طريقه إلى نفوسهم الجامدة، والإتباع والإيمان اللذان يحصلان عن طريق مشاهدة المعجزة واعتراف الحواس لم يكن لهما قيمة واقعيّة ولا ثبات، وقيّمته الوحيدة هي إزالة المانع من طريق النفوس التي لا قابليّة لها، لتصل الأصول العقليّة إلى النفوس المستعدّة.

كانت معاجز موسى ﷺ المتتالية تدلّ على انحطاط اليهود العقليّ وجمودهم الفكريّ، ولم يخضعوا إلّا من هذا الطريق، أولئك الذين لم يشمّروا عن ساعدهم لأجل ضرب العدو، ولم يجدوا عزّة التوحيد بالعقل والتفكير المستقلّ، ولم يخرجوا بأنفسهم من دائرة الذل والشرك، واتبعوا سلطة المعاجز، وتخلّصوا من العدو المكبل الغريق، واجتازوا البحر المنقلب الممهد بجاذبية القوّة الموسويّة، وبمجرّد أن واجهوا حياة الصحراء الصعبة المليئة بالعز، تمرّدوا على إمامهم، وتمنّوا الارتزاق من الفرعونيّين ولقمة العيش المصحوبة بسياط جلاوزة مصر «كما جاء صريحاً في التوراة - بمجرّد أن غاب الإمام لعدّة أيّام أطلع رأسه العجل الذهبي من بين نفوسهم الهاوية للذهب المتطبعة على البقر ومن بين مجتمعهم»<sup>(١)</sup>.

(١) التوراة: سفر الخروج، ص ٣٢: عندما رأت قبيلة اسرائيل أن نزول موسى من الجبل تأخّر، اجتمعوا حول هرون، وقالوا: قم واجعل لنا آلهة تتقدّمنا، لأنّ هذا الرجل (موسى) أخرجنا من أرض مصر، ولم نعلم ما الذي جرى عليه. قال هرون: أخرجوا جميع أقراط النساء والأطفال الذهبية من آذانهم. ففعلوا ذلك، فأخذها هرون وضربها بالمطرقة، فجعلها على شكل عجل، فقالوا: يا اسرائيل هذا هو إلهك الذي أخرجك

﴿ثُمَّ عَفَوْنَا عَنْكُمْ...﴾: ربّما كان التذكير بعبادة العجل للالتفات إلى نعمة العفو هذه التي هي مقدّمة للشكر، وهذا نفسه تفصيل موردٍ آخر لتلك النعمة، الشكر على إدراك النعمة ومعرفة واهبها، ثم حال الخضوع في النفوس، وبعدها إبداء المعرفة واستخدام النعمة في الطريق الذي يريده المنعم، بعد مشاهدة كل تلك الآيات وأولئك الآباء والأنبياء الذين كانوا أئمة عبادة الله، ينتج مثل هذا الشرك والضلال، بحيث ذهبت نفوسهم كلّها أدراج الرياح، وأظلمت عقولهم، وكانوا قد فقدوا قابليّة البقاء، وكان الواجب أن يفنوا جميعاً. كان هذا العفو من أجل أنّه ربّما يحصل بينهم أو بين أولادهم من فيه القابليّة (أو كما جاء في التوراة: إنّ موسى بتضرعه وتوسّله أدار غضب الله عنهم وخلصهم من الفناء).

﴿وَإِذْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَالْفُرْقَانَ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿٥٤﴾ وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ إِنَّكُمْ ظَلَمْتُمْ أَنْفُسَكُمْ بِاتِّخَاذِكُمُ الْعِجْلَ فَتُوبُوا إِلَى بَارِيكُمْ فَاقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ ذَلِكَ خَيْرٌ لَكُمْ عِنْدَ بَارِيكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ ﴿٥٥﴾ وَإِذْ قُلْتُمْ يَا مُوسَى لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى نَرَى اللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْكُمُ الصَّاعِقَةُ وَأَنْتُمْ تَنْظُرُونَ ﴿٥٦﴾ ثُمَّ بَعَثْنَاكُمْ مِنْ بَعْدِ مَوْتِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٥٧﴾﴾

#### معاني المفردات:

الكتاب: المكتوب، الفريضة الواجبة، الحكم، التقدير.

الفرقان: البرهان، ما يفصل بين الحق والباطل أو بين شيئين.

بارئ: من برأ: شفي من المرض والتلوث والنقص، وطهر، برء الكون: خلقه بصورة

= من مصر، عندئذ بنى هرون مذبحاً للعجل وضاح: غداً عيد الرب، وعندما استيقظوا من النوم بكرة، دخّوا البخور وقدموا القرابين لسلامته، وجلسوا وانشغلوا بالأكل والشرب، ثم وقفوا وبادروا إلى اللعب...». ماذا حدث حتى صار هرون الموحد الداعي إلى التوحيد وشريك أخيه موسى في ابداء الآيات يصنع العجل فجأة (بتصريح أصحاب التوراة السابق) وبيني المذبح ويدعو إلى عبادة العجل؟! فينظر أصحاب العقل والذكاء الحقائق التاريخية وصور الأنبياء العظام في آيات القرآن ويقارنوها بما جاء في التوراة.



صحيحة وكاملة على أساس الفطرة.

الرؤية : الإدراك بالعين.

الجهر: الواضح بلاخفاء، نسب الى العين، والمعاينة تنسب الى الناظر.

الصاعقة : النار النازلة من السماء بشدة، الصوت الرهيب القاتل، الموت الفجائي، عدم

الوعي.

البعث : الإثارة من النوم والموت وحالة السكون والسبات.

﴿وَإِذْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَالْفُرْقَانَ...﴾: هذه الآية هي بداية تطوّر بني اسرائيل نحو حياة جديدة، ويرجع موسى إليهم من الميقات بالألواح التي كتبت فيها الأحكام، وهذه الألواح هي كتاب دوّنت فيه الأحكام وفرقان أيضاً، آيات وبيّنات تميّز بين الحق والباطل، والحلال والحرام، كان كتاباً وفرقاناً لأنه جاء بهؤلاء القوم من أسلوب وتفكير مشّت نحو نظام إلهي وقانوني لتمييز عيون عقولهم الخير من الشر والجيد من الرديء بنور الآيات وتعاليمها، ليسيروا في صراط الهدى المستقيم.

﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ...﴾: كان من الواجب حدوث انقلاب في مجتمع بني اسرائيل ونفوسهم من أجل أن تستعد نفوسهم جيّداً للهداية واستيعاب أحكام الكتاب، والانقلاب هو التوبة، التوبة من الشرك وعبادة العجل والرجوع إلى الباريء والفطرة الأولى لا تقبل إلا بسفك الدم الفاسد والفصد الاجتماعي أمام الباريء، وإذا كانت التوبة تقبل بصورة ظاهرة عند الله التوّاب، فمن ناحية الانقلاب الباطني وطهارة النفوس لا بدّ من الخضوع لسفك الدماء الفاسدة، وقتل النفوس التي عجنّت بالشرك وارتدّت عن الله تماماً:

﴿ذَلِكَ خَيْرٌ عِنْدَ بَارِئِكُمْ﴾: لأن الشرك والتقاليد الفاسدة عندما تمدّ جذورها في النفوس تؤدي بجذر القابلية والحركة نحو الخير إلى الجفاف. والذنوب الأخرى بمثابة الآفات التي تضرب ثمر الشجرة وأوراقها وقشرها ويبقى الرجاء في تجديد حياة الشجرة، لكن الشرك هو كالآفة التي تبيد لبّ الشجرة، وعليه يجب قطعها من الجذور،

لربّما تخضّر من الجذور أغصان سليمة. بناءً على هذا فإنّ هذا الأمر لا ينافي الآية السابقة: ﴿ثُمَّ عَفَوْنَا عَنْكُمْ﴾.

يمكن أن يكون العفو بعد هذه التوبة بقرينة «ثم»، وربما كان كما قيل: إنّ هذا الأمر كان شأنياً وتجريبياً، أي إنّ توبة مثل هذا الذنب هي قتل النفوس المشركة، أو أن الاستعداد والخضوع لقتل النفس أدّى إلى قبول توبتهم، وبغضّ النظر عمّا جاء في التوراة والأحاديث الإسلامية يبدو بعيداً أنّ بني إسرائيل قد قبلوا بمثل هذا التكليف، وأقدموا على الانتحار، مع العلم بأنهم كانوا يتمردون دائماً على تكاليف أخفّ من هذا، ويخلقون الأعذار للفرار منه، حتى قالوا لموسى: ﴿إِذْهَبْ أَنْتَ وَرَبُّكَ فَقَاتِلَا إِنَّا هَاهُنَا قَاعِدُونَ﴾! «يقول في التوراة: وقف موسى أمام المنطقة (منطقة سكنى اليهود الصحراوية) وقال: فليتقدم من كان لله، فاجتمع عليه جماعة من بني «لاوي»، فقال لهم: إنّ ربّ إسرائيل يأمر بما يلي: يحمل كلّ شخص سيفه ويجتاز كل منطقة فيقتل أخاه وصديقه وقريبه. ففعل بنو لاوي، حتى قُتل ثلاثة آلاف شخص من أفراد القبيلة...»، وجاء في بعض الروايات: أظلتهم سحابة مظلمة فتطاحنوا فيما بينهم، فرفع موسى وهرون أيديهما للدعاء حتى قبلت توبتهم. وعدّ البعض عدد القتلى سبعين ألفاً والاحتمال الآخر هو: اقتتلوا النفس الجاحمة ناحته الصنم: «فَاقْتُلُوا» والفاء للتفريع وبيان حدّ التوبة: عليكم التوبة حتى أن تقتلوا أنفسكم.

يقول القاضي البيضاوي: «فَاقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ» إتماماً لتوبيخكم بالبخل وقطع الشهوات، كما قيل: «من لم يعذب نفسه لم ينعمها، ومن لم يقتلها لم يحبّها»<sup>(١)</sup>.

وعرفاء السلف - بناءً على أسلوبهم فسّروا مثل هذه الآيات بالعوالم المعنوية والقوى النفسية أو أولوها، إنّ هذه الآيات الصريحة بنظرها حول الهداية العامة لا تليق بمثل هذه التفاسير والتأويل، وإن كان تطبيق الآيات على القوى النفسية التي تكون الظواهر الطبيعية صورة ومظهراً من مظاهرها غير بعيد عن قوّة بلاغة القرآن: ان ظهور موسى

(١) استخرجت نصّ قوله من تفسير البيضاوي: ١٥٤/١ الترجمان.

كالعقل الالهي الفطري الذي طلع في بلد النفس بالإلهام الالهي وتأيبه؛ ليحرر القوى والعواطف الانسانية من استبداد حكومة فرعون الغضب والشهوة، ويعبىء شيطان الغضب قوى النفس المنفعلة بوجه دعوة العقل، ولا يستسلم لحكم الآيات التوحيدية التي يعرضها العقل، وتمرّ قوى الحق بقيادة العقل من جانب طوفان الأوهام والأهواء وإثارة الأمنيات والإرهاب، وتصل إلى ساحل أمان إشراف العقل، ويحكم على المبادئ الشريرة وقواتها الدفاعية، وتغرق. وان نفس القوى التابعة للعقل أيضاً تضعف وتتخلف بين الفترة والفترة عن مواكبة العقل الطبيعي الكامل بتذكرها للذائد وتربية الأبدان. وينصرف العقل الايماني لمدة من الإشراف على النفسيات وإدارة قواها من أجل الاتصال بالمبدأ الأعلى وأخذ الأوامر والأحكام، فيجرّ مبدأ الوهم القوى إلى الرغبة الطبيعية في عبادة العجل الذهبي الذي هو مظهر حب المال والنهم في الأكل، ويجعلها غافلة عن العبادة والاتجاه إلى الله، ويرجع العقل الكامل المجهّز بالأحكام والقوانين بعد أربعين ليلة (أو أربعين عاماً) لنجاة النفسيات (وهذا هو السير من الحق وإلى الخلق) فأول حكمه التوبة والرجوع وقتل الأهواء النفسية وإياداة حركاتها).

﴿وَإِذْ قُلْتُمْ يَا مُوسَى لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ...﴾: عندما تمكّنت القوى المدركة من الخلاص من صنيعه الوهم - كالصنم والعجل - والحكم عليه وبطلانه، لا تتمكن بسرعة من التحرّر من تأثير الحواس الظاهرة، وإدراك المطلق بالعقل المطلق، وهي تحاول أن تصل إلى الحقيقة المطلقة اللامتناهية ضمن إطار الحواس الظاهرة.

ويبدو ترتيب هذه الآيات في ترتيب الوقائع: بعد أن جاء موسى بالألواح والأحكام، كُلف بنو اسرائيل بتنفيذ هذه الأحكام واحداً بعد واحد، وفي هذا المورد كانوا عندما طلبوا مثل هذا الطلب.

قيل: «ان اليهود تمرّدوا على موسى بعد وفاة هرون في صحراء سيناء أكثر من ذي قبل، وأخذوا يطلبون منه، فكانوا يقولون: إن نعم الله منحت لبني اسرائيل، لا لموسى وبني

هرون فقط، ولذا فإننا يجب أن نرى الله جهرَةً، ونسمع منه الأحكام مباشرة<sup>(١)</sup>. وتفيد «لن» النفي التأييدي، و«اللام» للاختصاص والانتفاع:- «لَنْ تُؤْمِنَ لَكَ»، والمقصود من الإيمان هو اتباع موسى والكتاب والفرقان، وكأثما كانوا يتصورون أن إطاعة أحكام الكتاب هي إطاعة موسى، ولما كانوا لم يريدوا أن يستسلموا إلى موسى بصورة تامة، قالوا بهذه اللهجة الشديدة: «لَنْ تُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى تَرَى اللَّهَ جَهْرَةً» ونسمع منه مباشرة.

﴿فَأَخَذَتْكُمُ الصَّاعِقَةُ...﴾: يبدو أن القصد من الصاعقة هو الصوت الرهيب المرافق للزلزلة والنار، ولازمها الموت وأو الإغماء، الصاعقة هي أثر تراكم الظرف أو المادة والضغط المتزايد عن حدّ القدرة ولربما كانت الصاعقة (على جبل كان بنو اسرائيل أو شيوخهم جاثمين على سفحه) جواباً رهيباً لعامتهم لكيلا يطلبوا مثل هذا الطلب، وجواباً علمياً لذوي الفكر والرأي. فأن تلك القدرة السرمديّة التي أبدعت مواد العالم وعناصره بهذا النظم الدقيق، ظهرت في مظهر المادة ضمن حدود معينة، ولو اتصلت الطاقة والقدرة إلى الصورة المادية أكثر ممّا هي عليه بقليل لانهارت كل الصور والاشكال، ولما بقي منها سوى الدخان والنار كالخلقة الأولى. إذاً كيف يتصور أن تظهر القدرة اللامتناهية في الصورة المتناهية؟!

﴿ثُمَّ بَعَثْنَاكُم مِّن بَعْدِ مَوْتِكُمْ...﴾: الموت مقابل الحياة، وهو كالحيّة له معانٍ إضافية ومراتب، واستخدام الكلمة والاشارات القرآنيّة دليل على اختلاف معاني الموت والحياة، لأن العرف العام يفهم من كلمة «الموت» الفناء وانعدام الحياة الجسميّة، وبعض المفسّرين أيضاً أخذوا المعنى كلّما ذكرت هذه الكلمة في القرآن، وعلى فرض أن هذا التفسير صحيح في كل مكان، فلا يصح في الموارد ذات القرائن، وهنا لو كان بنو اسرائيل أو شيوخهم قد ماتوا جميعاً مع موسى، كان من المناسب أن يقال: «قَتَلْتَكُمْ» بدلاً

(١) التوراة: اصحاح ١٩، سفر الخروج - جاء بقصة مفصلة في هذا المورد كلها تعظيم لليهود إلى درجة أنّها تبين اقتراح المواجهة مع الله وسماع كلامه من قبل الله، ثم تقول: قال الله لموسى: والآن سوف أجيء إليك في وسط سحابة حتى تسمع القبيلة نفسها عندما أتكلّم معك، ويؤمنوا بك إلى الابد، فقال موسى: اذهب إلى القبيلة وطهرهم خلال اليوم والغد....

«أَخَذْتُكُمْ»، ولو كانوا ميتين آن ذاك يجب البحث عن مخرج لجملة: «وَأَنْتُمْ تَنْظُرُونَ». وكلمة البعث هي الإثارة والقيام، فلو كانوا ميتين، فكلمة «الإحياء» التي لها معنى خاص كانت من الأنسب، لاسيما في مقام المنّة. يقول في مجمع البيان «وقيل أنهم سألوا بعد الإفاقة أن يبعثوا أنبياء»<sup>(١)</sup>. وجاء في سورة الاعراف بالنسبة لموسى: «فَلَمَّا أَفَاقَ»، من الإفاقة [في مقابل الإغماء] «الرجفة» بدلاً من «الصّاعقة»، والرجفة هي الحركة الشديدة والزلزلة، والزلزلة بنفسها لا تقتل، ثم يقول: «قال ربّ لو شئتَ أهلكتهم من قبْلُ وإِيتايَّ». ولا تصرّح هذه الآية بموت الجميع، ثم أنّه أخبر عن حاله وحالهم معا، وكلمة «موتكم» بالإضافة إلى الضمير تشير إلى موت خاص لا الموت المطلق. وبناءً على ما قيل، فكانما أصيب موسى وبنو اسرائيل بالإغماء والتكهرب على أثر الصاعقة والزلزلة [عندما كانوا] في سفح الجبل.

يقول بعض المفسرين الجدد: إنّ موسى أخذ بني اسرائيل بعد طلبهم هذا الى سفح جبل بركاني - والذي لا يزال موجوداً في تلك المنطقة - ليخافوا ويتركوا مثل هذا الطلب، ولكن هذا القول أيضاً يخالف ظاهر الآيات. «لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ» تدلّ على أنهم أثيروا الحياة جديدة، لتسيطر عظمة الله وقدرته على قلوبهم، ويدركوا الأحكام والأوامر ويعملوا بها، ويكونوا في مجال نور هداية الوحي والكتاب. ويقوموا بشكر هذه النعمة العظيمة كما ينبغي بانجاز أحكام الكتاب وتنفيذها.

وظهور القدرة واشعاعها على قلوبهم كأنما أعدّتهم لقبول حياة جديدة؛ لتشار قواهم المعنوية، ويسلكوا طريقاً جديداً وأسلوباً جديداً. أصبحت هذه الحادثة (أخذ الصاعقة) حداً فاصلاً بين الماضي والمستقبل ومنطلقاً لحياة أخرى. هكذا تتجلّى على الفكرة هذه الآية بدليل كلمات «ثُمَّ بَعَثْنَاكُمْ» و«بَعْدَ مَوْتِكُمْ» و«لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ»، والله أعلم.

(١) استخرجت النص من مجمع البيان: ١/١١٥. الترجمان.

﴿وَوَلَّلْنَا عَلَيْكُمُ الْغَمَامَ وَأَنزَلْنَا عَلَيْكُمُ الْمَنَّاءَ وَالسَّلْوَى كُلُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَمَا ظَلَمُونَا وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٥٨﴾ وَإِذْ قُلْنَا ادْخُلُوا هَذِهِ الْقَرْيَةَ فَكُلُوا مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ رَغَدًا وَادْخُلُوا الْبَابَ سُجَّدًا وَقُولُوا حِطَّةٌ نَغْفِرَ لَكُمْ خَطَايَاكُمْ وَسَنَزِيدُ الْمُحْسِنِينَ ﴿٥٩﴾ فَبَدَّلَ الَّذِينَ ظَلَمُوا قَوْلًا غَيْرَ الَّذِي قِيلَ لَهُمْ فَأَنزَلْنَا عَلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا رِجْزًا مِنَ السَّمَاءِ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ ﴿٦٠﴾﴾.

### معاني المفردات:

الغمام: السحاب الذي يغطي السماء، ويقال أيضاً للسحابة البيضاء، قطعة من السحاب، من الغم: الغشاء، الهم الذي يغمر القلب.

المنّ: الإحسان إلى من لا يستحقه، كل نعمة، الضعف، القوة، القطع، النقص، يقال للمادة السائلة التي تجفّ على بعض الاشجار كالسكر، مثل شجرة القَرْ، النعمة المباحة.

السلوى: ما يؤدي إلى ارتياح البال، العسل، نوع من الطير.

القرية: مفرد القرى، [البَلْدَة] يقال للمدينة أيضاً، يقال ان «قرى» بمعنى التجمع والإتصال، (يراجع معنى كلمة رغداً والسجود في الآيتين ٢٣، ٢٤).

حِطَّة: مصدر أو اسم مصدر من حطّ، الإنزال أو النازل، تناثر الذنب، إنزال الحمل على الأرض. يغفر: من الغفر: التغطية، الستر، الصفع عن الذنب وتغطيته تحت ستار الرحمة واللطف.

خطايا: جمع خطيئة: الذنب والزلة المتعمدة، خطأ: أوصل بدون قصد، أخطأ: أوصل بقصد.

المحسن: من الإحسان. عمل الخير للغير، إنجاز عمل الخير، أو إنجاز عمل الخير بصورة أفضل.

الرجز، بكسر الراء: الدّئس، العذاب المهين. ويفتح الراء والجيم: صوت الرعد المتوالي، والسحاب المثقل بالماء [وأحد البحور الستة عشر، ويتكون من ست تنفيعات

«مستفعلن»].

﴿وَوَهَبْنَا لَكُمْ...﴾ : هل كانت هذه النعم خاصة لبني اسرائيل المدللين ومن أجل منزلتهم العظيمة؟ الذين يعتبرون أنفسهم المنتجبين وشعب الله المختار؟ وهل أن السحابة كانت تظلمهم طيلة أيام التيه في الصحراء، ويُقدّم لهم المن والسلوى؟ وهل أنهم لا زالوا المنتجبين من قبل الله وقرّة عينه مع ذلك الضلال وعبادة العجل والمخالفات التي لم تكتتمها التوراة وصرّح بها القرآن، ومع كون آبائهم أنبياء الله المنتجبين، ومشاهدتهم الجميع لكلّ تلك الآيات الإلهية؟ وهل أن ربّ هذه العوالم اللامتناهية ينظر الى غير اللياقة المعنويّة والإيمان والعقيدة؟

إنّ الله العظيم لم يعقد ميثاقاً خاصاً مع أحد، ولا صلة قرابة أو صداقة له. ومع ما نعرفه من أنانيّة اليهود الذين يعتبرون أنفسهم قبيلة الله ومنتجبيه، فإن قلنا إنّها من الأساطير الاسرائيليات التي أشيعت بين المسلمين، وأصبحت جزء من تفسير القرآن، لم نكن قلنا جزافاً مع ما لدينا من القرائن. إنّ كلمات هذه الآية وعباراتها لا تدلّ أبداً على أنّ سحابة كانت تظلمهم كل يوم، وتقدم لهم طعام المن والسلوى أو الخبز والطير المشويّ، أو أنّ عموداً من النور كان يتقدمهم كلّ ليلة ويضيء لهم الطريق!

إنّ هذه الآية تبيّن بيلاعة خاصّة وتصوير فنيّ حياتهم البدويّة فقط. إنّ صحراء سيناء (التي سُمي قسم منها بـ «التيه» بعد متاهة بني اسرائيل فيها أربعين سنة) لما كانت قريبة من البحر الابيض والبحر الاحمر والأنهار العظيمة ولم تكن جبال شاهقة بين الصحراء والبحر بحيث تتراكم السحب حواليتها، فتكون السحب الخفيفة أو المشتّتة في حركة مستمرة على الصحراء، ولو كانت سحابة خاصّة مكلفة بأن تظلمهم دائماً، كان تعبير «تظلمكم غمامة» أجدر بذلك.

وبالنسبة لكلمتي «المن والسلوى» لو نفَضَ النظر عن الأخبار التي تحولت إلى أحاديث اسلاميّة ولم تجر الدراسة حولها جيّداً، وعمّا جاء في التوراة، ونعيد الكلمتين إلى معناهما الأصليّ، نفهم من «المن» مطلق الإحسان والنعمة المباحة لمن لا يشكرون

ذلك، ومن «السلوى» ما يؤدي إلى السكون والتسلية. وكان التعبير عن إيصال هذين النوعين من الطعام إلى متناول الأيدي (على حدّ تعبير هذه المنقولات) بـ «بكم» و«إليك» أنسب من «عليكم»؛ لأنّ «عليكم» تفيد الاستعلاء وشمول النعم المغنوية والظاهرية، مثل «هو الذي انزل السكينة على قلوب المؤمنين»، فإذا كان المقصود من «المن والسلوى» هو «الترنجبين»<sup>(١)</sup> والطيور الخاص (والأول منهما كان ينزل على ورق نبات باسم «تمرسك»<sup>(٢)</sup>، والثاني على اغصانه وحواليه)، لم يتضح أيضاً أنّهما خُصّصا لبني اسرائيل؛ لأنه - كما ينقل عن بعض السيّاح - أنّهما لا يزالان يشاهدان في تلك الصحراوات حتى الآن.

وعنايه الله الخاصة بهم هي أنّه [تعالى] بعث اليهم موسى ليخلصهم من أفنية قصور المصريين والفراعنة ومن بين غبار الألم والذل، ومن تحت سياط الحكام الجائرين السفاكين، ومن أكل فُتات موائدهم وفضلاتها، وجعلهم في ظل لطف الغمام الذي هو ظل لطف الله، تحت ضوء الهداية في الفضاء المفتوح وعلى مائدة نعم الله غير الممنوعة، لربما يتغير ظاهريهم وباطنهم في مثل هذا المحيط، أو يتربّى - خلال هذه المدة - من أبنائهم رجال أشداء أقوياء مؤمنين ذوي اخلاق طاهرة وأبدان سليمة وهمم قعساء، ليظهر منهم مجتمعاً ثابتاً قوياً وحضارة عظيمة.

إذا إنّ ما يبدو من تصريح هذه الآية والآيات المرتبطة بها أكثر من كلّ موضوع وقصة تاريخية مبهمّة هو عرض دور الصعود من مصر إلى الحياة الصحراوية قبل السكنى في

(١) سماء الجوهري: «طرنجبين» فقال في تفسير المن: المن كالطرنجبين. وقال ابن سيده في المخصّص: المن ظل ينزل من السماء. ونقل ابن منظور في اللسان عن الزجاج قوله: وأهل التفسير يقولون: أن المن شيء كان يسقط على الشجر حُلُوً يُشرب، ويُقال: إنّهُ الترنجبين. الترجمان.

(٢) الكلمة فارسية، ولم نثر على معناها العربي وقد جاء في ملحق لسان العرب طبعة دار لسان العرب - بيروت في المصطلحات العلمية والفنية: ١٣٠/٣ وهو يتكلم عن مادة المنّ التي تتكون على ورق بعض الاشجار فقال: ومن هذه النباتات في سيناء ضرب من الطرفاء النيلية (*Tamarix nilotica* (L. ومنها الشيخ انتهى. ولفظها الانجليزي يقارب كثير اللفظ الفارسي. فاللفظ الانجليزي تمريكس والفارسي تمرسك ممّا يذهب بالظن إلى أنّها هي. الترجمان.



القرية أو المدينة.

الأمر «كُلُوا مِنْ طَيِّبَاتِ...» بدون ذكر الأمر كأنه يشير إلى أنه لم يكن عليكم وبينكم في مثل هذا المحيط الحرّ من يمن عليكم أو يشارككم، وإنما كنتم تتناولون بمقتضى طبيعتكم ورغبتكم الاطعمة غير المشوبة بالذلّ والألم والمرض.

ويستشف من «ما ظَلَمُونَا...» أنهم لم يتطبعوا على حياة العز، وكانوا يستمنون دائماً السكنى في القرية أو المدينة، ويطالبون بها. ولكن موسى والقادة الإلهيون الآخرون كانوا لا يرون بني اسرائيل مؤهلين - حتى ذلك الحين - للاستقرار وتأسيس الحضارة المقصودة، وكانوا يريدون أو كانوا مأمورين بأن تستمر حياتهم الصحراوية أكثر من هذا، لربّما يكونوا مستعدين بصورة أفضل، وكأن اليهود كانوا يتصوّرون - بقصر نظرهم - أن الله أو أنبياءه يستفيدون من إبقائهم في الوضع الصحراوي، بحيث لو استقروا في منطقة ما تزول تلك الفائدة! ولكن آثار تلك الحياة الحرّة وفائدتها، وعاقبة هذه الحياة المحدودة المحاطة بالجور كانت في صالحهم وضررهم: ﴿وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾.

إنهم تمرّدوا على أوامر الله والاصرار من أجل انتخاب السكن إلى درجة بحيث نزل اليهم هذا الأمر: - «وَإِذْ قُلْنَا أَذْخُلُوا هَذِهِ الْقَرْيَةَ...» يقول البعض إن المقصود من هذه القرية هو «أريحا» الواقعة غربيّ نهر الأردن وشرقيّ بيت المقدس. ويقول البعض: إن «أريحا» هي نفسها بيت المقدس.

ومن جهة فإنّ سياق هذه الآيات يبدو في أن موسى ﷺ كان حيّاً لمُدّة بعد هذا الأمر وكان يعيش مع بني اسرائيل. ومن جهة أخرى فقد جاء في التاريخ أنّ وفاته كانت قبل الوصول إلى هاتين المدينتين. ولما لم يتبادر الى الذهن معنى المدينة من القرية، (وان يقال للمدينة قرية أحياناً) إذاً؛ ربّما كان المقصود هو إحدى القرى الواقعة في الطريق أو المناطق الصحراوية والتي كانت محدودة وقبل الهبوط إلى المدينة [مصر] والتي اختاروها سكناً لهم (وقد ذكرت بعد ثلاث آيات). وأينما كانت هذه القرية لم تكن مقصودة للقرآن، ولو كان أسمها ومحلها مقصودين للقرآن لبينهما. مع العلم بأنّ القرآن لم

يقصد أن تكون مثل هذه الجزئيات موضع اهتمام، وعليه يجب أن لا تلفت انتباه المفسر وتحرفه عن المقاصد الرئيسية.

﴿فَكُلُوا مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ رَغَدًا وَاذْخُلُوا الْبَابَ سُجَّدًا...﴾:

إن هذا الأمر كأمر «وَكَلَامِهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمْ...» الذي صدر بعد سكنى آدم وزوجه في الجنة. وبعد ذلك الأمر، جاء النهي من أجل المحافظة على آدم وزوجه من الهبوط والظلم: «وَلَا تَقْرَبَا». وهنا أمران: «وَاذْخُلُوا الْبَابَ سُجَّدًا وَقُولُوا حِطَّةً...» وكلاهما بدايه تطور: فذلك من أول جنة فردية، وهذا من ثاني جنة فطرية واجتماعية، وفي هذا التطور الثاني الذي تفتح من جهة بوجه نفس الإنسان ذات الأهواء أبواب الامنيات المختلفة كالجاه والمقام والشهوات والتنوع في الأطعمة والألبسة والمنزل - مثل تلك الشجرة المنهية - بعد الحياة الضعيفة في البادية، والدخول في مجتمع القرية: «ادخلوا هذه القرية» والتنبؤ في المنطقة والتعلق بالمحل والمسكن. وهذه الحياة تثير الطباع الوضعية، وتسهل طرق الاعتداء على الحقوق والظلم. وتنحط الروح على أثر ذلك، ويسقط الفرد والمجتمع من الحياة الفطرية. وفي مثل هذه الحياة تكون قوى الإنسان وإدراكاته كالإسفنجة تلتقط الذنوب (كما يقول بعض الشخصيات). إذا فالذي يريد أن يحافظ على فطرته من السقوط في البيئة الاجتماعية عليه أن يكون كالجندي الذي أحاط به العدو واعياً مراقباً: يعي ويراقب الحق ويخضع في مقابله تماماً (وهذه هي حقيقة السجود: سُجَّدًا) ونفض غبار الذنوب عن نفسه «حِطَّةً».

ومن جهة أخرى بمجرد دخولهم إلى المجتمع واستقرارهم تفتح أبواب العلاقات بين الأفراد والطبقات على شكل حقوق وحدود الواحدة تلو الأخرى بعد أن كانت مغلقة في الحياة الصحراوية، وإن كانت الراحة والسرور ميسرة في هذه الحياة بسبب تجزئة العمل وتقسيمه بالتعاون، إلا أن بقاءها وسلامتها يكونان عندما يتخضع الجميع في مقابل الحقوق والواجبات، ويظهرون أنفسهم من التلوث: «ادخلوا الباب...» ولو كان هناك باب محسوس في البين لكان رمزاً لمثل هذه المعاني.

وذهب أغلب المفسرين بعضهم خلف بعض للبحث عن هذا «الباب» وطرقوا هذا الباب وذاك، وضلوا عن باب فهم هذه الآية.

ولو كان الألف واللام للعهد لكان ذلك الباب معهوداً لدى القارىء والسماع، ولما لم يكن معهوداً، إذًا، لا يجب البحث عن باب خاص مصنوع قروي.

وربما كان لكل فئة وطبقة وشعب باب يتجهون منه الى الحقوق العامة، ويخضعون أمامه، كمل نقل عن الإمام الباقر عليه السلام أنه قال : «نحن باب حطتكم». وماذا يكون لو قلنا أنهم بعد الإقامة في القرية وبداية تأسيس الحضارة والحياة الاجتماعية كان على كل فرد أو فئة منهم أن يتخذ لنفسه عملاً ومهنة، ولكل منهم باب يردها ويواجه حقوقاً فردية وعامة. وهذه الحقوق هي من قبل الله والحق المطلق، وعندما يكون الأفراد والفئات التي تشكل المجتمع يعرفون الحق المطلق وحقوق الآخرين، ويخضعون أمامها ويسجدون، تتوثق أواصر الصلة بينهم ويزداد نموهم وتكاملهم، وتقل آفاتهم، ولما كانوا واعين دائماً من أجل نقض غبار الذنوب التي أثّرت من جرّاء المعاشرة والمجاورة، ويجلون أنفسهم عن التلوث وعقولهم من ظلمة آثارها، فإن عناية الله تمحو آثار الزلات والخطايا غير العمدية، كالأمراض البسيطة التي تجلوها مناعة الحياة نفسها: ﴿وَقُولُوا حِطَّةٌ نَغْفِرْ لَكُمْ خَطَايَاكُمْ...﴾، وعندما يقومون بأعمال صالحة، أو أنهم مهما تقدموا بأعمال صالحة أكثر ووجهوا طريقتهم نحو الصلاح بصورة أكثر يزيدهم الله في طاقتهم وقوتهم (حسب معنى الإحسان والمحسن): «وَسَنَزِيدُ الْمُحْسِنِينَ».

إذاً فالمقصود من السجود هنا يجب ألا يكون بمعنى وضع الجبهة على التراب؛ لأنّ هذا التصوّر لا يتلاءم مع الدخول في الباب ولا تحصل منه نتيجة. وليس المقصود التلطف بكلمة «حِطَّةٌ» فقط، كالورد الذي يجري على اللسان دون الانتباه إلى معناه وحقيقته. بل يجب أن تكون هذه الكلمة شعاراً يعلن من الشعور والوعي الباطني. كما يقول مجمع البيان: يقول أكثر أهل العلم: معناه حطّ عنّا ذنوبنا وهو أمر بالاستغفار. وقال عكرمة: أمروا

أن يقولوا: لا إله إلا الله؛ لأنها تحطّ الذنوب»<sup>(١)</sup>.

﴿فَبَدَّلَ الَّذِينَ ظَلَمُوا قَوْلًا غَيْرَ الَّذِي قِيلَ لَهُمْ...﴾: إن أولئك الذين تمردوا في مقابل الحق، واتخذوا الظلم طريقاً لهم بدّلوا الشعار والقول الذي قيل لهم، وأصبح قولهم و شعارهم مثل عامة المجتمعات البشرية الخبز والبطن والشهوات الوضيعة.

ولو كانت الأقوال في هذا المجال مرتكزة على قاعدة قويّة، يجب أن يكون المقصود هو تبديل القول والإلتفات لمثل هذه الأمور، وإلا، فإنّ لفظ «حطّة» ليست لغة عبرية أو سريانية ولا بدّلها «حنطة» كذلك. يقول البعض: إنهم بدّلوها بـ «حطا سمقانا» أي القمح الأحمر!

يفيد تعبير هذه الآية تغيير اهتمام بني اسرائيل وأسلوبهم والسبب والنتيجة، لا أنهم تركوا الأمر أو أولوه. ولو كان المقصود نفس التلغظ بكلمة «حطّة» فلماذا تركوا التلغظ أو تكرار هذا اللفظ السهل؟ وكيف أدى ترك كلمة إلى استحقاقهم مثل العذاب!؟:

﴿فَأَنْزَلْنَا عَلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا رِجْزًا مِنَ السَّمَاءِ...﴾ فالاسم الظاهر «الذين ظلموا» بدلاً من الضمير «عليهم» يفيد اختصاص العذاب بالظالمين، وسببه والقاعدة العامة. ويبيّن أنّ نوع العذاب هو «الرجز» وأنه من السماء. إذا لم يكن عذاباً يبيدهم فجأة، ولم يجد التاريخ أيضاً مثل هذا العذاب على بني اسرائيل في هذه الحقبة من الزمان، ويستفاد من كلمة «الرجز» النكبة وضعف القوى الجسميّة والنفسيّة والذلّ، والنسبة إلى السماء لربما كانت من ناحية الهيمنة واحاطة العذاب ونسبته إلى قوانين العالم العامة. فإنّ شياع الظلم يسبب التشتت والفوضى والخروج عن الحدود: «بما كانوا يفسُقُونَ» الفسق الدائم هو الذي يؤدي إلى مثل هذا العذاب.

﴿وَإِذْ اسْتَسْقَى مُوسَى لِقَوْمِهِ فَقُلْنَا اضْرِبْ بِعَصَاكَ الْحَجَرَ فَانْفَجَرَتْ مِنْهُ اثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَشْرَبَهُمْ كُلُوا وَاشْرَبُوا مِنْ رِزْقِ اللَّهِ وَلَا تَعْتُوا فِي

(١) استخرجت نص قوله من مجمع البيان: ١١٩/١ الترجمان.

الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴿٦١﴾ وَإِذْ قُلْتُمْ يَا مُوسَى لَنْ نَصْبِرَ عَلَى طَعَامٍ وَاحِدٍ فَادْعُ لَنَا رَبَّكَ  
يُخْرِجْ لَنَا مِمَّا تُنْبِتُ الْأَرْضُ مِنْ بَقْلِهَا وَقِثَّائِهَا وَفُومِهَا وَعَدَسِهَا وَبَصِلَهَا قَالَ  
أَتَسْتَبْدِلُونَ الَّذِي هُوَ أَدْنَى بِالَّذِي هُوَ خَيْرٌ إِنْ هِيَ إِلَّا حَيُّوَةٌ مُصْرًا فَإِنَّ لَكُمْ مَا سَأَلْتُمْ وَضُرِبَتْ  
عَلَيْهِمُ الذَّلَّةُ وَالْمَسْكَنَةُ وَبَاءَ مَا يَغْضَبُ مِنَ اللَّهِ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ  
وَيَقْتُلُونَ النَّبِيِّينَ بِغَيْرِ الْحَقِّ ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ ﴿٦٢﴾

### معاني المفردات:

الاستسقاء: طلب السقي، الارتواء.

انفجرت: من فجر الماء: فتح الماء طريقه وجري، باب الانفعال للقبول.

عين ينبوع، محل السقوط، مخزن الماء.

لا تَعْتَوُوا: من العثاء: شدة الفساد، الجموح في الفساد واللامبالاة.

طعام: الغذاء المناسب مع ذوق الآكل، من الطعام، التذوق.

واحد: العدد الأول، على نسق واحد.

أَدْعُ: الأمر من الدعاء: الطلب، المطالبة، وإذا كان من الأعلى فهو أمر.

البقل: الخضراوات الغذائية التي تنبت من البذر.

فوم: [هو ما يعرف عند العامة بـ] الثوم، القمح، الحمص، كل حب يصنع منه خبز.

قِثَاء: بضم القاف وكسر ها: الخيار، خيار شَنْبُر، [ويسمى باللهجة العراقية:

العطروزي]].

البصل: [أشهر من أن يعرف].

مصر: الفاصل بين شيئين، الحد بين منطقتين المدينة، الناحية، المدينة المعروفة.

باء: عاد عليه وانقطع عن الغير، أعاده عليه، اعترف بالحق والذنب، ابتلى بالغضب.

النَّبِيُّونَ: جمع نبي، مشتق من النبأ: المخبر المباغت، وقرأها بعضهم نبياً بهمزة الأصل.

﴿وَإِذْ أَسْتَسْقَى...﴾: إذا كان ترادف الآيات مطابقاً لترتيب حوادث حياة اليهود بعد

الخروج من مصر، كان هذا الإستسقاء وجريان العيون بعد الدخول الى القرية التي أشارت إليها الآية السابقة والإقامة فيها. لا عندما كانوا في الحياة الصحراوية. آخر الآية حيث تقول: ﴿كُلُوا وَاشْرَبُوا مِنْ رِزْقِ اللَّهِ وَلَا تَعْتُوا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ﴾ دليل على إقامتهم واستقرارهم وبداية حياتهم. وهنا كانوا يحتاجون - لاستمرار حياتهم والحيوانات التي كانت لهم، أو الزراعة التي بدأوها - إلى الماء؛ ليستفيد منه القبائل الإثنتا عشرة بدون أن يتزاحموا. وكانوا يشربون من ماء المطر والآبار في السنوات التي يعيشون في الصحراء، ويتنقلون من منطقة إلى منطقة، ويحملون الماء معهم. ويبدو أن هذه الآية تقصّ قصّة في مورد خاص، لا أنهم عندما يواجهون عدم الماء في كل مكان يخرج لهم النبي موسى بعصاه الماء<sup>(١)</sup>.

بناء على هذا فإنّ موضع الإستسقاء يجب أن يكون في نهاية الحياة الصحراوية، وفي منطقة معدّة لسكنائهم واستقرارهم، بحيث كانت هناك قرية أو أخبية بساكنيها، وأنّها أصبحت قرية بعد وصول اليهود إليها.

وذهب البعض في تفسير هذه الآية وراء الحجر والعصا، وأنّها أيّة عصا كانت، والالف واللام في «الحجر» تشير إلى أي حجر. فالآية تدل على عصا بيد موسى وحجر أمام عينيه، وربما كان الحجر (كما تقول التوراة) صخرة من جبل ينفجر الماء منها، وإذا كانت

(١) تقول التوراة في سفر الخروج باب ١٧: ثم ارتحل بنو اسرائيل من صحراء سيناء بأمر الرب، وأقاموا في «رفيدم»، ولم يكن هناك ماء للقبيلة فوثبوا على موسى... وقالوا: لماذا أخرجتنا من مصر، هل أردت أن تقتلنا وأولادنا جميعاً من العطش؟! فتضرّع موسى إلى الله وقال: إلهي ماذا أصنع مع هؤلاء الناس، سرعان ما يرجعونني. فقال الرب: خذ الشيوخ بالعصا التي ضربت بها النهر وتقدّم، وأنا أقف هنا أمامك على الصخرة في «حوريب»، فاضرب الصخرة يخرج منها الماء... ودعا اسم الموضع «مسّه ومريبه» من أجل عنف بني إسرائيل...

جاء في قاموس الكتاب المقدس: «رفيدم أحد منازل بني اسرائيل، لا يبعد كثيراً عن جبل سيناء، ولما كان أستخراج الماء من الصخرة على سبيل الإعجاز لأولئك المحتجين المتمردين، يعتقد البعض أن هذه الواقعة حدثت في وادي «فاران»، ويرى البعض كانت في وادي الشيخ... ويناسب وادي فاران مجتمع بني اسرائيل بصورة جيّدة وهو الموضع الذي يدعى بـ «حصي الخطاطين»، ويناسب موضع الصخرة المذكورة تماماً...»

تقول في هذا الباب: حاربت قبائل العمالة بني إسرائيل في «رفيدم».

قدرة تأثير العصا فقط دون استعداد أخرجت الماء كانت جملة «أفجرت» أكثر مناسبة من «أنفجرت»؛ لأنَّ باب الإنفعال يفيد تقبُّل الأثر والاستعداد. وجاء في سورة الأعراف عبارة «أنبجست»، والإنجاس هو فوران الماء قليلاً قليلاً. بناء على هذا فالماء ازداد تدريجياً<sup>(١)</sup>.

ولما كان أوَّل وسائل الحياه بعد الاستقرار في الأرض هو الماء، فتقسم من بداية الأمر بصورة عادلة بين أسباط بني اسرائيل الإثني عشر وفي مناطقهم، لكيلا يسبب التعلق بالملكيَّة والعصبيات العائلية الاختلاف والنزاع بينهم، ولأجل أن يحافظوا على وحدة قواهم في مقابل الأعداء الذين كانوا يواجهونهم. وكل ما كان فإنَّ أوامر آخر الآيه هي المقصودة بصورة أكثر: ﴿كُلُوا وَاشْرَبُوا مِنْ رِزْقِ اللَّهِ وَلَا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ﴾. هذا الأمر - بدون ذكر الأمر - يعني أنه من باطن العالم والأرض والسماء وظاهرها للجميع وإلى الأبد: فيد القدرة وعصاها وعوامل الطبيعة تفجر الأحجار دائماً، وتجري المياه من سفح الجبال، ليشرب عامة المخلوقات التي تعيش في الأرض وعلى شواطئ الأنهار، ولتتحد قواهم للعمل وجعل الثروات الطبيعيَّة في متناول اليد، والتعايش معاً. وهذا هو نداء الحق المرتفع من ضمائر المصلحين الاخيار وألسنتهم الصادقة، ولكن ضوضاء الطمع والجشع تمنع من وصول هذا النداء إلى الآذان وأن يستقر في القلوب، وبتنفيذه يصبح وجه الأرض كالجنة!

﴿وَإِذْ قُلْتُمْ يَا مُوسَى لَنْ نَصْبِرَ...﴾: الرغبة في تنوع الطعام، الملل من الحياة

(١) يقول المحقق الهندي السيّد أحمد خان، واخذ ضرب العصا كالضرب في الأرض والحجر بمعنى سلوك الطريق الجبلي الصخري، يقول: «بحث موسى وسعى في الجبل حتى وجد العيون». يقول: «وهذا يطابق ماجاء في التوراة في الباب ١٥، الآية ٢٧ من سفر الخروج: ثم جاء بنو اسرائيل نحو «إيلم» وكان هنا اثنتا عشرة عيناً وسبعون نخلة فنزلوا على هذا الماء». وهذه الينابيع الجبلية في منطقة إيلام التي وجدها موسى بضرب العصا، قد اندثرت الآن على أثر تطوّرات الطبقات الأرضية، ولكن بالقرب منها قد حفروا ما يقرب من سبعين بئراً ذكرى لتلك الينابيع أشتهرت بـ «عيون موسى». وفي هذه المنطقة تنمو شجرة «الطرفاء النيلية» التي يتجمع «المن» على أوراقها.

إنَّ تبرير هذا المحقق وإن كان يوافق هذا الباب من التوراة، ولكنه لا يتطابق وظاهر الآية، والباب السابع عشر من التوراة المذكور سابقاً.

في الصحراء، سوء الطبع والاحتجاجات التافهة، كل هذه الأمور دفعتهم إلى مثل هذا القول. واليهود مع كل ما رأوا من الآيات من موسى، وسمعوا من الوعود التي شاهدوا بعضها، وعليهم أن يصلوا الى البعض الآخر مثل احتلال المدن وتأسيس دولة مستقلة قوية بعد الرحلة والتنقل في الصحراء، مع هذا كانوا يتمردون على هذا النبي العظيم مع اطاعته ومسايرته، بل كانوا يسيئون الظن به، كما كانوا يقولون: أخرجتنا من مصر لتقتلنا من كثرة الجوع والعطش!

وكانوا يعيشون دائماً في حال شك وريب، ويبحثون كل يوم عن حجة وعذر، كانوا يثورون على موسى تارةً، ويطلبون منه إلهاً خاصاً تارةً أخرى، وتارة كانوا يطالبونه بالرجوع الى مصر.

حرف «لن» في هذه الآية والآية السابقة: «لَنْ تُؤْمِنَ لَكَ» يدل على حججهم الواهية وتعنتهم. وفي الحقيقة كانت الحكمة الالهية وقصد موسى والعظاء هو هذا، وهو أن يباد هؤلاء القوم المتطبعين على الذلة وضعف الارادة والعجز، خلال مدة حياتهم في الصحراء، ويحل محلهم أولاد أقوياء ذوو طموح وهمم عالية. واحتمال أن يكون بنو اسرائيل قد ضاقوا ذرعاً من البطالة في الصحراء لأنهم كانوا قد اعتادوا الزراعة والعمل في مصر، فتقدموا بمثل هذا الطلب غير صحيح؛ لأنهم كانوا في مصر يجبرون على العمل والزراعة بقوة السياط، والآية أيضاً تقول عن لسانهم: ﴿فَادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُخْرِجْ لَنَا مِمَّا تُنْبِئُ الْأَرْضُ!﴾ وهذا التعبير يدل على تراخيهم وطفيليتهم، لكونهم عائلة وطفيليين إما على الناس أو على موسى وإله موسى؛ لينبت لهم من محاصيل الأرض ما يرغبون بدون تعب. هذه الخضروات والحبوب «مِنْ بَقْلِهَا وَقِثَّائِهَا...» التي طلبوا إنباتها من الله والنبي كانت نموذجاً من محاصيل الأرض ومطالبتهم بالتفنن والتنوع في الطعام؛ لأن بني اسرائيل كانوا يتمتعون في أيام حياتهم الصحراوية وبعد أن استقروا لمدة في القرية بالأطعمة البسيطة الصحراوية الطبيعية وما تدرّ عليهم أبقارهم وأغنامهم (التي كانت معهم كما يحدث



التاريخ)، ولكن هذه الأطعمة كانت بسيطة وعلى نسق واحد. ومثل هذه الأطعمة الحيوانية عندما تتركب مع أنواع المحاصيل الزراعية، تظهر أنواع من المروقات، ويبدأ التنوع والتفنن. والإتساع في التنوع وذلك بدون كدّ وتعّب إنما يتهياً في حياة المدن المرفهة.

يفتح هذا الطلب صفحة جديدة في حياة بني إسرائيل، وأنهم يميلون إلى المدينة بعد الانتقال من الحياة الصحراوية والاقامة في القرية. وهذا - في الحقيقة - نموذج ومثال من التطورات الاجتماعية يتمثل في قصة حياة اليهود في القرآن.

إن التحول من الحياة البدوية (الصحراوية) إذا كان يبدأ من المبادئ الإيمانية والأسس الأخلاقية، وتتقوم عناصره وأساسه الأولى من أشخاص مؤمنين ذوي مسؤولية وجدانية وطبع إنساني، ويوجهون من قبل تعاليم قادة مفكرين مجتهدين، تكون النتيجة التنسيق الفكري والتقدم العقلي واستفادة الأشخاص والطبقات وإفادتهم، وإعمال قواهم النفسية، وتكون الثروات الطبيعية في متناول اليد وهذه هي المدينة الصحيحة والمدينة الفاضلة أو الإلهية:

«سميت يثرب بعد هجرة الرسول الكريم ﷺ وأصحابه باسم «المدينة»<sup>(١)</sup> وأصبحت الهجرة إليها واجبة بالنسبة إلى الذين كانوا يعيشون في صحراء الكفر والشرك ومدنه [والرجوع عن الهجرة]. سمي رجوعاً إلى الجاهلية والتعرب بعد الهجرة، وأصبح مذموماً منهياً عنه. روي عن الرسول الكريم ﷺ أنه كان يدعو الله: إلهي ثبت هجرة أصحابي وأمضها، ولا تردهم على الأعقاب<sup>(٢)</sup>.

ولو بدأ التمسك بالمدينة والاجتماع فيه من مبادئ الشهوات وتأمين اللذائذ، فهو

(١) لم يكن تسمية يثرب بالمدينة تسمية تعيينية؛ بل تعيينية لأنها أخذت توصف بمدينة الرسول بعد هجرة الرسول الاعظم ﷺ إليها مع أصحابه، ثم حذف المضاف إليه على مرور الأيام واكتفي بالمضاف فقط أي بلفظ «المدينة» الى درجة بحيث يتبادر الذهن إليها بمجرد صدور اللفظ شريطة أن تكون مصحوبة بالعهديّة. الترجمان.

(٢) لم اعثر على النص العربي للحديث. الترجمان.

ملازم لانحدار القوى المعنوية والعقلية والجسمية وسقوطها من محيط الحياة الفطرية البدوية؛ لأنّ حياه الصحراء وعاء طبيعيّ يحافظ على العقل الفطريّ والنفسيات والجسم من الآفات من كل ناحية، وينمي القوى الفطرية. فالعقل الفطريّ في الصحراء يواجه نظام التكوين، ويتغذى الجسم من النور والهواء والأغذية الطبيعية. ولا تحدّده حدود القوانين وقيوده، وكل فرد أو قبيلة منتبهة دائماً إلى العدوّ وتملك نفسها وتدافع عن حقوقها. ولم يكن فرد الصحراء وقبائلها كالمدينين المساكين عالة وطُفيلين على الآخرين. ولا طريق للطباع السيئة المسرية والأمراض الناتجة عن التفنّن [في الأطعمة] والنهم الشائعة في المدن، لا طريق لها في حرم الصحراء. ولذا فإنّ مثل هؤلاء الناس يتقبلون التربية والتهذيب والهداية أكثر من غيرهم. كما أنّ أتباع الأنبياء والمصلحين والمدافعين عن الحرمات انطلقوا من بين هؤلاء. ولكن المدينين الذين اجتمعوا مع بعضهم للتفنن والنهم والكسل، ويدعون مثل هذا التجمع مدنية، تكون أجسامهم وأرواحهم ضعيفة وعاجزة، ويستخدمون قواهم العقلية وتفكيرهم في الحيلة وتدبير المعاش وطرقه، ولذا فإنّ الأبواب تخلو من الإدراكات الفطرية، وتخيم عليها الأفكار الشيطانية وتمنع عنها النور، فيتخلفون عن إدراك غاية الحياة السامية وتمييز الخير والصالح، وتتراخي الإرادة في مقابل القوانين وعنف الحكومات المستلزمة لمثل هذه الحياة.

إنّ مثل هؤلاء المدينين يقعون دائماً في معرض التقليد والمحاكاة، ويتهيجون بإثارة الطمع والجشع وهيجان العواطف ويخمدون، ويتبعون كلّ صوت، ويرقصون كل يوم على قرع كلّ طبل، لأنّهم يعيشون تحت سيطرة القوانين والبوليس، ولا قوّة لهم للدفاع، ولا يفكرون بالعدو، ويضطجعون دائماً في فراش الراحة وعدم المبالاة. وكلما ضعفت قوّة إرادة هؤلاء المدينين ومقاومتهم وضعف جسمهم بصورة أكثر، ازدادت عليهم سلاسل الرقيّة والعبودية على شكل قوانين في صالح الطغمة الحاكمة. إلى أن يخلو باطنهم من قابلية الخير وروح العزّ والشرف والخصال الانسانية الأخرى. فينقلبون إلى أخسّاء أشباه الانسان، وجهلة أشباه العلماء، ومرضى أشباه الاصحاء، وأرقاء أشباه السادة،

ومحكومين كالحاكمين، بأبدان مرضى ونفوس ذليلة سائبة. ومثل هؤلاء الناس هم عبيد كل قوي، وأعداء كل ضعيف، ولقمة كل صياد، وسخريّة كل مكار. والبيئة التي تتألف من مثل هؤلاء لا تنتج سوى العجز والحيرة والذل، و تنسدّ بوجوههم أبواب الخير والسعادة، وتفتتح أبواب الشر والفساد.

نعم؛ إنّ الاسراع في الوصول إلى الشهوات الكاذبة، والاقبال على التنوع والتفتن يؤديان إلى مثل هذه البيئة. قال اليهود: «لَنْ نَصْصِرَ عَلَى طَعَامٍ وَاحِدٍ...» فقال ذلك النبي العظيم الذي يفكر بالخير وينظر الى العواقب:

﴿أَتَشْتَبِدُونَ الَّذِي هُوَ أَدْنَىٰ بِالَّذِي هُوَ خَيْرٌ...﴾: الهمزة للانكار والتعجب، و«الذي» الموصوف بـ «أدنى» تدلّ على البيئة والحياة الوضيعة الشريرة التي تبدأ من التنوع في الأطعمة والشهوات. «الذي» الموصوف بـ «الَّذِي هُوَ خَيْرٌ» يعيد الى الازدهان بيئة الحياة البسيطة المجيدة السابقة التي هي مصدر كل خير.

وهذه من بلاغة القرآن الخاصة أن جعل الخير مقابل الأدنى اللذين يفهم من كلّ منهما وصف صريح و صفة متقابلة مع الأخرى: إثارة الشر من الأدنى، ومن الخير الرفعة والتفضيل.

﴿إِهْطُوا مِصْرًا...﴾: إنّ هذا الهبوط هو صورة أخرى من هبوط آدم: «إِهْطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ...» (الآية ٣٥). كان هبوط آدم فردياً ومن جنة العقل والفترة النبوية وبسبب التقرب من الشجرة، الى مهبط التضادّ والعداء، وهذا هبوط اجتماعي (في مثال قصّة اليهود) وهبوط محيط فطري بدويّ بسبب الاهتمام بالتنوع في الطعام، الى مهبط الذلة ومسكنة المجتمع المنحدر المتمرد من أحكام الله المبتهلى بغضب الله.

وبعد هبوط آدم وذريته بشرّ الربّ الحكيم بأن يبعث هداةً للإنقاذ وإضاءة طريق الصعود - فالذين يتبعونهم ينجون من حزن الإنحدار وخوفه: ﴿فَمَنْ تَبَعَ هُدَايَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾.

إنّ استذكار قصص اليهود بعد قصّة آدم تحقيق لهذه البشارة، وصعد بنو اسرائيل باتّباع

هداية موسى من مهبط خوف مصر وحزنها، وعادوا الى جنة الأمان والفطرة والحرية، إلى أن اجتذبتهم جاذبية الشهوات إلى الأسفل مرة ثانية، وتمردوا على الهدى، فابتلوا بالهبوط في المدينة والمجتمع الشرير. والمقصود من «مصر» هنا التي جاءت نكرة ومنونة هو المدينة والمجتمع الواسع، لا البلد المعروف كما يظن البعض؛ لأنه من المسلم أن بني إسرائيل لم يعودوا الى مصر بعد ذلك ولا هم كانوا قد وصلوا الى بيت المقدس حين نزول هذا الأمر «اهبطوا»؛ لأنهم لم يكونوا يقربوا منه بعد. والتعبير عن المدينة والمجتمع الكبير بمصر ربما كان من جهة الشبه اللفظي للتذكر بحياة بني إسرائيل الذليلة في مصر حيث سوف يواجهون مثل هذه الحياة مرة ثانية نتيجة طلباتهم وجزعهم:

﴿فَإِنْ لَكُمْ مَسْأَلَةٌ مِنْ رَبِّهِمْ فَأَلْزَمُوا الْفَلَاحَ وَالْجَلَدَ وَالْمُسْكِنَةَ وَبَاءُوا بِغَضَبِ اللَّهِ...﴾: كل ما تريدونه موجود في المدينة بدون تقوى، وباب الشهوات والتنوع في الأطعمة والتفنن في الحياة مفتوح؟ ويرافق ذلك الذلة والمسكنة وحقد المخلوق وغضب الله. وكلما أنفتح المجال أمام الأمنيات الخداعة أكثر توثقت قيود رقية المال الذي هو آلة الأمنيات ورقية الأقوياء والحاكمين بصورة أكثر على النفوس وخمدت شعلة هداية العقل وحرارة الغيرة والرجولة والهمة أكثر فأكثر، وترسخت طباع النفاق والرياء والكذب والتملق في النفوس أكثر من كل وقت.

فالذلة تحيط كالخيمة بمثل هؤلاء الناس من كل جانب. أو تبقى في نفوسهم كالنقش الثابت، وتتحول الى ملكات وأخلاق: «ضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذَّلَّةُ...» كما أنه لا يستيقظ الشعور بالعزة والرفعة في مثل هؤلاء الناس ابداً، فيصبحون كالماء الراكد مورداً لكل وارد ومكاناً لنمو أنواع [جراثيم] الأمراض وانتشارها: «والمسكنة». وتغلق بوجوههم أبواب الخير؟ وتفتح أبواب الشر، إلى درجة بحيث أينما اتجهوا يواجهون الغضب الإلهي الذي يبدو من عيون الناس وقلوبهم وألسنتهم، وهم أيضاً غاضبون على أنفسهم - بحكم الضمير - ويرثون من أنفسهم. وعندما تلتهب شرارة هذا الغضب من باطن المجرم وغير المجرم تحوّل وجه البيئة والفضاء إلى حالة الغضب أيضاً.

﴿وَبَاءُوا بِغَضَبٍ مِّنَ اللَّهِ﴾ بالنظر إلى هذا البيان ينكشف الستر عن أسرار كلمة «بَاءُوا» وتنكير «بِغَضَبٍ» و«مِّنَ» النشئية والابتدائية في «مِّنَ اللَّهِ» الى حدٍّ ما.

﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ...﴾: لَمَّا اتَّبَعُوا الشَّهَوَاتِ انْطَفَأَ نُورُ عَقْلِهِمْ فِي مَجْرَى أَهْوَائِهَا؛ لِأَنَّهُمْ ابْتَلَوْا بِالْمُلْكَاتِ وَالْعَادَاتِ السَّيِّئَةِ، وَصَدَّاتِ صَفْحَةِ فِطْرَتِهِمْ. وَعَلَى اثرِ هَذَا التَّغْيِيرِ صَارَ الْكُفْرُ بِآيَاتِ اللَّهِ طَرِيقَتَهُمْ وَحَرْفَتَهُمُ الدَّائِمِيَّةَ. وَأَصْبَحُوا يُوَاجِهُونَ الذَّلَّةَ وَالْمَسْكِنَةَ نَتِيجَةَ الْكُفْرِ بِالْآيَاتِ الْجَلِيلَةِ فِي الْعَالَمِ، الَّتِي تَشَعُّ مِنْ وَجُودِ الْأَنْبِيَاءِ وَالسَّنَنَةِ؛ لِأَنَّ الْإِيمَانَ بِالْآيَاتِ الرَّبُّوبِيَّةِ هُوَ الَّذِي يَنْبِيرُ الْفِطْرَةَ وَيُلْهَبُ الْعُقُولَ وَيَقْوِّمُ الْإِرَادَاتِ فِي طَرِيقِ الْخَيْرِ وَالْعَمَلِ: «ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ...» بَيَانٌ لِّسَبَبِ الذَّلَّةِ وَالْمَسْكِنَةِ. وَتَفِيدُ «كَانُوا» تَغْيِيرَ الْفِطْرَةِ، وَ«يَكْفُرُونَ» الْإِسْتِمْرَارَ فِي الْكُفْرِ.

﴿وَيَقْتُلُونَ النَّبِيِّينَ بِغَيْرِ الْحَقِّ...﴾: وَعَلَى أَثَرِ انْغِمَاسِهِمْ فِي الشَّهَوَاتِ وَكُفْرِهِمْ بِالْآيَاتِ يَقْتُلُونَ الْأَنْبِيَاءَ الْعِظَامَ الَّذِينَ يَسَارِعُونَ إِلَى مَسَاعِدَتِهِمْ وَوَعِيهِمْ لِأَنَّهُمْ يِعَارِضُونَ أَهْوَاءَهُمْ وَشَهَوَاتِهِمْ بِغَيْرِ حَقٍّ (كَمَا أَنَّهُمْ يَقْتُلُونَ الْعَقْلَ وَالضَّمِيرَ اللَّذِينَ هُمَا نَبِيَانِ بَاطِنِيَانِ) وَإِنْ لَمْ يَقْتُلُوهُمْ فِي الظَّاهِرِ يَخْمَدُوا دَعْوَتَهُمْ وَصَوْتَهُمْ دَائِمًا. ﴿ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ﴾ يُمْكِنُ أَنْ تَعُودَ «ذَلِكَ» عَلَى الْكُفْرِ وَقَتْلِ الْأَنْبِيَاءِ؛ وَسَبَبُهُ التَّمَرُّدُ وَالتَّطَبُّعُ عَلَى الظُّلْمِ، أَوْ تَعُودَ عَلَى جَمِيعِ الْأُمُورِ الْمَمْرُوءَةِ.

وعاد سياق الآية من جملة ضُرِبَتْ عَلَيْهِمْ... من الخطاب إلى الغيبة: لِأَنَّهُمْ أَعْرَضُوا عَنِ اللَّهِ وَأَمْرَهُ وَاتَّجَهُوا نَحْوَ الشَّهَوَاتِ الْوَضِيعَةِ، فَأَعْرَضَ اللَّهُ وَجْهَ الْخُطَابِ عَنْهُمْ أَيْضًا، وَوَدَّعَ قِصَّةَ ذَلَّتْهُمْ وَمَسْكَنَتَهُمْ وَالْغَضَبَ عَلَيْهِمْ، وَكُفْرَهُمْ بِالْآيَاتِ، وَقَتْلَهُمُ الْأَنْبِيَاءَ وَتَمَرُّدَهُمْ وَاعْتِدَائَهُمْ صَفْحَاتِ التَّارِيخِ بِالْخَبَرِ عَنِ الْمَاضِي الْمَحْقُوقِ الْوَقُوعِ. وَهَذَا مِنْ مَعْجَزَاتِ بَلَاغَةِ الْقُرْآنِ وَتَمَثِيلِهِ وَتَصْوِيرِهِ!

﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالنَّصَارَى وَالصَّابِئِينَ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ  
الْآخِرِ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ (٦٣)

وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ الطُّورَ خُذُوا مَا آتَيْنَاكُمْ بِقُوَّةٍ وَاذْكُرُوا مَا فِيهِ  
لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿٦٤﴾ ثُمَّ تَوَلَّيْتُمْ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ فَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ لَكُنْتُمْ مِنَ  
الْخَاسِرِينَ ﴿٦٥﴾ وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ الَّذِينَ اعْتَدَوْا مِنْكُمْ فِي السَّبْتِ فَقُلْنَا لَهُمْ كُونُوا قِرَدَةً  
خَاسِئِينَ ﴿٦٦﴾ فَجَعَلْنَاهَا نَكَالًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهَا وَمَا خَلْفَهَا وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٦٧﴾ ﴿٦٧﴾

### معاني المفردات:

هادوا: صاروا يهوداً. قيل: إنها من هَادَ (تاب وعاد) لأن اليهود تابوا من عبادة العجل،  
أو من هاد بمعنى مَالٍ، لأنهم أعرضوا عن أوامر موسى؛ لأن كلمة «يهود» لغة عبرية؛ إذاً لا  
يمكن البحث عن مادتها في اللغة العربية، ومعناها بالعبرية الثناء، وهو اسم الابن الرابع  
ليعقوب؛ لأن أمه حين ولادته كانت تنني على الله، وكان أقوى أسباط إسرائيل أبناء  
يهودا، وأفضل مناطق فلسطين بعد فتحها بقيادة يوشع وقعت بأيديهم، وأضحت مدينة  
يهودية المركز الديني والمحافظة على ناموس موسى وأحكامه، واستمرت سلطنة سبط  
يهودا بعد خراب دولة اسرائيل خمسا وثلاثين ومائة سنة (١٣٥)، ولذا دُعي جميع  
الاسباط باسم اليهود بعد رجوع بني اسرائيل من اسر بابل يهود اسم جمع واحده يهودي  
كالزنج والزنجي.

النصارى: أتباع دين عيسى عليه السلام. قال البعض الكلمة من «نصر» وجمع نصران. على  
وزن «فعلان» جاءت للمبالغة مثل غضبان وعطشان: الغضوب بشدة، والذي أصابه  
العطش الشديد، ويراها البعض جمع نصري بفتح الصاد وكسر الراء، مثل مهاري جمع  
مهري. وتَقُلُّ القرآن عن أصحاب المسيح يؤيد اشتقاق نصارى من نصَرَ: «نَحْنُ أَنْصَارُ  
اللَّهِ» لأن تلامذة المسيح والمسيحيين الأوائل نصروا عيسى ودينه بالصبر والاستقامة.  
ولكن الظاهر أن النصراني ينسب الى مدينة «الناصرة» على غير قياس، والتي كانت محل  
نشأة المسيح في الصغر ومسكن أمه. ولذا قالوا لعيسى ناصرياً، وأصبحت هذه المدينة  
محل الاسقف الأعظم ومزاراً للمسيحيين.

الصابئين : جمع صابئي، من صَبَأَ «خرج وترك دينه» لأنّ الصابئين تركوا دين التوحيد، ومالوا إلى الشرك وعبادة النجوم. وربّما كان من الأصل أسماً للجماعة المتمسكين بهذا الدين.

قيل ان هؤلاء كانوا يؤمنون ببعض الأنبياء والمعاد، وكانوا يعتقدون بتأثير الروحانيين وتدبير النجوم لأُمور العالم، وكان يقيم أكثرهم في نواحي الموصل وبابل<sup>(١)</sup>. ويعتبرهم جمع من الفقهاء في حكم أهل الكتاب، بناءً على هذا أخذ الفعل الماضي «صَبَأَ» من الصابئين ثم صار عربياً، أي أتخذ ديناً آخر.

ويرى بعض المحققين أن الصابئة كانوا يعبدون الملائكة، في مقابل «الحنفاء» الذين يدعون بفطرة التوحيد، وكانوا يعتقدون بأنه لما لم يمكن معرفة الله كما هو والوصول الى كنه ذاته، يجب التقرب اليه والتشبه بالوسائط الروحانيين، وهؤلاء الروحانيون هم أسمى من المادة وعوارضها، وظهروا في هياكل النجوم القدسيّة، ويدبرون أمور العالم. الطور: الجبل، أو هو جبل خاص.

السبت : [أول يوم من الأسبوع بالترتيب الاسلامي، يأتي بعد الجمعة] الراحة والانتقطاع عن العمل.

الْقِرْدَةُ: جمع القرد.

خاسئين: جمع خاسيء، المطرود، المبعّد الذي يمنع من التقرب الى الناس، عين خاسئة: العين المتعبة العاجزة عن النظر.

النكال: من النكول: الخوف، التقهقر، الخوف من العمل، النِكل بكسر النون: الغُلّ القوي، والقيد، واللجام.

استنتاج وربط:

تُستنتج هذه القواعد الاجتماعية الثابتة العامّة وتلخص من الآية السابقة: إن اتباع

(١) ويعيش الآن كثير منهم في المناطق الجنوبيّة من العراق كالناصرية والبصرة ويمتهن اكثرهم الصياغة. الترجمان.

اللذائذ والشهوات النفسية الكاذبة تؤدي إلى الإعراض عن إتباع المصلحين والأنبياء وتؤدي الى مهبط المدينة والمجتمع، المعدّ فيه وسائل إشباع اللذائذ والشهوات الكاذبة، وعندما يرجع شعاع العقل والفطرة في هذا المهبط عن الاتجاه الى الحق، يتجه نحو الانطفاء. وتحيط الذلّة والمسكنة بالجميع على أثر التنوع في الطعام وازدياد الأمراض وعجز الجسم ورخاوة القوى النفسية، وبالتالي تنفصم عرى الفضيلة والتقوى، ويظهر الاعتداء على الحدود والحقوق، وتؤخذ الضرامة في القوانين من أجل التحديد. ومن أجل تنفيذها يمتد ظلّ شؤم من الطبقة الحاكمة والجهاز البوليسي على رؤوس الجميع. وتعجز النفوس وتذل اكثر فاكثر بين قيود القوانين الصعبة وتحت ظل الحاكمين المظلم. في هذا المحيط، يقتل الأنبياء والمصلحون وأتباعهم الحقيقيون الذين يريدون أن ينيروا العقول ويحطموا القيود يأخذون بيد هؤلاء المساكين، ويطرّدون ويسجنون باسم الإخلال بالأمن والنظام ومخالفة المصالح، بواسطة سلطة الحاكمين ومساعدة نفس هؤلاء الجماهير المستضعفة. وفي مثل هذه البيئة التي تنحدر فيها الفطرة والفضائل النفسية وتمسخ، سوف ينحدر النظام الإلهي والدين الذي يتقبله العقل الفطري ويمسخ أيضاً، ويتبدل النظام الفطري الإلهي بالألقاب والنسب والامتيازات والعصبية القومية في إطار المعاهدات وامتيازات الحضارة المنحدرة. وهذه الألقاب والأنساب ترافقها الأعمال التي لا روح فيها تعتبر ظناً أنها الوسيلة للتفضيل في الدنيا والفلاح في الآخرة، كما ظنّ - اليهود - بعد الهبوط في المدينة، وتشكيل المجتمع، وتأسيس هياكل العبادة، وتنفيذ المراسيم، وظهور الطبقة الممتازة وتجار الدين (الكهنة والحاخامات)، ظنوا أنهم أفضل من الجميع بالألقاب والأنساب وانجاز المراسيم والتقاليد وأن الدنيا والآخرة خاصة لهم. ويواجه أتباع جميع الأنبياء هذا الغرور والانحدار الديني الى حدّ ما، وهذه الآية:

﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ...﴾: تعلن نظام الله وطريق الفلاح لجميع مخلوقات الله في كل زمان ومكان من أفق أسمى من النظرات القاصرة؛ ذلك النظام الواسع الشامل



لجميع كرحمة الله، ويهدم جدران العصبية والامتيازات التي تحدّد نظر لطف الله ودعوة الأنبياء. وهذه الآية توضح بصراحة لا تقبل التأويل والتقييد بأن شرط الفوز والفلاح هو الإيمان بالله واليوم الآخر والعمل الصالح. ولما كان في مقام بيان قاعدة عامّة ومواجهاً لأفكار اليهود الغرورة، فلو كان البيان يحتاج إلى قيد أو شرط لكان من الواجب بيانه بصراحة.

ومن الواضح أن المقصود من «الذين آمنوا» مثل «الذين هادوا» هم الذين دخلوا في الحوزة الاسلامية، وآمنوا إيماناً نسبياً ظاهرياً، وارتبطوا بالاسلام. والمقصود من «مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ» هو الايمان الحقيقي النابع من القلب والباطن، ويشع على النفس، ويصدقه العقل الفطري، ويخلص من ظلمات الشرك، مثل: «يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا آمِنُوا بِاللَّهِ...» الإيمان الذي يخضع النفس أمام عظمة الله والقلق من الآخرة، ويكون مصدراً للعمل الصالح، وهذا الايمان العقلي والوجداني يختلف عن النسبة الى النظم والتقاليد والعادات ونساج الخيال والغرور والامنيات الذين اختاروا في نسايجهم. وهؤلاء ينظرون نظام العالم الواسع من نوافذ خيوط نسيجهم، مع أن الإيمان بالحق يحزّر من كل قيد وخيط وهمي، ويسمو بالعقل الى الافق الاعلى: ﴿لَيْسَ بِأَمَانِيكُمْ وَلَا أَمَانِي أَهْلُ الْكِتَابِ مَنْ يَعْمَلْ سُوءً يُجْزَ بِهِ﴾ إن الحق غير مرتبط بالأمنيات ولا بما ينسجه أهل الكتاب كل من يعمل عملاً سيئاً يرى جزاءه. أعاد القرآن الى الاذهان دائماً القانون العام والسنة العامة للفوز والجزاء لكيلا يواجه أتباعه أمنيات الماضين من الملل والنحل ما كانت تنسجه أخيلتهم!

إنّ هذه الأديان الأربعة: «الاسلام، اليهوديّة، النصرانيّة، والصابئية، المذكورة في الآية هي النموذج الكامل للأديان الحقّة أو المعروفة التي ظهرت في الشرق الأوسط ومهد الأنبياء. تتمكن أكثر النفوس ذات القابليّة في محيط دعوة هؤلاء وتهذيبهم من الإيمان بتوحيد المبدأ والدار الآخرة، وتمييز العمل الصالح تمييزاً جيّداً، وإلاّ فمقصود الآية كليّ و عام ولا يختصّ باتباع هذه الأديان. ويُفهم من سياق الآية ووجهة نظرها كون هذه

الأديان مجالاً للإيمان والعمل الصالح]: فقد ذكر في البداية هذه الأديان الأربعة، وجاء به «مَنْ آمَنَ...» بصورة مطلقة وبدون قيد به «منهم» أو «من الذين آمنوا». وفي بيئة هذه الأديان يكون الارتباط والعادات والتقاليد والمراسيم والغرور سبباً لانحدار وضياح أصل الإيمان الباطني بالله والآخرة والعمل الصالح، ويعتبر كل من ينتسب الى دين من الأديان نفسه الفائز فقط ويحكم على الآخرين بالعذاب. والنموذج التام لهذا الغرور اليهود الذين خاطبتهم الآيات.

إذاً فالمفهوم المخالف للآية هو: إن الذين لا يؤمنون بالله واليوم الآخر إيماناً واقعياً ولا يعملون عملاً صالحاً ليس لهم مكافأة عند الله ولا أمان لهم ولا راحة. والانتساب الى الدين والأنبياء وحده لا يرفع من مقام أحد وعمله عند الله، ولا يزيل القلق والخوف. الأنبياء هم الطلائع نحو الايمان والعمل الصالح، ويدعون الآخرين لهذه المبادئ، ويقودونهم وراءهم لذلك الإتجاه، لا باتجاه أنفسهم. والذين يتبعونهم بحق ويصلون الى درجة الإيمان والعمل الصالح هم الفائزون يقيناً. فالذين يسمعون دعوة الأنبياء ولهم قابلية التحقيق ويقصرون عن ذلك، لما كانوا لم يتخلصوا من الدواعي النفسية والتقاليد سوف لا يفوزون ولا يفلحون. والذين سمعوا دعوة الأنبياء ولهم قابلية التحقيق أو هم قاصرون عن ذلك يعذرون. ولو آمن هؤلاء بهداية العقل الفطري ونهجوا طريق الصلاح ينجحون. وهذه الهداية نادرة في غير محيط الدعوة الدينية وتهذيبها وان كانت غير مستحيلة، كما أن الأزهار والثمار النضرة والمطعمة بصورة عامة تنمو في المجال المعد لها وتحت إشراف البستاني الخبير بظروف التنمية، ولو أن نبتة ورد أو شجرة مثمرة نبتت عن طريق الصدفة في الصحراء، لا يغض نظره البستاني عنها، ولا يببدها، بل ينقلها الى الروض والبستان. إذاً يقسم المكلفون من ناحية الإيمان والأصول كالأحكام والفروع الى الصائب والقاصر والمقصّر، ولكل منهم حكم.

﴿مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَ...﴾: الإيمان بالله (كما فسر في الآية الثانية) والإعراض عن جواذب الدنيا والمتغيرات وما سوى الله، والالتحاق بالحقيقة الثابتة الأبدية، والدخول

في محيط الأمان الإلهي، والإيمان بالآخرة فتح المجال أمام نظرة العقل. فالشرائع والاحكام تؤدي - بمقتضى تكامل البشر العقلي - الى ايجاد الظروف والمحيط [المناسب] لتطور النفس وفتح المجال أمام نظرة العقل. أو هي كالسفن المختلفة التي توصل الإنسان الى ساحل النجاة، وتخلصه من أمواج الحزن والخوف. وكلما كان ما يقهر الأمواج أمتن في الصنع وأدق من قبل الشريعة كان يبعث على أطمئنان أكثر للوصول. وفي خلال ذلك لو تمكن السباح أن يوصل نفسه الى ساحل الأمان بقوته الشخصية وبواسطة قطعة من الألواح، فهو لاحق بالفائزين ونجا من الخوف والرعب.

«وَعَمِلَ صَالِحاً...» مجيء المفعول نكرة «صالحاً» يفيد الإجمال والعموم: أي كل عمل صالح كثير أو قليل، كبير أو صغير نابع من الإيمان: «فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ». يستفاد من لام الملكية والاختصاص وإضافة الأجر الى ضمير الجمع أن لكل شخص أجراً خاصاً بمقدار إيمانه وعمله الصالح، وذلك عند المقام الربوبي الخاص «عند ربهم» المضاف إلى الجميع، ولا يضيع شيء لديه ولا يقل منه.

﴿وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾: إن هذه الآيات التي قصت سر الهبوط الاجتماعي وطريق الصعود في قصة بني اسرائيل، هي متناسقة ومطابقة لآيات هبوط آدم وطريق صعوده: ففي تلك الآيات جاءت بشارة الفوز والفلاح بشرط اتباع الهدى، وفي هذه الآيات بشرط الإيمان، وكلا الهبوطين انتهيا [بهبوط] نسيم الاطمئنان والخلاص من الحزن والخوف.

﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ الطُّورَ...﴾: إن جملة «وَرَفَعْنَا» يبدو أنها عطف تفسيري على «إِذْ أَخَذْنَا» أظهرنا العهد والميثاق المبرم بشكل رفع الطور فوق رؤوسهم. ولو لم يكن عطفنا تفسيرياً، فالرفع يكون من أجل إيراد ميثاق منفصل أخذ منهم. وجملة «خُذُوا مَا آتَيْنَاكُمْ» بدون واو أو فاء رابطة وبدون كلمة قلنا تفسير لـ «إِذْ أَخَذْنَا» و«رَفَعْنَا» إن رفع الطور كان يعلن لهم بأن حافظوا بكل قوة على الاحكام والأوامر التي أعطيناكم إياها. (وهذه القوة فسرت عن الامام الصادق عليه السلام بقوة القلوب والأبدان).

فالأحكام والأوامر الدينية وسيلة للمحافظة على الإيمان القلبي وتقويته، إنَّ الانشغال بإنجاز الأوامر يظهر بصورة العادة أحياناً فيكون نفسه ستاراً من الغرور يحجب العقل والفطريات، ويصبح مقدمة ووسيلة مقصودة بذاتها. فالآية السابقة دلّت كالميزان والقاعدة على المقصود والغاية، إنَّ الاستخفاف بالشرائع والأحكام يصدّ عن الوصول إلى القصد أحياناً، كالراكبين في سفينة نجاة، لو نسوا غاية سفرهم، وانشغلوا بالسفينة وتعلقوا بها، فالغفلة والأمواج وحركات البحر المختلفة تنحرف بهم [عن القصد]، وإذا لم يبادروا إلى تقوية السفينة وسدّ منافذها لا يصلون إلى الساحل أيضاً.

إنَّ الذي يحافظ على الأحكام والأوامر الإلهية ويضمن تنفيذها قبل كل شيء هو الإيمان بالأحكام وبمن جاء بها والشعور بالمسؤولية الباطنية بالنسبة لها، ثمَّ التفكير والقلق من عواقب ترك الأحكام. وما ينقله القرآن والتوراة من حالات اليهود ونفسيّاتهم شاهد على أنَّهم لم يكن لهم إيمان صلب برسالة أنبيائهم وأحكامها، ولم يستيقظ فيهم الشعور بالمسؤولية، لم يكن لهم عقل يفكر بالعواقب ولا ضمير مستيقظ ولا أذن صاغية. وفي مثل هذه الأبواب الجامدة والأفكار القاصرة لم يكن للوعظ والتفكير بالعاقبة أثر ثابت دائمياً أيضاً.

ومثل هؤلاء الناس يمكن سوقهم إلى الخضوع والاستسلام لمدة محدودة عن طريق الحسن الظاهر وعرض نتيجة الإعراض عن الأحكام، ويجب إيجاد رعبٍ ومنظرٍ رهيب في قلوبهم وأمام عيونهم إلى درجة بحيث يبقى دائماً في ذاكرتهم. كما يعتقد علماء الاجتماع والتربية بأنَّ من الواجب عرض عواقب الذنب والزلل على شكل محسوس ومرئي بالنسبة للسواد العام القاصر الفكر.

إنَّ عرض الجبل البركاني المتزلزل فوق رأس اليهود كأنَّه تمثيلٌ رهيبٌ لعاقبة الاستخفاف بالأحكام وتركها ليستخدماً كلَّ طاقاتهم لحفظ الأحكام وتنفيذها بتركيز هذا المشهد الرهيب في ذاكرتهم: «خُذُوا مَا آتَيْنَاكُمْ بِقُوَّةٍ» إنَّ التنكير والتووين يدلّان على أنَّه يجب استخدام كلَّ طاقتكم للمحافظة على الأوامر الإلهية والدفاع عنها في مقابل طغيان الشهوات والجشع والتهميد. وقراءتها جزءاً جزءاً، واذكروا وأنجزوا: «وَأَذْكُرُوا مَا

فِيهِ».

يتمكن القانون الإلهي من أن يحفظ نفوس الفرد والعلاقات الجمعية ضمن حدوده:  
«لعلكم تتقون».

ان نظام الشريعة صورة من نظام التكوين وكلاهما ناتجان عن مبدأ واحد. إن القدرة التي أرست الجبل على الأرض وربطت الأرض بالعالم الكبير، هي التي أرسلت الأحكام، وأوكلت حفظها وتنفيذها الى اختيار الانسان المختار. ولو حدث ضعف أو خلل في نظام الكون أو الشريعة، لا يستقر الجبل على الأرض ولا حجر على حجر، ولا يبقى النظام الاجتماعي قائماً.

وظاهر الآية هو ان الجبل أو قسماً منه - بذلك الجسم المادي - ارتفع على رأس اليهود. يحتمل بعض المحققين والشخصيات أن صورة الجبل غير المادية التي لها قيام بالعلة الفاعلية، تمثلت فوق رؤوسهم عن طريق الحس الباطني. والبعض الآخر يقول: أخذهم موسى الى سفح جبل بركاني من أجل إخضاعهم، والذي يقف الى جانب الجبل أو الجدار يقال: الجبل فوق رأسه. وجاء بالآية: «وَإِذْ تَنْقُصُ الْجَبَلَ فَوْقَهُمْ» من سورة الأعراف كشاهد لتبرير ما يدعيه؛ لأن معنى «النتق» التحريك والهز؛ لأنه اذا كان المقصود القلع والرفع من المكان كان الواجب ان يقال: قلعنا.

وعلى كل حال كان، كان القصد إرعاب اليهود لا إكراه، كما يقول البعض؛ لأنه لا إكراه في الشريعة.

﴿ثُمَّ تَوَلَّيْتُمْ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ فَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ...﴾ أعرضوا أيضاً مع ذلك الميثاق المبرم المشهود الرهيب عن أخذ الاحكام بقوة وانجازها. وشملهم - أيضاً - فضل الله ورحمته، ولم يبتلهم بعذاب أليم، وارسل الأنبياء والموجهين لربما تنهياً نفوسهم حسب السنة الإلهية ويفهمون الأحكام على ضوء الإيمان والفطنة ويطبقونها.

﴿وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ الَّذِينَ اعْتَدَوْا مِنْكُمْ فِي السَّبْتِ...﴾: تكشف هذه الآية الستار عن حادثة عجيبة حجبها تاريخ اسرائيل، وذلك بجملة مؤكدة بـ «لَقَدْ» و«عَلِمْتُمْ»؛ لأن اللام

للتأكيد والقسم، وقد للتحقيق. والعلم يعطى بالنسبة للاوضاع والأحوال، لا للشخص، يقال: «عرفه، وعلم حاله وأوصافه»، والتعبير هنا بعلمتم (والمعلومون هم الأشخاص) بدلاً من عرفتم، يشير الى معرفة هؤلاء القوم مع أحوالهم وأوضاعهم.

لم يجر ذكر هذه الحادثة مثل كثير من الحوادث التي ذكرها القرآن، في التوراة التي جاءت كلها في مناقب بني اسرائيل. وما ذكرها القرآن والتوراة معاً من الحوادث، يختلف تعبير القرآن في بيان كيفيتها عن أقوال التوراة اختلافاً كبيراً. وهذا بنفسه شاهد واضح على أن القرآن نابع من ينبوع آخر. والذي يلفت النظر هو أن اليهود مع ما بيده علماءهم وعامتهم من اهتمام ومراقبة عن كذب لآيات القرآن لاسيما فيما نزل بحقهم، لم يسمع [حتى الآن] عنهم أنهم كذبوا هذه المواضع والقصص القرآنية. والروايات التي جاءت باعتبارها شرحاً وتفسيراً للقرآن فلما جاءت حول قصص اليهود في تفسير مثل هذه الآيات. واذا يوجد شيء فهو غامض ومجمل! وهذا يشهد على دس أكثر هذه الروايات من قبل اليهود.

والآن ننظر الى موضوع الآية العام والخاص: إن عطلة السبت - من وجهة نظر التوراة - أمر واجب بل هي من شعائر اليهود ونواميسهم، وهي أهم من الفرائض الأخرى عندهم. يقولون: إن الله أنهى بناء العالم يوم السبت وبادر الى الإستراحة. وخرج بنو اسرائيل في مثل هذا اليوم من مصر وتخلصوا من المصريين. وعلى اليهود في مثل هذا اليوم أن ينصرفوا عن كل عمل، ويبادرون إلى إقامة شعائرهم. إن جماعة منهم كانوا يمتنون صيد السمك ويقطنون على السواحل لم يحترموا هذا الشعار والناموس، وتحيلوا من أجل الإعراض عن أداء هذه الفريضة. عندما رأى هؤلاء السواحل تخلو يوم السبت وتطوى الشباك ويكثر السمك، كانوا يعملون حياضاً صغيرة قبل يوم، وينصبون الشباك وعندما تقع الأسماك فيها يوم السبت يسدّون طريقها فيصيدونها في اليوم التالي.

فكما أن التقاعس في المحافظة على الأحكام وتنفيذها يذهب بالدين، وقد عرضت عاقبة ذلك الآية السابقة، فالمكر والاحتيال في الأحكام باسم الدين يغيّرها ويمسحها

أيضاً.

﴿فَقُلْنَا لَهُمْ كُونُوا قِرَدَةً خَاسِئِينَ﴾: الفاء تفرعية، والأمر «كونوا» يدل على سرعة إنجاز الفعل وتأثير ذلك الذنب في بروز هذا الأمر. وهذا الأمر ظاهر في التكوين: إن ذلك الاعتداء على حرمان شعائر الدين أعدّهم لينقلبوا قردة بأمر تكويني.

ان تكرار كلّ فعل بصورة مستمرة يترك أثراً في تكوين النفسيات حتى تكون على شكل ملكات وطباع راسخة تتناسب وذلك الفعل. فالتفات العامل إلى اختلاف العمل مع العقيدة الأصلية يؤدي إلى نوع من التضاد النفسي والتغيير ومسح فطرياته، وترسخ تلك الطباع أكثر فأكثر. وعندما يتغلب كل واحدٍ من الطباع والملكات على النفسيات تظهر آثاره على الوجه أيضاً، كما إن غلبة الغضب أو الشهوة أو الطباع الأخرى على نفس الانسان سرعان ما تبدو في وجهه، وتظهره كالحیوان الذي هو مظهر لذلك الطبع. كما تظهر الطباع الثابتة في هيكل الصورة والعين والحاجب والفم والأسنان وملامح الوجه وكيفية الشعر دائماً؛ لأنّ الوحدة الحيوية الأولى «الجين» لدى الجميع أو أغلب الحيوانات لم تتميز ظاهراً عن بعضها في البداية، وامتيازها الوحيد هو آثار ورائحة الغرائز الحيوانية أو الملكات الانسانية. ولهذا كلّما تقدمت التراكيب الحيوية تظهر الغرائز بصورة أكثر، وتتميز الصور الظاهرية أكثر حتى تظهر بصورة تركيب جسمي خاص، وتبدو الآلات والوسائل والجوارح المختلفة كالأسنان والمخالب في الحيوانات المفترسة والمنقار والجناح في الطيور.

إنّ الشعور بالتقليد في ارقى الحيوانات كالقرد وأطفال الإنسان، بداية تطوّر وتحرر من الغرائز المحدودة وظهور نوع من التفكير فيتساقط - بعد ذلك - التركيب النفسي الخاص السابق. وظهور العقل والتدبير يميّز مصدر الأعمال ونتائجها، ليأخذ طريقه بتفكير حرّ. وهنا يجب أن تقوم التربية والتعليم الصحيحان والإيمان بقيادة طفل الإنسان المستعد لكيلا يبقى على حدّ التقليد الأعمى الخاطيء. وإذا بقي في مرحلة التقليد وترسخ فيه هذا الطبع، يتوقف، ويطرّد بعيداً عن كلّ خير وكمال، ويصير آلة وألوبة: «قِرَدَةً خَاسِئِينَ».

بالنظر الى سرّ الحياة هذا يجب الاعتراف بأنّ تغلب الملكات الوضيعة تؤدّي الى التوقف والمسح النفسيّ، وتهيبىء المتوقف للمسح الظاهريّ. ثم يتغلب الباطن على الظاهر بتصرف مبادئ العالم الفعّالة التي تمنح دائماً المواد المستعدة صوراً متناسبة بإذن الله (كما يشاهد في جميع الحيوانات بالتدريج).

ولو ستر الله الرحمن في هذا العالم، ففي العالم الآخر تغيّر الملكات الصور الظاهرية بحسب الموازين النفسيّة والإشارات القرآنية وصريح الروايات الصحيحة.

أيّها الخارقُ ثوب اليوسفين ذنباً استيقظت من نوم سنين<sup>(١)</sup>

يقول البعض (كمجاهد): مسح باطنهم. وهذا الرأي يخالف ظاهر الآية؛ لأنّ تاريخ اليهود لم يؤيد هذه الحادثة، ولكن ظاهر الآية الستين (٦٥) من سورة المائدة تؤيد هذا المسح الباطني ﴿قُلْ هَلْ أُنَبِّئُكُمْ بِشَرٍّ مِنْ ذَلِكَ مَثُوبَةً عِنْدَ اللَّهِ مَنْ لَعَنَهُ اللَّهُ وَغَضِبَ عَلَيْهِ وَجَعَلَ مِنْهُمْ الْقِرَدَةَ وَالْخَنَازِيرَ وَعَبَدَ الطَّاغُوتَ أُولَئِكَ شَرٌّ مَكَاناً وَأَضَلُّ عَنْ سَوَاءِ السَّبِيلِ﴾ (سوف يأتي تفسيرها في محلّها).

واحتمل البعض هذا التعبير للإهانة والتقريع، كما تقول: «عندما اتخذت السخرية حرفة لك إذا كن قرداً إلى الأخير».

وهذان الاحتمالان لا يتلاءمان مع آخر الآية؛ لأنّ المسح الباطني والتقريع لا يوجبان عبرة الآخرين وثباتهم. إلّا أن تكون النظرة الى صفة «خاسئين»: هؤلاء أشباه القردة عندما طردوا من قبل الناس أو جماعة أخرى من بني اسرائيل، صاروا عبرة لمن كانوا في ذلك العصر والذين أتوا بعدهم.

أولئك الذين سمت بهم وقدمتهم التربية والشعائر الدينية، ولما وصلوا الى مرحلة التكامل هذه لا تتمكن التربية غير الدينية والشعائر القومية أن تقيمهم، لأنهم عندما يتركون شعائر الدين ونواميسه يفقدون وحدتهم وقدرتهم ومعنويّاتهم بصورة تامة، ويكونون لعبة وسخرية للآخرين، ولا يتمكنون من تقرير مصيرهم، ويطردون من مسرح

(١) ترجمت البيت الفارسي بيت عربي. الترجمان.



الحياة: «كُونُوا قِرَدَةً خَاسِئِينَ...».

﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَذْبَحُوا بَقَرَةً قَالُوا أَتَتَّخِذُنَا هُزُوًا قَالَ أَعُوذُ بِاللَّهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ ﴿٦٨﴾ قَالُوا آدَعْ لَنَا رَبِّكَ يَبَيِّنْ لَنَا مَا هِيَ قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَا فَارِضٌ وَلَا بِكْرٌ عَوَانٌ بَيْنَ ذَلِكَ فافْعَلُوا مَا تُؤْمَرُونَ ﴿٦٩﴾ قَالُوا آدَعْ لَنَا رَبِّكَ يَبَيِّنْ لَنَا مَا لَوْثُهَا قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ صَفْرَاءٌ فَاقِعٌ لَوْتُهَا نَسْرٌ لَنَاظِرِينَ ﴿٧٠﴾ قَالُوا آدَعْ لَنَا رَبِّكَ يَبَيِّنْ لَنَا مَا هِيَ إِنَّ الْبَقَرَ تَشَابَهَ عَلَيْنَا وَإِنَّا إِنِ شَاءَ اللَّهُ لَمُهْتَدُونَ ﴿٧١﴾ قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَا ذَلُولٌ تُثِيرُ الْأَرْضَ وَلَا تَسْقِي الْحَرْثَ مُسَلَّمَةٌ لَا شِئَةَ فِيهَا قَالُوا آلَانَ جِثَّتْ بِالْحَقِّ فَدَبَحُوهَا وَمَا كَادُوا يَفْعَلُونَ ﴿٧٢﴾﴾.

#### معاني المفردات:

البقرة: بقاء التأنيث مؤنث البقر، والمذكر يقال له ثوراً مثل: الرجل والمرأة: الجمل والناقة، ويؤخذ اسمي المؤنث والمذكر من لفظين. وهنا لما كانت تاء البقرة للإفراد تطلق على المذكر والمؤنث في كل السنين من عمرهما.  
هُزُواً: (تراجع الآية رقم ١٤).

العوذ: الاستجارة واللجوء لدى شخص قدير على الدفاع [عن اللاجيء].  
يَبَيِّن: من بَيَّنَّ بالتشديد: فَصَّلَ وَقَارَقَ، كل شيء يكون أوضح في العين والتعريف العقلي، وينفصل عن مثيله وَيَبِين.

فارض: من الفرض: الفصل عن شيء، اجتناب عمل، التفتيح، والحيوان الفارض هو الذي يعفى عن العمل لعجزه، أو التي تتفتح ضلوعها ويتسع بطنها على أثر الولادة.  
بِكر: بداية كل شيء، الوليد الأول.

عوان: بين الشيخوخة والشباب. عوان الحرب: وسطها.

بين: بالمعنى الظرفي: وسط، وبالمعنى المصدرى: فرق. وجاءت هنا بالمعنى الظرفي.

ذُلُول: من الذلّ، ذلّلها الركب، العجز.

تشير: من الإثارة: تقليب الشيء.

الحراث: إعداد الأرض للزراعة، نشر البذور، المزرعة.

مُسَلِّمة: من السلامة: سالمة من كل مرض أو عيب أو نقص أو كسر.

شبهة: من الوشي: الخال، كل لون يختلف عن لون الجسم العام.

﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَى إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ...﴾: الإضافة الاختصاصية الى الضمير «قومه»

تعلن عن حبّ موسى الخاص وإرادته الخير بالنسبة لقومه. ونسبة الأمر الى الله لمنع عن الشبهة والشك، والتعبير بصيغة المضارع «يَأْمُرُ» أكثر تأكيداً من الماضي، ويشير الى استمرار هذا الأمر. ولكن بني اسرائيل بتلك الروح الجامدة والشك في كل أمر، وبلهجة حادة قالوا: «أَتَتَّخِذُنَا هُزُوءًا؟» فقال موسى بلهجة هادئة كثيرة المعنى: ﴿أَعُوذُ بِاللَّهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ﴾. إنّ نسبة الهزو والسخرية بالآخرين الى رجل إلهي ونبي موجه أفضع من كل فضيع وغير لائق. وجعل الآخرين العوبة هو فعل الناس الأخساء الوضيعين، وهؤلاء هم الذين يجعلون من الآخرين لعبة لأهوائهم، ولا يعرفون قيمتهم ولا قيمة الآخرين. والأنبياء العظام الذين يعرفون قيمة الطاقات البشرية المعنوية غايتهم الوحيدة في مقام التعليم تعريف هذه القابليات، ويرفعون بالأوامر التي يصدرونها هذه القيمة والشخصية، ويحافظون عليها من الانحدار. فالظاهر من الجاهل في هذه الآية هو الجاهل بالمقام الإنساني «وإلا فكل شخص لا يكون عالماً مطلقاً أمام أسرار العالم، وعظمة خالقه، ومثل خاتم النبيين ﷺ كان مأموراً بأن يقول: رَبِّ زِدْنِي عِلْماً». ولما كان الاستهزاء نتيجة لمثل هذا الجهل وهو بذاته ذنب عظيم، استعاذ موسى في الإجابة على هذه التهمة - لأنه استغفر أو تبرأ منها؛ لأن الاستعاذة تكون حول مصيبة أو ذنب لا تكفي التوبة والاستغفار لدفعها أو رفعها.

وبعد هذه الإجابة بادر بنو اسرائيل - بدلاً من أن يدركوا أنّ الأمر موضع الجدّ ويجب تنفيذه بلا تريث - إلى طرح الأسئلة النافهة عن أوصاف البقرة وخصوصياتها، وصعبوا

الأمر على أنفسهم بهذه الأسئلة الهزيلة؛ لأن مورد الأمر في البداية كان نكرة «بقرة» ولم تكن هنالك إشارة الى قيد أو صفة لها. إذاً لو كانوا يذبحونها في أي وقت لكانوا أبرءوا ذمتهم من التكليف. ولكنهم سألوا أولاً عن ماهية البقرة بعبارة ظهر فيها الشك والاستخفاف والأتانة: «أَدْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّنْ لَنَا مَا هِيَ؟» تكرر «لنا» وهذا ما يدل على أنانيتهم وغرورهم الأحمق، وقالوا: رَبَّكَ» بدلاً من رَبَّنَا، و«ماهي» بدلاً من ماصفتها، وكأنما لم يبيّن المقصود أولاً، والآن يجب أن يعيّن بطلب منهم. وفي الاجابة على هذا السؤال تعيّن سئها فقط. ثم قال «بعد هذا الوصف القصير» بحال وعظ وأمر: «فَأَفْعَلُوا مَا تُؤْمَرُونَ»؛ وفي المرة الثانية سألوا عن لونها، ثلاث مرّات، وكأنما احتاروا عما يسئلون، ولكن بناء على طبيعتهم الاستحجاجية اللجوجة، وأنهم ربّما يتمكنون من تعجيز النبي من الاجابة ويخلصون أنفسهم من التكليف، يسألون أيضاً عن ماهيتها: «ماهي»، وعندما انتبهوا الى أنّ لجاجتهم وعدم حيائهم تجاوزا الحدّ يقولون بلهجة الاعتذار والاعتراف بضلالهم: «إِنَّ الْبَقَرَ تَشَابَهَ عَلَيْنَا...» وفي هذه المرّة بدت أوصاف البقرة المأمورين بذبحها أكثر، وموضوع التكليف أضيق تحديداً، وإنجازه أصعب.

إنّ عامة المفسرين حاولوا معرفة سبب هذا الحكم (ذبح البقرة) بتقليد بعضهم البعض، فبحث البعض عن القاتل المجهول وسبب القتل، ونسج البعض قصصاً من أجل تهينة سعادة الشخص الذي كان يجني مثل هذه البقرة فباعها بثمن غالٍ، وكلها أخبار إسرائيلية، وليس لها سند إسلامي صحيح. إنّ ظاهر هذه الآية بقرينة الآيات الأخرى التي تدور حول اليهود والبقرة، هو أنّ الأمر كان أمراً مستقلاً، ولم يكن مقدمة لموضوع الآية التالية. ومجرّد كون هذه السورة المحتوية على حقائق ومواضيع كثيرة سُميت باسم «البقرة» هو دليل على أهمية هذه القصة والحكم.

لما كان بنو اسرائيل محكومين من قبل المصريين لسنوات طويلة، فقد سيطرت عليهم خرافات المصريين ومعتقداتهم شاءوا أم أبوا، حالهم حال الأقوام المحكومة المستضعفة الأخرى. وكانت البقرة إحدى مقدّسات المصريين - ويذهب الظن إلى أنّ احترام البقرة

وتقدّسها في مصر كالهند كان شائعاً بين طبقة الفلاحين وأصحاب الدواجن بصورة أكثر؛ ولما كان بنو اسرائيل مختلطين بهذه الطبقة التي تشكّل اكثريّة الشعب في تلك البلاد أثر فيهم تقديس البقرة وعبادتها تدريجياً إلى درجة بحيث نسي أكثرهم عقيدة التوحيد التي كانت عقيدة آبائهم. ولما كان تقديس البقرة في أوساط هذه الطبقات (مثل البقرة آيس)<sup>(١)</sup> لم تشتهر هذه العقيدة في التاريخ اشتهار آلهة الطبقات الحاكمة في مصر. وربما كانوا بعد خروجهم من مصر وحياتهم المديدة في الصحراء ومعاشرتهم للقبائل التي تعبد البقر قد تأثروا بذلك أيضاً. وفي أي مكان وعن أي طريق كان، كان لتقديس البقرة والعجل جذور في نفوسهم، واحتلّ حبّها قلوبهم، كما تشير الآية ٨٨ في هذه السورة الى ذلك:

﴿وَأَشْرَبُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْعِجْلَ بِكُفْرِهِمْ...﴾<sup>(٢)</sup>. بناء على هذا، فإن اتّخاذ العجل بعد أيام من غياب موسى لم يكن غفلة أو إغفالا أو حادثاً فجائياً، بل كان منشأ علاقتهم بمثل هذه العبادة وجاذبتهم الباطنية نحوها. وبنو اسرائيل الذين لم يكن لهم شعور إدراك التوحيد الخالص، فكان لابد من أن يتخذوا لهم معبوداً محدوداً ومحسوساً، ولما كانت العصبية القومية وتعاليم الأنبياء وذم الآلهة الآخر تمنعهم من تقديس آلهة الآخرين وعبادتها، فاضطروا الى الإتيان نحو هذا المعبود العالمي الجميل الحيّ المنتج العامل

(١) عن كتاب «لاروس قرن بيستم»: آيس، أو: هابي: بقرة مقدّسة كانت تعبد في «ممفيس». كانت «هابي» تجسماً لآله «فتاح» بكسر الفاء، ورمزاً لطاقة الطبيعة الخلاقية. ويجب أن تكون لهذه البقرة علامات: هلال في ناصيتها، خنفسانة تحت اللسان، نسر على الظهر، كانت محفوظة في معبد طيلة حياتها. وعندما تموت تتحوّل الى «أزيرس» أو «ازار هابي» ولهذا كان اليونانيون والروميون يدعون آلهة المصريين بأسماء: «أسارابيس»، «هاسارابيس»، و«سرابيس». وكانوا يدعون مقبرة الـ «آيس» - «سرابيوم» وكان يطلق اسم «هابي» على إله النيل، والأرواح الأربعة التي كانت تراقب ظروف الاحشاء المحتلّة أيضاً.

عن كتاب «بتي لاروس»: آيس، أو: هابي: هي البقرة المقدسة لدى المصريين القدماء، وكانت تتألف من أكمل آلهة الصور الحيوانية، ويجب أن تكون بها علامات من «أزيرس» و«فتاح»، على ناصيتها بقعة بيضاء كالهلال، وعلى الظهر شكل النسر أو العقاب، وتحت اللسان شكل الخنفسانة، وكان الكهنة يغرّقونها في حفرة ماء كبيرة بعد مدة باعتبارها قرباناً للشمس، ثم كانوا يحنطون جسدتها ويعيدونها.

(٢) الآية ٩٣ من سورة البقرة (على الصحيح). الترجمان.

والمؤثر في الحياة.

لأن تقديس غير الله وحبّه إلى حدّ العبادة، يخفي شعور عبادة الله الفطري ويجعله نائماً دائماً. وأوّل ما كان يقدم عليه الأنبياء من إصلاح لإيقاظ الشعور والضمير البشري هو الكفاح المنطقي والعملي مع الأصنام والطواغيت، وازالتها عن طريق تقدّم العقل البشري، والطريق الوحيد لاستعادة نشاط القابليات العقلية اللامتناهية وإحياء القوى المعنوية وفتح ينبوع عواطف الخير، هو الإقبال وتوجيه النفس نحو المبدأ اللامتناهي في قدرة كلّ كمال وفعليته، وبمجرد أن يملأ الموجود المحدود المحسوس أو غير المحسوس عقل الانسان وشعوره من ناحية الحبّ والتقديس، لا يشع عليه نور تلك الحقيقة الأزليّة، وتنقش تلك الأشعة من وراء قشر الشرك السميكة من جهة أخرى لما كانت عبادة غير الحق المطلق والالتفات إليه تجرد القوى العقلية، وتبخّر ينابيع عواطف الخير، فعابد الصنم أو البقرة أو الطاغوت (الشخص المتمتعت الأناني) لا يتمكن من إدراك قيمة الانسان الواقعية، وأعلى شيء في رأي عابد الصنم هو ما يعبد، ويعتبر نفسه مسؤولاً أمامه فقط. ولا يجد في ضميره شعوراً بالمسؤولية أمام القوانين العامّة والأحكام والحقوق والحدود. ولما كان الخوف والتهديد لا يبقى لهما أثر ثابت. فذاك أيضاً لا يمكن أن يكونا مؤثرين في الإلتزام بالحقوق والحدود. وبمجرد أن يرتفع الخوف والتهديد منه يعتدي (كما أعادت الى الأذهان الآيات السابقة في قصّة رفع الطور والمسح) ويبيد النفوس المحترمة من أجل الوصول إلى أقلّ أمنياته الرذيلة (والتي تشير إليها الآية التالية).

وبالنظر الى هذه الحقيقة؛ كان أمر مجتمع اليهود العام لذبح البقرة، وعقد حفلة باسم ذبح البقرة (أو عيد الدم) أمراً خاصاً؛ بحيث كان من الواجب على الجميع أن يجعلوا بقرة في الوسط ويشتركون في شرائها وذبحها. ولم تكن هذه البقرة للأضحية أو البيع، بل كان القصد إزالة ذكر تقديسها وعبادتها من الأفكار بهذا العمل، ويبقى أثر هذا الإجتماع العام في نفوس الكبار والصغار. هذا أسلوب الأنبياء العظام وأوّل خطوة لإصلاح النفوس وإحيائها، كما أن إبراهيم الخليل - أوّل من نادى بالحرية - وخاتم الأنبياء ﷺ آخر من أتمّ

طريق السعادة كان لهما مثل هذا اليوم التاريخي في كسر الأصنام، وموسى أيضاً حطّم العجل الذهبي وأحرقه وَنَسَفَ رماده في اليمّ نسفاً. ولكن صورها الأصلية كانت تعيش بينهم دائماً، وتمكن حبّها من قلوبهم، وكان آثار عبادتها وتقديسها واضحة في أعمالهم وإنحرافهم.

إن حدوث القتل الذي هزّ جميع بني اسرائيل، وأحدث ضجّة، وكأنّه أتاح الفرصة لموسى من أجل أن يُعلن هذا الأمر، مع العلم بأنّ تنفيذه كان ثقيلاً جداً على اليهود، وكانت الأسئلة والاعتراضات المختلفة كلها لهذا السبب، عسى أن يتوقف إنجازها.

﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَذْبَحُوا بَقْرَةً...﴾: يمكن أن يكون التعبير بالفعل المضارع «يَأْمُرُكُمْ» مشيراً الى أن هذا الأمر لا يكون لمرة واحدة. فظاهر هذه الآيات والضمان والإشارات هو أن أمر البقرة في الواقع كان معيّناً وكانت هي موصوفة بهذه الصفات: -بقرة لافارض ولا بكر عوان بين ذلك، صفراء فاقع لونها، لا ذلول تثير الأرض ولا تسقي الحرث، لا شية فيها. ولكن المأمور به الأوّل كان نكرة ومطلقاً، ولو أنجز ذلك بنو اسرائيل، لكانوا قد أنجزوا التكليف. إذ لم يكن الحكم الأوّل منسوخاً، ولا جاء البيان متأخراً عن وقت الحاجة.

إنّ جميع الأحكام بأنفسها أو باعتبارها موضوعات لو كان لها واقعية، لما كان إدراك الواقع والعمل به صعباً، نفس هذه الصعوبة تؤدي الى تعطيلها. ولذا فإنّ الناس مكلفون بالظاهر فقط، وكلّما يزداد البحث في كلّ حكم وموضوع وتفتتح طرق الاحتمالات، يتقرب ذهن الانسان الى فهم الحكم الواقعي أكثر، ويبتعد المكلف عن التنفيذ والعمل بصورة أكثر: «وما كادوا يفعلون».

جاء في الرواية: لو كان بنو اسرائيل قد ذبحوا آية بقرة كانت لكانوا أدّوا ما عليهم من التكليف، ولكنهم استصعبوا الأمر، فصعب الله عليهم. وهذا تذكير ودرس آخر تقدّمه هذه الآيات، وبذلك بيان خاص وصلة بالآيات السابقة: فكما أنّ التقاعس عن الأوامر

وتأويل الأحكام يؤدي الى التعطيل، فكذلك الأسئلة التافهة، وفتح طرق الاحتمالات<sup>(١)</sup>

﴿وَإِذْ قَتَلْتُمْ نَفْسًا فَادَّارَأْتُمْ فِيهَا وَاللَّهُ مُخْرِجُ مَا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ ﴿٧٣﴾ فَقُلْنَا اضْرِبُوهُ بِبَعْضِهَا كَذَلِكَ يُخَيِّ اللَّهُ الْمَوْتَى وَيُرِيكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٧٤﴾ ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُمْ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ فَهِيَ كَالْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً وَإِنَّ مِنَ الْحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنْهُ الْأَنْهَارُ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَشْقُقُ فَيُخْرِجُ مِنْهُ أَلْمَاءً وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٧٥﴾ أَفَتَطْمَعُونَ أَنْ يُؤْمِنُوا لَكُمْ وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلَامَ اللَّهِ ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُ مِنْ بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿٧٦﴾﴾

#### معاني المفردات:

النفس: الروح، الدم، الجسد، الشخص، الذات، الحقيقة، وإذا كان القصد منها الروح فتأنيثها مجازي.

إِدَّارَأُ: من تَدَارَأُ «باب تفاعل»: دفع عن نفسه بشدة ونسبها لغيره. وأدغمت التاء في الدال، ويُدِئت بهمزة الوصل.

تكتُمون: مضارع المخاطب من الكتمان: إخفاء الرأي والعقيدة التي يجب إظهارها فلا يبرزها. إِذَا هِيَ أَخَصَّ من الإخفاء والستر، ومثلها.

(١) يروي صاحب مجمع البيان في تفسير: «يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَسْأَلُوا عَنْ أَشْيَاءٍ إِنْ تُبْدَ لَكُمْ تَسْأَلُكُمْ...» عن ابن عباس: خطب رسول الله ﷺ فقال: إن الله كتب عليكم الحج. فقام عكاشة بن محصن، وقيل سُرَاقَةُ بن مالك، فقال: أفي كل عام يا رسول الله؟ فأعرض عنه، حتى عاد مرتين أو ثلاثاً. فقال رسول الله: ويحك وما يؤمنك أن أقول نعم، والله لو قلت نعم لوجبت، ولو وجبت ما استطعتم ولو تركتم لكفرتم، فأتروني كما تركتكم، فانما هلك من كان قبلكم بكثرة سؤالهم واختلافهم على أنبيائهم، فإذا أمرتكم بشيء فأتوا منه ما استطعتم، وإذا نهيتكم عن شيء فاجتنبوه». (استخرجت النص من مجمع البيان: ٢ / ٢٥٠. الترجمان.). وعن أمير المؤمنين عليه السلام (نهج البلاغة): إن الله كتب عليكم أحكاماً عليكم ألا تتركوها، وقرر لكم حدوداً فلا تتعدوها، ونهاكم عن أشياء فلا تهتكوها، وسكت عن أشياء لصالحكم لا عن نسيان فلا تتكلفوها. ملاحظة: جاء المؤلف رحمه الله بترجمة نص قول الامام عليه السلام الفارسية، وبذلك وقتاً كبيراً لاستخراجه فلم أفلح. الترجمان.

الآيات: جمع الآية العلامة، الصفة الخاصة، فنبه من الكتاب السماوي.  
 قست: إظلمت بشدة، النقد نُيذ. من القسوة الشدة والصلابة.  
 يتفجر: مضارع تفعل من الفجر: شق الطريق بالضغط، والخروج المتتالي، والإتضاع.  
 يشقق: مدغم يتشقق من الشق: الفتح، فتح الطريق.  
 الطمع: النظر الى شيء لا يحصل بسهولة والتعلق به.  
 التحريف: من الحرف، الجانب، الطرف: جعل الشيء جانباً، والميل به عن موضعه.  
 ﴿وَإِذْ قَتَلْتُمْ نَفْسًا...﴾: إن ما تذكر به هذه الآية وتخبر عنه بصراحة هو أن اليهود قتلوا  
 شخصاً محترماً، ثم أخذت كل قبيلة تبرئ نفسها باتهامها غيرها بالقتل، وأنهم أخذوا  
 يتخاصمون فيما بينهم للعثور على القاتل وسبب القتل.  
 يستفاد الحصر والثبوت من الجملة الاسمية: «والله مخرج»، والذي يكشف الستار عن  
 هذا السر هو الله.. ويجب أن يكشف عن هذا السر من قبل الله فقط.  
 لماذا نسب القتل للجميع: «قَتَلْتُمْ؟»، كما أن القرآن أوعز النعم والذنوب وخصال قوم  
 اليهود إلى يهود عصره، فجعلهم موضع خطابه وعتابه. وهذا إما أن يكون من ناحية  
 الوحدة القومية، بحيث تنسب سجايا الأفراد والطبقات القومية وأعمالهم الى الجميع. وإما  
 أن يكون مثل قوم اليهود المتشابهين في الأسلوب والأطباع والنفسيات الخاصة بهم، فإن  
 الاجيال اللاحقة تتبع أعمال الاجيال السابقة منهم وتقرها.  
 ان أغلب المفسرين يعتبرون هذه الآية مقدمة لسابقتها: إنهم (بنو اسرائيل) طالبوا  
 موسى بتطبيق العدالة حول معرفة القاتل والحكم عليه. فقال موسى «إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ  
 تَذَبِّحُوا بَقْرَةً...» وعندما تصوّروا هذه الاحابة لا تلائم مطالبتهم بالعدالة، قالوا: «اتَّخِذْنَا  
 هُزُوءًا؟».

وعلى هذا الانطباع، كان يجدر بهذه الآية أن تستقدم لتطابق الواقع. وإذا لم يكن  
 لانطباع المفسرين سند صحيح، فإن تقديم الأمر بذبح البقرة هو بنفسه موضوع مستقل  
 ومهم، وهو بنفس الوقت يشير إلى القاتل الواقعي ومصدر كل جناية وشر؛ لأن الفطرة



الانسانية تكره الجور وما لا يستساغ بقدر ما ترغب للحق والعدل والخير. وان الاعتداء على الحقوق وقتل النفس والظلم من العوارض النفسية، ويجب البحث عن أسبابها من الخارج كالأمراض الجسميّة، وإنّ المصلح الاجتماعي البصير كالطبيب، يجب أن يعرف جذور الإنحراف وأسبابه ثم يبادر إلى العلاج.

وبالقدر الذي يكون الالتفات إلى الحق المطلق، مصدر خير وعدل وكمال، تكون عبادة غير الله مصدر نقص وشرّ وفساد؛ لأنّ حقيقة العبادة هي تقرب العابد الى المعبود والتشبه به، الذي تعتبره كاملاً مطلقاً ويظن بأنّ كمال نفسه في عبادته. إنّ عبادة الجماد تؤدي الى الجمود، وعبادة الحيوان تزيد الحيوانيّة، وعبادة كل موجود تؤدي بالعابد الى حدّ ذلك، والعبادة المطلقة تحرّر من كل قيد، وتحلّق بالعابد نحو كلّ كمال.

إذاً، فالعبادة على كل حال هي المصدر والجذر الفكري والنفسي لكلّ خير وشر، وهذا سرّ: ﴿قُولُوا: لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ تَقْلِحُوا﴾، وأنّ الايمان والإعلان بهذه الحقيقة يؤدي الى الفوز والفلاح المطلق، ويحرّر من كل حدّ وقيد. إنّ عبادة الحيوان هي عبادة الشهوات الحيوانيّة، سواء كان على صورة دابة عجماء، أو شبه إنسان مستبد محكوم من قبل شهواته وأهوائه. وعلى كل حال، فإنّ مثل هذه العبادة تحطّم حدود الوجدانيات والفطريّات وتسبب كل أنواع الظلم. إذاً فالقاتل الظالم والسارق الجاني في الحقيقة هو ذلك المعبود بغير حق وعبادته، لا الانسان الذي تردعه فطرته الخيرّة وحبه للحق عن كل ذنب وجناية إنّ أمدها الإيمان بقوّته، ولم تنحرف.

وكان الأنبياء بالحق يكسرون الأصنام التي كانت مظاهر للشهوات والأهواء البشرية ويقتلونهم من أجل إصلاح النفوس، وكانوا أيضاً يحطّمون الشهوات النفسية الطاغية بالدعوة الى التوحيد وحكومة الإيمان والفطرة الانسانية.

ان في الدنيا التي تحدّد الحكومة وعبادة الأصنام والكهنة والمستبدّون من عبدة الأهواء وانظمتهم وقوانينهم قابليات الجماهير العلميّة والعملية، وخيمت بظلمتها على البواطن وانحرفت بالفطرة، وأودت بالشعور الانساني الى السبات، ويفتحون طرق الشرّ

والفساد من كل جانب من أجل استمرار سلطتهم، في مثل هذه الدنيا يصنع رؤساء المجتمع ودعاة الإصلاح نظاماً عن غفلة أو للإغفال.

والمقننون يضعون القانون والحدّ والمادة دائماً للذين يباشرون الجرم وآلاته، ويوسعون من السجون لتحديد الجرائم، ويحدّون السيف، ويبرمون الحبل ويلهبون الرصاص لرؤوس المجرمين (لا المسبيين الأصليين) وأعناقهم وأدمغتهم. وعلماء الأخلاق يؤسسون المدارس الأخلاقية الواحدة تلو الأخرى. ويجعل الوعّاظ والناصحون الذنب في عنق الأشخاص دائماً، ويبادرون الى نصحتهم ووعظهم. والمرشدون الموجهون يصدّرون أوامرهم بالرياضات النفسية. وهؤلاء جميعاً إمّا أنهم لا يريدون فهم السبب الأصلي والعلّة الرئيسيّة للجرائم والانحرافات، أو لم يتمكنوا من فهمها، وإنارة الفطرة وإعادة العقول الى الحق، وإزالة الأصنام عن الطريق بقيادة الأنبياء العظماء وأسلوبهم والمصلحين الخبراء، والجماعة الذين ابتلوا بالبيئة المظلمة المحدودة يحاولون جميعاً في البحث عن طريق الخلاص والخروج، وفي هذه المحاولة والحركات المختلفة يصطدمون ويزدحمون مع بعضهم، من يكون المجرم ياهل ترى في هذا الوسط، وما هو طريق الخروج وسبب التزاحم؟ هل يتمكن هؤلاء من تعيين حاكم، ووضع قانون، ومعرفة المزاحم والمجرم؟ إلّا أن يوصل الرجل الخبير بالمحيط العارف بالجهاز، نفسه بمفتاح الكهرباء، وينير الفضاء، ويخلص الجميع من الحيرة، ويدلّهم على طريق الخروج، ويصدّ المنحرفين عن الانحرافات، ويسوقهم بنور الهداية في الصراط المستقيم.

﴿فَقُلْنَا أَضْرِبُوهُ بَعْضُهَا...﴾: إن عود الضمير المذكّر في «أضربوه» يعود على المقتول المستفاد من «قتلتم»، وباء «ببعضها» سببيّة، والضمير يعود على البقرة: اضربوا المقتول ببعض البقرة، واختلفوا في هذا البعض بين: الرجل، واللسان، والدم والعظم، وهذا رأي عامّة مفسّري القرآن القدماء، ثم استنتجوا بالنظر الى: «كَذَلِكَ يُحْيِي اللَّهُ الْمَوْتَى...» وانضمام الروايات أن: المقتول احتيا بعد ذلك، وعرّف قاتله، بناءً على هذا يجب أن تقدّر جملة مثل: «فَضْرِبْ بِهِ وَأُحْيَى». ويبرز بعض أصحاب الرأي هذا الرأي بما يلي: كما أن سرّ

الحياة يظهر في عالم الطبيعة من المواد التي تكمن فيها قابلية الحياة عندما تصطدم ببعضها، وتبحث عن طريق الحياة وتكشف عن أسرارها، يمكن أن تظهر الحياة من مواجهة الانسان مع البقرة المذبوحة التي تكمن فيها مادة الحياة ويريد الله أن تبدو هذه حقيقة بصورة محسوسة لأنظار بني اسرائيل. ويعتبر البعض الآخر هذا الأمر دالاً على علم الأرواح وإحضارها الذي اكتشفت أسرارها الآن. ولكن هذه التبريرات تكون صحيحة فيما إذا كان المقتول قد احتيا بعد ضربه ببعض البقرة، وأن الآية تبين كشف سر الحياة والدلالة على إحياء الموتى. مع العلم بأن الآية لا تصرّح بحياة المقتول، ولا سياقها يشير الى البعث و المعاد. يقول المحقق المصري (في تفسير المنار): ان الآية لا تفيد إحياء المقتول حتى بصورة مجملة كما في التوراة، وكان هذا الأمر لإزالة الاختلافات والخصومة حول المقتول الذي يجهل قاتله، وان آية «كَذَلِكَ يُحْيِي اللَّهُ الْمَوْتَى» تفيد حفظ النفوس التي كانت معرضة للهلاك بسبب الاختلاف، مثل: مَنْ أَحْيَا نَفْسًا فَكَأَنَّمَا أَحْيَا النَّاسَ جَمِيعًا» و«لَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَاةٌ».

جاء في الباب الحادي والعشرين من سفر التثنية في التوراة: عندما يوجد في المنطقة التي وهبها لك ربك قتيلاً مرمى بين الحقول، ولا يعرف قاتله، يخرج شيوخك وقضاةك، وقيسون المساكن التي تحيط بالقتيل، فيأتي شيوخ المنطقة التي هي أقرب الى ذلك المكان بعجل لم يحرق ولم يسق الحرث معهم إلى وادٍ دائم الجريان لا نبت فيه ولا زرع، ويكسرون عنق هذا العجل، ثم يتقدم كهنة بني لاوي، لأن الله اختارهم لخدمته ولطلب البركة باسم الرب، ويجب أن تفصل كل خصومة وضربة حسب قولهم، ويذهب جميع الشيوخ إلى قرب المحل، ويفسلون أيديهم على العجل المكسور العنق في الوادي، ويقولون بصراحة: إن أيدينا لم تسفك هذا الدم، ولم تره عيوننا، فاغفر يا رب لقبيلتك اسرائيل التي ضحيت بها، ولا تجعل دماً بريئاً بين قبيلتك، وعندئذ يكون ذلك الدم مورد عفو، ويرتفع من البين دم البريء...

ويقول المحقق الآخر (السيد الهندي) الذي أعاد ضمير «ببعضها» على «النفوس»

لاعلى «البقرة»: ان هذا التذكير قصّة منفصلة ولاصلة لها بالآية السابقة التي تأمر بذبح البقرة. وأمر الآية هو: اضربوا القتليل ببعضه. وكان هذا التدبير سائداً لكشف القتاتل والمجرم؛ ليجتمع المتهمون بالقتل، ويمسكون عضواً من أعضاء القتيل ويضربونه به، فمن الطبيعي يقدم غير القتاتل بجراة ويأخذ العضو ويضربه، وكان القتاتل يعرف بسبب استيلاء الخوف والرعب والشك عليه كما قيل: «الخانن خائف».

والآن عندما نريد أن نتحرر من قيد تقليد غير المعصوم من الماضين بالنظر في نفس الآيات، يجدر بنا أن ندقق في سياق الآيات والتعابير بصورة أكثر: «الضرب» - كما مر في معاني المفردات - له معان كثيرة ومختلفة بلحاظ النسبة إلى نوع الفاعل والمفعول، بواسطة أو بدون واسطة، والحروف الجارة، مثلاً: «ضرب في الأرض» أي مشى وسار فيها. «ضرب بالأرض» أي وقف عليها. «ضربه بالعضا» أي ضربه بواسطة العصا: «ضرب العدد بالعدد والرقم بالحساب» أي مزج هذا العدد بذاك العدد وجعل الرقم بذلك الحساب.

ولما لم يكن لضمير «أضربوه» عود صريح، إعادوه على القتيل المستفاد من «قتلتم» مع العلم بأن المصدر يبادر إلى الذهن بسرعة من الفعل: إذاً، قلنا: اجعلوا القتل بسبب البقرة أو على حسابها: كالعالم الاجتماعي أو الطبيب الذي يعرف «المسكر» هو كسبب للشر والجناية أو المرض، فيقول: إن هذه الجريمة أو المرض بعض جرائمه أو واحد منه، ويجب أن يجعل بحسابه.

وهذا هو لطف الله الذي يهب حياة جديدة للنفوس والمجتمعات بصورة مستمرة عن طريق عرض مصدر الذنوب والجرائم وأصلها، والأمر بازالتها، ويحافظ على النفوس والحقوق من الهلاك والضياح: «كذلك يُحيي الله الموتي».

إن مثل هذا الأمر وفتح طريق الخير والصالح هو من آيات الله، الذي بتنفيذه تفتح عيون الجميع وتكون مبصرة إلى الأبد لمشاهدة آيات الله: «وَيُرِيكُمْ آيَاتِهِ...».

وتتخلص ثروات العقل من التقليد والجمود باتباع هذا الإحياء والإبصار، وينفتح طريق التفكير والتعقل: «لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ». إن الأفعال المضارعة: «يُحيي، يَرى، تعقِلُونَ»

لَمَّا كَانَتْ تَدُلُّ عَلَى اسْتِمْرَارِيَّةِ الْفِعْلِ فَلَا تَخْتَصُّ بِقَوْمٍ أَوْ زَمَانٍ. وَبِهَذَا الْبَيَانُ تَشَاهِدُ صِلَةُ هَذِهِ الْآيَةِ بِالْآيَتَيْنِ السَّابِقَةِ وَاللَّاحِقَةِ.

﴿ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُمْ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ...﴾: إِنَّ كَلِمَةَ الْقِسَاوَةِ تَفِيدُ الشَّدَّةَ وَالظُّلْمَةَ وَعَدَمَ الْقَابِلِيَّةِ وَالنَّبْذَ. الْقَاسِي وَالْقَاسِي: هُوَ الشَّيْءُ الَّذِي صَلَبَ وَاشْتَدَّ فِي نَفْسِهِ كَمَا أَنَّهُ فَقَدَ قَابِلِيَّةَ قَبُولِ الْحَرَكَةِ وَالْحَيَاةِ. «أَرْضٌ قَاسِيَةٌ»: أَرْضٌ لَا تَنْبِتُ، وَ«حِجَارَةٌ قَاسِيَةٌ» حِجَارَةٌ صَلْبَةٌ لَا تَلِينُ لَشَيْءٍ. «قَلْبٌ قَاسٍ» ضَمِيرٌ جَامِدٌ سَلَبَ مِنْهُ الشُّعُورَ وَالْعَوَاطِفَ وَالْحَيَاةَ الْمَعْنَوِيَّةَ. وَالْقِسَاوَةُ صِفَةُ عَارِضَةٍ عَلَى مَوْجُودٍ يَتَقَبَّلُهَا بِنَفْسِهِ.

إِنَّ قَلْبَ الْإِنْسَانِ وَضَمِيرَهُ مُسْتَعِدٌّ لِلْإِدْرَاكِ لِلْمَحْدُودِ، وَجِهَازُ الْحَرَكَةِ وَشَبَكَةُ الْأَعْصَابِ وَالْعَضَلَاتِ مُسْتَعِدَّةٌ لِلْحَرَكَةِ الدَّائِمَةِ. وَكُلٌّ مِنْهُمَا يَتَعَبُ وَيَعْجُزُ، ذَلِكَ مِنْ عَدَمِ الْخَبَرِ، وَهَذِهِ مِنْ عَدَمِ الْحَرَكَةِ. إِنَّ الشُّعُورَ الْذَاتِيَّ بِالْكَمَالِ وَالْعَلَاقَاتِ وَالْحَاجَاتِ تَدْفَعُ الْحَوَاسَ وَالْجِسْمَ إِلَى الْعَمَلِ.

فَالذَّهْنُ يَظْهَرُ الصُّورَ الْمَلْتَقِطَةَ مِنَ الصَّفَحَاتِ الدَّاخِلِيَّةِ وَيَصْنِفُهَا، وَطَاقَةُ التَّفَكِيرِ وَالتَّعْقَلِ تَسْتَنْتِجُ مِنْ تَجَارِبِ الْوَهْمِ وَالْخِيَالِ نَتَائِجَ عِلْمِيَّةٍ وَعَامَّةٍ.

وَالَّذِي يَجْمَدُ هَذِهِ الْحَرَكَةَ وَالْحَيَاةَ الْفَيَاضَةَ الْمُسْتَمْرَةَ، وَيَعْطِلُ الْقُوَى الْإِنْسَانِيَّةَ النَّشِطَةَ الْخَلَاقَةَ هُوَ الْغُرُورُ وَالْفَرَحُ بِمَا يَمْلِكُهُ مِنْ ذَخَائِرٍ دَاخِلِيَّةٍ وَخَارِجِيَّةٍ. وَالْأَنْبِيَاءُ الْعِظَامُ حَاوَلُوا بِوَسْطَةِ عَرْضِ الْآيَاتِ، وَفَتَحَ الْمَجَالَ أَمَامَ الْعْيُونِ وَالْعُقُولِ، وَتَحْطِيطِ الْغُرُورِ وَالتَّقَالِيدِ أَنْ يَوْقِظُوا الْقَابِلِيَّاتِ الرَّاقِدَةَ، وَيُشِيرُوا الْأَفْكَارَ [الرَّاكِدَةَ]، وَيَجْلُوا أَصْدَاءَ الطَّبَاعِ الرِّذِيلَةِ، وَيَخْلَصُوا الْإِنْسَانَ مِنْ مَوْتِ الضَّمَائِرِ وَجُمُودِهَا وَقِسَاوَتِهَا.

وَقَدْ عَرَضَ مُوسَى ﷺ كُلَّ تِلْكَ الْآيَاتِ فِي مَظَاهِرِهَا الْمَحْسُوسَةِ لِيَتَحَطَّمِ الْعُدُوُّ، وَيَخْلَصَ الْمُحِبُّ التَّابِعُ مِنَ السُّكُونِ الْبَاطِنِيِّ وَالذَّلِّ، وَبِالتَّالِي أَحْرَقَ الْعَجَلَ الْمَعْبُودَ، وَذَبَحَ الْبَقْرَةَ الْمُحِبُّوَّةَ. عَجَبًا! بَعْدَ كُلِّ هَذِهِ الْآيَاتِ وَالتَّدَابِيرِ، أَوْ ذَبَحَ الْبَقْرَةَ وَالْأَحْيَاءَ (بِنَاءً عَلَى الْإِحْتِمَالَيْنِ الْمَشَارِ إِلَيْهِمَا - مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ -) قَسَتْ قُلُوبُهُمْ، كَأَيِّ شَيْءٍ؟

﴿فَهِيَ كَالْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً...﴾: وَلِهَذَا فَإِنَّ تِلْكَ الْقُلُوبَ كَالْحِجَارَةِ، لَا كَالْتَرَابِ

الدقيق الذي له جاذبية وميل للحياة والنمو والاستسلام الى الحق. ولذا لا يرجى منها الإخضرار والنضارة أبداً<sup>(١)</sup>.

هل أنّ تلك القلوب هي كالحجارة من كل ناحية؟ اذا كانت كلمة «أو» للشك والترديد فهي بالنسبة للمخاطب: تتمكن من أن تعتبر تلك القلوب كالحجارة أو أشدّ قسوة. ويمكن أن تكون للتقسيم: أنّ قلوب بعضهم - أو في المرتبة الأولى - كالحجارة، والبعض الآخر - أو في المرتبة الثانية - أشدّ قسوة منها ويبدو أنّ «أو» هنا جاءت بمعنى «بل» أي للإضراب: إنّ تلك القلوب كالحجارة، بل أشدّ قسوة منها.

﴿وَإِنَّ مِنَ الْحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنْهُ الْأَنْهَارُ...﴾: وإن كان الحجر لا ينبت شيئاً، ولكن الأنهار تنبع من الصخور الجبلية مع كلّ قساوتها وتجري. وإن لم تنبع الأنهار من قلب الصخور تنفس نتيجة تأثير عوامل الطبيعة، ويجري الماء من خلالها: «وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَشَّقُّ فَيَخْرُجُ مِنْهُ الْمَاءُ...».

إحدى هذه العوامل الماء والرطوبة التي تنفذ خلال الصخور، وعندما تجمد المياه [في الشتاء] يتمدد الماء المنجمد فيكسر الصخور «لأنّ الماء بخلاف الاجسام الأخرى يتمدد في البرد، ولو لم يكن هذا القانون الإستثنائي الخاص بالماء لكان الثلج في الشتاء يملأ السواقي والحياض حسب قانون الوزن الخاص، ولم يفتح طريق خروج الماء من الجبال في الصيف كما ينبغي!!» والعامل الآخر من عوامل تفسير الصخور هو حركات الأرض الباطنية المستمرة.

إنّ هذه القلوب أقسى من الصخر الصلب، لا تتقبّل الحق ولا تملك حياة معنوية وكما لا عقلياً. لا ينبع من داخلها الخير والعطف، ولا يجد الوعظ والحكمة والعبرة طريقها عن طريق السمع والبصر الى ضميرهم المتحجر الميت، ولا تخضع أمام عظمة الآيات

(١) فمتى يخضر صخر في الربيع  
كنت صخراً جارحاً منذ زمان

كن تراباً تُنبت الورد البديع  
كن تراباً مدةً للإمتحان  
ملاحظة: ترجمتهما من الفارسية. الترجمان

المحسوسة وقوتها.

مع العلم بأنّ الصخور الجبلية الشاهقة تهبط من خشية الله وقدرته: «وإنّ مِنْهَا لَمَّا يَهْطُ مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ...».

يقول أحد علماء الطبيعة : عندما تكونت الجبال بحسب قوانين التكوين، وطلعت من وسط البر والبحر وتماسكت، وتباهت بنفسها سلّطت الطبيعة التي تعادي التكبر والأنانية - عواملها عليها وحدّت من كبريائها وأخضعتها، من الزلازل الأرضية إلى البراكين الباطنية، والأمطار الخارجية حتى الحشرات الدقيقة!

والقرآن بهذا التشبيه والتمثيل «المعروف لدى الأذهان بمشاهدة الآيات السابقة من انفجار الماء من الحجر ورفع الجبل فوق رؤوس بني إسرائيل» عرض درجات قساوة تلك القلوب وأقسامها. والوجه المشترك بين هذه القلوب والحجارة هو التماوت والجمود وفقد قابلية الكمال والتكامل، وبمقايستها مع الحجارة والفرق بينها يشير إلى ثلاثة أقسام أو ثلاث درجات:

١- ما أكثر ما ينبع الماء من باطن الصخور ويجري النهر ولكن هذه القلوب القاسية لا تنبع من الباطن.

٢- يتشقق الصخر نتيجة تأثير عوامل التكوين ويخرج منه الماء، ولكن المواعظ والعبر لا تجد طريقاً لقلوب هؤلاء، ولا تنضح خيراً.

و«تَفْجَرُ» تتناسب مع الأنهار بإزالة الموانع والجري الغزير: و«تَشَقُّقُ» تتناسب مع خروج الماء وإنْ قَلَّ.

٣- تخضع الصخور من خشية الله وتنهار، ولكن قلوب هؤلاء لا تخضع أمام عظمة الله وآياته.

ولم تكن قساوة قلوب أناس إلى هذا الحد من ناحية جبلّتهم. وإنّما هي آثار الأعمال التي تزيل القابلية من القلوب القابلة وتمسخها، وسوف تكون النيران نتائج أعمال هؤلاء

التي تزيل القابلية من القلوب القابلة وتمسخها، وسوف تكون النيران نتائج أعمال هؤلاء القساوة: ﴿وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾.

ولا يستسلم أصحاب هذه القلوب إلى أي حق وإن كان في مصلحتهم نتيجة للقساوة، ويجب ألا يرتجى خضوعهم واستسلامهم:

﴿أَفَتَطْمَعُونَ أَنْ يُؤْمِنُوا لَكُمْ وَقَدْ كَانَ...﴾: إن أمل المسلمين وطمعهم في إيمان اليهود وأنهم ربما يميلون إلى دعوتهم كان في محلّه لأنّ الذين كانوا يعيشون في شبه الجزيرة العربية لاسيّما حوالي يثرب من المظّلحين على الكتب السماويّة هم اليهود فقط. والطوائف اليهوديّة كانوا محصورين بين المشركين، وكانوا يعيشون حالة الخوف والرجاء بانتظار الفرج، وكانوا يتنبّون بين الفينة والفينة بظهور نبيّ منقذ إلى أن قام رسول الله من بين هؤلاء العرب وصدّق أنبياء بني إسرائيل العظام وقبلتهم وكتابهم وأثبت ذلك.

كان المسلمون يأملون في مسارعة هؤلاء إلى الإيمان، أو لا يقومون بمخالفة. ولكن اليهود لم يتمسكوا، ولا أوضحوا ما كانوا يخفونه في قلوبهم من أسرار الماضين وأخبارهم، والتي كانت تؤيّد التوحيد والهداية إلى طريق الأنبياء الماضين. وهذا أيضاً شاهد آخر على أن قلوب هؤلاء أقسى من الحجر. وكان جماعة من هؤلاء يسمعون كلام الله من ألسنة أنبيائهم ويحرّفونه لأتباعهم حسب أهوائهم.

إنّ هؤلاء القساة عبدة المال والهوى كانوا يحرفون كلّ تلك الآيات المشهودة المحسوسة لفظاً ومعنى لاتباعهم، فكيف تطمعون في أن يؤمنوا لصالحكم - أنتم المسلمين - بآيات لها صلة بالقلب والعقل: ﴿وَقَدْ كَانَ قَرِيْقٌ مِنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلَامَ اللَّهِ ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُ...﴾.

وكان هؤلاء يحرفون كلام الله عن علم وتفكير، لأعن طريق الجهل والخطأ: ﴿مِنْ بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾.



﴿وَإِذَا قَالُوا آمَنُوا قَالُوا آمَنَّا وَإِذَا خَلَا بِغَضُهمْ إِلَىٰ بَعْضِ قَالُوا أَتُحَدِّثُونَهُم بِمَا فَتَحَ اللَّهُ عَلَيْكُم لِيُحَاجُّوكُمْ بِهِ عِنْدَ رَبِّكُم أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٧٧﴾ أَوَلَا يَعْلَمُونَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ ﴿٧٨﴾ وَمِنْهُمْ أُمِّيُونَ لَا يَعْلَمُونَ الْكِتَابَ إِلَّا أَمَانِي وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ ﴿٧٩﴾ فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ يَكْتُمُونَ الْكِتَابَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَذَا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ لِيُشْتَرَوْا بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا فَوَيْلٌ لَهُمْ مِمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ وَوَيْلٌ لَهُمْ مِمَّا يَكْسِبُونَ ﴿٨٠﴾ وَقَالُوا لَنْ تَمَسَّنَا النَّارُ إِلَّا أَيَّامًا مَّعْدُودَةً قُلْ أَتَّخَذْتُمْ عِنْدَ اللَّهِ عَهْدًا فَلَنْ يُخْلَفَ اللَّهُ عَهْدَهُ أَمْ تَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٨١﴾ بَلَىٰ مَنْ كَسَبَ سَيِّئَةً وَأَحَاطَتْ بِهِ خَطِيئَتُهُ فَأُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿٨٢﴾ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿٨٣﴾﴾

#### معاني المفردات:

الحديث : ما هو حادث. الخبر الجديد، [قول المعصوم عليه السلام].

الفتح : في المقابل الغلق، التعليم، القضاء.

المحاجة : المجادلة والمناظرة، لأن كلا من الطرفين يأتي بالحجة (الدليل) لإثبات ما

يدّعيه. من الحجج بمعنى القصد.

الأمي: الذي لا يعرف القراءة والكتابة، المنسوب إلى الأم، الجاهل من الولادة، أو

المنسوب إلى الأمّة، لأنه كعامة الناس.

الأماني : جمع الأمنية: الكذب، الأمنيات المصطنعة، وتأتي بمعنى القراءة والتلاوة

أيضاً.

الويل : الشرّ والهلاك، الهم والنحيب. كلمة تقال عند مواجهة الهلاك والمصيبة ولا أمل

نجاة منهما.

الكسب : العمل من أجل الانتفاع أو دفع الضرر، ويتم عن طريق الأعضاء.

المسّ : كاللمس: الوصول إلى ظاهر شيء، وتأتي بمعنى لمس الشعور أيضاً.

الخطيئة الذنوب الضلال الانحراف عن الطريق

﴿وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ آمَنُوا...﴾ هذا أيضاً نموذج من فسادهم أو خسيرتهم، بحيث احتاروا بين الجمود على التقاليد والعقائد القديمة وبين الهداية الجديدة، فلا يتمكنون من التخلص نهائياً من هذه الثقايل، ويميلون إلى الحق، ومن جهة أخرى إنهم قلقون من أن تتقدم الهداية الجديدة وتبعر الوضع القديم فينقلقون ويتشككون ذليئين. وفي وسط هذه الحيرة يظهرون إيمانهم عند مواجهة المؤمنين المصلحة: «وَإِذَا لَقُوا...». ولكن جاذبيتهم النفسية كانت إلى جانب تلك التقاليد والأوضاع القديمة وإلى زملائهم في الدين: «وَإِذَا خَلَا بِضَعْهُمْ إِلَى بَعْضٍ...» إن هذه الحيرة والجذب والإجذاب بين القديم والجديد يخص عامة جماهيرهم، وأما القادة والرؤساء الدينيين الذين كانوا يرون الدين آلة لسلطتهم ونفوذهم ومنزلتهم، لم يواجهوا مثل هذه الحيرة، وكانوا يؤثرون اتباعهم عندما كانوا يُظهرون ما يعلمون من الدين للمسلمين: «وَأُتُحَدِّثُهُمْ بِمَا فَتَحَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ» !! بناءً على هذا يعود الضمير في «قَالُوا إِنَّا» إلى الفئة الأولى، وضمير «قَالُوا أُتُحَدِّثُونَهُمْ» إلى الفئة الثانية. والمقصود من «مَا فَتَحَ اللَّهُ» هو الشريعة والأحكام فيما إذا كان الفتح يعني مقابل الغلق، وإذا كان معنى الأمر والحكم فالمقصود منه العهود والأوامر النبوية. فكانوا يبررون تأنيبهم لاتباعهم بأن المسلمين لم يعلموا بما يعلمون هم لانطلقت السنة احتجاجهم: «ليحاوكم به عند ربكم» بمحضر الكتاب وحكم الله، أو في يوم القيامة. وقول القرآن هذا عن لسان اليهود يفند أنهم كانوا يظنون بأن الله وعلمه محدود، ولم

يعرفوا كونه محيطاً بباطن جميع الموجودات وظاهراً. وكانوا يظنون بأن الله يعلم ما يقال وما يظهر فقط. هؤلاء المغرورون الذين كان يرون حسب تخيلاتهم بأن أبواب أسرار الدين مفتحة بوجههم فقط، كانوا يتصورون كشف هذه الأسرار للمسلمين من عدم العقل وعدم التفكير بالعواقب «أفلا يعقلون».

﴿أَوْ لَا يَعْلَمُونَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ﴾ لماذا لا يستخدم هؤلاء عقولهم في طريق العلم؟ ليعلموا أن الواضح والجلي سنان عند الله؛ لأن الله يحيط إحاطةً

علمية بالتحريفات التزويرية التي أوردوها في كلامه، لأنه عالم بنفاقهم وازدواجيتهم في سيرتهم مع المسلمين، وما يخفونه من معلوماتهم على المسلمين، وسوف يخزيهم في الدنيا ويحاسبهم في الآخرة. وأن الله يعلم حجة المسلمين سواء أخفاها اليهود أم أظهروها. لذا فإن الآية ببيانها إحاطة الله العلمية تتضمن تهديدهم وتقريعهم والرد عليهم حول التحريف والنفاق والكتمان والاحتجاج الوارد في الآيتين السابقتين.

وهذا نوع من البلاغة في اتساع القصد والتطبيق الخاص بالقرآن.

ثم يبين كل ما ورد حول الاتباع العوام والقادة المنحرفين بصورة غامضة في هذه الآية، يبين في الآية التالية كيفية إدراك كل من الفتين وسيرتهم بالنسبة للدين كلاً على حدة.

﴿ومنهم أमीون...﴾ إن هذه الفئة التي لم تدرس، ولهم أفكار طفولية كالطفل الطفيلي على أمه لا يظنون الكتاب الذي هو أحكام الحياة وأسلوب التقدم نحو السعادة (أو من الكتاب، بناء على تقدير «من») سوى الغرور والفتن والأمنيات التافهة.

يظن هؤلاء - بتعاليمهم وإيحاءاتهم الغرورية - أنهم صفوة الله، وأن قومهم أفضل من الجميع وسوف يكونون في الآخرة موضع شفاعة أنبيائهم. ولم يكن هذا الذم لأنهم أमीون، وإنما لأنهم لم يهتدوا بهدي الكتاب إلى واجباتهم ومسؤولياتهم، ولم يتعرفوا على رموز التربية ومقاصد الكتاب، ولا اتبعوا علماءهم الربانيين وقلدوهم. والآية التالية تشير إلى المسؤولين عن هؤلاء العوام المعتمدين على الأمنيات والمذنبين الكبار.

إن مثل ابتلاء العامة هذا بالأمنيات والآمال والتفاخر بالماضين وآثارهم البارزة هو من نتائج انحدار الشعوب وذلّتهم وضعف قواهم العقلية والجسمية، ويظنون مثل هذه «الأمنية» الوسيلة الوحيدة لسعادتهم في الدنيا ونجاتهم في الآخرة، فتطيب قلوبهم بذلك ويغفلون عن قوانين الحياة العامة - إلى درجة بحيث يسمع المسلمون هذه الآيات وتاريخ السلف ويغفلون عن انطباقها على أنفسهم، ويرمون بنظرتهم إلى الماضين فقط - روي عن الرسول ﷺ: أيها المسلمون ستسلكون آثار من قبلكم شبراً شبراً وذراعاً ذراعاً.

وقد نبذت الآية مثل هذه الأمنيات والأفكار التي لا أساس لها، ويعتبر علماء المسلمين الكبار التحقيق في الأصول والاستدلال عليها واجباً على الجميع وفي الفروع واجباً على ذوي القابليات. وكان المسلمون في القرون الإسلامية الأولى لا يقبلون العقيدة إلا بالبرهان، والعمل إلا عن الرواية والقرآن، والتقليد إلا في الفروع غير المنصوص عليها، وذلك من الرواة الثقات. جاء في كتاب الصافي حديث في تفسير هذه الآية يبين وجهة نظر الآية حول التقليد الحق والباطل، وشرح «الأمني»، وانطباق الآية على عوام المسلمين، ومعيار معرفة العلماء المحققين والمبطلين. والحديث: «قال رجل للصادق عليه السلام: فإذا كان هؤلاء العوام من اليهود لا يعرفون الكتاب إلا بما يسمعون من علمائهم، لا سبيل لهم إلى غيره، فكيف ذمهم بتقليدهم والقبول من علمائهم، وهل عوام اليهود إلا كعوامنا. يقلدون علماءهم، فإن لم يجوز لأولئك القبول من علمائهم، لم يجوز لهؤلاء القبول من علمائهم؟» فقال عليه السلام: «بين علمائنا وعوامنا وبين عوام اليهود وعلمائهم فرق من جهة، وتسوية من جهة، أمّا من حيث استوتوا فإن الله قد ذمّ عوامنا بتقليدهم علماءهم، كما قد ذمّ عوامهم. وأمّا من حيث افترقوا فلا. قال: بين لي ذلك يا بن رسول الله ﷺ. قال: إنّ عوام اليهود كانوا قد عرفوا علماءهم بالكذب الصريح، وبأكل الحرام، والرشا، وبتغيير الأحكام عن واجبها بالشفاعات والعنايات والمصانعات، وعرفوهم بالتعصب الشديد، الذي يفارقون به أديانهم، وأنهم إذا تعصبوا أزالوا حقوق من تعصبوا عليه، وأعطوا مالا يستحقّه من تعصبوا له من أموال غيرهم، وظلموهم من أجلهم، وعرفوهم يقارفون المحرمات، واضطروا بمعارف قلوبهم إلى أن من فعل ما يفعلونه فهو فاسق، ويجوز أن يصدق على الله، ولا على الوسائط بين الخلق وبين الله، فلذلك ذمهم لما قلّدوا من عرفوا ومن قد علموا أنّه لا يجوز قبول خبره، ولا تصديقه في حكايته، لا العمل بما يؤدّيه إليهم عمّن لم يشاهدوه، ووجب عليهم النظر بأنفسهم في أمر رسول الله ﷺ إذ كانت دلائله أوضح من أن يخفى، وأشهر من أن لا يظهر لهم، وكذلك عوام أمّتنا إذا عرفوا من فقهاءهم الفسق الظاهر والعصبية الشديدة، والتكالب على حطام الدنيا

وحرامها، وإهلاك من يتعصبون عليه، وإن كان لا صلاح أمره مستحقاً، وبالترفق بالبر والإحسان على من تعصبوا له، وإن كان للإذلال والإهانة مستحقاً. فمن قلّد من عوامنا مثل هؤلاء الفقهاء، فهم مثل اليهود الذين ذمّهم الله بالتقليد لفسقة فقهاءهم، فأمّا من كان من الفقهاء صائناً لنفسه، حافظاً لدينه، مخالفاً على هواه، مطيعاً لأمر مولاه، فللعوام أن يقلّدوه، وذلك لا يكون إلّا في بعض فقهاء الشيعة لا جميعهم، فإن من يركب من القبائح والفواحش مراكب فسفة فقهاء العامة فلا تقبلوا منهم عتاً شيئاً، ولا كرامة لهم»<sup>(١)</sup>.

أخذ البعض معنى «الأمانى» من «التمنى» بمعنى القراءة والتلاوة: لا يعرفون من الكتاب شيئاً إلّا ما يقرأ عليهم، أو: لا يعرفون شيئاً سوى التلاوة والقراءة الظاهرية (وقد سبق المسلمون الجميع في هذين المجالين أيضاً)، لأن أفكارهم وأذهانهم لا تتقدّم نحو البرهان والدليل والنتائج القاطعة، ومحاصرة في نسيج أمنيّاتهم وأوهامهم، وتطيب قلوبهم بالتلاوة والقراءة فقط، إذا يذهبون وراء الظن دائماً: وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ.

وحمل الفعل على الذات يفيد الحصر، أي أن وجودهم لاشيء سوى الوهم والظن؛ لأن الإنسان تفكير، وما سوى ذلك عروق وجذور ليس إلّا.

﴿قَوْلٌ لِلَّذِينَ يَكْتُبُونَ الْكِتَابَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَذَا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ...﴾:

إن هذه الآية التي بدأت وانتهت بكلمة «وَيْلٌ» المتكررة: «الويل: الموت، الذل، قصّر اليد وقطعها من كل خير ووسيلة نجاة» تدلّ مع «فاء التفريع» على أن مثير ذلك الغرور «الأمانى» في نفوس الأميين، وإيقاعهم بين الظن والوهم، هو ذلك النسيج والأمل وإثارة الأمنية التي كانت تكتب باسم دين الله وكتابه، وتجمّد الأميين البسطاء كالصم العمي بين الأوهام والتخيّلات التي لا تتلاءم مع الدين والقوانين الإلهية والبرهان والدليل، وهؤلاء العوام موضع تأنيب؛ لأنهم لم يأخذوا الكتاب والأوامر وموازينته بنظر الاعتبار ويقلّدون تقليداً أعمى، ولكن الأكثر (أو الجميع) يقع ذنب جهلهم على عاتق الذين أبدوا أنفسهم بأعتبارهم عالمين بأسرار الشريعة، ويعرضون ما يكتبونه لصالح شهواتهم باعتباره كتاب

(١) استخرجت النص الكامل للحديث من تفسير الصافي: ٣٦. (الترجمان).

الله، إذاً فسبب ذلك هو غرور هذه الكتابات العامية القاطعة الطريق عن صراط الدين المستقيم، الكتابات التي يكتبونها بأيديهم؛ «بأيديهم» تكرر هذا القيد في هذه الآية». تلك الأيدي التي شمر عنها حبّ الرّيح والأنانية وخداع العوام، ويكتبون الأهواء المضلة بصورة دور الدين، ولو كان الذي دفع يد الكاتب للكتابة هو إرادة الحق، والتفكير للحق، وبأمر المولى، وأسمى من تدخل الهوى، فهي يد الله، وليس عليه «وَيْلٌ» بحسب المفهوم المخالف لهذه الآية، بل يكون خطأ صواباً أيضاً.

إنّ وصف الأئمة الهداة عليهم السلام وتعريفهم للفقهاء الذين على العامة أن يقلّدوهم، هو في الحقيقة شرح لمفهوم هذه الآية المخالف الذي يستفاد من قيد «بأيديهم». وينصبّ وصف الأئمة لمثل هؤلاء الفقهاء أكثر ما يكون على التقوى وصيانة النفس، وحفظ الدين، والتمرد على الهوى، وإطاعة أمر المولى. ومن حيث الاختصاص العلمي لم يأت أكثر من وصف الفقيه وراوي الحديث: «أما من كان من الفقهاء صائناً لنفسه، حافظاً لدينه، مخالفاً لهواه، ومطيعاً لأمر مولاه فللعوام أن يقلّدوه...».

إنّ الذين يكتبون كتاباً بأيديهم يندفع الهوى واتساعاً للشهوات في مقابل الثمن الدنيوي، وينسبونهم إلى الله، صوابهم خطأ، واتباعهم وبال للعقول والأخلاق والمجتمع. إذاً فالدعاء عليهم بالهلاك والويل وقصر اليد عن كل خير ممّا كتبوا وكسبوا: ﴿قَوْلٌ لَهُمْ مِمَّا كَتَبْتُ أَيَدِيهِمْ وَوَيْلٌ لَهُمْ مِمَّا يَكْسِبُونَ﴾.

﴿وَقَالُوا لَنْ تَمَسَّنَا النَّارُ إِلَّا أَيَّاماً مَعْدُودَةً...﴾: هذا نموذج واضح من غرور عوام اليهود وأمانتهم حول يوم الجزاء ومجازاة الأعمال السيئة والتي هي نتيجة تلك الكتب المزيفة ذات الغرور، أو أنّه موجز من أفكارهم الجوفاء: إنّ هؤلاء المخدوعين المغرورين يتصورون أنّ نار جزاء الأعمال محرّمة عليهم وعلى قبيلتهم أية كانت ومهما فعلت إلى الأبد: «لن، تفيد النفي والتأييد»، لن تمسّهم النار سوى أيّام معدودة (عدد أيّام عبادتهم العجل، أو سبعة أيّام تكوين العالم) «تمسّ جلود أبدانهم، وربّما لا تؤلمهم أيضاً». إنّ هذا أقصى غاية الغرور والأنانية، ومضدر كل ذنب وجناية، إن لم يكن هذا كذب وافتراء

وغرور فما هو إذا؟ هل أخذوا من الله والأنبياء عهداً خاصاً أو عاماً؟ ﴿قُلْ أَتَّخَذْتُمْ عِنْدَ اللَّهِ عَهْدًا فَلَنْ يُخْلِفَ اللَّهُ عَهْدَهُ﴾؟ أو أنهم ينسبون شيئاً إلى الله لا علم لهم به لا عن الدليل والبرهان، ولا عن طريق الوحي والكتاب: ﴿أَمْ تَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾؟ «بَلَى مَنْ كَسَبَ سَيِّئَةً وَأَحَاطَتْ بِهِ خَطِيئَتُهُ...» ﴿جاء الحرف «بلى» لتصديق هذه الحقيقة وإثباتها وإزالة ذلك الوهم. صرّحت هذه الآية بقانون الجزاء العام و آثار العمل، وسرّ الخلود في جهنم بهذه العبارة الجامعة البليغة: فكسب السيئة عمل من أعمال الجوارح الناتج عن النية والقصد بالتكرار والاصرار، يترك في النفس آثاراً ثابتة، وتتحوّل الى عادة وحالة وملكة، الى درجة بحيث تستوعب الضمير والوجدان، وتسيطر على الجوارح، وتخرج من محيط الهداية والالتفات الى الحق. ويسهل - بعد ذلك - كل ارتكاب ذنب وشرّ بدون معارضة الضمير، حتى يواجه مثل هؤلاء الشرك والكفر المعنوي (يختلف الكفر الظاهري والعنواني عن الكفر المعنوي)، مورد الآية هم اليهود، والمقصود عام، وشامل للجميع وإن كانوا موحدّين ومسلمين في الظاهر.

جاء في تفسير الإمام عليه السلام: «السيئة المحيطة به أن تخرجه عن جملة دين الله، وتنزعه من ولاية الله، وتؤمنه من سخط الله، وهي الشرك بالله، والكفر به وبنبوّة محمد ﷺ، وولاية علي عليه السلام وخلفائه، وكل واحدة من هذه سيئة، تحيط به، أي تحيط بأعماله فتبطلها وتمحقها»<sup>(١)</sup>.

يرى بعض الحكماء المحقّقين والمتكلمين الاسلاميين أن الخلود في جهنم لا يتلاءم والأصول العقلية المسلمة. ويعتبر البعض الخلود خاصاً بالمشرّكين، ويعتبر المعتزلة أهل الكبائر مخلدين في النار.

وإنّ هذه الفئة من المحقّقين يقولون: إنّ تكوين العالم من مبدأ الخير و بالتّجاه الخير والكمال والصلاح، والانسان المستعد للكمال والساعي نحو الكمال، وفطرته مجبولة على الخير لا يمكث إلى الأبد في جهنم التي هي محيطٌ بعيدٌ عن الحق والخير، لأنّ البعد

(١) استخرجت النصّ من كتاب تفسير الصافي: ص ٣٧. (الترجمان).

عن الحق والخير قيس، والقيس لا يدوم أبداً، بل آثار الذنب عرض، والعرض زائل بين حين وآخر. والأبدية في جهنم لا تتلاءم أيضاً مع سعة الرحمة وشمولها، وهكذا فإن العذاب غير المحدود في مقابل الذنب المحدود مخالفت للعدل. فبناء على هذه الموازين والأصول المسلمة لدى هؤلاء المحققين، يعتبرون الآيات الدالة على الخلود والعذاب الأبدي بمعنى الأزمنة الطويلة. إنهم غافلون عن هذه الحقيقة، وإن كان قابلية الخير والكمال غالبية في أكثر النفوس، ولكن النفوس جميعاً كانت في بداية القطرة في موضع وسط الخير والشر والكمال والنقص. وهذه القابلية والقوة تنتقل إلى الفعلية بالاختيار والكسب في إحدى الجهتين، وعندما تتغلب الطيناع والملكيات الوراثية والاكتمالية والنخصال الحيوانية على النفوس، تتغير الصورة الفطرية والباطنية تغييراً تاماً، وتخرجها من محيط جاذبية الخير والرحمة، ثم تكون تلك الصورة والمخطط الذي أوجدها الشخص بالكسب والاختيار أمراً طبيعياً بالنسبة له، ولا يكون البقاء في هذا المخطط بضورة، فسرته بعد ذلك حتى لا يدوم، وأيضاً إن آثار الأعراض في النفوس القابلة عند ما يتحول إلى جوهر لا تزول. فيكونون كالحيوان أو أخس منه فاقدين قابلية استقبال الرحمة، ولذا فإنهم لا تشملهم الرحمة الواسعة كنسائر الموجودات القادرة للقابلية والاستعداد، وكما أن الحيوان محكوم من قبل غرائزه، فإن هؤلاء أيضاً محكومون إلى الأبد من قبل طباعهم المكتسبة، فيكون محيط العذاب محيطاً لطبيعتهم الصلبة، كما يشاهد في الدنيا هذه الطبيعة الثانوية والانقلاب النفسي في نفوس جماعة معدودة، «وقد جاء هذا المضمون في الأحاديث: إن أصحاب جهنم عندما يذكرون الله، أو تكون ذرة من حب الخير في قلوبهم، ينجون في النهاية».

بناءً على هذا، ووفقاً لآيات القرآن الحكيم الصريحة إن الخلود في العذاب لا يكون غير متلائم مع أصول التكوين والخير والكمال والرحمة والعدل، وهو موافق لقوانين التكوين ونواميسه وجبلت الإنسان المنارة بكمال النفوس في الجهة التي يختارها الشخص، تلك النفوس التي اكتسبت «الطبيعة» بالاختيار وبضورة مستمرة، واعتبرها



كمالاً لوجوده، فصارت اثار المكتسبات ملازمة ومرافقة ذاتية لهم ولا تنفك عنهم، وأصبحوا سيئين باكتساب «السيئة»، لأن ملازم السيئة - أو صورتها الباطنية - النار وجهنم التي يلازمونها ويرافقونها ويخلّدون فيها: ﴿أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾.

وفي مقابل هؤلاء، النفوس الایمانیة النيرة الساعية في طريق العمل الصالح: ﴿أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾. وبين هاتين الفئتين أكثرية لا هي مجذوبة من البداية ومتجهة نحو الجنة، ولا مخلدة في جهنم الى الأبد ومتجهة نحوها. وهاتان الآيتان مثل آية: «إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا...» تعبران عن القانون الكلي العام للكسب والعمل ونتائجه وآثاره الباقية.

﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَٰئِيلَ لَا تَعْبُدُونَ إِلَّا اللَّهَ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينِ وَقُولُوا لِلنَّاسِ حُسْنًا وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ ثُمَّ تَوَلَّيْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا مِّنْكُمْ وَأَنْتُمْ مُّعْرِضُونَ ﴿٨٤﴾ وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ لَا تَسْفِكُونَ دِمَاءَكُمْ وَلَا تُخْرِجُونَ أَنْفُسَكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ ثُمَّ أَقْرَرْتُمْ وَأَنْتُمْ تَشْهَدُونَ ﴿٨٥﴾ ثُمَّ أَنْتُمْ هَٰؤُلَاءِ تَقْتُلُونَ أَنْفُسَكُمْ وَتُخْرِجُونَ فَرِيقًا مِّنْكُمْ مِنْ دِيَارِهِمْ تَظَاهَرُونَ عَلَيْهِمْ بِالْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَإِنْ يَأْتُوكُمْ أُسَارَىٰ تُفَادُوهُمْ وَهُوَ مُحَرَّمٌ عَلَيْكُمْ إِخْرَاجُهُمْ أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ الْكِتَابِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ فَمَا جَزَاءُ مَنْ يَفْعَلْ ذَٰلِكَ مِنْكُمْ إِلَّا خِزْيٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يُرَدُّونَ إِلَىٰ أَشَدِّ الْعَذَابِ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٨٦﴾ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ اشْتَرَوُا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا بِالْآخِرَةِ فَلَا يَخَفُ عَنْهُمْ الْعَذَابُ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ﴿٨٧﴾﴾.

معاني المفردات:

لا تعبدون: نفى بمعنى النهي، يقولون: لما كان خبراً عن عدم الوقوع يكون أكثر تأكيداً

من النهي.

القربى: بالمعنى المصدري: القرب، القرابة، ويأتي بمعنى الوصف التفصيلي: الأقرب.  
اليتامى: جمع اليتيم واليتيمة، من اليتيم: العجز، التقصير في العمل، التراخي، الاجتناب،  
فقد الأب قبل البلوغ. اليتيم: الذي لا أب له (بالنسبة للإنسان)، وما لا أم له.  
المساكين: جمع المسكين، ضعيف الحال، من السكون، وكأن الفقر صده عن الحركة.  
حَسَنًا: صفة له قولاً، القول الذي يترك أثراً حَسَنًا، ويرشد ويوجه، تقرأ مثل حسنى،  
بفتح الحاء والسين.

توليتهم: من تولى: أخذ بزمام العمل، اتخذ فلاناً بالإشراف والولاية. أعرض عن  
الشيء.

معرضون: من الإعراض، الالتفات كلياً إلى الجهة المخالفة بحيث لا يعود.  
تسفكون: من السفك: الجري، الإهدار، يقال في الموارد التي يجري فيها الدم أو الماء  
هدراً ويدون سبب.

أنفس: جمع نفس: الحقيقة، الوجود ويقال من النفاسة: القيم، الثمن، لأن الإنسان أنفس  
من كل شيء.

ديار: جمع دار: محل السكنى والاستقرار.

أقرزتم: من الأقرار: الاعتراف القولي أو العملي.

تظاهرون: مخفّف تتظاهرون: من الظهر: مواجهة الظهر للظهر، التعاون، القيام علناً،  
المظاهرة.

إثم: العمل القبيح الذي يوجب التائب.

العدوان: الاعتداء والتجاوز عن الحد، الظلم.

أسارى: جمع أسير. على وزن كسالى، من حيث شبه الاستكانة، وإلا فجمعه أسرى،  
مثل فاعيل وفعلى، ولذا قرأ البعض «أسرى». والأسير من الأسارة: قطعة السير من الجلد.  
تفادوهم: من التفادي: دفع المال في مقابل إطلاق سراح الأسير. والفدية المال

المدفوع لتحرير الأسير.

الخزي: الذلة والاستكانة، الفضيحة المخجلة، الابتلاء.

﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَآئِيلَ...﴾: بعد بيان تلك النعم التي أنعمها على اليهود وسيطرة تلك الانحرافات والجمود العقائدي والفكري والنفسي عليهم، وتلك الموازين الجامعة للحق والصواب، وتلك الأحكام الرشيدة للتخلص من الشرك والغرور، وتأسيس شعب مستقيم ثابت، وذلك النوع من عرض نتيجة نكث العهد والميثاق. بادر حينئذ إلى توعية المسلمين بأن لا يأملوا بإيمان اليهود القلبي بدعوة الاسلام - مع هذا الغرور والأثانية التي لهم - ولا بصفاء قلوبهم مع المسلمين، ولا بوفائهم للعهد والمواثيق. وكذلك إيضاح انحراف عوامهم الفكري، وانحراف خواصهم، وبيان القانون العام في الابتلاء بالعذاب، والفوز من العقاب الأبدي.

بعد هذه المواضع، يبين الآن حكم الدين الإلهي الجامع حول العقيدة والعمل وصلة الأفراد والطبقات. ويعرض القرآن بوجهه عن خطاب اليهود في مثل هذه الموارد، وكأنهم قد فقدوا بأساليبهم السيئة قابلية الخطاب، ويخبر عنهم فقط. والميثاق الذي أعاده إلى الأذهان بصورة مجملة: «وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ...» يفصل الآن حوله. وكأن تلك الأحكام والتذكير كانت من أجل إعداد النفوس لمثل هذا التطور العقائدي والاجتماعي ليجتبه الوجه الانساني تماماً عن عبادة غير المبدأ المطلق إلى عبادته والتوجه إليه. ويرتبط الأفراد والطبقات مع بعضهم من هذا الارتباط الباطني مع الحق، فيصير نظام المجتمع البشري كنظام العالم العام: ذلك النظام العالمي المتصل بمبدأ القدرة، ويقوم بعضهم بعضاً وينشطون بواسطة فيض الجاذبيات والنور والحرارة؛ لأن رابطة الايمان بالله المعنوية والإحسان إلى الناس في نظام الحياة البشرية، هي الصورة الكاملة لرابطة ذلك الجذب والانجذاب والالتقاط والبث لدى الكرات والذرات، والإحسان والرحمة لذلك الشعاع المنبعث عن الايمان الخالص المستقيم الذي يجعل الأسرة متماسكة فيما بينها كمجموعة المجتمع الصغيرة.

يكون طائعاً لإرادة الله، ويخضع أمامه فقط، وتجري في عروق أعضائه روح الإحسان والتعاون العام، ليحافظ الجميع على حياة أفراد المجتمع ويقومونهم.

إنّ هذا الميثاق هو النتيجة المتممة لمثل هذا الهيكل الاجتماعي الحيّ، والذي صار دم كل فردٍ دماً للجميع، ويجري في قلب الجميع وعروقهم، ويهب الحياة لكل الأعضاء إذا لو سفك دم شخص واحد سفكت دماء الجميع: «لا تسفكون دماءكم». وبهذا التركيب الاجتماعيّ تتحد نفس كل فرد وتتصل بنفوس الآخرين، ولو حرمت نفس أو طردت، فكأنما حرّم الجميع وطرّدوا وضاعوا: «ولا تخرجون أنفسكم...».

إن هذا القرآن هو الذي يوجّه النفوس نحو مثل هذا الهيكل الحيّ والتركيب الاجتماعيّ، ويوقظ الشعور بالتعاون والتكاتف بهذه الصورة.

استقر بنو إسرائيل لمدة على أساس هذه الموائيق، وشاهدوا بأنفسهم آثار هذا التركيب الاجتماعي ووحدة النفوس وحراستها وبركاته: ﴿ثُمَّ أَقْرَزْتُمْ وَأَنْتُمْ تَشْهَدُونَ﴾ فأقروا واستقروا على هذه الموائيق، وشهدوا بأنفسهم على ذلك. وإذا كان المقصود هو المشاهدة، فله مفعول مقدّر كالأثار والنتائج.

وبعد هذا، لم تمكث العهود والموائيق والشهود طويلاً حتى ظهرت بين الطبقات و أسباطهم الاختلافات الناتجة عن التعصّب القبليّ والشهوات والأحقاد. وكل فئة كانت تأخذ بزمام السلطه والقوة، كانت تستسيغ كل أنواع الظلم بالنسبة للفئات الأخرى، فكانوا يقتلون البعض ظلماً وعدواناً، ويخرجون البعض الآخر من ديارهم وأوطانهم: ﴿ثُمَّ أَنْتُمْ هَؤُلَاءِ تَقْتُلُونَ أَنْفُسَكُمْ...﴾. إنّ تأكيد، هؤلاء إشارة تأنيب لأولئك الذين كانوا شاهدين على تلك الموائيق وأقروها. وكانت كلّ فئة تهاجم الفئة الأخرى بالتحيز والتحزب الناتج من الإعتداء على الحقوق وحبّ التفوّق والظلم.

﴿تَظَاهَرُونَ عَلَيْهِمْ بِالْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ﴾:

إنقسم بنو إسرائيل الى فئتين بعد سليمان - ٩٧٤ قبل الميلاد - الفئة الشماليّة عشرة أسباط، والفئة الجنوبيّة سبطان، وانفصلوا عن بعضهم، ووقفوا وجهاً لوجه للمخاصمة.

وكانت كلّ فئة تستمدّ العون من البلدان المجاورة وتبادر الى قتل جماهيرها وإخراجهم ونهبهم. وعلى أثر هذه الاختلافات والاستعانة بالشعوب من عبدة الأصنام واتّصالهم بهم - كالفينيقيين والمصريين - شاعت عقائدهم وتقاليدهم بين اليهود، ونسيت عهود التوراة ونواميسها، وبمجرّد أن ضعفت عقائدهم الدينيّة وقواهم الاجتماعيّة هاجمتهم الشعوب الأخرى من كل صوب، فصاروا أرقاء للأجانب: كما اضطرّ ملك اسرائيل أن يطلب العون من فرعون مصر في مقابل سلطة «نينوا»، ونتيجة لذلك هاجم «سرجون الثاني» بجيشه فلسطين عام ٨٢٢ ق. م، وهدّم بيت المقدس، وأسر عشرة أسباط بني اسرائيل، وغار «نبوخذ نصر» عام ٥٦٨ ق. م. أورشليم وهدّمها وقتل الكثير، وأخذ سبعين ألفاً من اليهود إلى بابل الى أن اطلق سراحهم «كورش» ملك ايران بعد سبعين عاماً، ووّرّع مصادر الدسائس والأثانية والريا هذه في ايران وبعض البلدان المجاورة!!

وكان يشعر هؤلاء بإرافتهم دم كل فرد أو جماعة منهم وإخراجهم من ديارهم بأنهم يسفكون دم هيكلمهم الاجتماعي، وينقصون أعضاء أنفسهم، ويتجهون بشعبهم الى الضعف والقناء؛ لأنّ نفس هؤلاء الذين كانوا يقتلونهم ويخرجونهم من ديارهم لو كان الأجانب يأسرونهم لكانوا يفادونهم بكل ثمن كان ليطلقوا سراحهم:

﴿وَإِنْ يَأْتُواكُمْ أَسَارَىٰ تَفَادُوهُمْ...﴾ ولكنهم لم يراعوا حرمة الدين بحقّهم، فكانوا يخرجونهم بالإهانة والإذلال، ويرتكبون هذا الحرام الفطري والقانوني: ﴿وَهُوَ مُحَرَّمٌ عَلَيْكُمْ إِخْرَاجُهُمْ﴾.

انّ هذه الآية: «ثُمَّ أَنتُمْ هَؤُلَاءِ...» تشير - بناءً على بعض الروايات - وتتنبأ بالمعاملة التي عامل بها المسلمون آل بيت الرسول ﷺ وسيّد الشهداء الحسين بن عليّ ﷺ وأبازر الغفاريّ كما قال الرسول الكريم ﷺ: سوف تسIRON بسيرة من كان قبلكم<sup>(١)</sup>، وترك المسلمون بعد مدة حبل الوحدة والتعاون والمواثيق الإلهية. وسيطرت العصبية والشهوات

(١) لم أعثر على نص الحديث - رغم البحث - فاضطرت الى ترجمته عن الفارسيّة. (الترجمان).

ومواريت الجاهليّة على التوحيد والتعاليم الاسلاميّة، وفي النتيجة ظهرت الاختلافات و الحروب الداخلية والحكومات المستبدّة بقناع اسلامي، وعلى أثر ذلك نفي وقتل رجال الحقّ الذين كانوا ملجأ وكهفاً فكرياً و مترساً وثباتاً للأمة الاسلاميّة مثل أبي ذر وسيد الشهداء الحسين بن عليّ عليه السلام وأهل بيته وأصحابه على يد هؤلاء المسلمين أنفسهم، أولئك الرجال المحترمون الذين لو كان الأجانب الروم أو عبدة الأصنام يأسرونهم، لكان المسلمون ينتفضون ويبدلون الأرواح والأموال من أجل اطلاق سراحهم!!

وعندما انقطع حبل صلة الموائيق، وعطلت الأحكام التي قوّمت أمة التوحيد، بقي من الدين الأعمال الشخصية والمراسيم والأوراد فقط، وزالت تلك القوّة والطاقة الاجتماعيّة والعلاقات. وهنا يجب إلقاء النظرة المشوبة بالتعجّب والتأثر والتأنيب على مثل هذا الدين الممسوخ: ﴿أَقْتُمُونْ بِيْعُضِ الْكِتَابِ وَتَكْفُرُونْ بِيْعُضِ﴾؟! هل تتقبلون الأحكام الشخصية بأرواحكم، وتعملون بها، وتغضون النظر عن الأحكام العامّة والموائيق الحيويّة، وتتركونها؟ وتعطيل مثل هذه الأحكام وترك العمل بها كفرٌ من وجهة نظر القرآن: ﴿وَتَكْفُرُونْ بِيْعُضِ...﴾.

ثم استفسر عن نتيجة هذا الأسلوب كقانون عام؛ لأنّ الذهن الفطري والتجربة والتحقيق الاجتماعيّ يمكن أن يجيب على هذا الاستفسار: «فماجزاء مَنْ يَفْعَلُ ذَلِكَ مِنْكُمْ؟» ويجب العلم والتجربة عل ذلك. إنّ كل شعب تقطع حبل وحدته وتعاونه يستكين ويهون، والشعب الذي تكون رابطته التوحيد والموائيق الدينيّة، ولم يحافظ عليها، فالروابط الأخرى التي اجتازها وهي أخسّ من تلك لا تتمكن من وصل بعضه ببعض، لذا يتّجه جميعاً نحو الانحدار الاجتماعي والذلة.

﴿إِلَّا خِزْيٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا...﴾: وهذا هو السبب الرئيسيّ في انحدار بني اسرائيل والمسلمين وذلتهم، فحتى متى يعتبرون؟!

ولا تنتهي عاقبة هذه الإستكانة والذلة في هذه الدنيا، ويجب أن يجيب على العاقبة النهائية المشؤومة الخطرة لهذه الذلة الله فقط منفصلاً عن جواب ذلك الاستفسار: ﴿وَيَوْمَ

الْقِيَامَةِ يُرَدُّونَ إِلَى أَشَدِّ الْعَذَابِ... ﴿١﴾، يتضح أنَّ الذلَّةَ في الدنيا ترتبط بأشدَّ العذاب في الآخرة ونهاية مسيرة الإنسان. ذلك اليوم الذي تنكشف فيه السرائر، وتقوم النفوس معتمدة على الملكات والأعمال: «يَوْمَ الْقِيَامَةِ»؛ لأنَّ الذلَّةَ تؤدي الى اختلال القوى النفسية وزوال الفضائل، وكل ذنب يصدر عنه العذاب يؤدي الى الذلَّةَ ومحكومية النفس في مقابل الشهوات وزوال الشخصية. إذاً فالناس الأذلاء يجب أن يواجهوا أشدَّ العذاب: ﴿رَبَّنَا إِنَّكَ مَنْ تَدْخِلِ النَّارَ فَقَدْ أَخْزَيْتَهُ...﴾ (آل عمران).

لَمَّا كَانَ الْأَشْخَاصُ وَالشُّعُوبُ الْأَذَلَاءُ لَا يَتِمَكَّنُونَ مِنَ الْقِيَامِ بِالْوَاجِبِ وَالْحَقِّ، ويحرمون من كسب الفضائل، وتسحق حقوقهم ونفوسهم تحت وطأة الظالمين، فسوف يكونون يوم القيامة أيضاً تحت وطأة أصحاب جهنم الآخرين وفي أسفل دركٍ من الجحيم: ﴿وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يُرَدُّونَ إِلَى أَشَدِّ الْعَذَابِ...﴾.

الذُّلُّ يُسْخَلُّ بِالْجَنَانِ وَالظُّلْمُ يُؤَدِّي لِلْهَوَانِ<sup>(١)</sup>

هذه نتيجة الحياة الذليلة من جهة الحقيقة والواقع. فالذين لا يدركون عِلِّيَّةَ المقدمات وسببيتها من أجل إدراك النتائج، غافلون عن الإرادة الحكيمة التي أوجدت هذه الصلات وتحافظ عليها، ولكن الله الحكيم بصيرٌ وليس بغافل: ﴿وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾. ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ اشْتَرَوُا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا بِالْآخِرَةِ...﴾: إنَّ هؤلاء بدّلوا بإرادتهم واختيارهم هذه الحياة الدنيئة والتي كلها لهيب وعذاب بالحياة الفضلى العزيزة والجنة البهيجة، فكيف يزول عنهم العذاب أو يخفف عنهم، أو ينتفض شخص لمساعدتهم. ﴿فَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ الْعَذَابُ وَلَا هُمْ يُنْصَرُونَ﴾.

﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَقَفَّيْنَا مِنْ بَعْدِهِ بِالرُّسُلِ وَآتَيْنَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ الْبَيِّنَاتِ وَأَيَّدْنَاهُ بِرُوحِ الْقُدُسِ أَفَكُلَّمَا جَاءَكُمْ رَسُولٌ بِمَا لَا تَهْوَى أَنْفُسُكُمْ اسْتَكْبَرْتُمْ فَفَرِيقًا كَذَّبْتُمْ وَفَرِيقًا تَقْتُلُونَ ﴿٨٨﴾ وَقَالُوا قُلُوبُنَا غُلْفٌ بَلْ لَعَنَهُمُ اللَّهُ بِكُفْرِهِمْ فَقَلِيلًا مَّا

(١) ترجمت البيت الفارسي ببيت عربي (الترجمان).

يُؤْمِنُونَ ﴿٨٩﴾ وَلَمَّا جَاءَهُمْ كِتَابٌ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَهُمْ وَكَانُوا مِنْ قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا فَلَمَّا جَاءَهُمْ مَا عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ فَلَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الْكَافِرِينَ ﴿٩٠﴾ بِسْمَا أَشْرَوْا بِهِ أَنْفُسَهُمْ أَنْ يَكْفُرُوا بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ بَغْيًا أَنْ يَنْزِلَ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ فَبَاءُوا بِغَضَبٍ عَلَى غَضَبٍ وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ مُهِينٌ ﴿٩١﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ آمِنُوا بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ قَالُوا تَوْفِينَا بِمَا أَنْزَلَ عَلَيْنَا وَيَكْفُرُوا بِمَا وَرَاءَهُ وَهُوَ الْحَقُّ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَهُمْ قُلْ فَلِمَ تَقْتُلُونَ أَنْبِيَاءَ اللَّهِ مِنْ قَبْلُ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴿٩٢﴾ وَلَقَدْ جَاءَكُمْ مُوسَى بِالْبَيِّنَاتِ ثُمَّ اتَّخَذْتُمُ الْعِجْلَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَنْتُمْ ظَالِمُونَ ﴿٩٣﴾ ﴿٩٤﴾

#### معاني المفردات:

ولقد: اللام للقسمة، وقد للتحقيق، تفيد لزوم إتيان الكتاب.  
الكتاب: مجموع القوانين والأحكام، من جهة ثبوتها ووجوبها على الناس، مع العلم بأنها مسطورة في قلوب الأنبياء.

قفيناه: أتينا به بعد ذلك بصورة متوالية. من القفاء: من ورائه، أوفي اثره.

البيّنات: جمع البيّنة: البرهان الواضح، مميّز الحق من الباطل، من «البين» الفصل.

أيدناه: آتيناه القوة وأثبتناه، من أيد، وآد (فعل ماضٍ، مثل: ديم ودام):

صار قوياً؛ واليد من هذه المادة.

الروح: مبدأ الحياة ومادتها، الأثر والقوة.

تَهْوَى: من الهوى - المقصورة - الرغبات والحركات النفسية.

غُلْفٌ: - بسكون اللام - جمع اغلف (مثل حُمْرٌ، جمع أحمر) ما يكون في غشاء وغلاف. الذي لم يختن، القلب الذي لا يدرك ولا يفهم، قرىء بضم اللام أيضاً وهو جمع غلاف (مثل: مُثَلَّ جمع مثال): الغشاء والجلد الذي يغطي.

اللعن: الطرد والتبديد.



البغي: التمرد على الحق، الظلم، الحقد، التعقيب.

مهين: يورد الالهانة والذلة، اسم فاعل من الإهانة.

﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ...﴾: الكتاب هو مجموع القوانين والأحكام أو اصولها

الثابتة التي لا تتغير كقوانين العالم العامة.

ان العهد والميثاق الذي أشير اليه في الآيات السابقة بصورة مجملة ﴿الَّذِينَ يَتَّقُونَ عَهْدَ اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مِيثَاقِهِ﴾، ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ﴾ يجب أن يكون لهذا الكتاب الذي بين ذلك في الآية السابقة بالتفصيل.

الكتاب الذي تكون أصوله وفروعه مورداً لهذه المواثيق هو نفس ظهور إرادة الله التشريعية، والذي يكون تطبيقه وتحقيقه مقوماً لأرقى نظام اجتماعي انساني.

والذي يوجد وحدة تركيب مثل هذا النظام ويحافظ عليه، عبادة الله والخضوع أمام قوانينه وأحكامه، والصور الاجتماعية الأخرى وتركيباتها هي طريق ومقدمة لهذا التركيب الإلهي، كما أن التركيبات والصور المعدنية والنباتية والحيوانية واقعة في طرق التكامل نحو الصورة الإنسانية.

وكان الأنبياء قبل موسى يدعون الى ذلك النظام الإلهي الراقي، ويعدون النفوس لذلك. وكان الأنبياء الذين تلوا موسى يسعون لتحقيقه وتطبيقه وترسيخه: «وَقَفِينَا مِنْ بَعْدِهِ بِالرَّسْلِ...».

وفي الفترة بين موسى وعيسى، اختفت هذه الأصول والأنظمة خلف ستار الغرور بالأوهام والمراسيم، واختفى دين موسى عن الأنظار، إلى ان ظهر عيسى الذي كان بنفسه وأقواله وأفعاله مظهراً ومبيناً «بَيِّنَةً» للحق، وأيده الله بروح القدس بوجه شدة اليهود والغرور والأوهام الراسخة في نفوسهم.

إن نسبة عيسى الى مريم ربما تشير الى غلبة الملكوت فيه، وسر ظهور البينات منه. وروح القدس مبدأ وطاقة أسمى من الإمتزاج بالطبيعة، ملهم العلم والهدى، ويسمو بالنفوس المؤهلة عن التلوث، والمتقدم بالعقول السامية نحو الكمال، يمكن أن يكون

روح القدس - هنا المرتبة العليا لكمال عيسى الروحي، والتي تسيطر على المراتب السفلى والأرواح الأخرى كروح الشهوة وروح الغضب و...، وتؤيد روح التقوى وروح الإيمان وروح العصمة - لما كان روح القدس مرتبة نفسية عليا، فهو مرآة انعكاس الشعاع والحسي لذلك المبدأ الخارجي، والمؤيد من قبله، وهو يؤيد القوى النفسية ويضبطها ويكملها. إذا نسبة التأييد لكل واحد تأييد للآخر.

التأييد بروح القدس من امتيازات المسيح، وصورة من صور تكامل النبوة، ويفيد بأن المسيح لم يكن هو روح القدس ولا في عرضه (كما يظن النصارى) ولا ملازم أو مرافق له، وإنما روح القدس هو الدورة النهائية الكاملة للنبوة، وسر الخاتمية: «قُلْ نَزَّلَهُ رُوحُ الْقُدُسِ، نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ، عَلَّمَهُ شَدِيدُ الْقُوَى...».

تعرض هذه الآية بتعبيراتها وإشارات أحوار تكامل النبوة ووحدة غايتها واستمراريتها. ويبين آخر الآية خلال مخاطبة اليهود، سبب الخلاف مع الأنبياء والتمرد على دعوتهم: ﴿أَفَكُلَّمَا جَاءَكُمْ رَسُولٌ بِمَا لَا تَهْوَى أَنْفُسُكُمْ...﴾ أهواء النفس التي تثار من قبل الغرائز والشهوات تعارض - دائماً - أحكام الدين وأوامره؛ لأن الدين الإلهي يريد سيادة القانون والخير العام على طغيان الأهواء، ونظرة الحق على النظرة الفردية والأنانية، وإنقاذ النفس الانسانية من مضيق هذه الأفكار القاصرة، وفتح المجال أمام نظرتهم؛ لأن أكثر الأشخاص محكومون لغرائزهم الحيوانية والعوامل الوراثة وما يعقبها، ولا يخضعون تماماً لسيادة العقل والإيمان والقوانين الناتجة عنهما! لهذا فإن عامة الناس هم أول من يكذب دعاة الدين، وعندما تشتد هذه المعارضة، واصطدمت باستبداد المستبدين وامتيازاتهم وشهواتهم العابثة، يقتلونهم: ﴿أَسْتَكْبِرُ ثُمَّ فَقَرِيئاً كَذِبْتُمْ وَقَرِيئاً تَقْتُلُونَ﴾.

إن هذه العلل النفسية وعلل الجهاز الباطني هي المعارض والمانع من ظهور الدين التام بكل أحكامه وقوانينه - إلا في فترة زمنية قصيرة وبين أشخاص يُعدّون بالأصابع - بحيث ينبري جماعة غيتميدون تماماً على الدين وأحكامه ويقومون بالكفاح العلمي والعملية،

ويتفلسفون من أجل تحرير شهواتهم اللامشروعة، وعقائدهم وتقاليدهم الموروثة، وأفكارهم اللادينية.

وآخرون ينشغلون بتلك الاحاسيس والعواطف القلبية وفي محيط المعبد، ويجنبونه عن محيط الحياة والمعارضة مع الهوى. عندئذ تظلّ سيادة الحق التامة وهي الدين الإلهي على محيط الحياة، لكي تسود العقول المؤمنة الصالحة على الغرائز النفسية لدى أكثر الأشخاص، أو يتجلى مثل هذا الاستعداد لدى الجميع؟ إن هذا التطور والانقلاب النفسي أو الطفرة من الغرائز الحيوانية قد شرع به الأنبياء السابقون في نفوس قلّة من الناس المستعدين له، وقد أكمل الاسلام بدعوته للتوحيد وتأييد العقل والفضائل الانسانية واحكامه وأوامره مبادئ هذا التطور والانقلاب وقوانينه. ويستقدّم تكامل العقول والأفكار الانسانية نحو هذا التطور. وأول وصف وصّف به أمير المؤمنين عليه السلام مصلح آخر الزمان، والحاكم بالحق، والقائم بالعدل كما يلي:

«يعطف الهوى على الهدى».

﴿وَقَالُوا قُلُوبُنَا غُلْفٌ...﴾: بعد مجيء ذلك الكتاب والأنبياء المتوالين و تلك البيئات والتأييدات، أبعدهم - آن ذاك - ذلك التمرد والتكذيب والنزاع وقتل الأنبياء عن قابلية الخطاب. وربما كان هذا هو سرّ العدول من الخطاب إلى الغياب في هذه الآيات والآيات الأخرى. يقدّمون العذر بمحضر الضمير البشري والتاريخ الانساني، فيقولون: قلوبنا مغلقة - بحيث لا تجد أقوال الدعاة إليها سبيلاً، فلا تميّز بين الحق والباطل. أو إنّ قلوبنا كنوز مغلقة عن العلوم والمعارف. «وبناءً على المعنى الاول يعود ضمير «قالوا» على عوام اليهود، ويخبر عن اختلاقهم الأعذار. وبالمعنى الثاني يعود على الخواص وهو بيان لغرورهم». ويأتون بمثل هذا العذر ليجنبوا أنفسهم عن كل مسؤولية وتقريع، وينسبون كلّ ما يعملون وعلى أية حال يكونون إلى الخالق والخلقة، غروراً منهم ليفضلوا أنفسهم عن الرضوخ للدين، ويتصورون أنّ الدين مختصّ بعمام الناس. ولم يكن التكوين مصدر تغشية تلك القلوب؛ لأنّ الله أودع الهداية في جبلة كل كائن حيّ كلّ بما تقتضيه حياته.

بل مصدره حجاب الكفر الذي اختاروه بإرادتهم، كما خيّم على فطرتهم، وأبعدهم عن التقاط أمواج الهداية. والغرور بالأفكار القومية وحبّ التفوّق يكون أيضاً مصدر كفر بعض المغرورين: ﴿بَلْ لَعَنَهُمُ اللَّهُ بِكُفْرِهِمْ﴾. وفي هذا المجال النفسي يتمسك بعض هؤلاء بالإيمان: ﴿فَقَلِيلًا مَّا يُؤْمِنُونَ﴾.

يكون هذا المعنى على أنّ المقصود من «مَا» هم الأشخاص، الذين ابتعدوا عن العقل والتفكير الصحيح؛ واطلقت «ما» عليهم وهي لغير العاقل. أو تكون «ما» موصوفة متعلّقة بالإيمان المطلوب: يؤمنون بقليل ممّا يجب أن يؤمنوا به، ويمكن أن تكون «ما» نافية: لا يؤمن حتى القليل منهم.

﴿وَلَمَّا جَاءَهُمْ كِتَابٌ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ...﴾ والآن وقد جاءهم كتاب من قبل الله حيّاً وحيوياً: الكتاب الذي يأتي الناس بنفسه يجب أن يكون كذلك. كتاب فوق العقول والأفكار البشرية. «التنوين في كتاب يدلّ على التعظيم والتفضيل». ومصدر ذلك الكتاب صفات الله العليا: «مِنْ عِنْدِ اللَّهِ»، الكتاب الذي يصدق أحقيّة الانبياء الماضين وصدقهم، وهو دليل إثباتهم.

﴿مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَهُمْ﴾: يمكن أن تشير «ما» - مع ما بها من أبهام - إلى كتب الماضين وقوانينهم ومطالبهم وما كانوا يتوقّعون في الباطن والفطرة. والحقيقة لو لم يكن القرآن وتصديقه ودعوته العقلية والفطرية، لما كان - إلى الأبد - دليل صدق للأنبياء الماضين وكتبهم الباقية. كان اليهود في تلك الحقبة من الزمن مشكّكين معذّبين، لاسيما الذين كانوا يعيشون في ضواحي يثرب في حالة الخوف تحت ضغط عبدة الأصنام، كانوا دائماً ينظرون إلى الأفق الواضح ليظهر مثل هذا الكتاب وينهض نبيّ من الأنبياء. وكانوا يمتّون أنفسهم بانتظار مثل هذا اليوم، وكانوا - خلال مجاذباتهم ونزاعهم مع المشركين والاندحارات التي كانوا يتحملونها منهم - يعدّون أنفسهم بالنصر والفتح، ويوعدون الأعداء بالاندحار والهوان. ولم يكن هذا الانتظار للفتح وانتصار الحق مقتصرًا على اليهود، بل كان جميع الناس الذين يعرفون الدين الألهي - في تلك الفترة التي فصلت بين

الأنبياء، واختلاف الأديان، وتشبّت الناس وظلمة العالم - يترقبون ظهور دين حنيف:

﴿وَكَاثُوا مِنْ قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا﴾.

إن هذا الانتظار والأمل - لاسيّما بالنسبة إلى اليهود - كان ولا يزال محورا لاستنادهم، وقواماً لدينهم، وعموداً لفقرات حياتهم الدينية والقومية.

إنّ ما أدّى ويؤدي بهؤلاء القوم إلى التّبات بوجه المصائب والتشبّت وهجوم الحوادث عليهم، والتشريد والتعذيب الذي أصابهم من قبل البابليين والروم والنصارى هو هذا الانتظار والأمل بالمستقبل. كما أنّ الإيمان بظهور حكومة الحق والمستقبل الوضاء من مقومات حياة المسلمين الدينية والاجتماعية.

وبهذا الانتظار والنظر إلى الأفق الواضح يكون الكفر والظلم والفساد بمثابة سحب سوداء لا بدّ وأنّ تنقشع إن عاجلاً أو آجلاً. وكلّ شعب له مثل هذه العقيدة عليه أن لا يندحر نفسياً ويتقاعس في جهاده مع الباطل والظلم، وأكثر المسلمين - لاسيّما الشيعة - لم يستفيدوا من هذا السند المعنوي كاليهود، بل الانحراف في الفهم أدّى إلى انسحابهم من ميدان جهاد الحياة، وعاشوا تكاليفين.

وعندما جاء هذا الكتاب بالبراهين وأدلة الحق من أجل انقاذ الدعاة إلى الله والمنتظرين طلوع الفجر الصادق، ثم إنقاذ الشعوب المظلومة الجاهلة في العالم، كفروا به وأعرضوا عنه: ﴿فَلَمَّا جَاءَهُمْ مَا عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ...﴾. إنّ تكرار «جاء» لتأكيد الفعل وتشبيته، وملء الفراغ بين الشرط والجزاء: بمنجّر أن جاءهم ما كانوا يعرفونه بالأوصاف وذلك الانتظار، والعلائم الصادقة والتنبؤات، كفروا به. يمكن أن تكون «ما» نافية: لم يعرفوه وأبدوا تجاهلهم. إنّ هؤلاء الذين كفروا بالكتاب الذي كان ظلّ رحمة الله وعدله مع علمهم به، وحرّموا أنفسهم والعالم منه، وسدّوا أبواب السعادة بوجه أنفسهم والآخرين، هل يستحقون سوى لعنة الله والناس؟!.

﴿فَلَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الْكَافِرِينَ﴾. إذا كانت هذه الجملة خبريّة فهي تخبر عن بعد

الرحمة والخير إلى الأبد.

تفيد «لَمَّا» في ﴿وَلَمَّا جَاءَهُمْ كِتَابٌ...﴾ أن اليهود وأهل الكتاب بل والرأي العام كانوا بانتظار مثل هذا الكتاب: الكتاب الذي يهدي الجميع نحو الصراط المستقيم ومقاصد الحياة وأهدافها، وجاء بقوانين الحق والعدل للجميع. كتاب أسمى من لون المحيط والزمان والطبيعية، وهو من عند الله، وهو للجميع كالحياة والنور والهواء والينابيع الطبيعية، «ومثل هذه المعاني تتداعى في ذهن من تنوين كتاب، ومن عبارة «من عند الله».

الكتاب الذي يصدق أصول دعوة الانبياء الماضين وكتبهم ويثبتها، تلك الأصول التي أخفتها عن الانظار الأوهام المثيرة للاختلاف، وأطفأت نورها وأشعثت الهواء والغرور، فأصبحت بدل المحبوبة توجب الكراهة، وبدل الحركة تؤدي إلى الاستكانة: «مُصَدِّقًا لِمَا مَعَهُمْ» مصدقاً لأمر من قبيل كتب الأنبياء وأوامرهم الموجودة لدى اليهود وأهل الكتاب. وتفيد «ما» إيهام تلك الحقائق وامتزاجها بالباطيل، كذلك يصدق ويثبت المطالب البشريّة الفطرية والصحيحة التي ترافق جبلته وتلازمها.

وكان هؤلاء بانتظار مثل هذا الكتاب قبل مجيئه؛ ليؤيد دعوتهم الدينية، بعد تلك الاندحارات الدينية، وذلك التششت والهوان، الذي كان يتحمله اليهود من الأوس والخزرج وسائر العرب والناس، وينقذهم من التششت والذل. وكان يهود ضواحي يثرب عندما يندحرون من قبل المشركين، وتنهب أموالهم، وتسفك دماؤهم يُمَنُّون أنفسهم بمجيء نبي وكتاب، ويهددون أعداءهم بذلك. ويقال إن سبب سبق أهل يثرب إلى الاسلام واعتناقه هو تلك التنبؤات من قبل اليهود الذين كانوا معهم في حالة كَرٍّ وفَرٍّ.

﴿وَكَانُوا مِنْ قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا...﴾ بعد ذلك الانتظار، ومجيء مثل هذا الكتاب وتلك الوعود بالانتصار، فبمجرد أن جاء هذا البرهان الحق وهذا النبي والكتاب الذي كانوا يعرفونه كفروا به: ﴿فَلَمَّا جَاءَهُمْ مَا عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ...﴾ بمجرد أن جاءهم ما كانوا يعرفونه - بناءً على أن «ما» موصولة أو موصوفة: أو بمجرد أن جاء لم يعرفوه فكفروا به - بناءً على أن «ما» نافية وهي جملة جواب «لَمَّا». ومثل هؤلاء الناس الكفرة يجب أن يطردوا من قبل الله والناس، وتقصر أيديهم عن نيل كل خير وسعادة:-

﴿فَلَعَنَهُ اللَّهُ عَلَى الْكَافِرِينَ﴾ لا سيما اليهود، الذين كفروا بهذا الكتاب ومن جاء به، ولم يكن لهم أي عذر وموضع شبهة، وقد تمت حجة الله عليهم، لأنه الكتاب المنتظر المصدق لما معهم، يحمل أدلة الهيّة، ومن عند الله، الكتاب الذي كانوا يتوقعون أنه يقويهم وينصرهم.

ثم يبدي القرآن بالتمثيل ضرر كفرهم النهائي الذي لا يجبر، والسبب النفسي لهذا الكفر:

﴿يُسَمَّا أَشْتَرُوا بِهِ أَنْفُسَهُمْ أَنْ يَكْفُرُوا بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ...﴾: قاموا بصفقة سيئة وضارة جداً بالرأسمال النفسي ذلك الذي حملوا معهم الى سوق الحياة، بدلاً من أن يجلب اليهم رأسمال طلب الحق والكمال وعزة النفس والشرف الفطريّ الربيع من كل جانب، وبنيت منه المعرفة والفضيلة، ويجلو الظلمات عن عقولهم الفطرية، جلبوا على أنفسهم الكفر وستر الحق، والإعراض عنه، وفساد القابليات، والإثم. فنبت في مجال مثل هذه النفوس جذور الحق وسوء الظن والغرور والشر.

مع العلم بأن البائع كالمشتري يتطلب بضاعة الكفر بالرأسمال النفسي الثابت، جاء وصف الإشتراء بالنسبة لهم. إن هذا الكفر «بما أنزل الله» وهذه الصفقة الخاسرة لم تكن سبباً ومصدراً إلا لقصر النظر والغرور والحسد. ونتيجة لقصر النظر هذا والغرور كانوا يتصورون أن الله قد وجه لطفه اليهم والى قبيلتهم فقط، وعليه أن يختار الأنبياء من بينهم. وكان الحسد على أن لا يقوم نبي من غير سلالة اسرائيل. كانوا يتصورون فضل الله المستمر وارادته الحكيمة محدودة هكذا.

﴿بَغْيًا أَنْ يُنْزَلَ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ...﴾: أصبحوا يواجهون غضب الله والناس عليهم من كل جانب بسبب غضبهم الذي كان يغلي من حسدهم وحقدهم، وأغلقت بوجوههم أبواب الرحمة والخير، وطرّدوا من محيط علاقات المجتمع الحسنة، وأعرض عنهم شعوب العالم:-

﴿قَبَاءُوا بِغَضَبٍ عَلَى غَضَبٍ...﴾: كما أن كل فضيلة وخير وثواب يؤدي إلى فضيلة

وخير أسمى، فإن كل ذنب وطبيعة سيئة تؤدي إلى شر أكثر وطبيعة أسوأ. كالمرض الذي يسري الى عضو من الأعضاء فإنه يسري الى سائر الأعضاء أيضاً، ويؤدي الى مرض آخر. فإن التخطي في مزال الاقدام يتجه بصاحبه نحو الهوة. والانحراف القليل يؤدي الى انحراف أكثر<sup>(١)</sup>.

واليهود جعلوا أنفسهم بطبع الحسد وسوء الظن بالنسبة الى الحق وحقوق الناس، في الطرف المقابل للخير وخدمة المجتمع دائماً. وكلما اكثروا عداؤهم وفتنهم وحر بهم والعبث برؤوس المال بالنسبة للمسلمين وشعوب العالم، اشعلوا نيران الغضب عليهم بصورة أكثر، وطردهوا من قلوب الناس وقافلة المجتمع أكثر فأكثر. كما أنهم اليوم اتخذوا من المستعمرين وأصحاب رؤوس الأموال آلة للحرب والفتنة، والمستعمرون يستخدمونهم لاغراضهم وتقدماتها، ويمدّونهم بالقوة، وليس لهم - سوى هذا - شخصية ومكانة اجتماعية أخرى في العالم.

الباء في «بغضب» يمكن أن تكون سببية: أصبحوا بسبب غضب على غضب، فالغضب الأول سبب لنوع آخر من الغضب. واذا كانت - الباء - للتلبس، فالغضب الثاني هو مصدر الغضب الأول: «واجهوا غضباً نتيجة لغضب».

إن سوء سيرتهم وغضبهم وحقدهم هذا أصبح - بحق - مصدر غضب الله والناس عليهم، حتى طردوا نهائياً عن محيط الخير والإيمان، وواجهوا ظلمة الكفر وستر الحق، وللكافرين بالحق واتباعه عذاب مهين في الدنيا والآخرة:

﴿وللّكافرين عذاب مهين﴾: جاء الاسم الظاهر «للكافرين» بدلاً من الضمير «لهم»

(١) القصة التي حدثت هذه الأيام، تشاهد دائماً في حياة الفرد والأسرة والمجتمع: قامت امرأة بدافع الحسد و سوء الظن بأن زوجها قد تزوج ثانية، في منتصف الليل، فأعمت عيني زوجها بواسطة «الأسيد» ويعني رجل طبيب مثقف ذي تجربة، معروف بالتقوى، أودت بحياتها الى الظلمات، وسلطت الدلّ والهوان على نفسها وعلى أطفالها، ولم يؤدّ العلاج في الداخل والخارج وصرف الأموال الى نتيجة، الى أن سقط ذات يوم من مكان عال الى الارض بسبب العمى، ومات بعد أيام. وهذا نموذج من الحسد والغضب الذي يجرّ وراءه الغضب والظلمات.



للتصريح والتعميم، ليعلم أن هذا العذاب يشمل صفة الكفر، ولا يقتصر على اليهود. واليهود محصورون في مضيق الغرور وعدم التفكير بالعواقب، والحسد الى درجة بحيث عندما يقال لهم: آمنوا بما أنزل الله، ولا تجعلوا الظروف والأمكنة والاشخاص مقياساً للحق، يقولون لقصر نظرهم - نؤمن بحق يتلاءم وأفكارنا وصبغة قبيلتنا وقومنا: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ آمَنُوا بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ قَالُوا نَأْمَنُ بِمَا أَنزَلَ عَلَيْنَا﴾ إذا يكفرون بغير ذلك ولو كان حقاً ومن عند الله.

﴿وَيَكْفُرُونَ بِمَا وَرَاءَهُ وَهُوَ الْحَقُّ مُصَدِّقًا لِمَا مَعَهُمْ﴾: فإذا كانوا أتباعاً للحق، فإن «ما وراءه» الذي هو ما أنزل الله، حق أيضاً، وكل دليل يثبت أحقية ما أنزل اليهم، هو دليل لهذا «ما وراءه» أيضاً، وهو حق يثبت حقانيتهم أيضاً.

جملة «وهو الحق» حالية. يقولون: إن الجملة الحالية تفيد تقدّم المضمون: ومع أن القرآن كان حقاً مصدقاً كفروا به. وهذا الإدعاء أيضاً لا يصدق على تاريخ اليهود وأعمالهم التي كلها قتل وتعذيب الأنبياء الماضين:

﴿قُلْ قَلِمَ تَقْتُلُونَ أَنْبِيَاءَ اللَّهِ مِنْ قَبْلُ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾: الفعل المضارع «تقتلون» يصوّر فعلهم المستمر. إذا مصدر كفر اليهود هو الغرور والعصبية، وقبل ذلك أهواء النفس التي أشير إليها في الآية السابعة والثمانين (٨٧). وإلا فموسى الذي أنقذهم بتلك الآيات الواضحة من غضب الفراعنة وذللهم لماذا اتجهوا نحو العجل بمجرد أن افتقدوا موسى من بينهم؟! من بينهم؟!

﴿وَلَقَدْ جَاءَكُمْ مُوسَى بِالْبَيِّنَاتِ...﴾: هناك أبهام وإيجاز بليغ في عبارة ﴿ثُمَّ اتَّخَذْتُمُ الْعِجْلَ﴾ أي اتخذتم العجل للعبادة والقيادة والحب. وكذلك الحال في كلمة «من بعده» أي بعد موسى، بعد وفاته، بعد غيبته.

اتخذ بنو إسرائيل العجل الاصطناعي للعبادة بعد الخروج من مصر وبعد غيبة موسى، وانقسمت دولة اليهود بعد موسى وانقراض ملك سليمان بسنوات الى قسمين جنوبي وشمالى، اتخذ السبطان الجنوبيان «رحبام» ملكاً عليهم وجعلوا اورشليم عاصمة لهم.

واتخذ الأسباط العشرة الشماليون «يربعام» وعاصمتهم «شحيم». وشاعت عبادة العجل الذهبي بين الأسباط العشرة الشماليين مرة ثانية. وأقاموا له المعابد.

تقول التوراة، باب الملوك، اصحاح ١٢: «استشار الملك «يربعام» وصنع عجولين ذهبيين وقال لهم: إنَّ الطريق بعيدٌ عليكم وصعب لتصعدوا نحو أورشليم. والآن هذا هو أهلكم: وهو الذي أنقذكم من أرض مصر، وجعل أحد العجلين في «بيت أيل» والآخر في «دان» وبنى بيتاً «مرتفعاً» وأرسل إليه كهنة من أطراف القبيلة...».

تقول في الأخبار. نصاح ١١: «أقام يربعام لنفسه كهنة للبخورات والسخال الوحشية والعجول التي صنعها».

وتفيد نفس هذه الاخبار المنقولة من التوراة وتاريخ اليهود المتقطعة، أن حبَّ العجل الذهبي كان له جذور ثابتة في نفوس اليهود: «وأشربوا في قلوبهم العجل بكفرهم، الآية ٩٣».

﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ الطُّورَ خُذُوا مَا آتَيْنَاكُمْ بِقُوَّةٍ وَاسْمَعُوا قَالُوا سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا وَأَشْرَبُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْعِجْلَ بِكُفْرِهِمْ قُلْ بِشِمَا يَأْمُرُكُمْ بِهِ إِيمَانَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴿٩٤﴾ قُلْ إِنْ كَانَتْ لَكُمْ أَلْدَارُ الْآخِرَةُ عِنْدَ اللَّهِ خَالِصَةً مِنْ دُونِ النَّاسِ فَتَمَنَّوْا الْمَوْتَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿٩٥﴾ وَلَنْ يَتَمَنَّوْهُ أَبَدًا بِمَا قَدَّمْتُمْ أَيْدِيهِمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ ﴿٩٦﴾ وَلَتَجِدَنَّهُمْ أَخْرَصَ النَّاسِ عَلَى حَيَاتِهِمُ الَّذِينَ أَشْرَكُوا يَوْمَ أَحَدُهُمْ لَوْ يُعَمَّرُ أَلْفَ سَنَةٍ وَمَا هُوَ بِمُزَحَّزِّجٍ مِنَ الْعَذَابِ أَنْ يُعَمَّرَ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِمَا يَعْمَلُونَ ﴿٩٧﴾ قُلْ مَنْ كَانَ عَدُوًّا لِجِبْرِيلَ فَإِنَّهُ نَزَّلَهُ عَلَى قَلْبِكَ بِإِذْنِ اللَّهِ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَهُدًى وَبُشْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿٩٨﴾ مَنْ كَانَ عَدُوًّا لِلَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَرُسُلِهِ وَجِبْرِيلَ وَمِيكَالَ فَإِنَّ اللَّهَ عَدُوٌّ لِلْكَافِرِينَ ﴿٩٩﴾ وَلَقَدْ أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ وَمَا يَكْفُرُ بِهَا إِلَّا الْفَاسِقُونَ ﴿١٠٠﴾ أَوْ كُلَّمَا عَاهَدُوا عَهْدًا نَبَذَهُ فَرِيقٌ مِنْهُمْ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٠١﴾﴾.

## معاني المفردات:

الإشراب: الإرواء، التحريض على الشرب، إيصال الماء الى جذور الزرع، إحلال الحب في القلب، وجاء بمعنى الإختلاط أيضاً. يقولون: الأبيض المشرب بالحمرة. خالصة: قاعل مؤنث، أو مصدر مثل عافية: الخلاص، الظاهر بدون شريك، الخلاص من التعب والألم.

تجد: مضارع الوجد: الحصول، الاستلام، الاستغناء عن الشيء، الغضب على شخص ما، الحزن لأجل شخص ما.

أحرص: أفعل التفضيل من الحرص: التعلق الشديد بشيء، سلخ الجلد تماماً، عصر الثوب وتمزيقه.

يودُّ: من الودِّ: الحب، العشق، الامنية، المنجب.

يعمر: من عمر (بفتح العين وضمها وسكون الميم أو ضمها) الدار سكنها. سكن الدار، العبودية لله، مد الحياة التي خلالها يكون البدن سالماً وعامراً، إطالة الحياة.

ألف: ناتج ضرب ١٠٠ × ١٠، الأنس، الصداقة، الإكرام.

مزحزح: من زحزح: أزال، قلع الشيء من مكانه بالهز المتوالي ونقله.

جبريل: (بفتح وكسر الجيم وكسر الراء) مع الألف والهمزة وبدونهما، دخيل غير عربي) اسم ملك الوحي والإلهام والكشف، الطاقة المكتملة للقابليات، يقال ان الكلمة مركبة من «جبر، أيل» أي قوة الله.

ميكال: مثل جبريل غير عربي، وله عدة قراءات.

أذن: الرخصة، العلم، الإباحة، أذن الله علمه وتشريعه وتقديره.

نبد: رمى اليد، كما أن لفظ رمى من القم، ونفت رمى من الصدر.

﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ...﴾

تعيد هذه الآية الى الأذهان موضوع أخذ الميثاق ورفع الطور مرة ثانية، وكانت الآية

الثالثة والستون (٦٣) قد بينت نعم الله على اليهود وزللهم وتمردهم، وهذه الآية تردّ عليهم حينما قالوا: تؤمن بما أنزل علينا وبأنبيائنا فقط. وفسّرت تلك الآية رفع الطور بأخذ الكتاب والشرعة بقوة، والتذكير بما جاء فيه، وهذه الآية تأمر بالمحافظة عليه والسمع والطاعة له.

ان اليهود المدعين بالايان بأنبياء قبيلتهم وأحكامهم، فلماذا قتلوا أنبياء الله؟ ولماذا اتخذوا العجل معبوداً وقائداً بعد موسى الذي جاء بكل تلك الآيات لاتقاذهم وقيادتهم؟ (وقد تكررت عبادتهم للعجل لهذا السبب). إذاً لماذا تمردوا ونقضوا ذلك الميثاق الذي أخذ منهم بشكل رفع الجبل في تلك الحالة التي قالوا فيها من الخوف: سمعنا وأطعنا. قالوا باللسان أو في نفوسهم: ﴿سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا﴾، كان كل هذا بسبب انعدام القابلية وزوال الهداية عن نفوسهم وعقولهم التي فسدت؛ ولا يقبلون إلا ما يتلاءم وأهواءهم النفسية، ومثل هذا العجل وكل مظهر ماديّ خدّاع يملأ قلوبهم ويشبعها بحيث لم يبق فيها مكان لنفوذ الخير والحق: ﴿وَأَشْرَبُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْعِجْلَ بِكُفْرِهِمْ...﴾: خلت قلوبهم من الحقائق بسبب اختيارهم الكفر فحل فيها العجل، ويجب أن يكون المقصود من العجل حبّه والتعلّق به الذي ملأ قلوبهم، ولكن جاء «العجل» بدلاً من ذلك، وذلك بالإشراب ليتبيّن وضعهم النفسي بهذا التعبير، وكأن اهتمامهم المستمر وحبهم للعجل نفذ الى قلوبهم كالماء أو السائل، واستوعب ذهنهم وباطنهم استيعاباً تاماً. ومع هذه الانحرافات، وسلوكهم مع الأنبياء، وتمردهم على أوامرهم، ومع هذه القلوب التي استوعبها ظلام الشرك والحسد والأناثية، لازالوا يدّعون الايمان، ويعتبرون أنفسهم أفضل أهل الايمان، مع العلم بأن الايمان والعقيدة الطاهرة الصحيحة هي مصدر الفضائل النفسية والأمرّة بالخير. إذاً فإن هؤلاء إما أن يكونوا عديمي الايمان أو أن لهم ايماناً مزيجاً بالأوهام التي صنعها الخيال والتعصب:-

﴿قُلْ بِشَسْمَا يَأْمُرُكُمْ بِهِ إِيمَانُكُمْ إِنَّ كُنتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾:- وهؤلاء بهذا الأسلوب وهذه الأعمال التي يرتكبونها يتصوّرون أنفسهم. بأنهم شعب الله المختار، والمرحومون في

الدار الآخرة. بل يعتبرون الجنة خاصة لهم، إذا لماذا يتهاكون على الدنيا وعلائقها ويفرون من الموت وفكرته الى هذا الحد. فإذا كانوا صادقين كان من الواجب عليهم أن يكونوا بانتظار الموت وأن يتمنوه أكثر من غيرهم.

﴿قُلْ إِنْ كَانَتْ لَكُمْ الدَّارُ الْآخِرَةُ عِنْدَ اللَّهِ...﴾

ومع كل هذه الذنوب وما سودوه من صفحات حياتهم لا يتمنون الموت أبداً، ولا يفكرون به: ﴿وَلَنْ يَتَمَنَّوْهُ أَبَدًا بِمَا قَدَّمْتُمْ أَيْدِيَهُمْ...﴾: أن نسبة الفعل «قَدَّمْتُ» إلى «أَيْدِي» نظراً الى الأعمال المؤثرة التي تتم غالباً بواسطة اليد.

ومع كل هذا الإدعاء بأنهم المختارون من قبل الله والخصوصية في تلك الدار الآخرة، لا أنهم لم يتمنوا الموت فحسب، بل لو أن شخصاً فتش جميع الشعوب والقبائل لوجد هؤلاء أحرص الناس على الحياة في كل حال. وبعبير ﴿وَلَتَجِدَنَّهُمْ أَحْرَصَ النَّاسِ عَلَى حَيَاةٍ﴾ يفيد البحث والجصول المؤكد الحتمي، ويفيد تنكير «على حياة» أي نوع من الحياة وإن كانت فخرية ورذيلة. وحتى أنهم أحرص على الدنيا من المشركين والذين لا إيمان لهم بالمبدأ والمعاد. الى درجة حيث يودّ بعضهم أن يعيش الف سنة.

﴿وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا يَوَدُّ أَحَدُهُمْ لَوْ يُعَمَّرَ أَلْفَ سَنَةٍ...﴾: يبدو أن الواو عاطفة على «أحرص». وكلمة «يودّ» تفيد حرصهم الشديد، واعتبر البعض الواو استئنافية، يعني: إن بعض المشركين أيضاً يودون أن يعمرؤا الف سنة. وهذا التركيب خلاف ظاهر الآية وسياقها.

يستفاد من هذه الآية حول اليهود هذان الموضوعان الكليّان:

١ - إن الأثر النفسي للإيمان بالآخرة والإيمان برحمة الله الشاملة الكاملة هو أن يوجه المؤمن وجهه نحو عالم البقاء، وأن لا يخاف من الموت لاسيما في سبيل الواجب، وأن تضعف فيه بنور حبّ الدنيا، حتى تنقطع في النهاية ويهيئ نفسه للحياة الآخرة هادئاً مطمئناً؛ لأنّ الإعراض بالوجه الباطني نحو البقاء وتسهيل العبور من مضيق هذا العالم الى تلك الدار هو الأصل الثاني لدعوة الأنبياء، ومفتاح السعادة، وطريق التضحية الصالح

الوحيد، وسرّ التكامل العام. وهل الإنسان بهذه الإمنيات الطويلة والعمر القصير يتمكن من تمهيد طرق الحياة المشكّلة، وتحلية المراتب إلّا عن طريق الإيمان الراسخ بالبقاء؟  
٢- إنّ الناس على فرق ثلاث بالنسبة للموت وحب الدنيا: الفرقة الأولى: هم المؤمنون بالآخرة الراجون رحمة الله وقد أعدّوا أنفسهم لذلك، كالأنبياء والقادة الإلهيين، والذين تربّوا على أيديهم، وبعض الفلاسفة المحقّقين الإلهيين.

الثانية: المشركون بالله الذين لا يعتقدون بالآخرة، وهؤلاء لما كانوا يعتبرون الموت فناء ومؤدياً إلى التخلص من الالتهاب والآلام ومشاكل الحياة، يتصوّنون أنفسهم في قبضة الموت - تارة من أجل التخلص، وأخرى بحسب غريزة التضحية - فيغضّون النظر عن الحياة وعلاقتها بالتلقين والتحريض، كأكثر الأشخاص الذين يضخّون أنفسهم في سبيل المذهب والوطن والحرية.

الثالثة: المؤمنون بالأديان وإيمانهم الوجداني الضعيف، - وغير المنطقي أحياناً - ممزوج بالغرور والآمال العامة المستندة إلى الوسطاء. وهؤلاء لما كانوا قلقين - بذلك الغرور - من مكافأة الآخرة وعذابها، ويواجهون الازدواج النفسي والإضطراب، فهم أكثر تعلّقاً بالحياة من المشركين واللادينيين، ويهربون من التضحية في سبيل الخير والحق. كاليهود الذين بحث عنهم القرآن وجاء بهم مثلاً، وأكثر المسيحيين والمسلمين اليوم، هذه الفرقة سقطت أولاً عن مقام تربية الدين السامي، ثم عن فطرة التضحية!

إنّ العلامة الواضحة للإيمان بالآخرة وفتح نافذة البقاء بوجه الإنسان الذي يفيض باطنه بحبّ البقاء هي هذه السماحة والتضحية التي كان المسيحيون والمسلمون الأوائل نموذجاً وشاهداً لها، وكان أولئك بالإستناد إلى هذا الإيمان تقدموا بدعوتهم بترك السرعة. وبهروا سكّان العالم. والسبب المهمّ في ذلّة المسلمين وتخلّفهم هو أنّهم لم يمتلكوا السماحة والتضحية بمقدار ما يمتلكه المشركون، وذلك للغرور وضعف العقيدة الصريحة، ويتمنون مثل هذه الحياة على كل حال وكلّ وضع ومهما كثرت: «لو يعمر الف سنة»، وذكر الف سنة، ربما كان بسبب أنّ الألف كان آخر رقم يعدّ بحيث تتركب منه

الأرقام الاخرى. «وكان الإيرانيون القدامى في مصافحات اعيادهم القومية يقولون: عش ألف سنة، كما انهم اليوم بعد ما قصرت الأعمار والههم يقولون: مائة سنة كهذه السنين!».

﴿قُلْ مَنْ كَانَ عَدُوًّا لِجِبْرِيلَ فَإِنَّهُ نَزَّلَهُ عَلَى قَلْبِكَ...﴾ لم يكن حقد اليهود وعداءهم مع شخص هذا النبي وعنوانه القومي والعربي، لأنهم لم يكونوا معه على خصومة سابقة من هذا اللحاظ. إذا بدأت خصومتهم مع رسالته ودعوته، والتي لم تكن من عنده. فإن هذه الرسالة والوحي كانا من مبادئ أسمي، وهي التي تتقدم بالنفوس المستعدة نحو الخير والكمال، وتلهم كل مستعد الحق والحكم حسب استعداده. إن المبدأ الملهم النازل بالوحي (الذي كان يشار إليه باللغة العبرية باسم جبرائيل) يضيء بعض القلوب بنور الوحي والالهام حسب إرادة الله ومشيتته الحكيمة وبإذنه. إذا فعداوة اليهود - في الحقيقة - مع مثل هذه المبادئ ومبدأ المبادئ.

إن جواب «من» الموصول المتضمن للشرط ربما لم يذكر لأنه مهم وشامل، لكي يفكر كل شخص بجواب حسب فهمه وإدراكه، مثل: «من كَانَ عَدُوًّا لِجِبْرِيلَ، فليمت بَعْدَاتِهِ، فليعاد إنْ تمكَّن، لا يتمكَّن أن يقاومه، ما أعجزه وأخسسه، فالله وجبرئيل يعاديانه أيضاً». ويمكن أن تكون «من» استفهامية: من الذي يعادي جبرئيل؟!

يعود ضمير «إنَّه» على جبريل، و«نَزَّلَهُ» على القرآن؛ فهو جبرئيل الذي نَزَّلَ القرآن على قلبك.

ويمكن أن يعود ضمير «إنَّه» على الله. أي إن جبرئيل وسيط وإذا كان لكم عداء معه فإن هذا العداء لم يكن في محله؛ لأن القرآن ليس منه وأنما هو من عند الله. ويمكن أن يعود ضمير «نَزَّلَهُ» على جبريل: نَزَّلَ الله جبرئيل «ملك الوحي» على قلبك، فلم يكن لك اختيار من نفسك.

وجاء «قلبك» بدلاً من قلبي، لربما أن تكون هذه الجملة من القول والاتجاه المطلق لشخص الرسول؛ لأن قلبه عند نزول الوحي كان يمتلأ بالنور ويفيض بالوحي، ولم يكن له

طلب وجودي وقلبي!

وبهذا البيان لاحاجة لنقل الأقوال والبحث عن سابقة خصومة اليهود لجبرئيل، موضوع عام أن العداء مع هذه الرسالة عداء مع كل نواميس العالم الكلية العامة، لاعداء مع شخص أو شعب. يقول المفسرون: لمّا سمع بعض زعماء اليهود من الرسول الكريم أن جبرئيل هو الذي ينزل القرآن، وجدوا حجة أخرى وقالوا: لو كان غير جبرئيل ينزله لقبلنا؛ ولما كان لنا مع جبرئيل سابق عداء، لم تقبل. كانوا يقولون: إن تخريب بيت المقدس وتشريد اليهود، وتسلب الأعداء علينا، كل ذلك جرى بواسطة جبرئيل.

وكان الخراب والتشريد الذي كان نتيجة أعمالهم وأخلاقهم، وكان الأنبياء العظام يحذرون اليهود منها قبل وقوعها، وأنها من قبل ملك الوحي الذي كانوا يدعونه جبرئيل باللغة العربية، لهذا كان اسم جبرئيل يتداعى بذكریات الماضي والمصائب فجعلوا هذا الأمر حجة لعدم قبول الدعوة الاسلامية.

إن عداء اليهود مع هذه الرسالة هو عداء مع مبادئ الوحي، وعوامل الوجود، وجهاز التكوين، وعداء مع رسالتهم ونبوتهم. لأن هذه الرسالة مصدقة لرسالة أنبياء بني اسرائيل ومبينة لها، وتنير طرق الهداية وتفتح أبواب الخير والبشرى بحيث تتطلبها كل روح ايمانية وكل طالب خير.

﴿مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَهُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾: إن القرآن وإن كان متأخراً من حيث الظهور في هذا العالم، ولكنه بحسب المراتب كان نزولها [تلك الكتب والصحف] بمثابة مقدمة لظهور القرآن وكمال الوحي: «بين يديه». إذ فالعداء مع هذه الرسالة عداء مع الحق وجميع مبادئ الحق: «من كان عدواً لله وملائكته ورسله...».

﴿وَلَقَدْ أَنزَلْنَا إِلَيْكَ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ﴾: إنا أنزلنا آيات بينات من مقام الربوبية السامي. ولما كانت هذه الآيات هي البيئة فلم تحتج الى دليل وبيان، كالنور الذي هو ضياء في نفسه ومضيء. فالقران باعجازه الفطري والعقلي وبيانه الحقائق والبراهين وربط مبادئه بنتائجه بيان ومبين. والفطرة المنحرفة هي - فقط - التي خرجت عن حدود الإدراك



الصحيح ونظرة الحق وكفرت بذلك نتيجة للعصبية والتقاليد الهوجاء والأوهام والشرك الوراثي.

﴿وَمَا يَكْفُرُ بِهَا إِلَّا الْفَاسِقُونَ﴾. ونتيجة لهذا الفسق وانحراف الفطرة لم يتبع اليهود وأهل الكتاب أي دين إلهي، ولم يثبتوا على أي عهد وميثاق: ﴿أَوْ كُلَّمَا عَاهَدُوا عَهْدًا انْتَبَذَهُ فَرِيقٌ مِنْهُمْ...﴾ بل أكثرهم لم يتمسكوا بدعوة الأنبياء قبل أن يبرموا عهداً.

﴿بل أكثرهم لا يؤمنون﴾. إن هذه الآية خطاب لطف وتسلية للرسول الكريم: لا تيأس من حجج أهل الكتاب وعنادهم ولا تتألم! هذه آيات بيّنات! والذين كفروا قد خرجوا من حدود الفطرة ولذا قد اتخذوا موضعاً معاكساً لجهة إشعاع هذه الآيات، وكانت طريقتهم نقض العهد ونبد المواثيق دائماً.

﴿وَلَمَّا جَاءَهُمْ رَسُولٌ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَهُمْ نَبَذَ فَرِيقٌ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ كِتَابَ اللَّهِ وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ كَأَنَّهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٠٢﴾ وَاتَّبَعُوا مَا تَتْلُوا الشَّيَاطِينُ عَلَى مُلْكِ سُلَيْمَانَ وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَانُ وَلَكِنَّ الشَّيَاطِينَ كَفَرُوا يُعَلِّمُونَ النَّاسَ السَّحَرَ وَمَا أُنْزِلَ عَلَى الْمَلَكَيْنِ بِبَابِلَ هَارُوتَ وَمَارُوتَ وَمَا يُعَلِّمَانِ مِنْ أَحَدٍ حَتَّى يَقُولَا إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلَا تَكْفُرْ فَيَتَعَلَّمُونَ مِنْهُمَا مَا يُفَرِّقُونَ بِهِ بَيْنَ الْمَرْءِ وَزَوْجِهِ وَمَا هُمْ بِضَارِّينَ بِهِ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ وَيتَعَلَّمُونَ مَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنْفَعُهُمْ وَلَقَدْ عَلِمُوا لَمَنِ اشْتَرَاهُ مَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ خَلَقٍ وَلَبِئْسَ مَا شَرَوْا بِهِ أَنْفُسَهُمْ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ ﴿١٠٣﴾ وَلَوْ أَنَّهُمْ آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَمَثُوبَةٌ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ خَيْرٌ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ ﴿١٠٤﴾﴾.

#### معاني المفردات:

اتبعوا: من الإتياع: السير في الخلف. التابع: السائر في الخلف.

تتلوا: تقتفي، تتبع، تعرض وتفوض، تقرأ الكتاب على التوالي.

شياطين: (تراجع الآية ١٦).

مُلْك: الثروة، وما يكون تحت التصرف، السلطة، السلطنة.

سليمان: كلمة عبرية، ويقول البعض: من سلم: من السلامة والخير. أحد أولاد داود الأربعة وخليفته.

السحر: العمل الدقيق، طلاء الفضة بالذهب، جعل الباطل حقاً، اختطاف العقل، وإعراض الوجه عن الشيء وإيعاده عنه، الخداع، ويفتح السنين: الرئة، انتفخ سحره: انتفخت رئته، كناية عن الاستيحاش، وكأنما السحر يجلب انتباه العين والأذن بحيث يحتبس النفس في صدر المسحور.

بابل: مدينة، أو بلد معروف بين دجلة والفرات، عاصمة الكلدانيين [آثار بابل مشهورة اليوم شمال مدينة الحلة في العراق].

هاروت وماروت: اسمان غير عربيين علما، ويمكن أن يكونا كناية أو استعارة.

فتنة: امتحان. الفتانة: حجر يختبرون به الذهب والفضة.

المرء: الانسان، الرجل، بلحاظ الخصال الحميدة، مؤنثه امرأة. الهناء: المروءة. الفتوة والسمو.

إذن: رخصة، إعلام، إياحة، أمر. وعندما ينسب الى الله يأتي بمعنى السنن والأوامر الإلهية.

خَلَقُ: النصيب الكثير من الخير.

المثوبة: الثواب. ومثوبة بفتح الواو. رجوع فائدة العمل، ردّ الفعل، مكافأة الخير والشر، وتقال للخير بصورة أكثر.

﴿وَلَمَّا جَاءَهُمْ رَسُولٌ...﴾: إنّ أولئك الذين كانت عيونهم قد تفتحت بنور الوحي، ووجدوا عزّتهم وتماسكهم بكتاب الله ودينه، بمجرد أن جاء النبي اليهم ليركّز قاعدة دعوة كتب الماضين، نبذوا كتاب الله وراء ظهورهم لحسدكم وحقدهم على النبي الخاتم ودينه.

وغضَّ النظر عن الكتاب وطردة من الذاكرة يبدى بصورة محسوسة النبذ الى الورا.  
الكتاب المنسوب والمضاف الى الله العامح للصلاخ والسعادة واسمى من الأشخاص  
والظروف «كتاب الله» يشمل القرآن وكتب الماضين [السمائلة]؛ لأن هذه الكتب - في  
الحقيقة - صدرت من مبدأ واحد ومتصلة ببعضها. فالكتب السالفة مبشرة بالقرآن ومهيئة  
لمجيئه، والقرآن مكملها ومصدقها. فاذا كانوا قد نبذوا مواضع كتبهم وبشائرهم فقد نبذوا  
القرآن أيضاً. واذا لم يتقبلوا القرآن فقد نبذوا كتبهم. الى أى شيء أتجهوا عندما نبذوا كتاب  
الله وراء ظهورهم؟ وما الذي يبحثون عنه؟ يبحثون عن السحر والخرافات والأوهام:

﴿وَاتَّبِعُوا مَا تَتْلُوا الشَّيَاطِينُ عَلَىٰ مُلْكٍ سُلَيْمَانَ...﴾ <sup>(١)</sup> إن هؤلاء الذين نبذوا العهد  
وكتاب الله وراء ظهورهم دائماً اتبعوا ما كانت الشياطين تتلوها للإضرار بملك سليمان:  
وما كانوا يشيعونه ويروجونه من الأوهام وكتابات السحر والطلاسم كان يضعف أساس  
وسلطة ملك سليمان الذي كان موقراً على قاعدة الايمان والحكمة وعدل النبوة.

والمقصود من الشياطين الأشخاص المتصفون بصفة الشياطين، أوهم الشياطين  
الخبثاء، وهؤلاء هم الذين يحاولون بإيحاءاتهم وأعمالهم الشيطانية أو أقوالهم الماكرة  
الخداعة أن يعرضوا دعوة الأنبياء بصورة قبيحة وغير صحيحة ﴿وكذلك جَعَلْنَا لِكُلِّ  
نَبِيِّ عَدُوًّا شَيَاطِينَ الْإِنْسِ وَالْجِنِّ يُوحُونَ بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ زُخْرُفَ الْقَوْلِ  
غُرُورًا﴾ <sup>(٢)</sup> إن هذا المعنى يظهر من «على» في «على ملك سليمان» أكثر من الاحتمالات  
الأخرى وهو: ان سلطه سليمان واتساع ملكه لم يكن لهما نظير في منطقة فلسطين  
وتاريخ بني اسرائيل، بحيث كانت بعض الدول المجاورة للمملكة السليمانية قد عقدت  
المعاهدات معها وتعطىها الجزية وقد خصص الناس المتوحشون والقبائل العنيدة أمام  
السلطة السليمانية، واستخدم السامور والمتمردون المتحركون. وقد أقبل الاخصائيون  
الفنانون الذين كانت موادهم الانشائية الاخشاب القوية والصخور، على عاصمة سليمان  
من كل جانب لبناء الهيكل واكمال والمسجد الذي أسسه داود وبناء القصور، وكانت

الحروب والاضطرابات المستمرة على عهد داود قد زالت على عهد سليمان، وساد الأمن والسلام. وكان هذا الملك والسلطة نتيجة تعاليم خلفاء موسى وجهدهم، وتضحيات القادة المؤمنين، وحكمة داود وسليمان وتديرهما وعدلهما. ومحيط الأمن والعدل والعمل هذا، قد استقطب الطوائف المختلفة بعقائدهم وأوهامهم. فشاعت الأوهام وخرافات السحر والطلسمات بالتدريج بين بني اسرائيل، وفي بلاط سليمان وبين نساء حرمه اللاتي كنّ من قوميات مختلفة، وكان التنافس جارياً بينهم. الى درجة بحيث كانوا يظنون أنّ سلطة سليمان الفريدة التي لم يسبق لها مثيل كانت بسبب الطلسم والخاتم وسحر سليمان وتعليمات الجنّ.

حتّى أنّهم كانوا يقولون: إنّ ميزة ذلك الخاتم والتختّم به هو سبب الحصول على الملك وتسخير الجنّ؛ لأنّ التعليل، أي البحث عن العلّة، ونسبة كل حادث الى علّة، من مميّزات الإنسان، لهذا فإنّ الأشخاص الذين لم يتحلّوا بالعقل والفكر الصائب القوي أو المتقوي بالحكمة والإيمان لم يتمكنوا من إدراك علل الحوادث كما هي. فهو لا يتصوّر بوجههم وفكرتهم القاصرة عللاً وأسباباً وهميّة غير حقيقية للحوادث الطبيعيّة أو الاجتماعيّة والحوادث الأخرى، ويسردون قصصاً حولها. وكلما انتقلت هذه القصص والأوهام من طبقة الى أخرى، ومن الماضي الى المستقبل، تترسخ في الازهان بصورة أكثر، وتأخذها طابعاً حقيقيّاً، كما كان ولا يزال هذا الأمر بين عامة الناس الذين تقصّر أفكارهم عن درك الحوادث الطبيعيّة والتقدّم والاندحار والحوادث الأخرى. والذين يبتلون بمثل هذه الأفكار، ولا يتمكنون من دراسة علل الحوادث دراسة صحيحة وفهمها، يبقون دائماً في أوهامهم، ويضلّون عن طريق الرشد، فيكونون أذلاء خاسئين لأشخاص قد اخذوا بزمام العلل وتقدموا. ان السحر الحلال والسحر الباطل والطلسم والخاتم المعجز الذي كان لسليمان هو الإيمان والحكمة التي أودعها في قلبه. إنّ سليمان بحكمته ونظرته الثاقبة قد حصل على مفتاح إدارة الجن والإنس والحيوانات ولغة حاجتهم، وسخرهم جميعاً بالتدبير وقوّة الحكمة. وقد تكرّرت هذه الحقيقة في كتاب الملوك وأخبار الأيام في

التوراة في الإصحاح الثالث، الفقرة الخامسة تقول: «ظهر الرب في النوم لسليمان وقال: أطلب ماذا تريد أن أعطيك؟ فقال سليمان: أنت عاملت عبدك داود أبي برحمة عظيمة، كما سار أمامك بأمانة وحسن نية واستقامة قلب، واحتفظت له بهذه الرحمة العظيمة، ووهبت له ولدا ليخلفه على كرسيه، والآن أيضاً اليوم يا إلهي يا رب، وهبت لعبدك الملك بمكان أبي داود، وأنا شاب باقع، لا أعرف صورة الفعل ومصدوره، وأنا عبدك بين قبيلتك، تلك القبيلة التي اخترتها، وكثرتها أكثر من ذي قبل، فهب لي قلباً واعياً لأحكم في قبيلتك، وأميز بين الخير والشر... فحسن هذا الكلام في نظر الرب... فقال: أنت طلبت مثل هذا الطلب، ولم تطلب لنفسك شيئاً... سأمنحك قلباً حكيماً مميّزاً لكيلا يكون من قبلك مثلك... فإذا سلكت طريقى وعافقت على وصاياى وفرائضى كما سلك أبوك داود سأطيل في عمرك. ثم استيقظ سليمان من نومه...»

فكما أن علم سليمان وحكمته وعدله وورعاه وأركان دولته ركزوا ملكه بين البلدان وشعوب ذلك العصر وأنتهوا، ووسعوا دائرة نفوذهما، أفرغ شيوخ أوهام السحرة وأنسجة الخيال - كالأرضة - العقول والأفكار أولاً، وأزال لب الحكمة والتعقل، ثم ضعف ملك سليمان وقاعدة عرشه التي كانت قائمة على التفكير والحكمة وأزالها، وأفرغ تحت عصا قدرته «منسسته» حتى انهار ذلك الملك بعمامة، وتلاشى ذلك المجتمع الملتحم المتقدم. يمكن أن يكون «ما تملوه» بقرينة «على» الأكاذيب والافتراءات التي نسبت إلى سليمان عند اتساع سلطته وملكه، أو يمكن أن يكون المقصود الأوهام السحرية والافتراءات والأكاذيب أو الأساطير وأناهيده الأصنام.

كتب في التوراة الباب الحادي عشر الملوك: «وعند شيخوخة سليمان رغبه نساؤه للإتباع من الآلهة الأجنبية... فذهب سليمان خلف «عشتاروت» آلهة الفينيقيين «الصيدونيين»، و«ملكوم» صنم الموابيتين، وأصبح سليمان في نظر الله شريراً، ولم يتبع الله اتباعاً تاماً كما يه داود. ثم بنى سليمان مكاناً عالياً مقابل أورشليم لأجل «كموش» رجس الموابيتين، ومن أجل «مولك» رجس بني حمون...»

وسلوكلهما أو المعلومات التي يحصلون عليها منها - من إغواء الكهنة والسحرة الذين كانوا يلعبون بعقول الناس وأفكارهم ويسخرونهم، وكان بعضهم يتّجه نحو الشر والضلال أيضاً. يمكن أن يدعى هذان الاثنان ملكين في رأي أولئك الناس وعرفهم، وكانا يظهران أنفسهما بصورة شخصين خيّرين، وكانا يقولان هذه الجملة «نحن فتنة فلا تكفر» لجلب الانظار وخداع الناس؛ ليعتبرهم الناس خيّرين خادمين وأن أساطيرهم ونسائج خيالهم حقائق. كما أن سحرة عصرنا ينسبون سحرهم إلى سليمان ودانيال وبعض أئمة الاسلام. لو كان في نظر القرآن أن يفصل عن ماهيّة «ما أنزل»، ومن هما «الملكين» لبين ذلك. وكأنما نظر القرآن أن يوجّه الأنظار إلى المصدر الآخر للأوهام المضلّة التي انتشرت من بابل عاصمة الكلدانيين القدماء، ومنطقة تلك الحضارة الغامضة، بواسطة شخصين استخرجا هذه الأسرار من بين جدران السحرة والكهنة المحدودة، وبثوها بين الشعوب لاسيما اليهود، واليهود بدورهم انتشروا في كل مكان ونشروا هذه الأوهام معهم.

كانت دولة الكلدانيين تقع بين دجلة والفرات في ثغر الخليج الفارسي. إنّ صلة هذه المنطقة الخصبة عن طريق البر والبحر بمراكز العلم والحضارة يومئذ من الشرق والغرب كالهند، ايران، مصر، اليونان، وفلسطين سبب تقدم الكلدانيين من كل جانب. فالسهل الواسع الذي يشبه الوادي وسماؤه المشعّ المفتوح لفت أنظار أذكى الكلدانيين إلى مدارات الكواكب وأوجها وحضيضها وقربها وبعدها وأوضاعها الأخرى إلى الحدّ الذي كانت الآلات العلميّة يومئذ تجيز لهم ذلك، ولهذا السبب كان الكلدانيون يعتقدون بتأثير الكواكب الروحانيّ في جميع شئون الحياة. وعبدوا تماثيلها وصورها، وقد نهض ابراهيم الخليل من بين هؤلاء داعياً الى التوحيد ولفّت الانظار الى ربوبيّة الله، إنّ هؤلاء الذين كانوا قد تعرفوا اكثر من الآخرين بأثر مقارنات الكواكب وقربها وبعدها، والخسوف والكسوف، وانعكاسات الأشعة الكونيّة في الفضاء والأرض وأمزجتها، كانوا يستنبئون بهذه الأمور، وكانوا يتفوهون أحياناً عن طريق الحدس بأمور كالحرب والسلام والمجاعة بحسب تأثير هذه التقلبات والاضاع في النفوس والأخلاق وإن هذه التنبّؤات التي كان

بعضها يجري وفق حساب دقيق وبعضها من الحدس والتخمين قد لفتت أنظار الجماهير تجاه أصحاب هذه الآراء والمتنبئين إلى درجة أنهم كانوا يظنون بأنهم ذوو قدرة خارقة ومؤثرة في الخير والشر، ومراجع لحلّ المشاكل. واستغل بعض المحتالين هذا الاعتقاد من قبل العوام، فراجت سوق السحرة والكهنة.

يقول المحققون في تاريخ الحضارات القديمة: أثمرت الفلسفة وعلم الهيئة من بلد الكلدانيين، وبدأت من الكلدانيين، ومنهم تسرّبت إلى فينيقيا وفارس والهند ومصر والعرب واليونان. يقولون: أن أول عالم مشهور كلداني هو «زرواستره» والذي كان يعيش على عهد «نمرود»، وبعده «بيلوس» وكان معلّم علم الهيئة والفلك في (٢٣٠ ق.م) الذي ألّف هذا العلم بدقة وسهولة للعامة. وإحاطته وقدرته العلميّة وتنبّؤاته عن الحوادث الكونيّة هي التي جعلته بعد موته في مصاف الآلهة، فصنعوا له تمثالاً كبيراً على قبره ببابل. وبعد هؤلاء العلماء والفلاسفة الأوائل، راج السحر والشعوذة والاحتيال ومعرفة الكواكب والتنبؤ بالسعد والنحس وحلّ الزيج بين الكلدانيين والبابليين إلى درجة بحيث كانت بابل تدعى بهذا الاسم: «السحر البابلي، بابل السحر»، ولذا انقرضت قدرة حضارتهم وعلمهم ومجتمعهم بعد الضعف.

يقول «البير ماليه» في كتاب «ملل شرق ويونان»: «كان الكلدانيون يحترمون الأموات، ويحبّون هذا العمل كثيراً؛ لأنهم كانوا يعتقدون بأنّ الأرواح تتمكّن من الرجوع إلى الأرض وتؤدي الأحياء... وبغض النظر عن هذا كانوا يعتقدون بأنّ عدداً من الجنّ المسيئين والشياطين المخفيين يتربصون على الأرض ويؤذون الناس. وكانوا يرسمون الشياطين بصورة قبيحة، ويجعلون لهم جسم انسان ورأس وأطراف حيوان. كتاب آشوريّ يصف الشياطين كما يلي: هناك يعوون، هنا يتربصون، هم طفيليات كبيرة تطلّعت إلى السماء، مهيبة جداً، عواؤهم يعمّ المدينة، ينتشر نسلهم من التراب... وأهالي كلدة يتذرّعون بالسحرة والكهنة لأجل أن يحرسوا أنفسهم من أعدائهم المخفيين. وكان السحرة أناساً مقتدرين مرهوبين؛ لأنّ هذه القوة كانت فيهم بحيث ينزعون السلاسل من

أعناق الشياطين، ويجعلون طالع النحاس في اعناق الناس. وكان طريق طرد الشياطين الأذكار والأوراد، ورش الماء المتبرك، وتوفير الأعشاب السحرية. وكانوا يحافظون على أنفسهم من شر الشيطان بواسطة أشرطة من القماش تخاط فيها الصور المتبركة باليد، الطلاسم والتعويذات التي تسبب سعادة الحظ. إن أهالي كلدة قد أشاعوا استعمال الطلاسم والتعويذات والاعشاب السحرية والأوراق التي كانت تستعمل من أجل دفع شؤم الحظ، في جميع أنحاء العالم يومئذٍ... وقد مضى أن الكلدانيين قد جعلوا مكان آلهتهم في أهم كواكب السماء أي الشمس والقمر والسيارات، وبصورة عامة فإن في سماء كلدة كوكب ذو شعاع خارق، وسكان هذه المنطقة يعتبرون كل كوكب مظهراً لأحد صفات الربوبية، ويتصورونها أنها مفسر وترجمان لارادة الله، وكانوا يظنون بأنهم اذا رصدوا الكواكب يتمكنون من التعرف على المشيئة الالهية، وحدث حركاتهم من أنه ماذا سيحدث في الأرض ولذا كان الكهنة يتفوهون بالغيب أيضاً، وكانت لهم اليد الطولى لاسيما في التنبؤ عن مستقبل الناس. وفي رأيهم أن طالع كل شخص متعلق بالمكان الذي كانت عليه الكواكب بالنسبة الى بعضها حين ولادته. بناء على هذا كل من يولد من الممكن أن يكون كوكبه صالحاً أو سيئاً. إن هذا النوع من التفوه بالغيب قد سمّاه اليونانيون «تقرير مصير الولادة»، ويسمون التدقيق المتخذ لغرض اكتشاف اوضاع المستقبل في حال الكواكب «علم الاحكام».

إذا كان علم الأحكام فرعاً من التنبؤ بالغيب وكان لكهنة كلدة طرق أخرى للتفوه بالغيب منها تعبير الرؤيا، والطريق الآخر كيفية القلب والباطن، لاسيما عندما يمتحن أمعاء حيوانات الأضحية وأحشائها لاسيما أكبادها. والآخر الأشكال التي تكون عليها قطرة السمن حينما تقطر في الماء..».

إن «ما» في «ما أنزل» - باحتمال ضعيف - تكون نافية ومعطوفة على «ما كفر سليمان» أي لم يكفر سليمان... ولم ينزل على الملكين. ويمكن أيضاً تفسير «ما يعلمان من أحد...» بمثل هذا التفسير: ولم يعلمأ أحداً حتى يقولوا إنما نحن فتنة فلا تكفرا!



﴿فَيَتَعَلَّمُونَ مِنْهُمَا مَا يُفَرِّقُونَ بِهِ بَيْنَ الْمَرْءِ وَزَوْجِهِ﴾: كان الملكان يعلمان ما كانا تعلماه من رموز السحر والتنبؤات والتأثيرات النفسية و... للاختبار ويسقطه العقول والنفوس من أساطير الكهنة والسحرة، ولكن أصحاب الأفكار السيئة كانوا يستخدمون ما يتعلمونه منهما في طريق تسخير النفوس والتفرقة وقطع علاقات الحياة والعلاقات الاجتماعية، وتركوا ما كان مفيداً. وكانوا يبنون هذه الأساطير المفرقة في كل جهة:

﴿فَيَتَعَلَّمُونَ﴾: كأنما تشير إلى هذه التعاليم من بابل بواسطة هذين، وربما كانت تلك التجريبيات والانطباعات من قبل رموزاً فقط بين الكهنة والسحرة. وإنَّ «ما يفرقون...» إشارة الى سوء استغلال الناس من هذه التعاليم، والتفرقة بين المرء وزوجه نموذج من عملهم الدنيء وقطع العلاقة والاخلال في الحياة الزوجية.

وان كان تعليم هؤلاء السحرة وأعمالهم لها مثل هذه الآثار، ولكن هذه الأعمال وآثارها لم تكن خارقة للعادة ومخالفة لقوانين الخلقة والطبيعة كما كان يظن العوام الجهلة، بل كان معلولاً للقوانين والنواميس الآلهية وذات صلة بها:

﴿وَمَا هُمْ بِضَارِّينَ بِهِ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ﴾: إنَّ هذا البيان إلفات الأنظار إلى علل هذه الآثار وأسبابها الخفية ليكتشف الإنسان بالتفكير والتأمل مثل هذه العلل ويحرر نفسه من أوهام الكهنة والسحرة وعبوديتهم، وهو أيضاً تذكير بعلة العلل ومسبب الأسباب والتوحيد في الفعل والمشیئة، والذي هو غرض القرآن السامي. وبعد بيان الأثر التافه لهذه التعاليم واستنادها لتلك الأسباب والعلل العادية، يعيد الى الأذهان الوضع العقلي والنفسي لهؤلاء الناس السفلة (اليهود، أو البابليين، أو عامة الأمم الوضيعة)، الذين كانوا يتعلمون ما يضرهم ولا ينفعهم بدلاً من تعلّم العلوم المفيدة في تقدم الحياة وتقوية العقول والطباع الانسانية:

﴿وَيَتَعَلَّمُونَ مَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنْفَعُهُمْ...﴾: إنَّ دراسة أحوال الشعوب وحياة الأشخاص الذين يعقبن الموضوعات والمعلومات التي لا تتلاءم مع سنن الحياة توضّح هذه الحقيقة جيّداً: بأنَّ الذين يبحثون عن هذه الأشياء ويشترونها لم يتمتعوا بالحياة

الفضلى التي تضم القوة والعزة والكمال، ويعيشون دائماً أذلاء خاسئين خانعين. إن مثل هؤلاء الاشقياء كيف يمكنهم حلّ طالع سعد الآخرين؟ وكيف يتوقع الناس منهم مثل هذا الأمر:

﴿وَلَقَدْ عَلِمُوا لَمَنِ اشْتَرَاهُ مَالُهُ فِي الآخِرَةِ مِنْ خَلْقٍ﴾: إن لام التوكيد، وقد التي تفيد التحقيق و«علموا» التي تعود على جميع المتعلمين وأتباعهم، ولام جواب القسم، كلّها تؤكد بشدّة على إضرار الاتباع من السحر والسحرة. وإذا كان المقصود من «في الآخرة» هو يوم القيامة، فكيف جاء القرآن بعلم عامة أولئك الناس المحقق شاهداً على الموضوع، وكيف كان لأولئك الناس من عبدة الأوهام وأصحاب الفكر القاصر علم تحقيقي بضرر هؤلاء المشترين وعدم نصيبهم في الآخرة؟! إن تخلف أتباع الأوهام واللاعبين بالعقول عن ركب الحياة، وعدم تمتعهم بالسعادة، معلوم ومحسوس، والذي يخفى عليهم الأضرار المعنوية وزوال رؤوس الأموال النفسية:

﴿وَلَبِئْسَ مَا شَرَوْا بِهِ أَنْفُسَهُمْ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾: لما كان هذا الضرر النفسي مهماً جداً وغير معروف لدى الجميع، بدأ بتأكيد «لبئس» وختم بـ «لو» التي تأتي للشرط الممتنع! إذا فالعلم الأول «وَلَقَدْ عَلِمُوا» يعود الى الضرر المحسوس، والعلم الثاني يعود الى الضرر الباطني المعقول، ولا مجال لتوهم المنافاة.

ولو أنهم اتبعوا هداية الأنبياء بدلاً من اتباع سحر السحرة وكهانة الكهنة، ونوروا العقول بنور الايمان، ونظموا حياتهم بالتقوى، لاتجهت نحوهم الخيرات من قبل الله ومن كل جانب، ولكان نفعهم المحقق اكثر مما كانوا يتوقعونه بأخيلتهم من هذه الأباطيل: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَمَثُوبَةٌ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ خَيْرٌ لَّوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾: إن «لو» في بداية هذه الآية وختامها إشارة أيضاً إلى أنّ أفكارهم القاصرة لا تصل إلى هذه الحقيقة، ولا تستحق التمتع بالإيمان والتقوى.

إنّ اشارات هذه الآية الطويلة «وَأَتَّبِعُوا...» ومفرداتها وقراءتها وتراكيبها لها قدرة المعاني والاحتمالات الكثيرة والعجيبة: كما أنّ للسحر والشعوذة وتأثيراتها النفسية التي

تقصدها الآية تفرّعات كثيرة، وللمحققين حول حقيقة هذه الفنون وطلاتها آراء مختلفة، ودرسوا الجذور العلمية والنفسية لبعضها إلى حدّ ما، وبقي بعض اسرارها مجهولة. وقد عدّ البعض التراكيب والاحتمالات القريبة لظواهر هذه الآية والبعيدة عنها والأساطير التي حيكت حول كيفية هذه القصص أكثر من مليون!! ربّما يكون النفع الأكثر من المواضيع التربوية والهدائية من هذه الآية كموضوعها العلمي للأجيال القادمة.

إنّ هذه الآية تعكس بأشاراتها وكلماتها القصيرة وبيانها الجامع في ذهن السامع أو القارئ مواضيع وصوراً، وتمرّ بسرعة منها واحداً واحداً: تعرض اليهود الذين اتبعوا هداية الأنبياء ودعوتهم، والسنن الإلهية، وحكموا الشياطين بتدبيرهم، أصبحوا بعد مدّة أتباع وسأوسهم وإحباطهم، ونبذوا كتاب الله وسننه وراء ظهورهم. تعرض أواخر ملك سليمان: الذي انفتح الميدان فيه للسحرة وأصحاب الأساطير المضلّين، الى درجة بحيث يريدون أن يلوّثوا أذيال سليمان الطاهرة، ويحجبون وجه نبوته. ثم تُبرئ سليمان بجملة قصيرة «وما كفر سليمان» وتعرض وجه نبوته. ثم تعرض بـ «وَلَكِنَّ الشَّيَاطِينَ كَفَرُوا يُعَلِّمُونَ النَّاسَ السِّحْرَ...» كفر الشياطين وحجب أساطيرهم المظلمة وسحرهم. وربّما كان هؤلاء يجمعون الناس جماعات جماعات حول أنفسهم في كل زاوية ومكان، ويلهونهم بضلالاتهم. من أين وكيف شاع السحر والأسطورة في بلد الإيمان والهدى والحكومة السليمانية؟، وعبارة «وَمَا أُنْزِلَ عَلَى الْمَلَكِينَ...» تبين مصدره، وتعرض زاوية من مدينة بابل العظيمة الغامضة بكهنتها وسحرتها. في هذه المدينة، تلوح للناظر من جهة البنايات والتماثيل العظيمة الفخمة والجنان المعلقة<sup>(١)</sup> وتلوح للناظر الكهنة والسحرة الذين كانوا

(١) يكتب المؤرخ الشهير هيرودوتس: «أقيمت مدينة بابل على سطح واسع ممهد مربّع الشكل يبلغ طول كل ضلع مائة وعشرين فرسخاً ومحيطها أربع مائة وثمانين فرسخاً (ربما كان ميلاً) وكان يحيط بهذه المسافة خليج عميق مليء بالماء دائماً، وبعد الخليج أقيم جدار لهذه المدينة يبلغ ارتفاعه ثلاثمائة وخمسة وثلاثين قدماً، وقطره مائة قدم، وفيه مائتان وخمسون برجاً ومائة باب برونزي، وأغلب هذا السور بني بالآجر، ويقسم نهر الفرات هذه المدينة إلى قسمين، وعلى جانبي النهر أقيم الجدار ليمنع الأعداء، له أبواب برونزية أيضاً تنزل الى النهر. ومن أبنية هذه المدينة العظيمة قصر الملوك الذي شيد على مكان دائري ويحيطه سورمتين، ومن عماراتها العظيمة أيضاً تماثيل «بيل» وتوجد هناك تماثيل وآلات ذهبية جميلة جداً، وكانت

يسخرون الناس بالأوهام، ومن جهة أخرى، فإن من مستلزمات هذه الأوهام والمجتمعات إشاعة مراكز الفساد، وازدياد النساء والبنات البغايا، ومحالّ اللهو والطرب التي كان السحرة يُلْهون الناس بها<sup>(١)</sup>. وفي هذا الوسط رجُلان ملكوتيان الصفة بوجه منير وعمامة بيضاء وثياب كتانِيّة طويلة وشعر مدهن<sup>(٢)</sup> قاموا بهداية جميع الناس وتعليمهم، ليحطموا - مثل سقراط الحكيم - طلسم الأوهام، وينقذوا الناس من أساطير الكهنة المتفقيّن مع الطبقات الحاكمة، ومن التلوث بالفحشاء. ورَيمًا كان القرآن قد دعاها ملكين لهذا السبب، لأنهما لم يكونا نبيّين من قبل الله، ولا يجنبون أنفسهم كجميع الفلاسفة من المسؤولية لإنقاذ الناس، ولا هم كعامة الناس المسخرين بالأوهام.

إذا فهذا الاسم «مَلَك» أنسب من كل أسم لهما. كانا يبيّنان للجميع رموز السحر والشعوذة والكهانة التي كانت مقتصرة على الكهنة وخاصّة بهم، ويزيلون الستار عن الأوهام. وبهذا السبب ومن هنا أشيعت هذه الرموز بين أناس تلك المنطقة إلى أن تسرّت إلى وسط اليهود ومحيط ملك سليمان المستعدّ.

وهذه الآية التي هي كالشهاب الناقب لطرّد الأوهام وإيحاءات الشياطين، أحاطتها الأوهام والنسائج الاسرائيليّة التي ظهر بعضها بصورة الروايات الاسلاميّة، وأخفت حقيقتها الواضحة إلى درجة بحيث تصرف الأذهان عن هدف هدي القرآن وتربيته.

ولمّا كانت هذه الأوهام تصرف النفوس دائماً عن الإدراك الصحيح المنطقي للحوادث وأصول التكوين والنظر الواقعي والعمل اللائق، فكل شعب أبتلي بمثل هذه الأباطيل فإنه

= فيها الجنائن المملّقة، والتي كانت ترتفع عن سطح الأرض بمقدار خمس وسبعين قدماً، وقد غرسوا فيها من جميع الأشجار والنباتات ذوات المناظر البديعة. ويبلغ قطر أشجارها الضخمة اثني عشر قدماً. وقد عُفي آثار جميع هذه البناءات. الأول: هو أنّ العرب يسمونها بابل ولا يستبعد أن تكون بقايا تمثال «بيل». الثاني: قصر «نبوخذ نصر» الشهير... الثالث: هو برج نمرود، وهو بقايا التمثال الذي كانوا يقصدونه من أجل ألوهة «بيو»، ودعاه بعض السياح برج بابل جهلاً. ومع أن جميع الدول الذين تسلطوا على الكلدانيين سوا في خرابها، وأنّ أسكندر الكبير كلف عشرة آلاف عامل بهدمها، لم يتمكنوا حتى الآن من محو معالمها» مقتبس من «قاموس كتاب مقدس» ترجمة وتأليف المستر هاكس.

(١) هذا ما ذكره المؤرخون حول أواخر أيام حضارة بابل.

(٢) هكذا وصف المؤرخون أعيان بابل وعلماءها. «تاريخ كتاب مقدس لغت بابل».

يسلك طريق الانقراض والهوان، وهذا هو علّة العلل لا تقراض الحضارات مثل: كلدّة، والروم ومصر وملك سليمان. والعلل الأخرى مثل الابتلاء باستبداد الحكومات واللهو بالفحشاء من مستلزمات هذا وآثاره. ومادامت منطقة الغرب محكومة لأجهزة السحر والكهانة والشعوذة، لم تتمكن من فتح أعينها ودراسة أسرار الخلقة وقوانين الحياة: ان ديكارت الذي كان رجلاً موحداً وآراءه من أكثر الآراء تأثيراً في مصادر الثورة الفكرية والعلمية في أوربا، يقول حول نفسه: «كنت أعتبر نفسي مطلعاً على قدر التعليمات الخبيثة وقيمتها الى درجة أنني لم أنخدع بمواعيد الكيمياءيين، وأخبار المنجمين، وأكاذيب السحرة، وأحاييل وافتراءات الذين يدعون أكثر مما يعلمون. نقلاً عن «سير حكمت در أوربا».

مع أنّ هذه الآية قد حكمت ثلاث مرّات بالكفر بصراحة منطوق العقيدة ومفهومها والعمل بهذه الأوهام: «وما كفر سليمان»، و«ولكن الشياطين كفروا»، «فلا تكفر» مع أنّ فقهاء الاسلام والإمامية المحترمين يعتبرون السحر وأحكامه حراماً ويعتبرون من أحل ذلك كافراً ودمه مباحاً «كما أنّ فقيه الشيعة العظيم الشيخ مرتضى الأنصاري - أعلى الله مقامه - نقل روايات العلماء وفتاواهم وأعطى رأيه بالمسألة» مع كل هذا فإن المسلمين اليوم مبتلون أكثر من جميع الشعوب الأخرى بالسحر والكهانة!!

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقُولُوا رَاعِنَا وَقُولُوا انظُرْنَا وَاسْمَعُوا وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٠٥﴾ مَا يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَلَا الْمُشْرِكِينَ أَنْ يُنَزَّلَ عَلَيْكُمْ مِنْ خَيْرٍ مِنْ رَبِّكُمْ وَاللَّهُ يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ ﴿١٠٦﴾ مَا تَنْسَخُ مِنْ آيَةٍ أَوْ نُنسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِنْهَا أَوْ مِثْلَهَا أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٠٧﴾ أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا لَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴿١٠٨﴾ أَمْ تُرِيدُونَ أَنْ تَسْأَلُوا رَسُولَكُمْ كَمَا سُئِلَ مُوسَى مِنْ قَبْلُ وَمَنْ يَتَّبِعِ الْكُفْرَ بِالْإِيمَانِ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ ﴿١٠٩﴾ وَكَثِيرٌ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يَرُدُّونَكُمْ

مِنْ بَعْدِ إِيمَانِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِهِمْ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْحَقُّ فَأَعْثُوا  
وَأَصْغَحُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿١١٠﴾

### معاني المفردات:

راعنا: من الرعي: الانطلاق وإطلاق الغنم في المرعى، الإشراف على الضعفاء،  
المراعاة: النظر، الإطلاق، تقدير الحال، وضع شيء موضع النفس، الإصغاء، الترحم.  
انظرنا: من النظر: النظر بتأمل، الدراسة والتفكير، التقدير والقياس، القضاء بالعدل بين  
الناس، البصيرة، الاستدلال. في هذا الموضوع الرأي، مجال التفكير.  
الفضل: الإحسان الكثير بدون سبب، الإكثار بلا حد من قبل المحسن، أو في  
مجال الإحسان.

النسخ: إزالة الشيء أو إبطاله ووضع شيء آخر في محله. نسخت الشمس الظل، ونسخ  
الشيب الشباب. رفعه وحلّ ومحله، وتناسخ الأرواح والقرون بهذا المعنى.  
نسها: من النسي: النسيان، التناسي. من نسا: التوكيل، والتأجيل.  
ولي: صديق، مساعد، مشرف، حاكم، حليف.  
سواء: بين حدّين، الطريق أو الخط المستقيم.  
الحسد: طبع نفسي: تمنّي زوال نعمة الغير. الغبطة: التمني لأن يكون له كما للغير من  
النعم.

العفو: إزالة الأثر، الصفح عن الذنب، غض النظر عن السوء.  
الصفح: اعراض صفحة الوجه عن الشخص، غض النظر عن الشيء.  
﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقُولُوا رَاعِنَا﴾: إنّ هذه الآية أول خطاب للمؤمنين في هذه  
السورة وأول حكم موجه لهم.

هذا الخطاب تقرّيع مقارن بالفعل الماضي «آمنوا» دالّ على السبق الى الايمان  
والثبات عليه، وقد جاء بعد دراسة انحرافات اليهود عن أصول دعوة الأنبياء وأوامرهم،

تلك الانحرافات في العقيدة والأخلاق التي أدت بهم إلى إتباع السحر والشعوذة وعلم النجوم والأوهام الأخرى. إنّ مصدر هذه الانحرافات هي نفسيّات اليهود الذين كانوا يريدون دائماً أن يلائموا بين الدين الالهي ورغباتهم النفسيّة وأمنياتهم الماديّة، ولهذا حوّلوا التوحيد الخالص إلى شرك عبادة العجل، وظنّوا أن الدار الآخرة والسعادة والفلاح الذي هو حصيلة الإيمان الطاهر الجيّد لأنفسهم مهما كانوا، وبدّلوا وأولّوا كلّ حكم وقانون بأهوائهم، ونبذوا وراء ظهورهم من الحق والكتاب كلّ ما لم يكن ملائماً مع أهوائهم ورغباتهم النفسيّة، وبالتالي أظهرّوا أوهامهم على شكل دين. وقد عرض القرآن إلى هنا زوايا انحرافهم وخصالهم النفسيّة مهما كانت في صور وبيان مختلف.

والآن يوقظ وينبّه في هذا الخطاب أشخاصاً قد جعلوا أنفسهم في معرض أشعّة الإيمان، واستراحوا بجاذبة الإيمان من جواذب الأهواء، وسمّوا عن الشهوات المحرّفة، لكيلا تتكرّر تحرّكات المسلمين ورغباتهم النفسية كاليهود وتنحرف بهم. لكيلا تظهر رغبتهم بصورة طلب «رَاعِنًا» الذي هو طلب ملائمة الدين مع الظروف النفسيّة، ومراعاة رغباتها!

إنّ معنى «مراعاة» كما قيل في معاني المفردات، هو تقدير الحال، وإطلاق الغنم في المرعى، والإطلاق والإشراف، نفهم من هذه الكلمة والأمر «رَاعِنًا» أنّ المؤمنين عليهم ألا يطلبوا من الشارع المقدّس تطبيق أحكام الدين وأوامره مع مصالحهم وشهواتهم، والذي يجب أن يطلبونه هو: النظر في مصلحتهم الواقعيّة وعاقبة أمرهم، لكي تتحقّق بمثل هذه النظرة سعادتهم وسعادة المجتمع، وإن كان مثل هذه النظرة لا تتلاءم وأمنيات الفرد أو الجماعة ومصلحتهم أو اللذائذ والشهوات العامّة.

وهل يمكن أن يتقدّم أحد بمثل هذا الطلب إلى مُصلح ينظر واقع المجتمع، أو مُقنّن عاديّ، أو طبيب حاذق بأن: راعنا وراع حالنا ومصلحتنا؟! فكيف بالأنبياء الذين عليهم أن ينظروا - بأمر الله - إلى صلاح الدنيا والآخرة، والمادّة والمعنى، والفرد والمجتمع، والحال والمستقبل. إنّ المريض الذي يطلب من الطبيب المعالج أن يراعي حاله وما يشتهي في

العلاج والدواء، قد غَضَّ النظر عن سلامته ونجاته النهائية، واستخفَّ بالطبيب، وظنَّه تابعاً لرغباته، وتجاوز إهانتَه. ربما كان مصدر قول المفسِّرين بأنَّ كلمة «رَاعَيْنَا» كانت من قول اليهود، وكانت إهانةً بالنسبة للنبي، هو هذا.

إنَّ المريض الذي يريد سلامة نفسه ويؤمن بالطبيب يجب أن يقول: أنظر وأمر، وأنا أسمع وأعمل بأمرك:

﴿وَقُولُوا أَنْظِرْنَا وَاسْمَعُوا...﴾: إنَّ هذا الأمر لو كان لشخص عاقل يفكر بالصلاح، حول سؤال محترم من الطبيب الذي لم يكن مصنونا من الخطأ في التعيين لكان حقاً، وعلى السائل أن يسمع ويطيع أمره ويستسلم لعلاجه، إذا كيف يمكن طلب المراعاة من الأنبياء الذين هم أطباء النفوس والمجتمع ويستدلون بالوحي، ومعصومون من الخطأ والزلل لكي يلائمون دين الله مع رغبات الناس وعاداتهم.

وكما يطابق القوانين الطبيعِيَّة وعامَّة القوى ومواد العالم مع الحكمة، وينظَّم الجميع، ويتقدَّم بها نحو غاية التكوين السامية، فالأحكام التشريعيَّة التي هي والقوانين التكوينيَّة من مبدئ واحد، هي من أجل تسليم العناصر البشرية والقوى الانسانيَّة وتطبيقها مع الحكمة والمصلحة والحق، لاتطبيق الحق مع الأهواء والتقاليد البشريَّة: ﴿وَلَوِ اتَّبَعَ الْحَقُّ أَهْوَاءَهُمْ لَفَسَدَتِ السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ﴾<sup>(١)</sup>.

إنَّ طلب المراعاة هذا وتطبيق دين الحياة الواقعي مع الشهوات والتقاليد والأهواء التي تشكِّل أوضاع المجتمعات الفوضويَّة، وأحوالها، إمَّا أن يكون ناتجاً عن فكر القاصرين عقلياً والمحكومين للشهوات الذين يريدون اتباع الدين مرافقاً لتأمين الشهوات غير المشروعة، وإمَّا أن يكون من إحياءات الشياطين الذين يريدون أن يلوّثوا دين الله، ويزيلوا اثر هدايته وتربيته وفائدتهما. كما أنَّ اليهود لوّثوا دين الله وضلّوا باتباع إحياءات الشياطين.

هل يتمكّن المريض من أن يطلب من الطبيب مثل هذا الطلب، أو يزيد أو ينقص من



وأمره حسب ما يشتهي؟ ولوغضّ النظر عن أمر الطبيب، أو نقصّ أو زاد فيه حسب ما يشتهي، هل هذا شيء سوى أنّه اشترى الألم والتعب بروحه وراح لاستقبال الموت!!:

﴿وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾: وبعد الخطاب لمن اتصفوا بالإيمان، يخوف في هذه الآية المتّصفين بالكفر، ولا يكن المقصود هو الكفر بالله وبأصل الدين، فالإنسان الذي يريد أن يخفي الأحكام والشريعة بأهوائه ويغضّ النظر عنها فهو كافر بقدر عمله. وهكذا في القرآن عندما يعلن عن خطر الكفر وعاقبته في كل مورد وبعد بيان كل حقيقة، يقصد حدّاً من الكفر، وإخفاء حقيقة أو أحكام الشريعة التي قد ذكرت قبل ذلك.

نعم يمكن قول «راعنا» إلى الطبيب أو المشرّع الذي لم يميّز العقوبة ومدة المرض والصلاح، ويريد أن يرضى عنه المريض المتألم والجمهور الغبيّ لمدة من الوقت، وكذلك إلى الحاكم المستبدّ الذي يتّبع أهواءه وأهواء الناس، فإنّ المستبدّين والحاكمين الأنانيين ربّما كانوا لهذا السبب يسمّون الناس «رعيّة»، لأنهم في رأيهم كالغنم يجب مراعاة مائهم وعشبهم.

ولكن يجب أن لا يقال: «راعنا» إلى الأنبياء والمشرّعين الإلهيّين الذين هم محكومون بحكم الحق والخير المطلق وأولياء الناس. ويجب أن يكون لسان طلبهم: «انظرونا»، ليأتوا ببصيرتهم النافذة وعون الله بقوانين ويعطون أحكاماً ليحافظوا أوّلاً على الثروات المعنوية والقابليات الانسانية من الآفات، ويطلقوا العقول من قيد الغرائز الحيوانية والتفكير المنحرف، ثم يؤمّنون حقوق حياة الأفراد والطبقات ومصالحهم القانونية. ولو أصاب الخلل محفظة الدين (كخلل اليهود وانحرافهم) لأبادت وساوس الشياطين والسحرة والكهنة بالتعاون مع الذين يريدون استغلال القوى البشرية لصالحهم، العقول والنفسيات أوّلاً، والثروات والمنافع الأخرى بعد ذلك.

إذا إنّ هذا الأمر «عدم قول راعنا» والأمر بقول انظرونا والسمع والعمل هو واجب المؤمنين الدائم. ربّما كان هذا الأمر الذي هو يعم جميع القوانين والأحكام قد جاء قبل كلّ حكم وأمر في هذه الآيات لكي تُدرّك أصول الأحكام التي تأتي بعد ذلك في القرآن،

وما يشرّعه الرسول ﷺ بالقول والعمل، وما يستنبطه الفقهاء الربانيون من هذه الأصول، وتُطبّق بدون زيادة ونقص وتدخل هوى أو مصلحة شخصية، وربما كان لأجل الشمول والتعميم عند ما لم يُذكر مخاطب راعنا وانظرنا.

كلّ ما قيل هو حقيقة تشعّ في مرآة الذهن الصافية من نور الآية وبالنظر الى صلتها المتينة مع الآيات السابقة واللاحقة، ولو أنّ الذهن اهتم أولاً بالتأويلات والتبريرات لهذه الآية وأمثالها، لا يحصل على المفهوم والحاصل من ناحية الهداية التي هي شأن القرآن الحكيم الخاصّ، ويتكسّر نور هداية القرآن بين الأمواج المختلفة التي تظهر في الذهن من الآراء!

إنّ المفسّرين السابقين ومحقّقي العصر بتقليدهم من بعضهم يعتبرون هذه الآية نازلةً في مورد محدود غير معيّن وعبروا عنها، أو قاموا بتحقيق قاصر حولها: كان المسلمون الاوائل يقولون لرسول الله ﷺ: راعنا. لماذا كانوا يقولون؟ لأنّ رسول الله كان يتلو الآيات النازلة بسرعة، ولم يتمكن المسلمون من استيعابها جيّداً. لماذا نهى القرآن الكريم عن قول هذه الكلمة وأمر بقول كلمة أخرى؟ يقولون: إنّ قول هذه الكلمة شاعت على لسان المسلمين كالشعار، ولما كان معناها قبيحاً في اللغة العبرية «مثل: اسمع، لن تسمع» فاستغلّ اليهود هذه الكلمة، وكانوا يتفوّهون بها في مقام التعريض وذمّه ﷺ لهذا جاء النهي عن قول هذه الكلمة، والأمر بقول «انظُرنا» بدلا منها.

كيف تكون هذه التبريرات صحيحة مع العلم بأنّ «انظرنا» لم تكن مرادفة لـ «راعنا»! ولم يشاهد في التاريخ الاسلامي أنّ هذه الكلمة كانت شائعة بين المسلمين في الصدر الأوّل، فكيف بأنّ تكون قد أصبحت شعاراً ورمزاً! ولو كان شخص أو أشخاص تفوّهوا بهذه الكلمة، وقصد بعض اليهود الحاقدين البذيئي اللسان معناها العبري القبيح، فأية قيمة لها حتى يخاطب القرآن المسلمين بالتقريع وبوصف الايمان، وينهى عنها الى الأبد، ويأمر بكلمة لاتشابهها، ويأمر بالسمع؟ ويخوّف المُعرِض عن ذلك النهي والأمر بالعذاب الأليم ويصفه بالكفر؟! ولو كان لمثل هذا التبرير والتطبيق وردت رواية موثقة أو تاريخ واضح

لم يكن ذلك أكثر من بيان شأن النزول، ولا يمكن تحديد الآية وهداية القرآن بمثل هذا التبرير.

ومهما يكن فإنه أمر عام لجميع المؤمنين لِيُعِدُّوا أنفسهم لتلقي الخير أكثر من ذي قبل، وَيُثِدُّوا هذا الاعداد بقولهم «أَنْظُرْنَا»، ويجعلوا أنفسهم في حمى الهداية والأوامر دائماً، ليزداد قَوْرَانُ الخيرات لهم من ينابيع الشريعة اللامتناهية وتجري خيراتها وتنفذ أحكامها. ولو غَضُّوا النظر عن رحمة الله وخيره، واهتمُّوا بمراعاة حال أنفسهم، فَإِنَّ كيد المشركين والكافرين من أهل الكتاب. وإيحاء اتهم السيئة لهم بالمرصاد:

﴿مَا يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَلَا الْمُشْرِكِينَ...﴾ إِنَّ آفة الهيكل الاسلامي الحي القائم بروح الإيمان بالتوحيد، والذي نال الصيانة بين الأحكام والشريعة المتينة، المشركون والكافرون من أهل الكتاب.

كلما كان الموجود أكثر حيوية وأكثر قوة في جذبه ودفعه كانت آفته أكثر. وأثر الآفة هو أَنْ نَحْمَد الحركة الحيوية للكائن الحي، وتسلب استقلاله، وتذويه في نفسها، وكان هذا رأي كفار أهل الكتاب والمشركين بالنسبة للمجتمع الإسلامي ولازالو كذلك. ولو بادر المسلمون إلى رعاية مصالحهم وأهوائهم وشهواتهم الخاصة بهم، ولم يحددوا أنفسهم في أطار القرآن والأحكام والقوانين الصادرة عنه، يحاول الكفرة الذين يرون الحد الإسلامي وسدّه واستقلاله مانعاً من أهوائهم وظلمهم أَنْ يَضَعُوا قواعد استقلال المسلمين الإيماني، وأن يجدوا لهم منفذاً في الحدود الإلهية، وأن يسدوا باب كل خير بوجه المسلمين:

﴿أَنْ يُنْزَلَ عَلَيْكُمْ مِنْ خَيْرٍ مِنْ رَبِّكُمْ...﴾: جاءت «مِنْ خَيْرٍ» للشمول والتعميم، ﴿مِنْ رَبِّكُمْ﴾: تخبر بمصدر الربوبية والتربية وتفضيل الخير: كل خير يطهر العقول من الشرك، والنفوس من رذائل الجاهلية، ثم يتقدم مع سنن الفطرة ونظام الحق نحو الصلاح والكمال، ويحافظ على الحقوق في إطار التقوى بالدين والقوانين المتقنة، ويفتح أبواب الخير المادي والمعنوي بوجه الجميع، ويسد أبواب الشهوات الجهنمية والظلم.

وهذه لاتتلاءم مع أمزجة الكفر والكافرين. ولذا فإن نيران حقدهم وحسدهم تشتعل ويجهّزون كل نوع من دعايات السوء وآلات الخداع وقواهم الشيطانية، ليلوثوا توحيد المسلمين بأوهام شركهم، ويلوثوا عقائدهم الطاهرة تحت نقاب حبّ الخير، وينخرفوا بهم، وليشّلوا الأحكام الإلهية من التنفيذ.

وكلّما ابتعد المسلمون عن مبادئ الاسلام الأولى، يُشاهد تنبؤ القرآن هذا أكثر فاكتر، كما أننا نشاهد اليوم - بدون ستار - أنّ المشركين الماديّين في هذا العصر الذين هم صورة أخرى من عبدة الأصنام الجاهليّين، وأولئك الثلّة من اليهود والمسيحيّين الذين اتّخذوا دين الأنبياء آلة لتقدّمهم وسلطتهم السياسيّة والاقتصاديّة على الشعوب، كيف استخدموا قواهم الفكريّة ودسائس دعايا تهم من أجل انحراف المسلمين عن عقائدهم الفطريّة والمنطقيّة الاسلاميّة، ولم يتوقفوا من أي نوع من السعي والاقتراء<sup>(١)</sup>.

(١) كان المسيحيّون يوم طلوع الاسلام قد جعلوا دين المسيح وسيلة لاستعباد الجهاهير، وجعلته حكومة الروم القويّة وسيلة لاستعمار الشعوب، واتّخذ اليهود دين موسى وسيلة لافضليّة اسرائيل والقوميّة الاسرائيليّة، ولهذا قاموا بالعداء مع الدعوة الاسلاميّة التي هي دعوة للاستسلام إلى رب جميع الناس (لا إله الا الله)، ولا الإله الذي يكون المسيح ابنه الوحيد، ولا الإله الذي يدافع عن الظالمين) واليوم أيضا هذا هو سرّ عداوتهم مع أصول الاسلام وفروعه المتّقنة الفطرية، مع العلم بأن هؤلاء يشاهدون بأمّ أعينهم أنّ جماعات من الناس في البلدان التي كانت لقرون طويلة ترزح تحت سلطة الكنائس، يخرجون من دين المسيح، ويسخرون بأجهزة المسيحيّة، فلماذا ينسبون إلى هذا الحدّ طاقاتهم الدعائيّة المختلفة وعواطفهم السخية! الإنسانيّة والمسيحيّة إلى الآخرين؟! مع كلّ تلك المحاسبات في الاقتصاد والحساسيّة والنبات حول الذي كان سبباً لكلّ هذه الحروب، فلماذا هذه الميزانيّات الباهضة من أجل إفاد المبشرين بالتجهيزات الكاملة إلى الخارج؟ هؤلاء يريدون أن يعرفوا المسيح إلى العالم وإلى المسلمين بينماهم لم يعرفوه ولا يلتزمون بأصول دعوته وفروعها، ألم يعرف المسلمون المسيح ببيان القرآن البليغ أمّا في الإنجيل وأكثر تعقلاً؟ أي شيء أثبت من القرآن وأمتن لشخصيّة المسيح؟ ولماذا يتعاونون مع اليهود الذين أجازوا كل تهمة للمسيح، وقدموا ذلك الرجل الحقّ ونبيّ الله إلى القتل مع اللصوص وقطّاع الطرق - على حدّ تعبيرهم - ضدّ المسلمين؟ يقول الأذكىاء المطلعون على وضع الاستعمار وتعاونهم مع الأجهزة المسيحيّة: أكثر هذه الأجهزة هي عملاء للاستعمار من حيث يعلمون أولا يعلمون، إنهم يسلكون الطريق تحت نقاب ممثلي المسيح المسالم ومنجي البشريّة، بين الشعوب ليتعرّفوا على ثراوتهم الطبيعيّة وأحوالهم النفسية، ليشرفوا على الأطفال اليتامى الذين فقدوا أولياءهم والمساكين ذوي الأمانى الذين لا ملجأ لهم، فيتخذوا منهم آلات لأعمالهم ولدولهم باسم الرسالة الإلهيّة والعواطف الانسانيّة. مع ان دراسة السنوات

ولو أن أهل الإيمان أنفسهم لم يرجعوا عن طلب الخير ومجرى رحمة الله، لا يتمكن عداء الكفرة من إبعادهم عن شمول رحمة الله الخاصة والتي هي مصدر كل خير: ﴿وَاللَّهُ يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِ مَنْ يَشَاءُ....﴾: هذه الرحمة الخاصة من مصدر الفضل العام التي تشمل كل نفس مستعدة:

﴿والله ذو الفضل العظيم﴾ وهذا الفضل العام موجد قانون الحياة العام ومنظمه، يتجلى في نفوس طاهرة فيكون مصدر الرحمة الخاصة والشرعية، وينسخ شريعة ويأت بأكمل وأفضل منها بمكانها:

﴿مَا تَنَسَخَ مِنْ آيَةٍ أَوْ نَسِيَهَا تَأْتِ بِخَيْرٍ مِنْهَا أَوْ مِثْلَهَا...﴾: النسخ في الاصطلاح أخذ صورة عن موضعها الأول ووضعها في موضع مناسب آخر، أو إحلال صورة أخرى محلها. ولذا يقال لتغيير مكان الأرواح تناسخاً، ولتصوير الكتابة استنساخاً.

إن تعبير «من آية» يدل على الشمول والعموم، لأننا عندما نرفع «ننسخها» كل آية صغيرة أو كبيرة، تكوينية أو تشريعية من كتاب الوجود والقانوني أو الأفكار والخواطر، نأت بأفضل منها: «تأت بخير منها» فالناسخ يجب أن يكون خيراً من المنسوخ من كل

الماضية قد أثبتت، وقد ثبت في التقارير المرفوعة أنهم لم يتمكنوا بكل تلك الجهود والمصارف والادعية والانشيد والاشراف على المرضى والأمور الأخرى من قلب المسلمين إلى مسيحيين سوى عدد قليل من المغفلين في جميع البلدان الإسلامية، فيبتونهم ويحرضونهم على غسل التعميد. إذا فلماذا هذا السعي المتزايد يومياً؟ ويتضح من بعض الاعترافات ونتيجة أعمالهم المشهودة، أنهم لا يأملون بأن يكون المسلمون مسيحيين، وغايتهم الوحيدة هي إنهاء سدود مقاومة العقائد الإسلامية، كما أن هذه الدول الاستعمارية تحاول تحطيم السدود الاخلاقية لدى المسلمين بإشاعة الفحشاء [والخلاعة]، وليفتحوا طريق الخيانة والجاسوسية، وقد نجحوا الى حد ما في الطريق الذي سلكوه لهذه الغاية. ولما كان القرآن قد مدح المؤمنين من أهل الكتاب لاسيما المسيحيين، ولو لم تكن هذه القرائن والشواهد المحسوسة، لكننا راغبين في أن ننظر الى الأجهزة المسيحية متفائلين، ونقف معهم صفاً واحداً بوجه اللادينية والفوضوية ونشوب نيران الحروب، ولكن، هل أن الوضع العام وتشكيلات اليهود والنصارى يوجد فيها أقل دليل على أنهم يرفعون خطوة في سبيل الله وخير الانسان وصلاحه؟!

إن كتاب «التبشير والاستعمار» تأليف الدكتور محمد الخالدي والدكتور عمر فروخ، اثنان من المحققين المعاصرين البيروتيين اجتهدا لعشر سنوات في جمع المعلومات والوثائق، واستندا الى أكثر من مائة كتاب أجنبي واعترافات الأجهزة التبشيرية، يثبت هذا الكتاب بوضوح تعاون المبشرين المسيحيين مع الدول الاستعمارية ووحدة أهدافهم.

الجهات أو يكون خيراً منه من جهة ومن جهة مثله: «أَوْ مِثْلَهَا»، إذا كان الناسخ والمنسوخ متشابهان من لحاظ الظاهر والنظرة السطحية، وفي الواقع يجب أن يكون الناسخ أكمل وأفضل من المنسوخ، أو كانا متشابهين من لحاظ الواقع والمصلحة، ومن لحاظ الظاهر يكون الناسخ أفضل وأكثر تناسباً. وكل ما كان يجب أن لا يكون الناسخ والمنسوخ متشابهين من جميع اللحاظ. وإلا فالنسخ بدون داعٍ وسبب لا يتوافق والحكمة.

﴿ أَلَمْ تَعْلَمْ بِأَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾: هذه القدرة المشهودة التي أخذت جميع الموجود تحت قبضة تديرها، وتتصرف دائماً في عناصر السماوات والأرض وموادها:

﴿ أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ﴾: إن تلك القدرة النافذة وهذا التصرف الملكي المشهودين لأهل الرأي يُعدُّ مظاهر العالم والأنواع لأدوار الآيات، وبعد نسخ كل آية، تبدو آية أخرى من مبدأ الفيض والفضل العظيم: «وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ» (الآية السابقة)، وتظهر بشكل قانون تكامل في جميع أنحاء الوجود، وتنتهي بواسطة ولاية الله وتديره الخاص الى ظاهرة الانسان المتكامل، ليجعله أكثر تكاملاً، ويساعده بالتكامل بوجه عوامل التضاد:

﴿ وَمَالِكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ وَلِيِّ وَلَا تَصِيرُ ﴾: يتقدم ذلك الفضل والقدرة والتدبير غير المحدود بجوهر العالم بصورة مستمرة. إن هذا التقدم والتكامل الجوهرى. في صفحة المادة، كالسبورة، يرسم نقوشاً ويمحو حتى يبدع النقش الأفضل الذي هو أثر التكامل الجوهرى، وهذه هي صفات الملك والقدرة الإلهية التي تظهر في مظاهر تغيير العادات والتقاليد البشرية ونسخ بعض الشرائع السماوية. إذاً فالتوقف في التكامل والحركة الجوهرية وتحديد تغيير آيات الوجود والشرعية الصوري، توقف وتحديد في الصفات والذات، تَعَالَى اللَّهُ عَنْ ذَلِكَ عُلُوًّا كَبِيرًا.

إن آية النسخ هذه - بشمول «مِنْ آيَةٍ» وقربة ذكر الصفات التي تبين قدرة الله وملكيته العامة - تعلن حكم النسخ في جميع آيات الوجود وآيات التشريع والنبوة أيضاً. بالنظر الى هذا الموضوع فإن هذه الآية: «مَا نَنْسَخْ مِنْ آيَةٍ...» هي قضية كلية وشرطية

(بناءً على أنَّ «ما» لا تكون نافية) وإنَّ آيات الوجود بمظاهرها المختلفة، وآيات الشرايع والنبوة، والآيات القرآنية كلّها صغرى ومصاديق لها التي تظهر بصورة قياس الشكل المنطقي الأوّل. وإنَّ العلم الفطريّ والشهوديّ بالقدرة والتصرف «أَلَمْ تَعْلَمْ...» هو مادّة البرهان والصغرى الحملية والكبرى الشرطية: «هذه آية من الآيات. كل آية تُنسخُ تأتي آية أفضل منها أو مثلها من إحدى الجهات بمكانها. إذاً عندما تُنسخُ آيةٌ تأتي بمكانها أفضل منها أو مثلها من إحدى الجهات».

أخذ أكثر المفسّرين هذه الآية «مَا تُنسخُ...» بصورة قضية حملية محقّقة الوقوع ومحدودة بالآيات القرآنية، ولهذا اقتصروا الموضوع على نسخ الآيات القرآنية، ثم توصّلوا بالبحث إلى أقسام نسخ الآيات القرآنية: نسخ تلاوة آية بآية أخرى. نسخ الحكم والتلاوة. نسخ الحكم وبقاء التلاوة. مع العلم لامثال ولا مورد في القرآن إلّا لنسخ الحكم، وكلّ ما نقل لا أساس له، ولا يتلاءم مع شأن القرآن. والنسخ الكلّي للحكم من كل جهة ورتبة أيضاً لا دليل ولا مورد له في القرآن. والأمثلة التي جاءوا بها لنسخ الحكم لا تدلّ إلا على النسخ الزماني والرتبيّ. والنسخ بهذا المعنى مع الأخذ بنظر الاعتبار الخصوصيّات والظروف والحيثيّات يفتح ابواب الإجتهد والاستنباط بوجه أصحاب الرأي، ويطابق شمول آية النسخ وأبدية القرآن الكريم.

وأخذوا آيات القبلة كأحد موارد النسخ، مع العلم بأنّ آيات تغيير القبلة ليس لها حكم المنسوخ القرآنيّ، وكان الأمر بالقبلة الأولى حسب سنة رسول الله. والمورد الآخر هو الأمر بالعفو والصفح وعدم الوقوف بوجه الكفّار (العفو والصفح - في الآية التالية) باعتبار ظروف الزمان ووضع المسلمين، ونسخت بآيات القتال والجهاد بتغيير الظروف وقوّة المسلمين وهجوم الكفّار.

مع أنّ هذين الحكمين يمكن تطبيقهما دائماً وفي كلّ محيط اسلاميّ: أو الأمر بالصبر وتقوية الحالة الايمانية والتبليغ والدعوة، أو تقوية الصفّ والجهد والثبات.

كذلك عندما تتأمل في جميع الآيات التي يحتمل فيها النسخ لا يمكن فهم النسخ منها

أكثر من النسخ بحسب الجهات والحيثيات.

وعلى كل حال ومهما كان فإن هذه الآيه لها صلة بالآية السابقة واللاحقة وهي تعني نسخ بعض احكام الشرايع الماضية وآيات النبوة، وتبين أن جمود أهل الكتاب لاسيما اليهود وتعصّبهم على بقاء آياتهم وأحكام شريعتهم ليس بصحيح، لأن قدرة الله غير محصورة وتصرفه غير محدود، اذاً كلّ آية وكلّ حكم شرعي يرتفع يأتي بأفضل وابلغ منه بمكانه.

وهذا من ناحية جمود كفرة أهل الكتاب وانانيتهم، الذين يتصورون النظام الالهي المتكامل جامداً، وهذا من تعصّب اليهود العنصريّ بحيث حصروا أنبياء الله وآياته بين قومهم وقبيلتهم، ولا يقبلون ديناً مهما كان أفضل وبرهانه أوضح، سوى دينهم. إن هؤلاء الكفرة القاصري الفكر الذي يعتبرون أنفسهم أتباع دين الله، يقبلون تلك الأحكام والدين الذي بين قبيلتهم وحافظاً لافضليّتهم القوميّة، ولهذا السبب يعادون الاسلام، وينتقدونه، ويحاولون خداع المسلمين الجدد الذين لم يتصلّب إيمانهم بعد، ويلقون الشكوك والشبهه في قلوبهم حول أحكام الاسلام ونسخ بعض الأحكام (مثل تغيير القبلة) يحرضوهم على التساؤلات بدلاً من التعبد والتسليم إلى الحق:

﴿أَمْ تُرِيدُونَ أَنْ تَسْأَلُوا رَسُولَكُمْ كَمَا سُئِلَ مُوسَىٰ مِنْ قَبْلُ...﴾: لما كان الحرف «أم» على الأكثر عاطفاً يفصل حكم جملة بعد جملة استفهامية سابقة، وهنا يجب أن تفصل جملة الاستفهام السابقة من الآيات الماضية، كهذا المضمون: أنتم - المؤمنون بهذا الدين - بعد علمكم بانحراف اليهود، وبعد الأمر بعدم قول «انظرونا - وآسمعوا»، وبعد بيان عداء كفرة أهل الكتاب والمشرّكين معكم أنتم - المؤمنون - وعدم رغبتهم في وصول الخير اليكم، وبعد بيان سر نسخ الشرائع وعلّته، هل بعد كل هذا تسلمون لهذا الدين وأحكامه جميعاً؟ أم تريدون أن تسألوا كما سُئِلَ موسى؟

لما كان غرض الآية إنكار الطلبات التافهة من الرسول، لم يلتفت الى الطالب واسمه، وجاء فعل «سُئِلَ» للمجهول: «كَمَا سُئِلَ مُوسَى».



والخلاصة إن المؤمنين بهذا الدين يجب أن لا يكونوا كاليهود، ويجب أن لا يصبغوا الدين الاسلام الخالد العام الواسع بصبغة التعصب القومي والرغبات الشخصية، وأن لا يسألوا من نبيهم أشياء تتطابق مع الأفكار الباقية والطباع المترسبة من الجاهلية، كما كان اليهود يطلبون من موسى أحياناً النظر الى الله حتى يظهر أمام أعينهم وبين قبيلتهم، وكانوا يقولون: «أَرِنَا اللَّهَ جَهْرَةً». وكانوا يحتجون أمام أمر موسى وحكمه، مثل قصة ذبح البقرة، وكانوا تارة يطلبون منه المعاجز التي لا محل لها. إن مثل هذه الطلبيات كالتى مصدرها مطابقة دين الله مع رغباتهم النفسية هي بداية تبديل الإيمان بالكفر، وزاوية الانحراف من خط القيادة الوسط:

﴿وَمَنْ يَتَّبِدْ الْكُفْرَ بِالْإِيمَانِ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ﴾: كلما ازداد هذا الانحراف يتبعد الشخص من إشعاع نور الهداية بصورة أكثر، وضلاله يزداد، وينفتح طريق شكوك أهل الكتاب وشبهاتهم أكثر، حتى يتمكن الكافرون المتقنعون بقناع الخير من إعادتكم أنتم - المؤمنين - إلى الكفر المطلق:

﴿وَدَكْثِيرٌ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يَرُدُّونَكُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ كُفَّارًا﴾: يستفاد من كلمة «وَدَ» التى تتضمن معنى الحب والتعلق والأمنية أن أهل الكتاب كانوا يحاولون معرفة طرق إعادة المؤمنين عن الإيمان. ويستفاد من «لَوْ» التى تفيد الامتناع، والإيمان المضاف «إيمانكم» الذى يفيد ثبات الإيمان، أنه لأثر - بثبات الإيمان - لمحاولتهم من أجل إعادة المؤمنين عن الإيمان الى الكفر. ويستفاد من «كُفَّارًا» التى هي حال للضمير المتصل بالفعل، أنهم يريدون أن يعودوا عن الإيمان الى درجة بحيث يصبحوا كافرين بدون أن يلتفتوا الى قصدهم. وإذا كان القصد الإتجاه نحو الكفر فقط، كان الأنسب أن يقول [إلى الكفر].

إن هذه الآية بهذا البيان الدقيق الاعجازي، يتنبأ بأسلوب أهل الكتاب المسيحيين واليهود: وأنهم يخططون آية برامج، ويستخدمون آية دسائس، حتى يسجروكم انتم - المسلمين - وراءهم، ويضعفون قوة الاستقلال الايماني التى أدت إلى أفضليتكم. إن هذا

الودّ والتعلّق من قبلهم من أجل إعادة المسلمين لم يكن من ناحية إيمانهم بأفضليّة دينهم، ولا من أجل المحافظة على معتقداتهم، والآل كان من الواجب الاعادة الى دينهم لا الكفر، ولا من ناحية الاعتقاد بأنّ هذا الدين على غير حق، وإنّما مصدر ذلك هو الأناية ودافع الحسد الذي يغلي في نفوسهم، الحسد الذي صوروه بصورة التعلّق بالدين في خيالهم:

﴿حَسَدًا مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِهِمْ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْحَقُّ...﴾: «حَسَدًا»: مفعول لأجله للفعل وَدَّ. «مِنْ عِنْدِ»: ظرف، ويعرض مصدر هذا الحسد، والذي هو ظرفهم النفسي. «مِنْ بَعْدِ»: ظرف «وَدَّ» أو «يُرَدُّوا». إنّ هذا التعلّق والمحاولة لإعادتك لم تكن من ناحية الخطأ في تمييز الحق، لأنّ الحقّ واضح لهم من كل جانب.

وعلى اهل الحق المحاصرين من قبل هؤلاء الحاسدين من هداة الفتنة أن لا يقوموا بمعارضتهم، وينشغلوا برّد سهام شبهاتهم وافتراءاتهم، لأنّ قوى اهل الحق المعنوية والاجتماعية لازالت غير مستعدة، فالمعارضة معهم تزيد في شراستهم وتسلّطهم، وأيضاً تصرف اهل الحق عن تحكيم قواهم، ويجب أن لا يفقدوا شخصيّتهم أمامهم، ويفكروا بقوتهم وخططهم الخفيّة، ويجب أن يفضّوا النظر عن آثار عداوتهم النفسيّة والاجتماعية، وأنّ يعرضوا عنهم:

﴿فَاعْفُوا وَاصْفَحُوا﴾: لمّا كان معنى «العفو» اللغوي مطلق الملّ ومحو الأثر، والعفو عن الذنب والإساءة إزالة آثار ذلك من الفكر. «الصفح»: الإعراض وعدم الالتفات. والعفو والصفح يليق بالأشخاص الكبار ذوي القدرة الذين يتمكنون من تلافي الأثر السيئ أو عدم التأثير به. والرجال المؤيّدون بالإيمان لما كانوا ذوي قدرة معنوية في كل حال يليق بهم أن يؤمروا بالعفو، وذلك عندما كانوا يُعَدُّون بالأصابع، والأعداء كثيرين، وذلك الأمر بالعفو العام لا عن الجماعة القريبين الذين يرونهم رأي العين، لأنّ جميع الناس - سوى رجال الحقّ والإيمان - المحكومين للأهواء والمقيدين بالبند النفسية والشرك لا يحقّ لهم العفو عن الآخرين.

وحقّ العفو العام هو للذين تخلّصوا من القيود ويحكمون أنفسهم والمقيدين. ولم يكن

هذا العفو والصفح حكم أهل الإيمان الدائم، هو إلى أن يصحو المعفو عنهم، ويكفوا عن الكيد للمسلمين واداهم، ويُعدّ المسلمون أنفسهم لتأييد الله وإمداده:

﴿حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ...﴾: يأتي الله بتأييده المطابق للسنن وأمره، لا أنه يأمر ويحكم فقط، لأنه إذا كان هذا قصد الآية يجب أن يُعبّر بـ «يأمركم». إذاً فالأمر هنا أمر يأتي مع إمداد الله وعلى أثر اللياقة والجدارة.

يعتبر المفسّرون نفس آية الأمر بالعفو هذه أحد موارد نسخ حكم القرآن الواضح. يقولون: إن آيات الجهاد رفعت حكم العفو هذا. ولكنّ - كما قيل وكما هو مشهود - صريح آية العفو هذه هو الحكم المؤقت المشروط بعصر ضعف المسلمين المعنوي والظاهري. وفي النهاية تريد الآية بالإحالة إلى قدرة الله غير المحدودة - أن تطمئن قلوب المسلمين المضطربة:

﴿إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾: تلك القدرة التي تمنح القوة لكلّ موجود مستعدّ ذي حق - وإن كان ضعيفاً في الظاهر - ويحطّم كل قوّة لا تستند إلى الحقّ وأصل الحياة، تمنح القوة والأفضلية إلى قلة من الناس المستندين إلى الحق والإيمان، ويشتت الكثرة من الناس الفاقدين للحياة المعنوية، لربّما تظهر عناصرهم المشتتة المستعدة بصورة مفيدة أفضل وذلك بالجاذبية الحيويّة.

﴿وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَمَا تُقَدِّمُوا لِأَنفُسِكُمْ مِنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِنْدَ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ١١١﴾ وَقَالُوا لَنْ يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلَّا مَنْ كَانَ هُودًا أَوْ نَصَارَى تِلْكَ أَمَانِيُّهُمْ قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ١١٢﴾ بَلَى مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَلَهُ أَجْرُهُ عِنْدَ رَبِّهِ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ١١٣﴾ وَقَالَتِ الْيَهُودُ لَيْسَتْ النَّصَارَى عَلَى شَيْءٍ وَقَالَتِ النَّصَارَى لَيْسَتْ الْيَهُودُ عَلَى شَيْءٍ وَهُمْ يَتْلُونَ الْكِتَابَ كَذَلِكَ قَالَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ مِثْلَ قَوْلِهِمْ قَالَ اللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ١١٤﴾ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ مَنَعَ مَسَاجِدَ اللَّهِ أَنْ يُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ وَسَعَى فِي

خَزَابَهَا أَوْلَئِكَ مَا كَانَ لَهُمْ أَنْ يَدْخُلُوهَا إِلَّا خَائِفِينَ لَهُمْ فِي الدُّنْيَا خِزْيٌ وَلَهُمْ فِي  
الْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١١٥﴾

### معاني المفردات:

الزكاة: المال المنتخب، الطهارة، المال المنتخب الطاهر الذي يُعطى لتطهير الأموال. من  
التزكية: التطهير، الإنماء، الإصلاح.

الخير: مقابل الشر، المنتخب، الكامل، المال.

تجد: مصدره وجد «بفتح الواو وضمة» والوجود والوجدان: الاستسلام، التكون،  
الاستيلاء على شيء بعد فقدانه. الجنة، هود، نصارى، أمانى (يرجع إلى الآيات السابقة).

البرهان: الدليل، الدليل الواضح الإيجابي.

بلى: الجواب الإيجابي للاستفهام الصريح أو المقدّر والانكارى.

أسلم: أعاد شيئاً إلى آخر. وهب، أعطاه بيده إتجه باخلاص.

الوجه: أول عضو واضح يواجهه، وجه كل شيء، كل ما يُتجه نحوه، صاحب الشرف.

القيامة: مصدر مجرّد كالعبادة: القيام، نوع من القيام، يوم حشر الناس.

ثم، بفتح الثاء: ظرف مكان، إسم إشارة للبعيد.

﴿وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ...﴾: إنّ هذا هو الحكم الثالث والآخر بعد أوّل

خطاب لأهل الايمان، والحكم الأوّل: ﴿لَا تَقُولُوا رَاعِنَا وَقُولُوا انظُرْنَا﴾ ، والثاني:

﴿فَاعْفُوا وَاصْفَحُوا﴾ وكل منهما مركبٌ من حكّمين يعود إلى كيفية الصلة بالآخرين: الأوّل:

حول واجب أهل الايمان بالنسبة الى الهادي والشارع. الثاني: حول واجبهم بالنسبة

للمخالفين في حال الضعف. الثالث: واجبهم بالنسبة لأنفسهم وفيما بينهم فالواجب الأوّل

من أجل بناء الاشخاص المؤمنين الطاهرين الراشدين، وهذا البناء يجب أن يتمّ تحت

إشراف الرسول. والواجب الثاني الذي يجب أن يتمّ في المرحلة الثانية، وهي عندما

تتحرّك وحدات الإيمان الأولى في حال رشدّها وتواجه الموانع والعقبات. وفي هذه

الحال واجبهـم أن يغضوا النظر عن معارضة دسائس الأعداء، ويسعوا في تقوية قدرتهم المعنوية والاجتماعية. وإقامة الصلاة تكون عندما تترايط هذه الوحدات. وقيام الصلاة هو قيام الروح الإيمانية والقوى المعنوية والجوارح من أجل توثيق الصلة، الصلة بالحق والاستعداد من أجل القيام بالواجبات التي تكون للقائم بالحق. الصلاة مرآة كل الواجبات التي يجب أن تؤدى بصورة مختلفة في الحال أو المستقبل، وهذه التمارين المتلاحقة التي تؤثـق روح الصلاة والإطاعة وتجعلها نشطة، وتسود الدوافع المخالفة، وتثار في سبيل الجهاد بموانع الهمم. هي في المحيط الواضح وصف لموجز هذه الصلة بالله بحيث تزول الفواصل، وتتألف القلوب، و تزول أفكار الأنانية التي هي سبب التشـتت. (تراجع الآية الثانية في معنى إقامة الصلاة).

الزكاة: تقيم الرابطة الاجتماعية والاقتصادية في نور الإيمان وتوثقها، وتوقظ حسـ الخير والرحمة وتجعله فياضاً، وتعد المؤمنين للجهاد والصفح عن الدنيا وقطع العلاقات، في طريق تقدّم الحق وأداء الحكم.

إن صفت الصلاة بقيامها وركوعها وسجودها وذكرها وتكبيرها وتسبيحها التي يجب أن تؤدى في فصول الليل والنهار وخلال السعي والعمل الدنيوي. والزكاة التي هي بذل المال من مبدإ الإيمان وقصد القرية، هي مقدمة الاستعداد لأداء واجب جهادي ثقيل الذي يجده المجتمع الموحد أمامه وبهذا الاستعداد يتمكن من انتظار امر الله، وأن يكون مشمولاً لقدرة الله اللامتناهية، التي أعلن عنها في نهاية الآية السابقة.

إن مثل هذا المجتمع مهما كان صغيراً وضعيفاً في نظر قاصري النظر؟ وتريد الأفكار الشيطانية الإخلال به، والألسن البذيئة تهزأ بأمله في المستقبل، كما كانت سيرة أهل الكتاب والمشركين وأقوالهم هكذا مع المسلمين الأوائل، لازال هذا المجتمع حياً فهو كالبذرة الصغيرة الحية، سوف تشملها القدرة، وتكون لها ميزة الجذب والدفع والنمو والإنتاج، وستعظم في نفسها كالعناصر المشتتة. والبذور الخيرة التي تنثر من قبل مثل هؤلاء الأشخاص، وإن كانت تختفي في الهواء وتحت التربة عن نظرهم ونظر الآخرين،

تظهر بالتالي وتبدي آثارها:

﴿وَمَا تَقْدُمُوا لِنَفْسِكُمْ مِنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِنْدَ اللَّهِ...﴾: إن هذه الآية أخبرت عن بقاء وظهور واستلام عمل الخير بدلاً من الأمر به، وبهذا الخير ضمنت استلام كل خير: «من خير» وإن كان ضئيلاً في النظر «وذلك نفس الخير لامكافأته»، لأن أكثر الكف عن عمل الخير يكون بسبب القلق من ضياعه وزواله.

﴿إِنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾: إذا كان ذلك الخير يخفى عن كل عين فإنه لا يخفى عن عين الله.

﴿وَقَالُوا لَنْ يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلَّا مَنْ كَانَ هُوداً أَوْ نَصَارَى﴾: منذ الآيات التي بدأت بأول خطاب إلى بني إسرائيل حتى أول خطاب إلى المؤمنين، ثم بين أفكار أهل الكتاب السيئة والذين هم اليهود والنصارى والمشركين بالعنوان العام، وأشار إلى الخطط التي سيخططونها بضرر المسلمين. وكذلك بين في هذه الآيات التصورات المشتركة لليهود والنصارى، وكذلك أنانية كل منهما بصورة منفصلة. إن وضع ترتيب الآيات يطابق وضع المسلمين مع اليهود والنصارى والمشركين. لأن الإسلام في بداية ثباته وتركزه في يثرب (وكان بعد ذلك حيث سميت يثرب بالمدينة: مدينة الرسول، أو مدينة الاسلام) واجه مقاومة اليهود ونقضهم، الذين كانوا أول جماعة من أهل الكتاب وأتباع الدين الإلهي في الظاهر. وبعد اقتدار الاسلام واتساعه، تناسق المشركون أيضاً مع اليهود في مخالفة الإسلام. ثم التحق بهم جماعة من المسيحيين في جزيرة العرب وخارجها ووقفوا صفاً واحداً مع اليهود والمشركين بوجه دعوة الاسلام. وفي مقابل صفوف هذه الجماعات، أصدرت الآية السابقة إلى المسلمين حكم العفو والصفح وإقامة الصلاة وإيتاء الزكاة والقيام بكل عمل خير. وفي هذه الآية تبيين أفكارها تبين الجماعتين من أهل الكتاب الوهمية عن لسانهم واقوالهم. لأن هذه الأفكار لا تستمد من الحق ولا تركز على الواقع. وبكل ما نظّموه من صفوف، لا يتمكنون من منع تقدم الحق المرتكز على السنن الإلهية. ودينهم المصطنع أماني لا تنطبق مع الواقع:

﴿تِلْكَ أَمَانِيُّهُمْ...﴾: لم تكن هذه سوى أمانِي مصطنعة، والتي يظنون على أثرها أنَّ السعادة والفوز النهائي - الذي تبحث عنه الفطرة الانسانية وبَشَّرَ به الأنبياء - مقتصر عليهم ومجىء الأمانِي بصيغة الجمع يشير إلى جميع أمنيائهم التي جُمِعَت في كلمة «أمانِي»، لأنَّ مصدر مثل هذه الأمانِي هي الدوافع النفسية الفردية والقومية، ولا تصحَّ مع واقع الدين الإلهي الذي يقوده الدليل الفطري الواضح «الْبُرْهَانُ»:

﴿قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ..﴾: طلب البرهان من أشخاص يعتقدون بأنهم صادقون وإن كانوا خاطئين بادّعائهم، لامن أشخاص يريدون أن يخدعوا أنفسهم والآخرين:

﴿إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾: إنَّ تلك الحقيقة الكلية العامة الصادقة في كلِّ مورد، والتي يشتها البرهان الفطري المشهود هي:

﴿بَلَىٰ مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَلَهُ أَجْرُهُ عِنْدَ رَبِّهِ...﴾: الوجه هو الذي يُبدي الآثار والانفعالات المنبعثة عن النفس. من هذا الوجه عندما ينعطف الوجه الباطن إلى كلِّ جهة يوجّه نحوها الوجه الظاهر. وعندئذٍ يتحرّر الوجه الباطن من ألوية الأهواء وإلتجاء إليها، فيستسلم لإرادة الله ويتوجّه إليه، وإنما يتوجّه ففي سبيل الله ومن أجل رضاه، إلى حيث تأخذ الانفعالات النفسية - كالحب والغضب، والودّ والعداء، والراحة والابتلاء، التي تظهر آثارها في الوجه - أثرها من مبدأ الحق، لامن التأثير والتأثر النفسي. ولمّا عادت وجهة النفس نحو الله تكون فكرة الإنسان مصدر الإحسان بواسطة الجوارح والأعضاء ((فعل الصلاح أو الإصلاح)). تفيد الجملة الإسمية «وَهُوَ مُحْسِنٌ» الثبات والاستقامة في إحسان والذي هو أثر إسلام الوجه المباشر وهذا هو الانقلاب النفسي.

وهذه الآية أوّل آية تعنون حقيقة الاسلام العامة بعد بيان أمانِي أهل الكتاب المحدودة، وكأنّما الضمائر المفردة المتصلة «فَلَهُ أَجْرُهُ عِنْدَ رَبِّهِ» تعني مكافأة المسلم والمحسن بحسب الاسلام والاحسان ومقدارهما وكيفيّتهما، ولكنّ زوال الخوف والحزن يعني الشمول: ﴿وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾: تنفي النكرة المنفيّة «لَا خَوْفٌ» الخوف المطلق أو الخوف بالنسبة إلى الاسلام والإحسان. وكلمة «عَلَيْهِمْ» تدل على

الأفضليّة والشمول: أيّ نوع من الخوف، أو لا يشملهم أيّ قلق حول مكافأة الإسلام والإحسان، ولا تنسّد نافذة الإطمئنان نهائياً عليهم. ويفيد تكرار ضمير الجمع «هم» وتقديمه على الفعل التأكيد والإختصاص، ويفيد فعل «يَحْزَنُونَ» الإستمرار.

إنّ آثار الإسلام والإحسان الباعثة على الأمل، والهدوء الناتج منهما، والتخلّص من دوافع الحزن والخوف الدائم كل ذلك فتح نوافذ الجنة بوجه المحسن المسلم ويثبت هذه الحقيقة، وينفي إدّعاء أهل الكتاب الذي لا دليل له. نفس هؤلاء أهل الكتاب (المنتسبون للكتاب أو قراؤه) الذين يتصوّرون الفردوس الأعلى خاصّاً لهم، يعتبر بعضهم دين البعض الآخر وعقائدهم بلا أساس، وكلّ جماعة تعتبر الجماعة الأخرى على غير حق:

﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ لَيْسَتِ النَّصَارَى عَلَى شَيْءٍ وَقَالَتِ النَّصَارَى لَيْسَتِ الْيَهُودُ عَلَى شَيْءٍ﴾: مع العلم بأنهم من أهل الكتاب ويتلون الكتاب:

﴿وَهُمْ يَتْلُونَ الْكِتَابَ...﴾: إنّ هذه الجملة حال لفاعل «قَالَتْ»، أو فاعل «قَالُوا» و«قَالَتْ» في الآية السابقة وهذه الآية: فهم هكذا قالوا بينما يقرأون الكتاب! فإذا كانت تلاوة الكتاب نفسها أو التعرّف على علوم العصر يؤدّي إلى الهداية، فلماذا يختلفون فيما بينهم بهذه الصورة، وتعتبر كل جماعة الجماعة الأخرى أنّها ليست على شيء؟! ولماذا يواجهون تلك الأمنيات التي لا أساس لها وتلك الأفكار التي لا برهان لها ومثل هذا الاختلاف؟ وهم الذي لم يجدوا الطريق فأبى أمل للآخرين بقيادتهم؟

يتّضح أنّ ذلك اليوم مثل هذا اليوم أيضاً أنّ بعض الناس الذين لم يدرسوا شيئاً كانوا يعوّلون على رأي أهل الكتاب «علماء اليهود والنصارى» أو الدارسين، من أجل قبول الدعوة الإسلامية، مع العلم بأنّ هؤلاء ضالّون أيضاً في ضلالهم هذا وأفكارهم الجوفاء كالجماهير العوام. ﴿كَذَلِكَ قَالَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ مِثْلَ قَوْلِهِمْ...﴾: لأنّ علمهم المحدود الباعث على الغرور كالسراج ذي النور الخافت في الصحراء المظلمة الذي إنّ أثار جانباً يحجب نور الكواكب المشعّة. وهؤلاء بتلاوتهم الكتاب ومعرفة ظواهره واحكامه الفرعية ظلّوا محجوبين من النظر والعلم بأهداف الكتاب وأصوله. وهذه الاختلافات الناتجة من



الأفكار ذات الغرور قدمدت جذورها في قلوب هذه الجماعة العلماء العوام بحيث لا يؤثر فيها الحق والبرهان.

وذلك اليوم الذي يطلع فيه الحق من خلف ستار الأوهام، وتتللم أذيال الباطل السوداء، ويقوم الناس بالحق، في ذلك اليوم تتضح حدود الحق والباطل كلها، ويحكم الله بين الحق والباطل حكماً نهائياً:

﴿قَالَ اللَّهُ يَحْكُمُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾: هذه الاختلافات هي التي تحجب دين الله عن الأنظار، والمساجد والمعابد التي شُيّدت باسم الله ولذكر الله، جعلتها هذه الأنانيات والنظرات القاصرة على شكل قواعد للجماعات والتكتلات، بحيث تسعى كل جماعة لهدم مساجد الجماعة الأخرى، ليفضلوا شعائرهم، ويعلموا أسماءهم وعناوينهم.

وهذه المحاولة لهدم المساجد، وصبغها بالصبغة القومية والجماعية وبشعارها، وإطفاء ذكر الله فيها من أعظم أنواع الظلم.

﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ مَنَعَ مَسَاجِدَ اللَّهِ أَنْ يُذَكَرَ فِيهَا أَسْمُهُ وَاسْمُهُ فِي خَرَابِهَا؟﴾  
هل الموضوع غير هذا؟ وهو أن تكون الغرائز والقوى الحيوانية في الإنسان مصدر لكل ظلم واعتداء؟ والمحيط الوحيد الذي يحدد هذه الغرائز، ويوقظ الوجدان الباحث عن الحق والعدل، ويجعله نشيطاً هو ذلك المحيط الذي قام باسم الله والحق والعدل، وسُمي باسم المسجد الذي هو موضع السجود لله، وإخضاع الجموع. وإذا وجدت الأنانية وحبّ الامتياز والصور والأفكار الناتجة عنها طريقها إلى حرم المساجد تهدم صورة المسجد الإلهية ومعناه، وتبعد ظاهره عن الجمال. وعندما تهدم المساجد لا يبقى سدّ ولا حدّ لجموح الغرائز ويُفسح المجال أمام كل ظلم. فالذين، يمنعون الآخرين من المساجد ويخصّونها بأنفسهم، ويطفئون نور الفطرة الإلهية، ويرفعون ذكر غير الله، هم أظلم من كل ظالم.

يرى بعض المفسرين أن هذه الآية نزلت في حدوث موضوع «الحديبية» ومنع

المشركين العرب رسول الله واصحابه من الدخول إلى مكة. وإن كانت بداية الآية تنطبق مع هذه القصة، ولكن آخرها: ﴿وَسَعَى فِي خَرَابِهَا﴾ لا يتلاءم مع سبب النزول هذا، لأنَّ المشركين العرب لم يسعوا في هدم الكعبة أبداً، بل كانوا يحافظون عليها وعلى عمارتها. إلا أنَّ يكون المقصود الهدم المعنوي ومن ناحية ذكر الله فقط.

ويقول البعض: تشير إلى انهدام بيت المقدس (سبعين عاماً بعد المسيح) على يد جيش «تيطس» الرومي، الذي هدم المدينة وهيكل سليمان تماماً، وأحرق كل آثار اليهود ونسخ التوراة. ويقال إنَّ المسيحيين الذين طردهم اليهود كان لهم اليد في تحريض الروم لهدم بيت المقدس. ويقول البعض (كالطبري في تفسيره): تشير الآية إلى هجوم نبوخذ نصر البابلي وغارته الذي تعاون معه المسيحيون. مع العلم بأنَّ غارة نبوخذ نصر ومجزرته في بيت المقدس كانت قبل المسيح بثلاثين وستمئة عام (٦٣٠ ق م). وربما التبس الأمر بهجوم الروم على أورشليم الذي تكرر.

على كل حال، لا يمكن اعتبار الآية أنها تعني واقعة خاصة، وليس هنالك أية قرينة لمثل هذا التطبيق. وهي بيان حقيقة كلية عامّة وشاملة للحوادث الماضية، مثل انهدام بيت المقدس، والحال (عصر نزول الآية) مثل منع المشركين في قضية الحديبية، والمستقبل مثل تهديم المساجد من قبل الصليبيين والقرامطة، وكذلك تزييف المساجد والمعابد اليوم، والتي هي كلّها ناتجة عن اختلاف المنتسبين للاديان وتضادّهم المشؤوم، حيث اتخذوا المساجد والمعابد مَترَ ساءً لإظهار اختلافاتهم وتحقيق مصالحهم وأهوائهم<sup>(١)</sup>.

(١) إنَّ السبب المهم في تزييف المساجد والمعابد وتقاعس الناس عن الدين هو جعل دين الله ودعوة الأنبياء على شكل الأفكار التي لا أساس لها، والأمنيات التي لا برهان عليها، والنفي والإنبات والتضاد، فاليهود والنصارى وقفوا في البداية كلّ بوجه الآخر، واعتبروا دين الطرف الآخر ومعابدهم بلا أساس وعلى غير الحق، ثم صاروا صفّاً واحداً أمام الدين ودعوته.

وأصبحت النتيجة أنَّ أكثر الناس هربوا عن الدين ولم يؤمنوا بأيّ دين، إلى حيث كانوا صفّاً مرصواً ضد جميع الأديان. على أثر تقدّم العلم، وارتفاع مستوى العقول عن المواضيع المحدودة والمصطنعة من قبل مؤيدي الأديان ومناقضاتهم وما يفرضونه. فلماذا لم يفكر أهل الكتاب فيما اذا ضعفت قاعدة الدعوة الإسلامية والقرآن في الأفكار، لم تبق حجة لموسى وعيسى والكتب المنسوبة إليهما، بل لم يبق تاريخ واضح عنهما. والآن يهدّد إلحاد الأديان لاسيما المسيحية إلى درجة بحيث أقدم البابا في هذه الأيام

وينبغي لمنزلة المساجد وحماية مؤسسيها ومؤيديها أن يدخلوا المساجد خائفين من خشية الله والمسؤولية بالنسبة للمساجد، ليحرضوا الآخرين على الخشوع: ﴿أُولَئِكَ مَا كَانَ لَهُمْ أَنْ يَدْخُلُوهَا إِلَّا خَائِفِينَ﴾: لأنهم يتناولون على الله والناس، ويجعلون المساجد قاعدة لفرض آرائهم، ومترسباً لحرب عقائدهم وآرائهم الخاصة، أو يخرجون المساجد من صورتها الأصلية، ويخونونها، ولما لم يؤدوا واجب حراستها أصبحوا - في الحقيقة - أجانب عنها ومطرودين منها، وعليهم أن لا يدخلوها إلا في حال الخوف والقلق. أو أنهم لما وجدوا للناس مانعاً باطنياً في المساجد باختلافهم وسعوا في خرابها، وانحرفوا بها عن وضعها الأول، أضعفوا قاعدتهم الوحيدة، وفتحوا طريق الظفر لغيرهم، إلى درجة بحيث لا يتمكنون من الدخول إلى المساجد التي هي محل الأمن والهدوء إلا خائفين قلقين. كما أن اليهود كانوا يدخلون المسجد خائفين بعد فتح بيت المقدس على أيدي الروم والبابليين. وكذلك كان المشركون بعد فتح مكة، والمسلمون بعد انتصار المسيحيين عليهم في الأندلس، والمسيحيون بعد فتح بيت المقدس على يد المسلمين، وهكذا... فهذه الاحتمالات مناسبة وفي محلها، والاحتمال الأول أنسب مع تعبير الآية وأسلوبها.

فالجماعات الذين تقوم علاقاتهم على أساس الدين، وقاعدة قوتهم المسجد، بمجرد أن يضعف أساس قاعدتهم ومركزيتها وتنزل، تعود قوتهم إلى الضعف وعزتهم إلى الدل، ولهم أكثر من الهوان في الدنيا عذاب أعظم في المستقبل: ﴿لَهُمْ فِي الدُّنْيَا حِزْبٌ وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾.

= على عقد أعظم مؤتمر مسيحي وأهمه، ودعا جميع المذاهب المسيحية إليه. كتبت مجلة «أكسبرس» الأسبوعية حول سبب عقد هذا المؤتمر فتقول: يتزايد عدد الذين ينكمشون عن المسيحية يوماً بعد يوم، لاسيما في فرنسا. وقد بدأ هذا الانكماش منذ القرن التاسع عشر، والآن وإن كان ثمانون بالمائة منهم قد اغتسلوا غسل التعميد، ولكن أربعا وثلاثين بالمائة منهم مؤمنون ويقومون بالأعمال الدينية. والمسيحيون الملتزمون في المدن الكبار أقل من القرى والأرياف، ويذهب إلى الكنيسة اثنان بالمائة في المناطق العمالية في شمال فرنسا والضواحي واحد بالمائة فقط!!

فالذين يمنعون المساجد واسم الله عن غيرهم، ويقتصرون بها على أنفسهم، يشبهون أناساً يقضون أيامهم في أعماق الوادي، ولم يخطوا خطوة واحدة عنه، ولما كانوا يرون أشعة الشمس دائماً على جدرانهم ومحالهم، يظنون أن الشمس تشع عليهم وتختص بهم فقط، مع العلم بأن:

﴿وَلِلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ...﴾: وكل مكان هو موضع إشعاع نور الله، وأن سلطته وتصرفه ومالكيته واضحة في صغير العالم وكبيره. ولما كان متصرفاً في الجميع، إذا فهو موجد الجهات ومبررها وليس له جهة. ولما لم تكن له جهة، فكل شخص عندما يكون في أي جهة ويوجه قلبه نحو غيره، فهو معرض عنه متجه إليه:

﴿فَأَيْنَمَا تُولُوا فَتَمَّ وَجْهُ اللَّهِ﴾: إن نور الكواكب هذا الذي هو انعكاس من نور وجوده عم ظاهر الموجودات وباطنها، ولم يستوعبه أي شيء ولا يحده: ﴿إِنَّ اللَّهَ وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾<sup>(١)</sup>

﴿وَقَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا سُبْحَانَهُ بَلْ لَّهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ كُلٌّ لَّهُ قَانِتُونَ﴾<sup>(١١٦)</sup> يَدِينُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَإِذَا قَضَىٰ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ<sup>(١١٧)</sup> وَقَالَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ لَوْلَا يُكَلِّمُنَا اللَّهُ أَوْ تَأْتِينَا آيَةٌ كَذَلِكَ قَالَ الَّذِينَ

(١) إن القصة التي جاء بها أحد الكتاب باسم «قهوة سورة» تبين محدودية رأي أصحاب المذاهب: قيل: كانت مقهى سورة في أحد الموانئ الهندية، وكان أصحاب المذاهب والملل المختلفة يترددون عليها. ويجتمعون للبحث والمناقشة. وفي ذات ليلة كان قد اجتمع العالم الإيراني المتحيز، وعابد الصنم، والبرهمني، واليهودي، والقسيس الكاثوليك، والبور تستانت، والمسلم السني، والشيعة والإسماعيلي وقد احتدم الجدل بينهم، وكان كل منهم يحاول أن يقتصر بالله والحقيقة على دينه وأنيائه وزعمائه، إلى أن دعوا الحكيم الصيني ليحكم بينهم، فقال: إن مثل المتحيز في وجود الله كالذي يريد أن يعرف حقيقة نور الشمس، فحذق النظر فيها إلى أن عمي، فكان يظن بعد ذلك أنه لا وجود للشمس، وكل منكم ينسب أشخاصاً يعيشون في جزيرة أو وادٍ في أطراف الأرض، ولم يخرجوا من هناك أبداً، لذا فهم يتصورون أن الشمس تشرق على جبلهم ومنطقتهم، وتغرب عنهم فقط! مع العلم بأن أشعة الشمس ليست محدودة بزوايا من زوايا الأرض، ولا الأرض جميعاً. هذه الشمس لا تشع على جميع الأرض فحسب الكواكب السيارة الأخرى. وفي كل مكان مشرق ومغرب، وكل شيء يكون في معرض أشعة الشمس، ويتجه نحوها يكون موضع أشعتها: «وَلِلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ فَأَيْنَمَا تُولُوا فَتَمَّ وَجْهُ اللَّهِ».

مِنْ قَبْلِهِمْ مِثْلَ قَوْلِهِمْ تَشَابَهَتْ قُلُوبُهُمْ قَدْ بَيَّنَّا الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴿١١٨﴾ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ بِالْحَقِّ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَلَا تُسْأَلُ عَنْ أَصْحَابِ الْجَحِيمِ ﴿١١٩﴾ وَلَنْ تَرْضَى عَنْكَ الْيَهُودُ وَلَا النَّصَارَى حَتَّى تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ قُلْ إِنَّ هُدَى اللَّهِ هُوَ الْهُدَى وَلَئِنَّ آتِيتَهُمْ أَهْوَاءَهُمْ بَعْدَ الَّذِي جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ مَا لَكَ مِنَ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴿١٢٠﴾ الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَتْلُونَهُ حَقَّ تِلَاوَتِهِ أُولَئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِ وَمَنْ يَكْفُرْ بِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ ﴿١٢١﴾

### معاني المفردات:

سبحان: يُرْجَع إِلَى الْآيَةِ ٣٠.

قانت: من القنوت، الاتصال، الإطاعة، القيام بالأمر، التسليم، السكوت عن الكلام.  
بديع: وصف ذاتي بمعنى مُبدع (بكسر الدال): الخالق بلامثال سابق وبلامادة ومدة.  
وبمعنى مُبدع (بفتح الدال): الخلق بلامثيل. كما أَنَّ الخلق والتقدير والتصوير والانشاء هو نوع من الإيجاد حسب المثال والسابقة وعلى شيء آخر:

قَصَى: قَدَّرَ العمل وأحكمه، أَمَرَهُ، أَنهَاهُ، وَصَلَ إِلَى قَصْدِهِ، حَكَمَ، فَصَلَ الْحَقَّ.  
يوقنون: من يقن: اتَّضَحَ وَثَبِتَ، أَيَقِنُ، عِلْمٌ بِهِ عَنْ دَلِيلٍ، زَالِ شَكِّهِ.

الجحيم: فعيل من جحم: أشعل النار، فتح العين، امتنع عن شيء.  
ملة: الطريقة والأسلوب، الدين، من ملَّ: خَاطَ الثوب، ألقى شيئاً في النار لاجل الإصلاح، واجه الألم والحزن.

﴿وَقَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا سُبْحَانَهُ﴾: يقول أولئك الأشخاص (من اليهود والنصارى والمشركين) الذين حدّدوا وجود الله الذي لا حدّ له وقوى اللانهاية في أفكارهم وأوهامهم: اتَّخَذَ اللهُ لِنَفْسِهِ وَلَدًا (يقول النصارى اتَّخَذَ عِيسَى، وبعض اليهود عزيزاً، وبعض المشركين الملائكة) اتَّخَذَ الْوَلَدَ: تَقَبَّلَ الْوَلَدَ وَإِثْبَاتِ عِلَاقَةِ الْبَنُوَّةِ وَجَعَلَهُ تَحْتَ إِشْرَافِهِ. لِأَنَّهُ أَوْلَدَ مِنْ نَفْسِهِ.

ونتج هذا الظن من وهمهم وقياسهم، وهو فوق الخيال والقياس والوهم والظن، وكلّما

يدخل في الأفكار، هو منزّه عنه وأعلى منه: «سُبْحَانَهُ!» نعم! هو المالك بالحقّ والمتصرّف في كلّ شيء وله ما في السماوات وما في الأرض. وكلّما ظنّوه ولدّاً له وكلّما يظنون فهو ملكه وله:

﴿بَلْ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾: فكيف تسعه الأفكار؟ مع العلم بأنّ الفكر والمفكر له، فآية حاجة له بالولد؟ مع أنّ كلّ ما في السماوات والأرض يحتاج إليه في الوجود والبقاء ومبهور له: «لَهُ قَاتُونَ».

ولمّا كانوا لم يمتلكوا الوجود بأنفسهم، ومسخرين للطبيعة بأمر الله، اشير إليها بـ«ما» التي هي لغير العقلاء: «لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ...»، ولمّا كان لهم ذات ووجود، ويبحثون بلسان الفطرة عن مبدأ الكمال، ويسلكون طريق التقرب إليه وُصفوا بجمع المذكر السالم الذي يوصف به العقلاء: «قَاتُونَ» فكلّ ما في السماوات والأرض له وجهان: مقهورون ومملوكون من وجه واحد وتحت تصرّف الله. ومن وجه آخر يتقدّمون في طريق التكامل والتطور في ظروف الطبيعة والزمان وقابليتهما. وهذان الوجهان يخصّان ظواهر التكوين التي تبدو في السماوات والأرض «لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ...».

أمّا السماوات والأرض وأصول العالم كالمادة والطبيعة والزمان والمكان فهي ظواهر إبداعية: غير مسبوقة بزمان ومادّة واستعداد: «بَدِئُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ...»: لمّا كانت أصول السماوات والأرض لم تنتهياً من التركيب والاستعداد، وهي من مقولة الأمر، فهي إذاً كانت بأمره وإرادته وبدون واسطة ودفعة واحدة، وبدون فاصل زمان واستعداد، وهذه توجد بالإرادة الأزليّة المسبوقة بالحكمة:

﴿وَإِذَا قَضَىٰ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾: كما أنّ النفس الانسانية التي هي ظاهرة ضئيلة من إرادة الله الأزليّة سبحانه توجد دائماً على صفحة عالم الذهن اللامتناهي أمواجاً من الصور كلها مرتبطة بارادته وقائمة به، ثم يُبدي صوراً بالتدرّج خارج الذهن حسب الظروف الزمانية والمادية وبقوّة الإرادة، فترسم في الطبيعة.

﴿وَقَالَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ لَوْلَا يُكَلِّمُنَا اللَّهُ أَوْ تَأْتِينَا آيَةٌ﴾: يظنّ البعض من قصر

الرأي أن الفوز لهم فقط، ولا يعتبرون الآخرين على حق، ويحصرهم الله في معابدهم ويجعلون له ولداً. ويريد البعض الآخر من الجهل وقصر الرأي أن يواجهوا الله ويتكلم معهم، أو يرسل لهم علامة خاصة.

ولما كان هؤلاء لم يتقدموا في العلم والرأي، وهم كالماضين في الجهل وقصر النظر يفكرون كما كان يفكر اليهود قبل عدة قرون: عندما كانوا يطالبون أنبياءهم أحياناً أن يروا الله جهرة ويكلموه، وكانوا تارة يطالبون بآيات خاصة:

﴿كَذَلِكَ قَالَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ مِثْلَ قَوْلِهِمْ تَشَابَهَتْ قُلُوبُهُمْ﴾: مع إن عقول هؤلاء يجب أن تكون متقدمة، وأفكارهم اسمى من أفكار الماضين، لكنهم يفكرون مثلهم.

﴿قَدْ بَيَّنَّا الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يُعْقِلُونَ﴾: والذين يقولون لماذا لا يكلمنا الله أولم ينزل لنا آية؟ لما كان بصر عقولهم واذن ذكائهم محجوبين بالوهم والظن، وليس على يقين (وظاهر «يوقنون» كونهم نحو اليقين، لا أنه خبر عن المستقبل)، لا يسمعون كلام الله عن لسان الآيات، ولا يرونه، وإلا فالله يتكلم مع كل شخص على قدر فهمه بلسان آياته التي تبدي قدرته وحكمته وتبين المقصود من التكوين<sup>(١)</sup>، ووفقاً لهذا البيان فإنَّ - «قَدْ بَيَّنَّا الْآيَاتِ» جواب لـ «لَوْلَا يُكَلِّمُنَا اللَّهُ» و «أَوْ تَأْتِينَا بِآيَةٍ» أيضاً.

﴿إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ بِالْحَقِّ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَلَا تُسْأَلُ عَنْ أَصْحَابِ الْجَحِيمِ﴾: البشارة: خبر عما يسر في المستقبل والإنذار: خبر عما يحزن في المستقبل. والبشارة والإنذار يؤثران في الذين تيقظ فيهم الشعور بالمستقبل، وقد تعرّفوا على لغة آيات الوجود وبيانها، وسمعوا نداء الحق وضميرهم. إن هؤلاء المفكرين من أصحاب القلوب المستيقظة يفكرون في آيات السماء والأرض، ويدركون أن لخالق العالم وربّه قصد: ﴿رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَاطِلًا...﴾.

(١) جاء في محاورات سقراط الحكيم مع تلامذته ما يقرب من هذا المضمون: يسأل التلاميذ: لماذا لا يكلمنا مبدأ الخلق والخير الأعظم الذي نقول أن له قصد في تكويننا؟ يقول سقراط: إنه يتكلم معكم دائماً بلسان ضميركم الذي يدعو إلى الخير والصلاح، ويحذر من السوء والشر، ولسان عامة الناس، وآيات العالم ونظامه و...

إذا كان الانسان لا يميّز بنفسه الحق والباطل، والخير والشرّ إلى حدّما، ولم يصل إلى مرحلة اليقين الأولى التي ذكرتها الآية السابقة، لا معنى للبشارة والإنذار ولا أثر لهما. والرسالة والمسؤولية هي أن تجعل هذا اليقين والتمييز الفطريّ المجمل مفصلاً، وهذا الإدراك المبهم واضحاً، ونداء الوجدان هذا أكثر بلاغاً. ولهذا فإن إحدى علامات كمال النبوة، الكمال في البشارة والإنذار وإلفات الانظار إلى المستقبل. فالفطر والعقول المستعدّة تتشعّشع بنور الوحي، ويزداد شعاع نظرهم من البشارة والإنذار. أمّا الذين انحدروا من منزلة الفطرة، وابتلوا في الأوهام والجهل المركّب يلزمون جهنّم، وليس هنالك مسؤولية بالنسبة لهم: ﴿وَلَا تُسْأَلُ عَنْ أَصْحَابِ الْجَحِيمِ﴾، بهذا البيان يكون «لا تُسأل» بضمّ التاء واللام، «النفي المجهول» أكثر مناسبة من «النهي المعلوم» بفتح التاء وسكون اللام: إنك أيّها النبيّ بشير ونذير بالحق! ولست مسؤولاً عن أصحاب جهنم. أو لاتسأل عن حال أصحاب جهنم ماذا يجري عليهم. والواو إمّا أن تكون إستثنا فية أو عاطفيّة، والعطف على الآيات السابقة، أو على آخر الآية السابقة: لست مسؤولاً عن أصحاب جهنم، ولن يرضى عنك اليهود والنصارى أبداً (بهذا العنوان والوصف):

﴿وَلَنْ تَرْضَى عَنْكَ الْيَهُودُ وَلَا النَّصَارَى حَتَّى تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ...﴾: لو كانوا يجلبون عن أنفسهم صبغة اليهوديّة والنصرانية، ويميلون إلى الحق لكنت، ترضى عنهم، ولو كنت تتبع طريقهم التي جعلوها ديناً لهم، لكانوا يرضون عنك. ولما كنت متّبعا هدي الله الذي هو الهداية نحو الخير والكمال، لا تتمكّن أن تتّبع الأفكار والأساليب القوميّة التي اصطنعوها: ﴿قُلْ إِنَّ هُدَى اللَّهِ هُوَ الْهُدَى﴾: غير الهداية الإلهيّة التي هي دين الله والاستبصار بقضايا الوجود والتكاليف، الأهواء النفسيّة التي تنصب في قالب الدين أحياناً. والنبات على تلك الهداية الإلهيّة يؤدّد العلم، ويؤدّي إلى ولاية الله وعونه. والذي يتّبع الأهواء مع مثل هذه الهداية والعلم، خرج عن معرض ولاية الله وعونه، وإن كان نبيّاً معصوماً بالفرض:

﴿وَلَنْ اتَّبَعَ أَهْوَاءَهُمْ بَعْدَ الَّذِي جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ مَا لَكَ مِنَ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا



نَصِيرٍ ﴿ هذه الأهواء التي صارت بلون الدين وغطتها قشرة من العصبية أكثر ما تكون من اليهود والنصارى الذين لم يتبعوا الحق والكتاب كما ينبغي، ولكن الذين جلت هداية الكتاب ظلمة أوهامهم وشع نوره في قلوبهم وأرواحهم، ويتلون الكتاب حق تلاوته، يؤمنون بهذا الكتاب السامي والهدى الكامل.

﴿الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَتْلُونَهُ حَقَّ تِلَاوَتِهِ أُولَئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِ﴾: يبدو أن جملة «يَتْلُونَهُ...» خبرية وليست حالية حتى تحتاج الى تقدير. بناء على هذا، فالمقصود من «الَّذِينَ» يجب أن يكون جماعة خاصة، ويستفاد من «آتَيْنَاهُمْ» وصول الكتاب وحلوله في أفكارهم وقلوبهم. وإلا فالكتاب جاء للجميع سواء من يتلونه حق تلاوته أو الذين يتلونه بالسنتهم ويمرون عنه. وتفيد جملة «أُولَئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِ» التعظيم والاقتصار على هذه الجماعة وكمال إيمانهم، وهي خبر بعد خبر: وإن نفوذ هداية الكتاب وتلاوته كما ينبغي التي هي مع التدبر والتأمل كلاهما يؤدي إلى مثل هذا الايمان الثابت المستمر الذي يكشف حجب الأهواء ويعرض الحق كما هو.

يحتمل أن تكون الكلمات والجمل في هذه الآية ذات معان وتراكيب مختلفة: الكتاب: القرآن، كتب الأنبياء الماضين، مطلق الكتاب. يَتْلُونَهُ: يقرأون ذلك الكتاب أو القرآن، ويتبعونه، يبينون الكتاب أو وصف النبي، هذه جملة حالية، أو خبرية «أُولَئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِ» مبتدأ وخبر بصورة مستقلة، أو خبر فقط، أو خبر بعد خبر للذين.

ومما يجدر بالتوسع في الرأي وشمول الآية هو أن «آتَيْنَاهُمْ» خبر عن الماضي والمستقبل المحقق الوقوع.

والكتاب مطلق الكتاب ونوعه. «يَتْلُونَهُ» خبر عن الماضي والمستقبل المستمر. لقد كشفت الآيات السابقة النقاب عن أفكار عامة أهل الكتاب الباطنية وتعصباتهم وغرورهم إلى درجة بحيث سدّت نوافذ أمل ذلك النبي بالحق الذي كان يأمل كثيراً بهدايتهم وإيمانهم وفتحت هذه الآية أمام نظرتهم نافذة عن المستقبل القريب والبعيد وكأنها تُبدي الناس من ذوي الفطرة الطاهرة وطلاب الحق وأهل الكتاب والرأي في الأمكنة

والأزمنة المختلفة الذين سمت أفكارهم عن العصبية والتقاليد، ويتلون كتاب الله بالتساع رأي ودقة، ويشع على قلوبهم وعقولهم نور آيات الحق وبراهينه، ويتجهون نحوه كلياً ويتمسكون به، وسيقومون بحقه خير قيام أكثر من الذين يتظاهرون بالتابع هذا الكتاب، ويتلون آياته باللسان فقط. والذين يكفرون بهذا الكتاب، ويحجبون نور هدايته وأشعته بحجب العصبية والأهواء عن أنفسهم وعن الآخرين، فإن عملهم وسيرتهم هذه ضارة وخاسرة وهم أيضاً خاسرون:

﴿وَمَنْ يَكْفُرْ بِهِ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾<sup>(١)</sup>

﴿يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ أَذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَنِّي فَضَّلْتُكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ﴾<sup>(١٢٢)</sup> وَأَتَّقُوا يَوْمًا لَا تَجْزِي نَفْسٌ عَنْ نَفْسٍ شَيْئًا وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلَا تَنْفَعُهَا شَفَاعَةٌ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ<sup>(١٢٣)</sup> وَإِذْ أَبَتلىٰ إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا قَالَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِي قَالَ لَا يَنْتَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ<sup>(١٢٤)</sup> وَإِذْ جَعَلْنَا الْبَيْتَ مَثَابَةً لِّلنَّاسِ وَأَمْنًا وَاتَّخِذُوا مِن مَّقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى وَعَهِدْنَا إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ أَنَّ طَهِّرَا بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْعَاكِفِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ<sup>(١٢٥)</sup> ﴿

### معاني المفردات:

الإبتلاء: مواجهة الصعوبات، التكليف الصعب، الامتحان.

(١) تحققت تنبؤات هذه الآية على مر الزمان. يوجد الآن رجال من ذوي البصيرة والتحقيق أدركوا هداية القرآن بين تغطيات القرون الماضية المظلمة وعصبيةاتها، ويتلونه حق تلاوته، ويؤمنون بأفضليته، ويدافعون عن حماه، وإن «كارليل» الإنجليزي مؤلف «الابطال» و«جون ديون برت»، ومؤلف «المعذر عن التقصير بحق محمد والقرآن... نماذج بارزة من هؤلاء الرجال. ومن جهة أخرى لما كان أكثر المسلمين لم يؤدوا حق تلاوة القرآن، وابتعدوا عنه، وبدلاً من أن يرفعوا علم هداية القرآن، ويتقدموا، اتبعوا الآخرين، فاندحدروا، وأصبح عبدة الأهواء المتعصبون كفاراً، وما أكثر الأضرار التي رأتها النفوس والمجتمعات البشرية وما سوف تواجه من خسائر من جراء انحراف المسلمين وتعصب الكافرين؟! وكتاب «ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين» تأليف السيد أبي الحسن الحسني الندوي الهندي لدليل على هذه الخسائر.

الكلمات: جمع كلمة: اللفظ ذو المعنى، الجملة التامة المؤثرة، من الكلم: الجرح.  
الإتمام: الإنهاء. التكميل. الإيصال إلى النهاية.  
الإمام: المقتدى. الرجل النموذجي المتبع، الخيط الذي يستقيم به البناء. من أم:  
القصد، الإتجاه نحو شيء.  
الذرية: النسل والأولاد الكثيرون المنتشرون مباشرة وغير مباشرة. من الذرة، أو  
الذرو،  
أو الذر: نثر التراب، نثر البذور، نبت العشب من التربة.  
يتال: من النيل: الاستلام، الحصول على شيء.  
البيت: الدار، محل الراحة ليلاً، الدار الخاصة، مصراعان من الشعر، الأسرة، من بات  
في المكان: أنهى الليل إلى الصباح.  
متابة: مرجع: المحل الذي يُتَجَّه إليه.  
المقام: الموقف، الموقع المهم.  
الطائف: الدائر.  
العاكف: الملازم في مكان واحد، المعتكف.  
الركع: جمع راع (يرجع إلى الآية ٣٣).  
السجود: جمع ساجد هنا (يرجع إلى الآية ٣٤).  
﴿يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اذْكُرُوا...﴾: يخاطب القرآن بني إسرائيل للمرة الثالثة في هذه  
السورة: الأولى: كان تذكيرهم بالنعمة الخاصة وطلب الوفاء بالعهد. الثانية: سرّ أفضليتهم  
واسفليتهم وآثار زللهم وغرورهم، ثم يبيّن تناسق أفكارهم مع المسيحيين وموقفهم  
جميعاً صفّاً واحداً ضدّ المسلمين. والثالثة: هذا الخطاب الذي يبدأ بفصل جديد ومواضع  
أخرى بعد التذكير بالنعمة وأفضليتهم، والتفكير باليوم الآخر، ليتذكروا أنّ هذه النعمة  
والأفضلية متى انحدرت إليهم وممن وبأيّ سبب؟  
أول داعٍ إلى الحقّ، والأب العظيم، وأول رجل ينسب إليه أهل الكتاب وقوم اليهود

ونسب قريش، هو الذي يتصل به الجذر الدموي والديني لكل هؤلاء الذين وقفوا صفّاً واحداً بوجه الاسلام. كان هو الامام العظيم، وبدأت الدعوة إلى الاسلام:

﴿وَإِذِ ابْتَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ...﴾: إمتحن الله ابراهيم بكلمات. هل واجه الابتلاء برؤية كتابة أوسماع ألفاظٍ وعبارات؟ وكيف أتمّ هذه الكلمات، وكيف وصل باتمامهنّ إلى درجة الامامة السامية؟

وبالنظر الى كلمة الابتلاء، والأخذ بنظر الاعتبار المنطقة والبيئة التي كان قدفتح ابراهيم فيها عينيه، وأفكار ابراهيم وسيرته واحتجاجه، وجهاده يمكن إدراك معنى الابتلاء وحقيقة الكلمات وإتمامهنّ: والمعنى المطابق للإبتلاء هو الكون في الشدّة، وكون الانسان في شدة فيه اختبار وامتحان، أو يوجب تكليف وجاء بمعنى الاختبار والامتحان والتكليف أيضاً. ولهذا السبب أخذ اكثر المفسّرين الابتلاء بمعنى الامتحان والتكليف.

والمبتلى هو الذي يواجه وينازع الجواذب والعوامل المختلفة كالمبتلى بالمرض أو الحب... بحيث تجرّ جواذبه المزاجيّة او النفسيّة إلى جهة واحدة، والجواذب الأخرى أو المحيط والموانع الى جهة أخرى، فاذا كانت جاذبة الخير أو الشر، أو المرض والصحة، أو الوصل والهجر تفصل الشخص عن الجواذب الأخرى أو تصرفه، فقد طفر عن البلاء والابتلاء وارتاح وطمأن.

فتح ابراهيم عينه في محيط مليء بأوهام الشرك وعبادة النجوم، وكانت العمارات الشامخة الفخمة لهياكل الاصنام والنجوم قد ارتفعت نحو السماء من كل جانب، وكان علماء النجوم الذين يختلقون المغيبيات باليستهم البيض وجوههم المهيبة يحرسون هذه المعابد والهياكل، وكانوا قد احتلّوا جميع القلوب. وكان أهل تلك المناطق مقيدين بأوهام قد اختلطت بعلوم ذلك العصر الخاصّة، ومدّت جذورها في النفوس بالوراثة والتقليد والتعظيم، وكان جميع الطبقات يطأطئون رؤسهم أمام الأصنام التي تمثّل القادة السابقين ودور الريويّة وتدير النجوم، وترغم جباه الخشوع في التراب (تراجع الآية ١٠٢ في

شرح أوهام كلدة وبابل). وفي أية ذاكرة تجد الفكرة طريقها سوى أنهم جميعاً كان يفكرون؟ وأية عين عقل كانت ترى سوى أنهم جميعاً كانوا يرون؟ وأية نفس كانت تتمكن من الاعتناق من قيود تلك الأوهام وتذكر بطلانها؟ وأي لسان كان يجراً على قول كلمة معارضة؟ وأية إرادة كانت تتمكن أن تثبت بوجهها؟

توضح آيات من القرآن عن إبراهيم وابتلاءاته من كل ناحية: وحصيلة مضمون الآية السادسة والسبعين من سورة الانعام هي: بعد أن أشرقت كلمة الحق في وجوده حاجج أباه (أبو الأسرة)، ينكر الأوهام والشرك ويحكم عليها [ببطلانها]، تظهر له قدرة ملكوت السماوات والأرض، حتى وصل إلى مرحلة اليقين. ثم ينسحب عن ذلك المحيط المشرك، ويفكر في عزله بدراسة الشروق والغروب وإشعاع الكواكب. فيدرك - بعد ظهور الملكوت والقدرة الربوبية - التوحيد الربوبي.

إنّ ما أدار وجه أهل ذلك المحيط وعامة الناس عن مبدأ التكوين هو الشرك بالربوبية، واتخاذ الأرباب، لا الشرك بالمبدأ والصانع. وقد زال عن أمام عين إبراهيم غبار أفكار الجماهير حول روحانية النجوم وتدبيرها وربوبيتها الذي كان مثاراً من أوهام المحيط، بدراسة لشروق الكواكب وغروبها وكونها مسخرة. ثم أعلن عن ظهور هذه الحقيقة واتجاهه نحوها، وهذا فكره من القلق والخوف وسكن إلى الأمان، فلم يخش بعد ذلك من التهديد بغضب الآلهة والأرباب التي لا أثر لها.

تبدي هذه الآيات كيفية تقدّم كلمة الربوبية بإبراهيم من محيط الشرك إلى مقام رؤية الملكوت ووجهته وهدوء باله، وأنه أتم هذه الكلمة. وأثارته كلمة الرحمة من موضع الأمان والهدوء من أجل انتقاذ الناس من القيود المطبقة على عقولهم وجعلتهم عبداً لغير الله، فقام بلغة الدعوة والاحتجاج وسار بين أولئك الضالين.

وتعرض سورة الانبياء، في الآية الثالثة والخمسين إبراهيم برشد خاص: وأنه قائم بوجه أبيه والآخرين، وأنهال عليهم باللائمة: ولماذا اعتكفوا على أقدام الأصنام باصغاروا الذل؟ وأنهم قد استندوا إلى طريقة آبائهم الماضين. فيعلن ضلال الماضين، فلا يريدون أن

يصدقوا، فيتكلم باعتقاد راسخ وإرادة حاسمة، ويدعوهم إلى ربوبية رب السماوات والأرض وخالقها، ويعلن - بلاتقية - عزمه على الكيد بالأصنام وتحطيمها.

يتجسم تحطيم إبراهيم للأصنام من مجموع الآيات والروايات كما يلي: كأنما كانت ذات ليلة والجماهير متجهة إلى بيوت الأصنام زرافات ووحدانا وكانوا منشغلين بالدُّبْك والخشوع أمامها ليلفتوا أنظارها إليهم، وكانت كل طبقة تطلب حاجتها من ربّ نوع تلك الحاجة. وبمجرد أن رجع الجميع إلى دورهم، وأطبقوا جفونهم مطمئنين، هبّ إبراهيم من مكانه بالفأس الذي كان معه، وكسر الأصنام قاطبة إلاّ كبيرها الذي وضع أمامه الفأس من أجل إلقاء الحجّة عليهم. وكان الناس يتناشدون - بعد كسر الأصنام - عن اسم إبراهيم وعنوانه ليلقوا القبض عليه ويقدموه للمحاكمة العامّة. ويشير إبراهيم في إفادته إلى الصنم الكبير الذي كانت آله الجريمة وعلامتها معه، أو الأصنام الأخرى الباقية منها: فاسألوا الأصنام إذا كانت تنطق وتدافع عن نفسها؟

وكانما إبراهيم كان في صدد مثل هذه المحاكمة العامّة ليحطم عشّ أو هام ناحتي الأصنام ويهزّ عقولهم كما حطّم الأصنام المنصوبة في معابد الأصنام. ولا بدّ لهذا السؤال والجواب من أن يوقظ الأفكار الراقدة، ويصحوا الأشخاص المستعدون على أنفسهم، وتطأطيّ رؤوس، وترتسم آثار الخجل والاستغراب على بعض الوجوه. ويوجّه إبراهيم ضربة عنيفة وصريحة أخرى إلى أفكارهم: ماهذه الفكرة؟ تعبدون ما لا يضرّ ولا ينفع. فلم يملكوا قدرة الدفاع عن أنفسهم! فيرتهب حرس الأصنام وسدنة المعابد من قوّة منطق إبراهيم وكلامه المحطّم للأصنام. فيثيرون المشاعر العامّة للبقاء على خمود الأفكار، للنهوض إلى نصره الآلهة، ليحكموا على إبراهيم بالموت حرقاً بالنار، ويلهبون ناراً باشتراك الجميع من أجل إحراق إبراهيم، ويأمرون بالقائه بواسطة المنجنيق وأمام حشود المتفرّجين وحماة الأصنام في وسط لهيب النيران، ولكن إرادة الله وروح إبراهيم المحقّة جعلت النار برداً وسلاماً عليه، وأصبحت خطة إشعالهم النار هباءً منثوراً.

تنهي الآية الثانية والأربعون فما بعدها من سورة مريم على إبراهيم بالصدق والنبوة

وتصديق الحق إلى درجة بحيث يقف بوجه أبيه: لماذا يعبد ما لا يسمع ولا يبصر ولا اثر له؟! ويدعوه لاتباع نفسه، ويسمى عبادة الأصنام بعبادة الشيطان والأوهام، ويحذر أباه من عذاب الله. فيطرده أبوه. فيهدئ غضب أبيه باحترام، ولكنه يبتعد عن محيط الأوهام.

وفي سورة ابراهيم تعرض الآية السبعون فما بعدها ابراهيم قائما بالاحتجاج مع قومه، وينحو باللائمة على عبادتهم الأصنام، ويحاول عسى أن يفتح عيون أولئك الجماهير بتدبير الله الأحد وتصرفه. فيقول: ﴿الَّذِي خَلَقَنِي فَهُوَ يَهْدِينِ، وَالَّذِي هُوَ يُطْعَمُنِي وَيَسْقِينِ، وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ، وَالَّذِي يُمِيتُنِي ثُمَّ يُحْيِينِ، وَالَّذِي أَطْمَعُ أَنْ يَغْفِرَ لِي يَوْمَ الدِّينِ﴾ ثم يسأل الله أن يمن عليه بالحكم وإحاقه بالصالحين: ﴿رَبِّ هَبْ لِي حُكْمًا وَالْحَقِّنِي بِالصَّالِحِينَ، وَأَجْعَلْ لِي لِسَانَ صِدْقٍ فِي الْآخِرِينَ، وَأَجْعَلْنِي مِنْ وَرَثَةِ جَنَّةِ النَّعِيمِ، وَأَغْفِرْ لِأَبِي إِنَّهُ كَانَ مِنَ الضَّالِّينَ، وَلَا تُخْزِنِي يَوْمَ يُنْعَثُونَ...﴾.

وتعرض الآية الثامنة والخمسون بعد المائتين من سورة البقرة، ابراهيم محطّم الأصنام في مقابل الملك المستبدّ المستعبد، وقد وقت بوجه ذلك الجبار يحاججه، ويكشف الحجاب عنه ليرى الله ببرهان الحياة والتسخير والتصرف [بالموجودات] ليصدّريح غروره ويُبهِته. وتعرض الآية الثالثة والستون بعد المائتين ابراهيم بلغة التضرع والإلحاح إلى الله أن يريه الله سرّ الحياة والمعاد ليطمئن قلبه. فيعلمه ربه أخذ أربعة من الطير وتعليمها!!

وتشير سورة الصافات من الآية الثانية والثمانون فما بعدها إلى ابراهيم صاحب القلم السليم، واحتجاجه مع أبيه وقومه، ونظرته إلى النجوم، وإعراضه عن الناس، وخطابه الساخر للأصنام، والقبض عليه، والحكم عليه حرقاً بالنار، وبشارته بولد صالح صابر، فتقول: ﴿فَبَشِّرْنَاهُ بِغُلَامٍ حَلِيمٍ، فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ السَّعْيَ قَالَ يَا بُنَيَّ إِنِّي أَرَى فِي الْمَنَامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ فَانْظُرْ مَاذَا تَرَى قَالَ يَا أَبَتِ أَفْعَلْ مَا تُؤْمَرُ سَتَجِدُنِي إِِنْ شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّابِرِينَ، فَلَمَّا أَسْلَمَا وَتَلَّاهُ لِلْجَبِينِ، وَتَادَيْنَاهُ أَنْ يَا إِبْرَاهِيمُ قَدْ صَدَّقَتِ الرُّؤْيَا إِنَّا

كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ، إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْبَلَاغُ الْمُبِينُ».

هذه خلاصة محتوى الآيات الموجودة في السور المختلفة التي تشير الى ابراهيم -بلحن وتعبير خاص في كل سورة - من كل ناحية وجانب، فمن جهة تشير اليه بين جواذب المحيط والعلاقات والعواطف، ومن جهة اخرى الاستلاء بالأفكار والجواذب الفكرية.

اذا كان المقصود من «الكلمات» الكلمات الموجودة في الآية موضوعة البحث، هو العبارات والألفاظ أو التكليف البسيط، فلا تتناسب والابتلاء والإتمام. فلا بد - إذاً - أن تكون لتلك الكلمات من سرٍّ وحقيقة التي استوعبت فكر ابراهيم، واجتذبتة لنفسها وابتلته. وتنكير «كلماتٍ» تفيد هذا المعنى أيضاً. كما أن في الآيات الأخرى كلما جاءت لفظة كلمة أو كلمات فهي ناظرة إلى بعض الحقائق أو المواضيع، والتي جاءت على صورة ألفاظ أو أعيان موجودات أو صور نفسية، وملحقة بالمتكلم والمؤثر والمحرك في النفوس، مثل: ﴿بِكَلِمَةٍ مِنْهُ أَسْمُهُ الْمَسِيحُ﴾، ﴿فَتَلَقَّى آدَمُ مِنْ رَبِّهِ كَلِمَاتٍ﴾ ﴿لَوْ كَانَ الْبَحْرُ مِزَاداً لِكَلِمَاتِ رَبِّي﴾، ﴿وَأَلْزَمَهُمْ كَلِمَةَ التَّقْوَى﴾، ﴿وَجَعَلَهَا كَلِمَةً بَاقِيَةً﴾.

وبالنظر الى معاني الكلمة والكلمات في الآيات الأخرى، ربّما تكون الكلمات التي ابتلي بها ابراهيم هي الحقيقة الملكوتية وأعيان الموجودات الثابتة في العالم التي انعكس نورها على فطرة ابراهيم النيرة، وارتبطت برغباته وتحركات ضميره إلى درجة بحيث ابتلته واجتذبتة إلى نفسها إلى أن وصلت آثارها إلى حد الكمال وتحققت في باطنه.

وربّما تكون نفس الكلمات التي تلقّاها آدم، ولأنّه كان في محيط الفطرة، ولم يواجه جاذبية معاكسة أعادته كلياً نحو التوبة (تراجع الآية ٣٧)، ولكن ابراهيم الذي فتح عينيه في محيط العادات والتقاليد، ابتلي أولاً بالجاذبيات المعاكسة، ثم اجتذبتة الكلمات إليها، فاتمها ابراهيم بصورة أكثر تأثيراً وظهوراً: تقدّمت به كلمة الربوبية الى كشف الملكوت ومشاهدته وتغيير الجهة. وأوصلته كلمة البحث عن سرّ الحياة والبقاء إلى الإطمئنان واليقين. وجرّته كلمة التضحية والصفح في سبيل الحق وإنقاذ الناس إلى الذهاب إلى النار



وقطع العلاقات. وعرضته كلمة الاستسلام في مقابل اعادة الله إلى ذبح الولد بيده.

إن هذه الكلمات والنظرة المودعة في أساس فطرة الإنسان، هي المحركة نحو الكمال العلمي والعملّي. وتكون التقاليد والشهوات والدوافع النفسيّة الأخرى حجاباً على الفطرة، ومانعاً من إشعاع الآيات، وإتصال حبل الآيات بالكلمات. ولذا لم يكن لهذه الكلمات تلك الحركة لدى الجميع بحيث تبتليهم، وتجرهم إلى الإتمام. ولو ظهر قليل من الجاذبيّة، ولم تطل حتى تضعف وتتوقّف. والدوافع الفطرية كالفقاعات التي تنبع من أعماق أصل الإنسان، وتنفجر باصطدامها بالأمواج المعاكسة وتغيب. ولو أنّ الكلمات في فترة ظهورها التي لم تتلوّث، واصطدامها بآثار المحيط والتقاليد والعادات والشهوات، لم تغب، توجد تجاذباً في الباطن، ويبتلي الإنسان. وفي هذه الصورة إمّا أن تقطع العوامل العارضة صلة الفطرة بالعقل الإكتسابي، وتجنّب الابتلاء بالكلمات الباطنية وإتمامها، وإنّ كلمات البحث عن الحق والإطلاع على أسرار الحياة والموت والتضحية من أجل نجاة الناس المنعقدة في جبلة الجميع بزيادة أو نقصان، تتقدّم بالنفوس إلى حدّ الكمال.

والذي تريد حكمة الله وإزادته أن توصله إلى درجة الإمامة المطلقة، تبتليه أولاً بمثل هذه الكلمات، ثم يوصله بمدده الخاص إلى الكمال.

وكما أنّ الكلمات النفسيّة قد تحقّقت في ذات ابراهيم، فإنّه قد وصل بكلمة الصبر والتحمّل والصفح والعفو عن القريب والبعيد، والمرأة السيئة الخلق ذات الحجج الواهية، وإكرام الضيف والجود في سبيل الله، والآداب الظاهريّة، والنظافة البدنية (وهي السنن العشر) إلى الكمال. فكل كلمة من هذه الكلمات كانت موضع ابتلائه، وكلّما يشاهد في التفاسير والروايات حول الكلمات فهي مصاديق ونماذج من الكلمات الظاهرية والباطنية.

وأخذ بعض المفسرين الكلمات على أنّها إخصال العشر التي يدعونها بسنن ابراهيم وإخصال الفطرة. خمسة منها حول نظافة الرأس والوجه وترتيبه، وخمسة حول البدن. وقد نقل هذا التطبيق عن ابن عباس، ويعترض أحد محققي العصر (المرحوم عبده)

بشدة على هذا التطبيق، ويعتبره من التطبيقات الإسرائيلية، ويبدو أن هذا الانطباق لم يكن في غير محله لأن تنظيف الظاهر وترتيبه وتحسينه لعامة الناس وإن يكن موضع اهتمام، لكنه لم يكن من الإبتلاءات، ولكنها تعتبر موضع ابتلاء بالنسبة للشخص الذي يتعرض لدرجة الإمامة، وله مثل هذا الشعور والإحساس القادر الدقيق؛ لأن مثل هذا الشخص بابتلائه بالكلمات المعنوية لا يتمكن من أن يغفل عن الإهتمام بظاهره وتحسينه. كما أن كثيراً من أهل الرأي والفكر وأصحاب الدرجات العلمية والروحية الذين لم يهتموا بنظافة الشعر والأسنان والألبسة، وتنظيم الظاهر، لا يستحقون درجة الزعامة والإمامة.

يتبين من روايتنا التي تذكر أن الأحكام العشر أتت إلى إبراهيم بعد الوصول إلى درجة الإمامة، أن مثل هذه الأمور الظاهرية لم تكن من موارد الإبتلاء ومقدمات الإمامة. والخاصة: قبل أقوال المفسرين وأكثر منها، يمكن التعرف على الفطرة القاهرة، والجاذبيات المعنوية، والإدراكات العقلية، والابتلاء بين الجاذبيات، وسر الكلمات وإتمامها، من الآيات النازلة بحق هذا الشخص السامي الإلهي، وبالتأمل في الآية الثامنة والعشرين من سورة الزخرف، يمكن الحصول على المعنى الجامع لكل هذه المعاني: ﴿إِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبْنَيْهِ وَقَوْمِهِ إِنَّنِي بَرَاءٌ مِمَّا تَعْبُدُونَ، إِلَّا الَّذِي فَطَرَنِي فَإِنَّهُ سَيَهْدِينِ، وَجَعَلَهَا كَلِمَةً بَاقِيَةً فِي عَقْبِهِ لَعَلَّهُمْ يُرْجَعُونَ﴾.

وبعد إتمام الكلمات، أو بإتمامها وإكمالها، أصبح جديراً بدرجة الإمامة السامية، أو أن إتمام الكلمات نفسها وصلت لتلك الدرجة:

﴿قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا﴾: فالإمامة جعل إلهي، وليست جعلاً تشريعياً ومعاقدية وبدون سابقة فحسب، بل مسبقة ومرتبة على إتمام الكلمات وتحقيقها في شخصية بارزة فوق الطبيعة العامة، ولذا فإن هذه الدرجة أعلت له بدون حرف الربط أو التفريع الذي يدل على مغايرة الجملتين عن بعضهما، مثل: «فقال»، كما يستفاد من مضمون الآية ومفهوم اللفظ «إماماً» وإطلاقه أن الامام هو النموذج الكامل لكل الكمالات

العقلية والنفسية والبدنية. ولما لم يُبين جميع هذه الخصوصيات والابتلاءات والكمالات لدرجة النبوة والرسالة، فيجب أن تكون درجة الإمام أسمى من النبي أو الرسول الذي لم يتم الكلمات ولم يصل إلى درجة الإمامة. إذاً درجة الإمامة حاصلة لكل نبي ورسول كريم أيضاً.

وربما كان آخر ابتلاءات إبراهيم الابتلاء بكلمة الإسلام، الذي هو التسليم لأمر الله وإرادته. وقد أتم هذه الكلمة أيضاً بتسليمه لأمر الله وموافقته على ذبح ابنه الوحيد. وكان من ابتلاءاته أيضاً بناء البيت من أجل إبقاء كلمة التوحيد وتمثيلها، في صحراء نائية قاحلة، وقد أتمها كليهما في نهاية حياته.

﴿قَالَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِي...﴾؛ إن طلب الإمامة للذرية يدل على هذه الواقعية، وهي أنه وصل إلى درجة الإمامة عندما كان له أبناء، وكان يقرأ في جنباهم وأولادهم هذه الجدارة واللياقة، ولذا فإنه تقدم بهذا الطلب، وبمجرد وصوله إلى أواخر حياته وكانت له ذرية وأولاد، وطلب هذا الطلب لهم، يفيد أن إتمام الكلمات بأجمعها والوصول إلى درجة الإمامة كان بعد نبوته.

مع أن إبراهيم وصل إلى هذه الدرجة بالابتلاء بالكلمات وإتمامها، لم يكن يتقدم بهذا الطلب لو لم ير الجدارة لمثل هذه الدرجة في ذريته، بلحن الاستفهام والطلب: «وَمِنْ ذُرِّيَّتِي»؟ الذي تبدو فيه عين الأمل إلى إجابة الله وجدارة الذرية. وكأنما كان إبراهيم في هذا الطلب ناظراً إلى وراثة الذرية في الفكرة والدم، ولكن قانون الوراثة مهما يكن مؤثراً لا يكف لإحراز درجة الإمامة. ويجب للوصول إلى هذه الدرجة تحقق شروط ومقدمات نفسية وعملية أخرى أيضاً.

﴿قَالَ لَا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ﴾: ويجب أن يكون هذا العهد هو الابتلاء بالكلمات وإتمامها؛ لأن الانحرافات النفسية والظلم بآية صورة كانت تُلقت اهتمام الإنسان عن الكلمات والابتلاء بها، وتكون مصدر ظلمة في الباطن، بحيث تجعل كلمات الفطرة في الظلام، وتحجبها عن معرض إشعاع الآيات وكلمات الوجود. ولهذا إما أن لا يظهر ابتلاء،

واذا ظهر ابتلاء واهتمام لم يدم حتى تطفئ ظلمة الظلم على ناحية النفس المضئية وتجعلها تحت الظلام، وتذهب بالكلمات إلى المحاق. ومعنى عدم حصول الظالم على هذا العهد الخاص هو أنَّ الظالم بعيد عن هذا العهد إلى درجة أنه لم تصل يده إليه أيضاً. وبالنظر إلى ما قيل تستنتج من هذه الآية الموجزة التي هي نموذج من الإعجاز في البلاغة والتمثيل وبيان معاني أسرار الإمامة وشروطها، هذه الأمور:

١- لما ابتلي إبراهيم بالكلمات وصل إلى درجة الإمامة، وكان هذا الابتلاء بلحاظ ضميره القاهر، ودافع فطرته الساطعة، وقابليته النفسية الخاصة. بناء على هذا يجب أن يكون جهاز الإمام النفسي فوق طبيعة الآخرين العامة، حتى يُبتلى بالكلمات ويؤدي تكليف هذا العهد كما ينبغي، ويحصل على الفعلية في جميع الكمالات. وبعد اجتياز هذه المراحل يكون إماماً وقائداً لهداية جميع الناس، لِيُوجِدَ تطوّراً في النوع الانساني بهدايته الوجودية والمنطقية الخاصة. بناء على هذه الخصوصيات والمواصفات النفسية لا يمكن اعتباره مثيلاً للنوع الانساني العام، بل الفرق بينه وبين النوع الانساني كفرق الانسان مع أنواع الحيوانات الأخرى. أو بتعبير آخر إنَّ ذلك طفرة في مسيرة تكامل الإنسان. وتصف الآيتان الثانية والسبعون والثالثة والسبعون من سورة الأنبياء الذين وصلوا إلى درجة الإمامة من ذرية إبراهيم بهذه الأوصاف: ﴿وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ نَافِلَةً وَكُلًّا جَعَلْنَا صَالِحِينَ، وَجَعَلْنَاهُمْ أئمةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِمْ فِعْلَ الْخَيْرَاتِ وَإِقَامَ الصَّلَاةِ وَإِيتَاءَ الزَّكَاةِ وَكَانُوا لَنَا عَابِدِينَ﴾.

تفيد التعابير: ﴿وَوَهَبْنَا، نَافِلَةً، جَعَلْنَا صَالِحِينَ﴾ في هذه الآية أنَّ جيلتهم الأولى قبل الإمامة كانت فوق طبائع البشر العامة، وطفرة في عالم التكوين؛ لأنَّ الهبة هي العطاء بلا عوض وغير المتوقع. والنافلة: الغنيمة والحصول أكثر مما يتوقع وأكثر من الفرض. وتفيد كلمة الجعل الصلاحية والاستعداد قبل درجة الإمامة. وبهذه الجبلّة السامية واللياقة النفسية جعلهم الله أئمةً ليهدوا البشر من كل النواحي إلى الأمام. وقد أصبحت قلوب هؤلاء باتصالها بالوحي ينبوعاً للخيرات، وكانوا بأنفسهم مقيمي الصلاة ومؤتي الزكاة؛ لأنَّ

﴿أَوْحَيْنَا إِلَيْهِمْ فِعْلَ الْخَيْرَاتِ وَإِقَامَ الصَّلَاةِ وَإِيتَاءَ الزَّكَاةِ﴾ غير الأمر بالخيرات والصلاة والزكاة والتكليف بها، واعادت هذه الآية إلى الأذهان في الختام عبوديتهم لله وعدم انحرافهم.

٢- يجب على الامام بعد تلك اللياقة والابتلاء إتمام الكلمات، وأن تتحقق الكلمات في وجوده، وأن يصل إلى الفعلية في جميع الكمالات الإنسانية. والآية الخامسة والعشرون من سورة سجدة تبين وضع الإمام والإمامة السابق واللاحق كما يلي: ﴿وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أُمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ﴾.

٣- يتبين من «إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ» التي نسب الله فيها الجعل لنفسه، وقد جاءت بلام الانتفاع، أن الإمامة جعلٌ إلهيٌ ولصالح عامة الناس. لأن الشعور بطلب الهداية وتقليد النموذج واتباعه من المشاعر الفطرية الباطنية البشرية التي أوجدتها فيه الحكمة الإلهية حسب قانون التكامل العام، وكما أن آلات وأعضاء خلقت لكل كائن حيٍّ - وفقاً للجهاز الغريزي - واهتدى لاستخدامها، وكذلك في المحيط الخارجي أعدت آلات لسد الحاجة، فيجب تكوين نماذج أكمل من أجل الأحساس بالاتباع والبحث عن النموذج، ليجد هذا الحس والدافع مطلوبه ويتبعه، كما أن تكوين الرجل والمرأة متناسب والأذواق العلمية والفنية المختلفة، جاءت حسب قانون التطابق والتكامل هذا.

ومهما تدارسنا تاريخ حياة الانسان بصورة أكثر، نرى هذه الرغبة ودافع البحث عن النموذج أوضح من كل رغبة، نرى أن الإنسان كان في كل عصر ووضع طالب نماذج من الكمال الإنساني، وكلما وجد كمالاً واحداً أو عدة كمالات في شخص اتخذته إماماً وإن كان ناقصاً في جهات أخرى. وكأنما يوجد مقياس في ذهن الانسان يقيس به نماذج الكمال ليرى أيها يطابق ذلك المقياس بصورة أكثر. وإذا وجد شخصاً أكمل بهذا المقياس يتبعه، وإذا لم يجد يقف عند ذلك الذي وجدته. ويصنع له تمثالاً من الخشب أو الحجر من أجل تجسيد عظيمته وكماله، وينادر من المعنى إلى الصورة!

٤- يمكن إدراك تأثير الوراثة الفكرية والنفسية في الذرية من أجل نيل درجة الإمامة

معنى المقام هذا هنا. بناءً على هذا فإنَّ الموضع المبنيَّ بجانب الكعبة والصلاة فيه واجبة يجب أن يكون رمزاً من مقام ابراهيم الواقعيِّ الموسع، والذي قام فيه من أجل إتمام الكلمات وإعلان الحق ومن أجل الله، ويجب على الآخرين أن يتخذوه مصلياً بذكرى ابراهيم، ويقوموا فيه لله ويتقربوا إليه.

وكلُّ مسجد أقيم في أيِّ مكان كان، لما كان فرعاً وشعاعاً من ذلك البيت الأول، يجب أن يكون مثابة للناس ومركزاً للأمان، وأن يُقام فيه للحق، وتنتظم فيه الصفوف، وأن يطهر من التلوّث بالشرك والنجاسات والاتجاه لغير الله، استذكّاراً للقائمين بالحق:

﴿وَعَهْدُنَا إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ أَنَّ طَهَّرَا بَيْتِي...﴾ العهد لم يكن تكليفاً أو أمراً؛ لأنَّ التكليف والأمر يكون من قبل الشخص الذي له الحكم وحده، ولكنَّ العهد يكون فيه قبول المتعهد شرطاً أيضاً. وكذلك يتبيّن من الحرف «إلى» أيضاً أنَّ العهد جاء إليهما، وكأنَّه قد تحقّق في وجودهما، لأنَّه أُخذَ منهما العهد؛ لأنَّه بناءً على هذا يجب أن يقال: «وَعَهْدُنَا مِن، أَوْ عَنْ...» لأنَّ ابراهيم واسماعيل كانا قد طهّرا حرم فكريهما ونفسيهما من لوث الدنيا المغيرة ومن الشرك والأوهام والذنوب والرجس، وجنّبا نفسيهما ذلك، وتسجّل عليهما التوحيد المحض، هذا هو العهد الذي تحقّق به، وبهذا العهد يجب أن يحافظا على طهارة حرم بيت الله من كلِّ لوث وآثار الشرك، وتكون أنظمتهم خالصة لله ولتطهير النفوس. لأنَّ كل طريقة توصل إلى المطلوب فهي عهد محقّق يجب على الشخص السالك أن يتّخذها سبيلاً، ويحرّض الآخرين إليه أيضاً، ويزيل الموانع عن طريق سالكه.

ولما كان هذا البيت مضافاً ومنسوباً إلى الذات الإلهية المقدّسة «بَيْتِي» ومناسكه ظهوراً لتلك الطريقة التي اتّخذها ابراهيم ثمَّ اسماعيل من بعده، فإنَّ تطهيره من التلوّث بالشرك والرجس والإنصراف عن الحقّ، هو أوّل شرط للطريق وسالك الطريق والمورد والوارد:

﴿لِلطَّائِفِينَ وَالْعَاكِفِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ﴾: إنَّ تطهير بيت الله ومناسكه من كلِّ ما يصرف الفكر عن التوحيد، ويشير العاطفة والغريزة الدنيئة، ويعبث بالأمن الداخلي النفسي والمحيط الخارجي، التطهير يكون بصلاح هذه النُخبة وتمهيد الطريق لهم: ﴿أَنْ طَهَّرَا

بَيْتِي لِلطَّائِفِينَ... ﴿٢٨﴾ وَإِذْ بَوَّأْنَا لِإِبْرَاهِيمَ مَكَانَ الْبَيْتِ أَنْ لَا تُشْرِكْ بِي شَيْئًا وَطَهِّرْ بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْقَائِمِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ ﴿٢٩﴾ (الحج/ ٢٨)، الأمر بالتطهير في هاتين الآيتين لما جاء بدون متعلق فهو يفيد التعميم؛ فهذا البيت نفسه وآدابه وواجباته حتى لباس الحاج وحركاته وأفكاره جميعاً يجب أن تكون طاهرة من كل ناحية.

إنّ هذه الأوصاف والعناوين الأربعة: «لِلطَّائِفِينَ وَ...» يمكن أن تقصد الفئات المختلفة التي كل فئة منها تكون على شكلٍ حسب إدراكها وأفكارها. ويحتمل أن يكون قاصدو الحقّ وبيته فئة واحدة في حالات مختلفة. وربما تشير هذه الأوصاف إلى الدرجات والمراتب التي سلكها إبراهيم الخليل. بمجرد أن تجلّى الحقّ للسالك يوصل فكرته وإرادته التي تنزع دائماً نحو المنافع والشهوات الشخصية، بالحقّ، ويديره حول مركز الحقّ والصالح العامّ كأجزاء العالم الصغيرة والكبيرة. إنّ هذه الحقيقة في عالم الصورة، تظهر بصورة الطواف حول البيت المنسوب على يد إبراهيم، والمنسوب والمضاف إلى الله. وعندما يتحرّر الطائف من الجواذب النفسية نهائياً، ويشاهد الحقّ بالحركات الدائرية في كل جهة وجانب يكون ملازماً ومعتكفاً فيه. «وَالْعَاكِفِينَ»، أو بناء على وصف سورة الحجّ القائمين بدلاً من العاكفين، وكأنّه يشير إلى القيام بالحق والواجب بعد الطواف. وعندئذٍ يغضّ العاكف أو القائم نظره عن نصف وجوده أو أكثره وعن العالم، ويفنى في نور العظمة والقدرة، وينحني أمامه، ويركع للتقرّب إليه فيكون راکعاً: «وَالرُّكَّعِ». وبعد أن غشّته أنوار العظمة وفنى فيها، يغضّ النظر عن كل شيء بصورة السجود، ويضع رأسه على التراب، ويفقد وجوده في مقابل الإرادة الأزليّة: «السُّجُودِ».

﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَذَا بَلَدًا آمِنًا وَارْزُقْ أَهْلَهُ مِنَ الثَّمَرَاتِ مَنْ آمَنَ مِنْهُمْ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ قَالَ وَمَنْ كَفَرَ فَأُمَتِّعُهُ قَلِيلًا ثُمَّ أَضْطَرُّهُ إِلَى عَذَابِ النَّارِ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ ﴿٢٦﴾﴾ وإذ يرفع إبراهيم القواعد من البيت واسماعيل ربنا تقبل مِنَّا إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴿٢٧﴾ رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُسْلِمَةً لَكَ

وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَا إِنَّكَ أَنْتَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ ﴿١٢٨﴾ رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿١٢٩﴾ ﴿

### معاني المفردات:

ابراهيم: أصله: آب رام: الأب الكبير، قيل ابراهام أيضاً: أبو الأمة.  
البلد: المنطقة القابلة للسكنى والتي يتعلق بها الشخص، من بلد في المكان: اذا مكث وسكن به.

متع: النهار بلغ غاية ارتفاعه، طال، استفاد من الشيء حتى النهاية.  
الرفع: الأخذ، التصعيد.

القواعد: جمع القاعدة، الأساس، ومن القعود: الجلوس.  
اسماعيل: بحسب اللغة: سامع الله (من الله)، ابن ابراهيم من هاجر أمه سارة.  
مسلم: من أسلم: استسلم، قَبِلَ، خضع، طأطأ.  
مناسك: اسم مكان وزمان ومصدر من النُسك: العبودية، إنجاز العبادة التامة.  
يزكي: من التزكية: التربية، الزيادة، تنظيف الأرض، الإطماء، أخذ زكاة المال، مدح النفس.

العزیز: صفة: القوي الذي لا يتمكن منه أحد ولا يعجز، الفريد في القوة، بلانظير.

البعث: الإثارة، النهوض، الانتفاض من النوم، الاهتياج.

الحكمة: الآراء والعقائد الصحيحة المتينة، من حَكَمَ: ارتكز، تصلَّب بنفسه.

﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَذَا بَلَدًا آمِنًا وَارْزُقْ أَهْلَهُ مِنَ الثَّمَرَاتِ...﴾:

بيّنت الآية السابقة الغاية والخطّة لأول بيتٍ الذي هو متابة للناس جميعاً، ومركز تغيير الإرادة ومصدر أمن النفوس. وهذه الآية هي أول دعاء إبراهيم لاستقرار الأمان برعاية الله الخاصة في منطقة هذا البيت والمدينة التي تؤسّس حوله، وتنتهيًا وسائل العيش



للواردين فيه وللحارسين عليه؛ لأنّ تأمين الأمن والعيش لأهل هذه المدينة كان خارجاً من قدرة ابراهيم، فأراد بالدعاء والطلب من الله أن يتحقّق ذلك؛ ليَتحقّق غرضه وخطّته من بناء البيت. طلب ابراهيم أولاً العيش والرزق من الله لجميع أهل البلد «وَأَرْزُقْ أَهْلَهُ»، ثمّ جاشت غيرته في طلب الحق، أو توبيخ الله له حول إمامة الذريّة، مما جعله يتّجه بدعائه إلى المؤمنين خاصّة:

﴿مَنْ آمَنُ مِنْهُمْ بِاللّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾: مَنْ آمَنَ: بدل أهله، بدل البعض من الكلّ، لما كانت رحمة الله شاملة وعامة ويرزق الجميع، ولكنّ الذين اختاروا بأنفسهم طريق الكفر، تكون فائدته قصيرة ومحدودة:

﴿قَالَ وَمَنْ كَفَرَ فَأُمَتِّعُهُ قَلِيلًا﴾: الإمتاع: الاستفادة الغير من المال والقوّة. فالتمتّع من الرزق المحدود في مزاج الكافر المنحرف كالتمتّع الحيواني، ونسبة التمتع الحيواني إلى التمتع الإنساني الذي يتقدّم برزقه بجاذبيّة الإيمان ويظهره بصورة الحياة والنور والقوّة، قليلة جداً. وذلك الرزق القليل أيضاً في مزاج كفرهم يهيئ مادّة العذاب والانجذاب اليه:

﴿ثُمَّ اضْطَرَّهٗ إِلَىٰ عَذَابِ النَّارِ﴾:

ذَلِكَ إِنْ يَشْرَبْ يَكُنْ نَوْرَ الْأَحَدُ ولهذا الشربُ بُخْلٌ وَحَسَدٌ<sup>(١)</sup>

استجيب دعاء ابراهيم: فأصبحت مدينة مكّة بين قبائل العرب الغازية والعالم المضطرب يومذاك مكان أمان، فلم يستول عليها غازٍ وفاتح. فقط انفتحت أبوابها يوم فتح مكّة بوجه خاتم المرسلين لِيَتِمَّ عهد ابراهيم، ويظهره من لوث الشرك والأصنام. مع العلم بأنّ بيت المقدس والمدن الأخرى ومواضع العبادة كانت دائماً موضع هجوم الفاتحين وتخريب المخربين، ولطف الله، ونفوذ هذا البيت المعنوي في القلوب، وبعده - إلى حدّ ما - عن الأنظار كان مصدر أمنه، وجعله بعيداً عن متناول الأحداث. وأمنه أدّى إلى تردّد الأموال التجاريّة وحمل الثمرات إليه قبل الاسلام وبعده: ﴿أَوْ لَمْ تُمْكِنْ لَهُمْ

(١) الأصل الفارسي لجلال الدين المولوي. ترجمته إلى العربية.

الترجمان.

حَرَمًا آمَنًا يُجْبَى إِلَيْهِ ثَمَرَاتُ كُلِّ شَيْءٍ ﴿٥٧﴾ (القصص / ٥٧).

ولو أولنا الحرم الآمن كالعرفاء، أو عمّمناه بالنفوس الإيمانية، يمكن أن يقال: النفوس التي تستقر في أمن الإيمان تتمتع من كل ثمرات قواها وادراكاتها المعنوية دائماً وبصورة غير محدودة. ولكن الكافرين متعتهم من مثل هذه الثمرات محدودة ومنقطعة.

﴿وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ﴾: إذ: في هذه الآية والآيات الأخرى المبدوءة بها، ظرف زمان وتفيد التنبيه والتذكّر. معنى يرفع «يُصْعَدُّ» وهي أعم من يبنى أو يصنع، وتفيد رفعة المقام والحصول على المقصود أيضاً. كما أن الأسس والقوانين «القواعد» المرتكزة في المادّة ترفعها إلى المعنى وعالم الروح. من البيت: بيان القواعد، وأنّ من تبعيضية، واسماعيل الذي جاء بعطف مطلق وبعد نهاية الجملة (بدلاً من: يرفعان إبراهيم واسماعيل) يدلّ على أن اسماعيل كان يعمل مستقلاً وقبل رفع القواعد، وكان يساعده بأنواع العمل.

الآية الثامنة والعشرون من سورة الحج: ﴿وَإِذْ بَوَّأْنَا لِإِبْرَاهِيمَ مَكَانَ الْبَيْتِ...﴾ تدلّ على أن مكان البيت كان بعناية الله وبحسب إبراهيم حتى أراه الله المكان «بَوَّأْنَا»: كان مكاناً قريباً من خطّ الاستواء، ومن أول قطعة تكوّنت من الأرض (تراجع مقدمة كتاب «بسوى خدا ميرويم» كان إبراهيم يبحث عن تلك المنطقة لبناء البيت بحيث تكون طاهرة عن جميع الأرجاس، وبعيدة عن متناول المدنيّات المصطنعة والأفكار والمعلومات ذات الغرور وهيجان الشهوات والآمال الكاذبة. وإنّ يد تدبير الله اجتازت به المدن ومراكز المدنية العريقة مثل بابل والشام ومصر، والصحراوات والوديان الخضرة النظرة، فوجد مكان البيت وسط صحراء الحجاز الرملية بعيداً عن القوانين البشريّة والحكومات الفرديّة والقصور الطبقيّة - التي كلّها قيود وسلاسل على القابليّات، وحجبت على الفطر البشريّة الحرّة - وفي قعر وادٍ تحيطه سلسلة من الجبال الجافة. وجد قطعة من الأرض كانت تشعشع كالجوهرة الساطعة قبل وجود القطع الأخرى وقبل أن يخطو الإنسان على وجه الأرض. وكان هذا الإشعاع قبل قرون من أن تستعبد قوانين الأنظمة البشريّة من قبل

جماعة أو فئة الجماهير لخدمتهم، وفتح طرق الإمتيازات والظلم والإعتداء. المنطقة كانت تشعّ عليها انوار الشمس والقمر والنجوم، وكأنما كان أوّل إشعاع من نور الحياة هناك. في تلك العصور التي كان يهبّ فيها النسيم على البحار، وكان الملائكة يسبحون حول الأرض، وكانت رحمة الله وسعت كل مكان، ولم تكن أيّة حركة من الدوابّ محسوسة، وكانت ارادته هي الآمرة الوحيدة على جميع الموجودات، وفي الحقيقة كانت أوّل نقطة استقرّ فيها عرش الرحمة وأمر الله.

يقول أمير المؤمنين عليه السلام في خطبته القاصعة حول اختيار مكان أوّل بيت لله وأسرار أعمال الحج ومناسكه:

«أَلَا تَرَوْنَ أَنَّ اللَّهَ سَبَّحَانَهُ اخْتَبَرِ الْأَوَّلِينَ مِنْ لَدُنْ آدَمَ صَلَوَاتُ اللَّهِ عَلَيْهِ إِلَى الْآخِرِينَ مِنْ هَذَا الْعَالَمِ بِأَحْجَارٍ لَا تَضُرُّ وَلَا تَنْفَعُ، وَلَا تَبْصُرُ وَلَا تَسْمَعُ. فَجَعَلَهَا بَيْتَهُ الْحَرَامَ الَّذِي جَعَلَهُ لِلنَّاسِ قِيَامًا، ثُمَّ وَضَعَهُ بِأَوْعَرِ بَقَاعِ الْأَرْضِ حَجْرًا، وَأَقْلَّ تَنَائِقِ الْأَرْضِ مَدْرًا، وَأَضْيَقِ بَطُونِ الْأُودِيَةِ قُطْرًا، بَيْنَ جِبَالٍ خَشْنَةٍ، وَرِمَالٍ دَمِثَةٍ، وَعَيُونٍ وَشَلِيٍّ، وَقُرَىٍ مَنْقُطَةٍ. لَا يَزْكُوبُهَا خَفٌّ، وَلَا حَافِرٌ وَلَا ظِلْفٌ. ثُمَّ أَمَرَ آدَمَ وَوَلَدَهُ أَنْ يَتَنَوَّأُوا أَعْطَافَهُمْ نَحْوَهُ، فَصَارَ مَثَابَةً لِمُنْتَجِعِ أَسْفَارِهِمْ، وَغَايَةً لِمُلْقَى رِحَالِهِمْ. تَهْوِي إِلَيْهِ ثِمَارُ الْأَفْنَدَةِ مِنْ مَفَاوِزِ قَفَارٍ سَحِيقَةٍ، وَمَهَاوِي فِجَاجٍ عَمِيقَةٍ، وَجَزَائِرِ بَحَارٍ مَنْقُطَةٍ، حَتَّى يَهْزُوا مِنْهَا كَيْبَهُمْ ذُلًّا يُهْلُونَ لِلَّهِ حَوْلَهُ. وَيَرْمُلُونَ عَلَى أَقْدَامِهِمْ شُعْنًا غُبْرًا لَهُ. قَدْ نَبَذُوا السَّرَابِيلَ وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ، وَشَوَّهُوا بِإِعْفَاءِ الشُّعُورِ مُحَاسِنَ خَلْقِهِمْ، ابْتِلَاءً عَظِيمًا، وَامْتِحَانًا شَدِيدًا، وَاخْتِبَارًا مَبِينًا، وَتَمْحِصًا بَلِيغًا جَعَلَهُ اللَّهُ سَبَبًا لِرَحْمَتِهِ، وَوُصْلَةً إِلَى جَنَّتِهِ. وَلَوْ أَرَادَ سَبَّحَانَهُ أَنْ يَضَعَ بَيْتَهُ الْحَرَامَ، وَمَشَاعِرَهُ الْعِظَامَ بَيْنَ جَنَاتٍ وَأَنْهَارٍ، وَسَهْلٍ وَقَرَارٍ، جَمِّ الْأَشْجَارِ، دَانِي الشَّامِ، مُلْتَفِّ الْبُنَا، مُتَّصِلِ الْقُرَى، بَيْنَ بَرَّةٍ سَمَرَاءَ، وَرَوْضَةٍ خَضْرَاءَ، وَأَرْيَافٍ مُحْدِقَةٍ، وَعِرَاصٍ مُغْدِقَةٍ، وَرِيَاضٍ نَاضِرَةٍ، وَطُرُقٍ عَامِرَةٍ، لَكَانَ قَدْ صَغُرَ قَدْرُ الْجَزَاءِ عَلَى حَسَبِ ضَعْفِ الْبَلَاءِ، وَلَوْ كَانَ الْإِسَاسُ الْمَحْمُولُ عَلَيْهَا، وَالْأَحْجَارُ الْمَرْفُوعُ بِهَا يَتَيْنَ زُمُودَةً خَضْرَاءَ، وَيَاقُوتَةً حَمْرَاءَ، وَنُورٍ وَضِيَاءٍ لَخَفَّفَ ذَلِكَ مُسَارَعَةَ الشُّكِّ فِي الصَّدُورِ، وَلَوْضَعَ مُجَاهِدَةَ إِبْلِيسَ عَنِ الْقُلُوبِ،

وَلَنَفِي مُعْتَلِجَ الرِّيبِ مِنَ النَّاسِ، وَلَكِنَّ اللَّهَ يَخْتَبِرُ عِبَادَهُ بِأَنْوَاعِ الشَّدَائِدِ، وَيَتَعَبَّدُهُمْ بِأَنْوَاعِ الْمَجَاهِدِ، وَيَتْلِيهِمْ بِضُرُوبِ الْمَكَارِهِ إِخْرَاجاً لِلتَّكْبِيرِ مِنْ قُلُوبِهِمْ، وَاسْكَاناً لِلتَّذَلُّلِ فِي نَفْسِهِمْ. وَلِيَجْعَلَ ذَلِكَ أَبْوَاباً فَتْحاً إِلَى فَضْلِهِ، وَأَسْبَاباً ذُلّاً لِعَفْوِهِ».

بداية هذه الخطبة: «أَنَّ اللَّهَ سُبْحَانَهُ اخْتَبَرَ الْإَوَّلِينَ مِنْ لَدُنْ آدَمَ...» تصرَّحَ بِأَنَّ هَذَا الْبَيْتَ كَانَ قَدْ تَأَسَّسَ قَبْلَ بِنَاءِ إِبْرَاهِيمَ، أَوْ أَنَّ مَكَانَهُ كَانَ مَوْضِعَ اهْتِمَامٍ، وَالْآيَةُ: ﴿وَإِذْ بَوَّأْنَا لِإِبْرَاهِيمَ مَكَانَ الْبَيْتِ﴾ ظاهرة في هذا المعنى أيضاً، لِأَنَّهُ إِذَا كَانَ الْمَقْصُودُ تَعْيِينَ مَكَانٍ لِلْبَيْتِ، كَانَ مِنَ الْأَنْسَبِ تَعْيِيرُ «هَذَا الْمَكَانِ، أَوْ: مَكَانَ الْبَيْتِ»، وَهَنَّاكَ رَوَايَاتٌ تُؤَيِّدُ هَذَا الْمَوْضُوعَ أَيْضاً.

﴿رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾: إِنَّ هَذَا الدَّعَاءَ الْمَطْلُوقَ الَّذِي لَمْ يُحَدِّدْ بِالْقَوْلِ وَالنِّيَّةِ يُبَيِّنُ جَيِّدًا حَالِ هَذَيْنِ الْبَانِيَيْنِ وَوَضَعَهُمَا: دَعَاءٌ يَوْضَحُ خُضُوعَهُمَا وَانْقِطَاعَهُمَا، وَكَانَ يَنْبَغُ مِنْ سِرِّ قَلْبِيهِمَا، وَيُظْهِرُ عَلَى لِسَانِيهِمَا، وَكَأَنَّهُمَا كَانَا مَقْهُورَيْنِ أَمَامَ عِظَمَةِ اللَّهِ وَإِرَادَتِهِ إِلَى دَرَجَةِ بَحِيثٍ لَا يَرُونَ عَمَلَ الْبِنَاءِ شَيْئاً مَهْماً، وَلَمْ يَذْكُرَاهُ أَبَداً. إِنَّ قَبُولَ أَيِّ شَيْءٍ يَعُودُ إِلَى أَنَّ الْقَابِلَ يَجْعَلُهُ جُزْءَ وَجُودِهِ، وَيَأْخُذُ بِنَظَرِ الْإِعْتِبَارِ مَقْصُودَ الَّذِي قَدْ مِمَّ. وَالْمَقْصُودُ مِنْ طَلَبِ الْقَبُولِ فِي هَذِهِ الْآيَةِ، رَبَّمَا كَانَ لِيَجْعَلَ اللَّهُ هَذَا الْبِنَاءَ مَشْمُولاً بِرَبُوبِيَّتِهِ «رَبَّنَا»، وَيَمْنَحُ الْأَحْجَارَ وَالطِّينَ الَّتِي ارْتَصَفَتْ عَلَى بَعْضِهَا وَهِيَ مُتَعَرِّضَةٌ لِلْفَنَاءِ، صُورَةَ الْبَقَاءِ، وَيَكُونُ فِي أَشْعَةِ صِفَتِهِ الرُّبُوبِيَّةِ كُثُوبَاتِ الْعَالَمِ، فَيَكُونُ مَصْدَرُ تَرْبِيَةِ النَّاسِ.

إِنَّ هَذَا الطَّلَبَ الَّذِي كَانَ يَنْبَغُ مِنَ الضَّمِيرِ الطَّافِحِ بِالْإِخْلَاصِ إِلَى اللَّهِ وَالرَّحْمَةِ بِالنَّاسِ، قُبِلَ فِي حَضْرَةِ اللَّهِ. لِأَنَّهُ لَمْ تَزَلْزَلْ بِنَاءَهُ عَصِيَّةُ الْجَاهِلِيَّةِ وَمُنَافَسَةُ قَحْطَانٍ وَعَدْنَانَ، وَلَا غَطَّتْ عَلَيْهِ بِحِجَابِ النِّسْيَانِ ظُلُمَاتُ الشَّرْكِ، بَلْ كَانَ دَائِماً ضِيَاءً لِلْهُدَايَةِ وَدَلِيلًا لِلتَّوْحِيدِ فِي ظُلْمَةِ جَاهِلِيَّةِ الْعَرَبِ وَالْعَالَمِ، وَكَانَ نُورًا يَشْعُ فِي كُلِّ زَاوِيَةٍ وَجَانِبٍ مِنَ الْعَالَمِ، وَتَأَسَّسَتْ مَعَابِدُ وَمَسَاجِدُ بِاسْمِ اللَّهِ عَلَى يَدِهِ مُخْلِصَةً.

نعم؛ إِنَّ حِكْمَةَ اللَّهِ قَدْ اسْتَجَابَتْ دَعَاءَ إِبْرَاهِيمَ، وَحَافِظَ عَلَى ذَلِكَ الْبَيْتِ مِنَ الْحَجَرِ

والطين في مقابل عوامل النحت والتعرية، ومنحه البقاء بتلك الصورة، مع العلم بأن موجبات زواله وفنائه داخل الجزيرة وخارجها كان أكثر من أي بناءٍ مرصوص، لأنّ حماته في الداخل كانوا العدنانيّين فقط، وهم أولاد إسماعيل وكانوا عارفين [بشئونه]، وقد منحتهم هذه الحماية الوراثيّة السيادة والأفضليّة، لذا كان على العرب الآخرين المتعصّبين هواة التمييز أن لا يتعرّضوا لأفضلية قبيلة عدنان وسيادتهم، واليهود (أولاد اسحاق) الذين كانوا متنقّذين اقتصاديّاً في مناطق من الجزيرة، كانوا يعتبرون بيت المقدس قبلتهم الوحيدة، وكانوا يخشون من النفوذ المعنويّ واتّجاه الناس نحو الكعبة على قبلتهم ومركزيّتهم (كما أثاروا تلك الضوضاء حول تغيير القبلة، وسيأتي البحث عنها، ولم يذكر أيّ شيء في التوراة حول بناء البيت على يد إبراهيم وإسماعيل). وكان خارج الجزيرة كل واحدة من الدولتين العظميين الروم وإيران تحاول أن تسيطر على العرب، وتجلبهم نحوها، كما أنّ الروم جذبوا عرب الشام نحوهم وأدخلوهم في الدين المسيحيّ، وأنّ ملك الحبشة واليمن جهّز جيشاً مزوّد بالفيلة الحربيّة لهدم الكعبة، وقد ذكرت سورة الفيل قصّة اندحارهم وفنائهم. والعرب جعلت سنة هذه الحادثة مبدأ تاريخ، ومع أنّ المشركين كانوا ينصبون العداوة للدعوة الاسلاميّة لم ينكروا هذه الواقعة، وكانت الدولة الايرانية تسعى بكلّ جهدها لإزالة تمركز العرب الذي كان حول هذا البيت. ومع كل هذه العوامل الدينيّة والسياسيّة، فقد ظلت عظمة هذا البيت وقدرته المعنويّة تزداد يوماً بعد يوم، وكان خلال هذه القرون مطافاً، وضواحيه محيطاً للأمن، ومناسكه قائمة.

يقال إنّ عمارة الصنم الكبير الذي كان اسمه «وَدّ» كانت من ألبسة الإحرام. ومثل هذا اللباس كان يشاهد على هياكل آلهة مصر والهند والصين، مثل: «تمثال كونفوشيوس، ولاوتز» ويحدث البعض أنّ لباس الإحرام هذا مثل طواف الصابئة واليونانيّين اقتبس من آداب إبراهيم الخليل. كلّ ما كان، فإنّ المشهود هو أنّ هذا البيت وحرمة واصل مناسكه ظلّت محفوظة، مع العلم بأنّ بيتاً مقدّساً كبيت المقدس هُتِكَ وأُحْرِقَ وهُدِّمَ عدّة مرات!! ﴿رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ...﴾ إنّ هذا الدعاء والطلب إلى الحدّ الذي كان يتعلّق

بإرادة إبراهيم واختياره، قد تحقّق فيه وفي اسماعيل، والأمر يتعلّق بعناية الله الخاصة أكثر ممّا يكون في حدود الاختيار بحيث يكون التوفيق دائماً وتامّاً، ليدير وجهيهما عن الغير ويجعلهما مسلمين لله؛ وأيضاً فإنّ هذا الدعاء ذكرى الهدف الغائي لهذا البناء. وكأنّما هذه النية وهذا الطلب كانا مزيجين مع طين وماء هذه البنية، وتجسّدان روح بانيّتها في هذه الصورة، ليكونا في تكميل البناء ومناسكه وآدابه فردين كاملين شاخصين للاسلام، ومسلمين من كل جانب لارادة الله ومنقّذين لأمره، ومن ذريّتهما ينشأ أناس بنفس الفكرة والتنسيق ومسلمين بكل معنى الكلمة، ليدوروا وحول محور الحق والعدل مثل جميع ظواهر العالم من الذرّات إلى الكُرّات: ﴿وَمِنْ ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةٌ مُّسْلِمَةٌ لَّكَ﴾.

بمجرّد أن استيقظ الشعور والعقل الفطريّ، وأشرق عليه أشعة الصفات، وفتحت عينه، تُصنّع العقيدة أوّل الأمر، وعندما يميل القلب نحو تلك الحقيقة السامية، يتقدّم نحو الإيمان. وعندما استوعبت جاذبة التوحيد والصفات جميع أنحاء النفس الإنسانيّة، واستولت بارادتها على جميع القوى والعواطف والغرائز وحولتها إلى تلك الجهة، فالمرتبة الأولى التسليم. وحينما زالت جميع المقاومات والتحركات المخالفة، يتحقّق الاسلام الكامل. وربّما كان هذا المورد هو طلب إبراهيم واسماعيل لنفسيهما ولبعض المستحقّين من ذريّتهما. ومعنى الاسلام هذا هو آخر مرتبة لكمال التوحيد. كما أنّ الاسلام والتسليم الظاهر في مقابل حكومة الاسلام وشريعته هو أوّل مرحلته.

بطلب إبراهيم بعد طلب الاسلام، من الله رؤية المناسك:

﴿وَأَرَاتْنَا مَنَاسِكَنَا﴾: لا تعليمها الذي يتلقاه الفكر فقط، بل يريد أن يريه كل جزء من العبادات ومواضعها. أو يعلمه بصورة تكون كالرؤية. بناء على هذا كانت جميع المناسك منذ تأسيس البيت وفقاً لأوامر الله، وقد تعبّد بها إبراهيم. تبدأ هذه المناسك من الطواف والسعي، وتتم بالتضحية التي هي رمز الاسلام الكامل. وكل واحد من هذه المناسك من الطواف والسعي والوقوف بعرفات، والمشعر، والرمي، والذّبح هو رمز لمرتبة من مراتب التكامل في التوحيد، ولكنّ جميعها من حيث التعبّد تكميلٌ للإسلام؛ لأنّ معنى العمل

التعبدى هو هذا الذي يؤدّيه المكلف من جهة الإطاعة.

وكلّما يكون التعبد أكثر، تتأصل إطاعة الله في روح المتعبد أكثر، ويستوعب الاسلام كل نفسه، ويتعبير آخر تستسلم قواه ودوافعه النفسية الأخرى إلى الحق. ولهذا فان إنجاز العبادة لو انحرف التوجّه فيها قليلا عن الإطاعة والتعبد الخالص، كالتوجّه إلى كسب نفع، أو دفع ضرر، ولما كانت حقيقة العبادة وروحها لم تتحقّق، فهي باطلة. وربّما كان لهذا السبب جميع أسرار العبادة مجهولة على الجميع، والقليل المعلوم منها يجب أن لا يكون مورد توجّه في النية والتعبد، ليوصل التعبد إلى كمال الاسلام، أي أن الاسلام البسيط الأوّل ينتشر في جميع قوى النفس، وينظّم جميع الأعمال باتّجاه القرب والكمال. وبمثل هذا التعبد والتسليم يكون جميع الفكر والنفس والعمل محكوما لإرادة الله. وبعد ذلك تجتذب رحمة الله ولطفه المسلم إليها، وتنقذه من الجاذبيّات المخالفة، ويتلقّى توبته من عند الله:

﴿وَتُبَّ عَلَيْنَا إِنَّكَ أَنْتَ الْتَوَّابُ الرَّحِيمُ﴾: بناء على هذه الأدعية الثلاثة: «طلب الاسلام، إراءة المناسك، وقبول التوبة» مرتبطة ببعضها، فالسابق مقدمة وقاعدة لللاحق، واللاحق مكمل للسابق، لذا فانها جاءت في آية واحدة وبعد قول واحد: «ربّنا»، وكأنّ مراتب التسليم والتعبد والتوبة الصعوديّة صورة أخرى من طريق العودة نحو الجنة وموطن الانسان الأوّل الذي هبط منه.

﴿رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ﴾: هذا آخر دعاء ابراهيم. والإشارة إلى المقصود النهائي من بناء البيت الظاهر أو جهازه الباطن إلى أن يثار نبى في شعاع ضواحيه ونور مناسكه ومن بين ذريّة أعرضت عن كل شيء واتّجهت إلى الله وأسلمت له، ويقوم ليوصل العقول والنفوس المستعدّة إلى النتيجة بتلاوة الآيات وتعليم الكتاب والحكمة والتزكية. وإنّ طلب إعداد ذريّة مسلمة قبل بعثة الرسول، ربّما كان لإعداد المجال لنفوس تلك الذريّة لبعثة مثل هذا الرسول؛ ليكتمل إسلامهم الفطريّ، ويغرس في أفكارهم بذور الكتاب والحكمة باشعاع الآيات

وتزكية النفوس.

المقصود من الآيات، أو الكلمات والعبارات التي هي علامات لله، أو آيات وعلائم للوجود جاء بصورة تعبيرات وكلمات بليغة. وتلاوة الآيات من أجل تفتّح عين عقولهم ونظرهم الباطنية. ولو كان معنى الكتاب الأمور الثابتة الواجبة، فإنّ المقصود هو تعلّم القوانين والأحكام والتمكّن من الاجتهاد فيها. وهذا المعنى أنسب من تعليم الكتابة أو الكتابة. وكل ما يؤدّي من العلوم العامة الى تحكيم الآراء والعقائد وثبات الطباع المقبولة وتنظيم طرق الحياة أو يكون مقدمة لها فهو حكمة. والحكيم هو الذي له آراء واعتقادات ثابتة لا يتناهاها الخلل، ولا تجد الشبهة إليها طريقاً ولا تتزلزل. والقرآن الذي هو ينبوع الحكمة والدليل إليها، بتلاوته والتدبر في آياته يعلم أصول التوحيد والمعاد والفضائل الأخلاقية والآراء التكليفية والعملية، ويوثق جذورها. وفي الحقيقة فإنّ المعلومات والمعارف - بدون نفوذ الآيات وتصرفها - هي مقدار من التصورات والتصديقات التي لا أساس لها، ولا تكون قاعدة للتزكية والتكامل والثبات. وإنّ ما يجعل الفرد صلباً ورشيداً وثابتاً هي تلك الآراء والعقائد المتينة، وتزكية النفوس من الرذائل والاجتماع بالأراذل.

لأنّ تلاوة الآيات وتعليم الكتاب والحكمة وتزكية النفوس هي المقصود النهائي الغائي من هذه البعثة، وكل الأوامر والقوانين والأحكام وبيان الحقوق والحدود من أجل إيجاد محيط تنمو فيه بذور الاستعدادات والقابليات، وتعطى ثمار العلم والحكمة، وتظلّل أوراقها وغصونها على رؤوس الآخرين، وتتطهر النفوس من الأحقاد والعقد والشهوات الدنيئة، وتتكوّن دنياً صافية نورانية.

﴿إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾: إنّ هذا النبي الكريم باتكاله على عزّة الله القهار وصلته بحكمته التي لم تنزل قام وأوجد أمةً مستندة إلى هاتين الصفتين (العزیز الحكيم)، واستمدّت من قدرتها الباطنية المعزّة الحكيمّة قوّةً وتفتّحت، كما أنّها مع عدم حصولها على آية آلات مادية ومحيط مساعد قد وجدت طريق الإصلاح والإصلاح ودلّت عليه الآخرين. وتلاوة الآيات ربطت النفوس بهاتين الصفتين وأوصلتها بهما. وبهذا الاتصال



﴿مَا كَسَبْتُمْ وَلَا تُسْأَلُونَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ (١٣٤)

### معاني المفردات:

يرغب: من رغب: تعلّق قلبه، طلب، أعجب، ورغب عنه: أعرض عنه ولم يقبله.

سفيه: استخف، أذلّ، غصّ نظره حين.

إصطفى: استخلص، طهر، اختار من الصفات التنظيف من الأكدار،

الاستخلاص.

أمة: الناس المتواكبون المتسايرون.

خلّت: مضت، أفرغت مكانها.

﴿وَمَنْ يَرْغَبُ عَنْ مِلَّةِ إِبْرَاهِيمَ إِلَّا مَنْ سَفِهَ نَفْسَهُ﴾: ملّة إبراهيم كانت تلك الطريقة

التي اختارها إبراهيم وسماها وأوصلها إلى درجة الإمامة، من الابتلاء بالكلمات

وإتمامها ونيل درجة الإمامة والتسليم التام لإرادة الله. وظهر سرّ ملّة إبراهيم في بناء

البيت ومناسكه، وثبتت إلى الأبد، وظهرت تلك الملّة في كلمة الإسلام الجامعة، والتي

معناها الحقيقي هو نفس المعنى والحقيقة التي تقصدها هذه الآيات: التسليم بكل معنى

الكلمة: تسليم القوى الباطنية للعقل الإيماني، وتسليم العقل لإرادة الله، التسليم لما

يحدث في سبيل الله، التسليم للأوامر والقوانين الإلهية. وهذا هو الإسلام الذي يرقى

بالقيم الإنسانية ويمنح انساناً مثل إبراهيم شخصية ثابتة مستقيمة مطمئنة. وإذا لم

يستسلم الإنسان للحق، لم يتمكن أن يتمتع بقايلياته وقواه، فيتعرض للميول المختلفة،

ويكون موضع استخدام الآخرين، ويبقى بلا أساس ومادّة: «إِلَّا مَنْ سَفِهَ نَفْسَهُ» وبعد بيان

شخصية إبراهيم الممتازة وطريقته، يتقدّم هذا السؤال والاستفهام الإنكاري التوبيخي

لكل إنسان ذكي يريد أن يحتفظ بقيمته وشخصيته: «وَمَنْ يَرْغَبُ عَنْ مِلَّةِ إِبْرَاهِيمَ؟! لا

يعرض أي إنسان ذي قيمة عن هذه الطريقة والسلوك، إن الذين يعرضون عن طريقة

إبراهيم هم الذين استخفوا بأنفسهم واحقرّوها: «إِلَّا مَنْ سَفِهَ نَفْسَهُ»!! «وَلَقَدْ أَصْطَفَيْنَاهُ

فِي الدُّنْيَا..» بقدر ما يكون الإعراض عن ملّة إبراهيم باعثاً على السّفَهِ ومؤدّياً بالنفس الإنسانية إلى الاضطراب، ووجودها إلى الفناء، يكون الاتّباع لملّة إبراهيم مؤدّياً إلى الأفضليّة والإصطفاء والبقاء والتنوّر. كما استخلصت جواذب الحقّ وعوامله إبراهيم ورفعتَه من بين القوى النفسيّة الدنيئة ودنيا العامّة، وحقّقت شخصيّة المختارة.

فليتأمّل الإنسان في كلمات هذا الكلام وتعابيره ولحنه: «وَلَقَدْ» تشير إلى تحقّق حقيقة الإصطفاء. أنّ نسبة الإصطفاء لجمع المتكلم، ولحن الفَتْحَاتِ المتتالية «وَلَقَدْ» اصْطَفَيْتَاهُ» تفيد سموّ إبراهيم واصطفاءه بإمداد القوى الإلهيّة. وبعد حركات وأصوات «وَلَقَدْ» اصْطَفَيْتَاهُ» ذات الفتحات، تأتي حركة الكسرة وصوتها في «فِي الدُّنْيَا» فتفيد ظرف الدنيا والقوى النفسيّة الدنيئة التي ارتفع إبراهيم عنها واختير. هذه الجملة القصيرة نموذج من تمثيل القرآن الإعجازيّ الذي يجسّد أمام العين وضع إبراهيم النفسيّ وتخلّصه من الجواذب النفسيّة وأفضليّته واصطفاءه، بالحركة والحياة والفعل والانفعالات النفسيّة. وبعد اجتياز هذه المرحلة، يعيد نظرتَه عندئذٍ إلى درجات إبراهيم العالية، في ذلك العالم والمواضع التي لا يدركها أكثر الناس، والكلمة الجامعة لها هي:

﴿وَإِنَّهُ فِي الآخِرَةِ لِمَنِ الصَّالِحِينَ﴾.

ثم يُلَفِّتُ القرآنُ نظرنا إلى مبدأ هذا الإصطفاء ومصدره «اصْطَفَيْتَاهُ» في الدنيا، وتلك الجدارة واللياقة في الآخرة؛ لكيلا ننس هذه الحقيقة:

﴿إِذْ قَالَ لَهُ رَبُّهُ أَسْلِمْ﴾: كان أوّل مصدر هذا الإصطفاء والكمالات هو نداء ربّه الذي سمعه إبراهيم من ضميره، وكان ذلك النداء نداء الربوبيّة الخاص ودعوتها: «رَبُّهُ». هذا النداء الربوبيّ الخاص، فتح عين باطنه واصطفاه حتى جعله يستسلم إلى ربوبيّته العامة: ﴿قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ﴾.

بناءً على هذا فإنّ ملّة إبراهيم واصطفاءه بدأت من التسليم للربوبيّة الخاصّة والعامّة. كالجوهرية التي تستسلم بيد الصانع، فتتخلّص من الأكدار وتكون مصقولة وشفافة. والمادّة البتروليّة عندما تُصَفَّى، يخرج منها النور والحرارة، وكل مادّة من المواد المتبعثرة

التي لا روح بها ولا حركة ولا طلاوة عندما تستسلم للقوى الحيويّة النباتية أو الحيوانية تصفو وترتفع، وتحصل على قابليّة كل درجات الأفضليّة.

﴿وَوَصَّى بِهَا إِبْرَاهِيمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ﴾: إنّ هذا الدّين وطريق الكمال والقيم الانسانيّة التي كان ابراهيم مؤسّسها وتابعها، كان يوصي بها بنيّه، وكذلك الآباء الكرام يوصون بها أبناءهم الأعزّاء أبناء الأنبياء، وكان ابراهيم ويعقوب يحولان إلى أبنائهما باهتمام خاصّ مادّة السعادة الخالدة وخلاصه الدّين، والرسالة، ويذكرّ انهم بتعبير يطفع بالعطف الأبوي: ﴿إِنَّ اللَّهَ أَصْطَفَىٰ لَكُمْ الدِّينَ﴾ من بين الأوهام والأفكار المبعثرة البشريّة التي كانت ممتزجة منذ قرون بفطرة طلب الحق والتدين:

﴿يَا بَنِيَّ إِنَّ اللَّهَ أَصْطَفَىٰ لَكُمْ الدِّينَ﴾: عليكم الوصول إلى درجة الإسلام باتّباع ملّة آبائكم ودينهم، وإنّ لم تصلوا إلى هذه الدرجة كأبائكم بسرعة، فحاولوا في نهاية الحياة أن تضعف علائقكم بالدنيا وجواردها أو تنقطع، وتكونوا كالثمرة والبذرة الناضجة التي تستسلم للطبيعة وعوامل الحياة، وتبدأ حياة جديدة ومتكاثرة، فتستسلموا إلى الله: ﴿فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ﴾: إنّ عطف يعقوب على ابراهيم بفاصلة «بَنِيهِ» (بدلاً من: ووصّى بها ابراهيم ويعقوب)، وبدون ذكر أبي يعقوب «إسحق» يفيد ببلاغة خاصة: أنّ هؤلاء الآباء كلّ واحد منهم كان يوصي بنيّه بصورة مستقلة بمثل هذه الوصيّة. إنّ إضافة إله (إلهك، وإله آبائك) للإشعار بأنّ أوّل داعٍ للتوحيد في دنيا الشرك والأوهام وعبادة الآلهة المصطنعة والمختلفة كان ابراهيم هذا وبنيه.

والآن يُبدي - من أجل التأكيد على هذه الوصيّة وإقامة الحجّة على أهل الكتاب - يعقوب في حال الموت، عندما يفتح عينيه نحو عالم الخلود، ويغض عينيه عن الدنيا: ﴿أَمْ كُنْتُمْ شُهَدَاءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ الْمَوْتُ﴾؟! إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِن بَعْدِي؟: أم للاستفهام الإنكاريّ وللتعظيم والتّمسيل والتّحرير: يُبدي يعقوب في حال الاحتضار يحيط به أبنائوه ينظرون إليه ليسمعوا آخر وصاياه وينفذونها، فيفتح في تلك الحال شفّيته، ويسأل بهدوء وكلمات متقطّعة وقصيرة وبصورة استفسار لا فرض من أبنائه: «مَا تَعْبُدُونَ

مِنْ بَعْدِي؟» ويدرك الأبناء قصد أبيهم، ويتذكرون تعاليم حياته، فيجيبونه بسرعة وكلمات جامعة ليغمض عينيه مُرتاح البال، ويطمئن ببقاء الملة ودين آبائه بين أبنائه:

﴿قَالُوا نَعْبُدُ إِلَهَكَ وَإِلَهَ آبَائِكَ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ إِلَهًا وَاحِدًا وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ﴾: كان هذا دين الأنبياء الماضين وطريقتهم:

﴿تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ﴾: كان الجميع في طريق واتّجاه واحد ونحو مقصد واحد وداع واحد ودعوة واحدة. وقد أدّى هؤلاء واجبهـم الحيوي كما ينبغي وذهبوا، وأوكلوا ميدان الحياة إلى القادمين، [ليروا] ماذا يعمل الآخرون؟ يجب أخذ هذه المواضيع من كلمة: «أُمَّة» و«خَلَتْ».

يجب على هؤلاء الباقين أن يتخذوا طريقة أولئك الماضين، وأن يقبلوا دعوتهم ووصيتهم ويؤدّوها. ولا يتمكن هؤلاء بنسبة البنوة والاسم والعنوان - من أن يسجلوا بحسابهم أعمال أولئك وسيرتهم، ويحسبون أنّ هذه تؤدّي إلى أفضليّتهم وامتيازهم:

﴿لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُمْ مَا كَسَبْتُمْ﴾: إنّ نتيجة سعي أولئك تكون لهم وتتعلّق بهم، وكذلك مكتسباتكم [تعود لكم]. وكما أنّ الماضين لم يكونوا مسؤولين عن أعمالكم، أنتم الأبناء أيضاً لستم مسؤولين عن أعمالهم:

﴿وَلَا تُسْأَلُونَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾.

﴿وَقَالُوا كُونُوا هُودًا أَوْ نَصَارَى تَهْتَدُوا قُلْ بَلْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ (١٣٥) قُولُوا آمَنَّا بِاللّهِ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنْزِلَ إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَمَا أُوتِيَ مُوسَى وَعِيسَى وَمَا أُوتِيَ النَّبِيُّونَ مِنْ رَبِّهِمْ لَا تَفْرُقَ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ (١٣٦) فَإِنْ آمَنُوا بِمِثْلِ مَا آمَنْتُمْ بِهِ فَقَدْ اهْتَدَوْا وَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا هُمْ فِي شِقَاقٍ فَسَيَكْفِيكَهُمُ اللّهُ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ (١٣٧) صِبْغَةَ اللّهِ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللّهِ صِبْغَةً وَنَحْنُ لَهُ عَابِدُونَ (١٣٨) ﴿

## معاني المفردات:

الحنيف: المائل [عن الأديان الباطلة إلى الدين الحق]، المستقيم، المتمسك بالاسلام، تابع دين ابراهيم.

الأسباط: جمع السبط: ولد الولد، قبائل اليهود، لأنهم كانوا جميعاً أولاد يعقوب.  
شقاق: مصدر شَقَّ: الكسر، الانفصام.

صِبْغة: بكسر الصاد وفتحها: نوع من التلوين، المَلَّة والدين لانه يصبغ الانسان بلون عقيدة وأخلاق خاصة.

﴿وَقَالُوا كُونُوا هُودًا أَوْ نَصَارَى تَهْتَدُوا﴾: أضاءت الآيات السابقة جوهره الدين الإلهي في شخصية إبراهيم وإمامته، وفي بناء بيت التوحيد ومناسكه، وبيّنت النتيجة النفسية الضارة للإعراض عن ملة إبراهيم، وصية الآباء للأبناء، وعدم تأثير نسبة الأبناء للآباء. وهؤلاء الذين يعتبرون أنفسهم أتباع إبراهيم، مسخوا ذلك الدين الإلهي الطاهر، صنعوا لهم من العصبية والغرور والمراسيم والتقاليد أسماء وعناوين، ويعرفون طريق الهداية تحت هذه الأسماء والعناوين. لذا في مقابل الدعوة الإسلامية التي هي نفس ملة إبراهيم ودين الأنبياء السابقين، يقولون: يجب أن يكون الشخص يهودياً أو نصرانياً ليهتدي. وكذلك كل فئة تعدّ دينها على حق ودين الآخرين على باطل.

ربما كان السكوت عن ذكر فاعل «قَالُوا» يدل على تفاهة القائلين وقصر نظرهم. ويُستفاد من الأمر: «كُونُوا» الذي يدل على الأعلوية أنّ هذه الدعوات والأمر الغرورة هي من قِبل الرؤساء والقادة المضللين. أيها النبي أعلن هذا الموضوع أنّ الدين الحق هو دين إبراهيم الذي أعرض عن كل باطل وغير الحق، وكان في صراط الله المستقيم، ولم يشرك أبداً:

﴿قُلْ بَلْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾: سُمي إبراهيم حنيفاً لأنه أعرض عن الكفر والشرك، واتّجه نحو التوحيد الفطري، وكان في الطريق المستقيم، لأن

معنى الحنيف، الشخص المائل عن الطريق الممهد العام، إلى طريق الحق المستقيم. وأخذ البعض معنى الحنيف بمعنى الحاج؛ لأن البيت الحرام ومناسكه مظهر دين إبراهيم وحافظه، أو المقصود من الحاج قاصد طريق الله. لما كان بعض العرب قبل الاسلام يرون أنفسهم تابعي ملّة إبراهيم كانوا يقولون لهم الحنفاء ولدينهم «الحنيفيّة».

هذه الآية برهان على صورة الجدل: إمّا ملّة إبراهيم الطاهرة التي لم تتلوّث بالشرك، تكون طريق الحق والهداية. أو ما جعلتموه أنتم - أهل الكتاب - بصورة دين؟ لما كنتم تقبلون بأنّ دين إبراهيم هو طريق الهداية، اذاً فالأسماء التي حدّدت بها الدين ومصطنعة من قبلكم باطلة وظلال.

والآن، وبعد عرض الدين الحق، وإبطال دعاويهم، على المسلمين أن يعلنوا عن إيمانهم التوحيدي بالتفصيل:

﴿قُولُوا آمَنَّا بِاللّهِ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنْزِلَ إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَ...﴾: لما كان الإيمان الخالص بالله والإيمان بما أنزل على خاتم النبيين القاعدة الوحيدة والمعرّف والمقياس للإيمان بالأنبياء الآخرين، فقد ذكر هذا الإعلان في البداية منفصلاً، وربّما لهذا السبب لم يُذكر شيء عن الإيمان برسول الاسلام الكريم؛ ليظهر أنّ شخصيّة الفردية ﷺ فانية في إرادة الله وما أنزل، ولم يكن هو سوى مرآة يتجلّى فيها جميع الأنبياء ودعوتهم. ويفيد تكرار «ما أنزل» ونسبة ذلك إلى إبراهيم واسماعيل واسحق ويعقوب والأسباط وحدة الوحي وأصول دعوتهم، لأنهم كانوا أوّل الدعاة إلى أصول التوحيد والتسليم لإرادة الله. وتغيير تعبير «ما أنزل» إلى «ما أُوتِيَ» يشير إلى الكتب والاحكام والآيات التي أعطيت إلى الأنبياء أصحاب الكتب. بناء على هذا إذا لم يكن الإيمان بالتوحيد الخالص المحكم وبما أنزل على خاتم الأنبياء، فالإيمان بالأنبياء الآخرين وما أنزل عليهم لم تكن له قاعدة صحيحة وبرهان واضح، ولا يتّضح وجه الأنبياء الماضين الواقعي وأصول دعوتهم وكتابهم كما كان. ويحصل من الإيمان الإجمالي والكليّ بما أنزل، الإيمان التفصيلي بأحكام الأنبياء وكتبهم لا سيما مثل موسى وعيسى وعامة الأنبياء.

وقد اختير هؤلاء جميعاً من قِبَلِ اللَّهِ لتربية الناس:

﴿وَمَا أَوْتِيَ النَّبِيُّونَ مِنْ رَبِّهِمْ﴾: عندئذ علينا نحن - المسلمين - أن نعلن بالألف نفكر بالفرق بين أصحاب الرسالة والآيات الحقّة، ونعتبرهم جميعاً من قبل الله، ولم نكن كأتباع الأديان الأخرى صبغوا الدين الإلهي بصبغة العصبية القومية والقبلية، وجعلوا الدين آلة للترقة، والأنبياء بعضهم بوجه البعض الآخر، وتمسكنا بالإسلام العام من الاسلام الخاص:

﴿لَا تُفَرِّقْ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْ رُسُلِهِ وَتَخُنْ لَهُ مُسْلِمُونَ﴾.

﴿فَإِنْ آمَنُوا بِمِثْلِ مَا آمَنْتُمْ بِهِ فَقَدْ اهْتَدَوْا...﴾: هناك إيمان يتمكن من إنهاء الحدود وفتح طريق الهداية، بحيث لا يكون هو محدوداً بالحدود القومية والقبلية وأمثالها. هذا الإيمان هو الذي يجب عليكم أنتم - المسلمين - إعلانه. فإذا كان هؤلاء يؤمنون بمثل ما أنتم به مؤمنون، فهم مهتدون، وإذا اتَّخذوا الدين في إطار الحدود القومية والعصبية والانانية، فهم باسم الدين يبحثون عن طريق الاختلاف والترقة:

﴿وَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا هُمْ فِي شِقَاقٍ...﴾: بناء على هذا فإن كلمة «مثل» لم تكن زائدة كما تصوّرها البعض. مثل: للتمثيل وإظهار الإيمان الحرّ الطاهر من العصبية المتحقق في وجود المسلمين الأبرار أصحاب القلوب النيرة المخاطبين. وأيضاً يفيد تسامح دعوة القرآن وسعتها ولطفها: بمجرد أن يزيلوا الألوان المصطنعة ويؤمنوا مثلكم فقد سلكوا الطريق باتجاه إدراك الحق. فإذا لم تكن كلمة «مثل» لم يُعرض نموذج للتمثيل، ويمكن لأهل الكتاب أن يقولوا: إننا نؤمن بجميع الأنبياء مع أن إيمانهم الظاهر مفرّق في الباطن، ولم يكن مثل إيمان المسلمين الواقعي. إن المسلمين الذين يجب ألا يكون لهم سوى الصبغة الإلهية، وعليهم أن يتبعوا الحق، تربطهم جاذبية الحق والتوحيد بالناس الآخرين من طلاب الحق أكثر فأكثر، والذين حولوا الدين بلون أطباعهم يسلكون طريقة التفرقة شاءوا أم أبوا. وعندما يتجهون نحو الاختلاف والترقة يشّتون قواهم. بناء على هذه القاعدة النفسية الاجتماعية، فإن الله سوف يصون المسلمين من شرّهم وكيدهم:

﴿فَسَيَكْفِيكَهُمُ اللَّهُ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾: لَئِنْ اللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوَرَهُمُ الْخَفِيِّ وَيَعْلَمُ أَفْكَارَهُمُ الْبَاطِنِيَّةَ.

﴿صِبْغَةَ اللَّهِ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ صِبْغَةً وَنَحْنُ لَهُ عَابِدُونَ﴾: «صِبْغَةَ اللَّهِ» بِالْفَتْحَةِ، بَيَانٌ لِمِلَّةِ إِبْرَاهِيمَ، أَوْ مَفْعُولٌ فِعْلٍ مَحذُوفٍ مِثْلُ: نَرِيدُ، أَوْ نَتَّبِعُ. وَبِالضَّمِّ خَبْرٌ لـ «هِيَ» أَوْ «تِلْكَ».

إِنَّ مَصْدَرَ اخْتِلَافٍ وَامْتِيَازِ الْأَشْخَاصِ وَالْقِبَائِلِ وَمِلَلِ الْعَقَائِدِ وَالسَّنَنِ الَّتِي تَظْهَرُ بِصِبْغَةِ الدِّينِ وَنِظَامِ الْحَيَاةِ، هُوَ التَّعَصُّبَاتُ وَغَرِيزَةُ حُبِّ التَّفَوُّقِ، الَّتِي تَزِيدُ فِي تَلْوِينِهَا لِهَذِهِ الْمُمَيِّزَاتِ. إِنَّ هَذِهِ الْأَلْوَانَ الْمُمَيِّزَةَ كَأَلْوَانِ الْأَجْسَامِ الطَّبِيعِيَّةِ الَّتِي تَجَزَّى النُّورُ الْبَسِيطُ حَسَبَ بِنَاءِ كُلِّ جِسْمٍ، وَتَجْعَلُهُ بِلَوْنِهَا الْخَاصِّ الْمُمَيِّزِ. فَالْمِلَلُ وَاتِّبَاعُ الْأَدْيَانِ أَيْضاً يَجِبُ أَنْ يَسْتَسْلِمُوا النُّورَ الْحَقَّ الْمَطْلُوقَ كَالْأَنْبِيَاءِ وَالْأَتْمَةِ. وَإِذَا لَمْ يَسْتَسْلِمُوا، وَهَضَمُوا الدِّينَ فِي نَفْسِيَّاتِهِمُ الشَّخْصِيَّةِ وَالْقَوْمِيَّةِ وَجَزَّؤُوهُ، فَالْصِبْغَةُ الَّتِي يَتَّخِذُونَهَا بِاسْمِ الدِّينِ لَمْ تَكُنْ صِبْغَةً إِلَهِيَّةً. هَذِهِ الْأَلْوَانُ الْمَصْطَنَعَةُ نَاتِجَةٌ عَنْ نَفْسِيَّاتِهِمْ، وَتَجَزَّةٌ نُورِ الدِّينِ الْإِلَهِيِّ الْبَسِيطِ الْجَامِعِ الَّذِي لَيْسَ لَهُ جَمَالٌ وَلَا كَمَالٌ، وَلَا ثَبَاتٌ وَلَا بَقَاءٌ؛ لِأَنَّ مِثْلَ هَذِهِ الْأَلْوَانِ الْفَرْدِيَّةِ وَالْقَوْمِيَّةِ انْعِكَاسٌ مِنَ التَّقَالِيدِ وَأَوْهَامِ الْأَشْخَاصِ وَالْأَقْوَامِ وَهِيَ مَعْرَضَةٌ لِلتَّغْيِيرِ وَالزَّوَالِ. وَهِيَ دَائِمًا تَوْدِي إِلَى الْاِخْتِلَافِ وَالضَّلَالِ. وَالْهُدَايَةُ وَالتَّوْحِيدُ فِي اتِّبَاعِ مِلَّةِ إِبْرَاهِيمَ وَتَسْلِيمِ النَّفْسِ لِلَّهِ، الَّذِي يَكْشِفُ انْعِكَاسَ نُورِ اللَّهِ وَالتَّلْوِينَ الْإِلَهِيِّ: «وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ صِبْغَةً». إِنَّ عِبَادَةَ اللَّهِ وَرَجُوعَ وَجْهَةِ الْبَاطِنِ نَحْوَهُ تَطْهَرُ النَّفْسَ مِنَ الْأَكْدَارِ وَالْعَصْبِيَّاتِ. وَتَجْلُو عَنْ نَفْسِهَا كُلِّ صِبْغَةٍ، وَتَصْقِلُهَا مِنْ أَجْلِ أَنْ تَتَجَلَّى فِيهَا الْإِرَادَةُ الْإِلَهِيَّةُ وَصِفَاتُهَا الْعَالِيَّةُ، كَمَا أَنَّ الْأَجْسَامَ الْجَامِدَةَ بِاسْتِسْلَامِهَا لِلْقُوَى الْحَيَوِيَّةِ تَظْهَرُ بِلَوْنٍ وَجَمَالٍ أَفْضَلَ، وَتَمِيلُ إِلَيْهِمَا: ﴿وَنَحْنُ لَهُ عَابِدُونَ﴾<sup>(١)</sup>.

(١) إِنَّ قِصَّةَ تَلْوِينِ الرُّومِيِّينَ وَالصِّينِيِّينَ الَّتِي نَظَّمَهَا جَلَالُ الدِّينِ الرُّومِي الْمَوْلُودِي تَبَيَّنَ هَذِهِ الْحَقِيقَةُ: قَالَتِ الرُّومُ سَوَى دَفْعِ الصَّدَأِ لَمْ يَبْقُدِ وَالنَّقْشُ وَاللُّونُ خَطَأً أَغْلَقُوا الْبَابَ وَكَانُوا يَصْقِلُونَ كَالسَّمَا صَارُوا صَفَاءً لِعُلْيَا فَهُوَ مِنْ نَجْمٍ وَشَمْسٍ وَقَمَرٍ



﴿قُلْ أَتُحَاجُّونَنَا فِي اللَّهِ وَهُوَ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ وَلَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ وَتَخُنُّ لَهُ مُخْلِصُونَ﴾ (٣٩) أَمْ تَقُولُونَ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطَ كَانُوا هُودًا أَوْ نَصَارَى قُلْ ءَأَنْتُمْ أَعْلَمُ أَمِ اللَّهُ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ كَتَمَ شَهَادَةً عِنْدَهُ مِنَ اللَّهِ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٤٠﴾ تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُمْ مَا كَسَبْتُمْ وَلَا تُسْأَلُونَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٤١﴾ ﴿

### معانى المفردات:

الحاجة: من الحج: القصد، الاختلاف الطويل. الخصومة.

الكتمان: التغطية، غرض النظر عن الحق.

غافل: من الغفلة: التعامي، [السهو]، التفويض، النسيان.

﴿قُلْ أَتُحَاجُّونَنَا فِي اللَّهِ وَهُوَ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ...﴾ الهزمة للاستفهام الإنكاري في مقام التوبيخ: لأنهم جعلوا الصبغة الإلهية ودين الفطرة بصبغة امتيازاتهم القومية وعصبياتهم وأعمالهم وتشريفاتهم، ولا يريدون أن يتركوا هذه الألوان والإمتيازات، ويحاربون الدعوة إلى دين الاسلام والصبغة الإلهية ويخاصمونها. ماذا يقولون؟ بحاججون حول الله؟ واقتصروا بالله عليهم وعلى معابدهم؟ مع العلم بأن ربوبيته بالنسبة للجميع واحدة، والجميع بالنسبة لربوبيته متساوون. لأن صفة ربوبيته في الجميع ظاهرة بصورة متساوية، إذا فالألوهية التي هي صفة جامعة واسم الجامع متساوية للجميع، ولا تخص قوماً وشعباً. بناء على هذا «رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ» إشارة إلى دليل ضمن الدعوى ورد المحاجة.

إذا كانوا يعتبرون الأعمال المضافة إليهم التي صنعوها ديناً وتوجب الإمتياز، فإن نتيجة هذه الأعمال تعود على العامل وترتبط به، وذلك العمل عمل الدين الذي أُلهم من

لقديم اللون يا هذا الرفيق  
وعديم اللون يبدو كالقمر

= مائتا لون تجد منها الطريق  
كالسحاب اللون يبدو للنظر  
ترجمت هذه الايات من الفارسية، الترجمان

وفقاً لمشيئته، ويهديهم إلى صراطٍ مستقيم، وبهذه الهداية وهذا التحول والنسخ وبمثل هذه الأحكام وهذا الإعراض نحو الكعبة هو الذي ينقذكم - أنتم أمة الاسلام - من الانحراف، ويرفع مستوى عقولكم، لتكونوا من ذلك المحيط المرتفع شهداء على الآخرين، فيكون هذا المسير الوسط وهذه الأفضلية سيرتكم وطبعكم دائماً:

﴿لَتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ﴾: ويكون الرسول وسيرته أيضاً شاهداً عليكم وميزاناً لكم: ﴿وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيداً﴾.

إنّ تغيير القبلة في الحقيقة نحو الكعبة، هو إعادة الاتجاه نحو ملّة ابراهيم التي هي مبدأ الدين وروح الإسلام ليتجلّى منظر ملّة ابراهيم وطريقته أمام عين المسلمين في الليل والنهار دائماً، وليتخلّصوا من جمود اليهود والمسيحيين والعرب وانحرافاتهم الذين يعتبر الجميع أنفسهم منتسبين إليه. وإنّ شمول النظرة هذه لمّا تكوّنت لدى المسلمين: «لَتَكُونُوا» سوف يكونون شهداء على أتباع الأديان الأخرى. والسرّ الآخر من أسرار القبلة هو أن يثبت ويظهر طبع الطاعة والاتباع من الرسول الطليعي في المسلمين.

﴿وَمَا جَعَلْنَا الْقِبْلَةَ الَّتِي كُنْتَ عَلَيْهَا إِلَّا لِنَعْلَمَ مَنْ يَتَّبِعُ الرَّسُولَ...﴾ وهؤلاء الجماعة من المسلمين ينفصلون ويتميّزون عن أولئك الذين ينقلبون على الأعقاب (الرجعيين):

﴿مِمَّنْ يَنْقَلِبُ عَلَى عَقَبَيْهِ﴾ من أجل ألاّ تفسد نواة الإيمان ونطقته في قلوبهم، وتنعقد بصورة متينة وتنمو:

﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَانَكُمْ﴾: وفي النهاية تكون جميع هذه القوانين والأحكام والتغييرات من المبدأ الرؤوف الرحيم: ﴿إِنَّ اللَّهَ بِالنَّاسِ لَرءُوفٌ رَحِيمٌ﴾.

إلهي نقسم عليك بأسمائك وصفاتك نور قلوبنا بنور هداية القرآن، واشملنا برحمتك ورأفتك.

تُنهي الجزء الأول من هذا الكتاب «اشراق من القرآن الكريم» بهاتين الآيتين اللتين هما مقدمة تغيير القبلة. ويبدأ الجزء الثاني من حكم تغيير القبلة. أعذر من الإخوة الذين كانوا ينتظرون إتمام طبع هذا الكتاب، وكانوا قلقين من تأخيرهِ. لأن الجميع يعرفون العقبات المختلفة، ووضع المحيط، وصعوبات طبع الكتاب، لا سيما تفسير القرآن، أكثر من العقبات والصعوبات العادية، وقد حدثت عقبات أخرى وحوادث منذ الشروع بطبع الكتاب بصورة مستمرة، وحدثت تكاليف ومسؤوليات أخرى.

بسم الله الرحمن الرحيم، والحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على سيدنا محمد وآله الطاهرين، والطيبين من أصحابه أجمعين. وبعد؛ لقد تمت ترجمة الجزء الأول من كتاب «اشراق من القرآن الكريم» ضحى يوم الخميس، الرابع والعشرين من شهر ذي القعدة الحرام لسبعة وأربعمائة وألف سنة مضت على الهجرة النبوية الشريفة، سائلاً المولى القدير أن يمن على المؤلف وعلينا وعلى جميع المؤمنين برحمته ومغفرته ورضوانه.

عباس الترجمان

## الفهرس الاجمالى

مقدمة الناشر.....	٥
مقدمة المترجم: «هذا التفسير ومفسره».....	٧
سبب الترجمة.....	١٠
تأييد قائد الثورة الاسلاميّة في إيران الإمام الخميني وتوصيته لابنه بمطالعة هذا التفسير.....	١١
وأما المفسر.....	١٢
القرآن؟!.....	١٩
مقدمة المؤلف.....	١٩
نظرة في نزول الآيات، وجمع القرآن وتدوينه وتفسيره.....	٢٤
كيف يمكن أن نكون في طريق هداية القرآن؟.....	٣٥
اسلوب هذا الكتاب لفهم القرآن من حيث الهداية.....	٣٨
نظرة في بعض الاحاديث حول التمسك بالقرآن.....	٤١
سورة الحمد.....	٤٣

- ٤٤ ..... الأثر الفكري والاخلاقي للبسملة وتكرارها
- ٤٧ ..... أي أثر لتكرار الحمد وصفة الرحمة؟
- ٥١ ..... إشراق هذه الآية (الحمد) وتأثيرها
- ٦٠ ..... من ناحية الروايات
- ٦٧ ..... سورة البقرة
- ٦٧ ..... نظرة في حروف أوائل السور
- ٧٣ ..... شرح الكلمات والروابط الأدبية
- ٧٤ ..... ميزة القرآن
- ٨٦ ..... نظرة إلى مفردات الآيتين
- ١٠٨ ..... نظم الآيات
- ٦٧ ..... الآية (١ - ٦)
- ٤٣ ..... الآية (١ - ٧)
- ٨٦ ..... الآية (٧، ٨)
- ٩٢ ..... الآية (٩ - ١٣)
- ٩٩ ..... الآية (١٤ - ١٧)
- ٣٥٨ ..... الآية (١٨ - ٢١)
- ١٠٧ ..... الآية (٢٢، ٢٣)
- ١١٢ ..... الآية (٢٤، ٢٥)
- ١١٦ ..... هاتان الآيتان (٢٤، ٢٥ - البقرة) نموذجان من سر إعجاز القرآن
- ١٢٠ ..... الآية ٢٦
- ١٢٥ ..... الآية (٢٧، ٢٨)
- ١٢٩ ..... الآية (٢٩، ٣٠)

١٣٦	.....	الآية (٣١ - ٣٣)
١٤٥	.....	الآية (٣٤ ، ٣٥)
١٥٠	.....	الآية (٣٦ ، ٣٧)
١٥٧	.....	الآية (٣٨ - ٤٠)
١٦٤	.....	الآية (٤١ - ٤٤)
١٦٩	.....	الآية (٤٥ - ٤٧)
١٧٤	.....	الآية (٤٨ ، ٤٩)
١٧٨	.....	الآية (٥٠ - ٥٣)
١٨٤	.....	الآية (٥٤ ، ٥٧)
١٩٠	.....	الآية (٥٨ - ٦٠)
١٩٦	.....	الآية (٦١ ، ٦٢)
٢٠٥	.....	الآية (٦٣ - ٦٧)
٢١٧	.....	الآية (٦٨ - ٧٢)
٢٢٣	.....	الآية (٧٣ - ٧٦)
٢٣٣	.....	الآية (٧٧ - ٨٣)
٢٤١	.....	الآية (٨٤ - ٨٧)
٢٥٠	.....	الآية (٨٨ - ٩٣)
٢٦١	.....	الآية (٩٤ - ١٠١)
٢٦٨	.....	الآية (١٠٢ - ١٠٤)
٢٨٤	.....	الآية (١٠٥ - ١١٠)
٢٩٨	.....	الآية (١١١ - ١١٥)
٣٠٧	.....	الآية (١١٦ - ١٢١)

- ٣٣٠ ..... الآية (١٢٦ - ١٢٩)
- ٣٤١ ..... الآية (١٣٠ - ١٣٤)
- ٣٤٥ ..... الآية (١٣٥ - ١٣٨)
- ٣٥٠ ..... الآية (١٣٩ - ١٤١)
- ٣٥٢ ..... الآية (١٤٢ - ١٤٣)

\_\_\_\_\_



\_\_\_\_\_

1

2

3

4

5

6

7

8

9

10

11

12

13

14

15

16

17

18

19

20

21

22

23

24

25

26

27

28

29

30

31

32

33

34

35

36

37

38

39

40

41

42

43

44